تفسير الحاكمي

المسمى

تخليص الدرر

تأليف

عبد الحميد بن عبد المجيد الحاكمي

(ت: بعد ٥١٤هـ) رحمه الله

تحقيق

أ. د. أحمد بن فارس السلوم

عفا الله عنه

دار ابن حزم

تفسير الحاكمي

المسمى

تحليص الدرر

(٢)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

9 789959 859426

ISBN: 978-9959-859-42-6

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

تفسير الحاكمي

المسمى

تخليص الدرر

تأليف

عبد الحميد بن عبد المجيد الحاكمي

(ت: بعد ٥١٤هـ) رحمه الله

تحقيق

أ. د. أحمد بن فارس السلوم

عفا الله عنه

المجلد الثاني

(سورة الأعراف - سورة طه)

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

مكية غير قوله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ نزلت بالمدينة، ذكر في التهذيب والمهذب[١]، وذكر في الموضح: هذه الآية إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾[٢].

مائتا آية وست[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ أنا الله أعلم وأبصر[٤].

وقيل: قَسَم أقسَمَ الله بآلائه ولطفه ومجده وصِدقه[٥] أن هذا الكتاب ﴿[كِتَٰبٌ] أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لتنذر به أهل مكة، وعظة للمؤمنين ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ

---

(١) ذكره كذلك في الكشف والبيان ١٢/ ٢٩١، البيان في عد آي القرآن ١٥٥، زاد المسير ٢/ ١٠٠.

(٢) وهذا قول مقاتل، كما في زاد المسير ٢/ ١٠٠، الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١٦٠.

(٣) هذا علىٰ العد المدني والمكي والكوفي، وهي ٢٠٥ في البصري والشامي (البيان ١٥٥).

(٤) روي عن ابن عباس وابن جبير (تفسير الطبري ١٢/ ٢٩١، تفسير أبي الليث ١/ ٥٠٢).

(٥) روي عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، (تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٢، الكشف والبيان ١٢/ ٢٩٣.

تنبيه:

في بعض المصادر (كتفسير الطبري ١٢/ ٢٩١، والكشف والبيان ١٢/ ٢٩٤، والبسيط ٩/ ٧، النكت والعيون ٢/ ١٩٨، زاد المسير ٢/ ١٠٠) عن ابن عباس: أنا الله أفضل. بالضاد المعجمة، وهذا تصحيف، صوابه بالصاد، أي: أنا الله أفصل.

وذلك جلي وضح، فإن قول ابن عباس مشتق من بعض حروف الهجاء، ولا ضاد في هذه الحروف، ولذا فقد زاده السمرقندي وضوحا في (تفسيره ١/ ٥٠٢)، فقال: عن ابن عباس: أنا

حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيق مما تؤمر به من الإبلاغ، وهو مقدَّم ومؤخر، وسبب ذلك أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كان يخاف الكفار في تبليغ الرسالة حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

[﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ اعملوا به ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي شركاء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ أي: ما أقل ما تتعظون، وقيل: لا تتعظون البتة.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: قومها من الأمم الماضية ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ نائمون نصف النهار غير متوقعين بذلك.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: قولهم وصراخهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ علىٰ أنفسنا بالشرك والمعاصي.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني الأمم، سؤال توبيخ وتقريع للكفار، وسؤال تنبيه للمؤمنين، وسؤال الرسل بالجحود من الأمم، وقلنا لهم: هل بلغكم رسلي رسالتي؟ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ هل بلَّغتم رسالتي إليهم.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: لنخبرنَّ كل واحد منهم بما عملوا، أو لنحاسبنَّهم بعلم منَّا ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ حين كذبت الأمم رسلهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وزن الأعمال كائن [بـ] عدل[1] ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ رجحت حسناته في الميزان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ السعداء.

الله أعلم وأفصل، معناه: أعلم بأمور الخلق، وأفصل الأحكام والمقادير.. وعلىٰ الصواب ورد في تفسير الطبري تحقيق التركي ١٠/ ٥٢، وتفسير السمعاني ٢/ ١٦٣.

(١) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٥٧.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وهم المشركون ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ بذهاب رأس مالهم، وهو هلاك النفس ونفس رأس المال ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ أي: يجحدون.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكّناكم وعمّرناكم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي تأكلون وتشربون ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ أي: قليل شكركم بنعم ربكم إذ جحدتم وحدانيته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قدرنا خلق أبيكم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي صورنا آدم بين مكة والطائف.

الخلق: إيجاده، والتصوير تغييره من حال إلىٰ حال[1].

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ﴾ «ثم» هاهنا علىٰ سبيل الإخبار لا علىٰ الترادف[2] ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ وإبليس في ذلك اليوم لم يكن إبليس، ولكن بترك السجود صار إبليس، أي: خضعت الملائكة كلهم إلا الذي صار إبليس.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بالسجود لآدم، استفهام توبيخ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ معني عن ذلك إني خير منه ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ وهي النور ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ وهو الظلمة، فلعنه الله حين جهّل ربه في التفضيل.

---

(١) أي: شق سمعه وبصره وأصابعه، وتقلبه من طور إلىٰ طور (انظر: الكشف والبيان ١٢/ ٣٠٥).

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٠٥، الكشف والبيان ١٢/ ٣٠٥.

﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ من الأرض إلىٰ جزائر البحور[١] ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ يا خبيث ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: تتعظم في الأرض علىٰ آدم ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ من الأرض ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ يعني الأذلاء.

﴿قَالَ﴾ الخبيث حينئذ ﴿أَنظِرۡنِيٓ [إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤]﴾ أجلني ولا تُمِتْنِي إلىٰ يوم تحشر الخلائق من قبورهم، أراد اللعين ألا يذوق الموت، فأجابه الله وقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ إلىٰ يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولىٰ نفخة الصعق.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ أي: كما أغويتني، دعوتني إلىٰ شيء غويت بسببه، وهو سجود آدم، وقيل: فبما أغويتني قسم أقسم -لعنه الله- بصفة الله[٢].

﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦﴾ أي: لأرصدن طريق بني آدم فأصدهم عن دينك الإسلام، وطريقك المستقيم.

﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من قِبل الآخرة، وأخبرهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من قِبل الدنيا، وآمرهم بجمع المال ومنعه عن حقه ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من قِبل دينهم، الهدىٰ فأزيِّن لهم الضلالة والغواية ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ من قِبل الشهوات، أزيِّنها لهم ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ مؤمنين موحدين، ولم يعلم حقيقة ذلك، ولكنه ظنَّ فكان كما ظنَّ، قال الله تعالىٰ ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾.

---

(١) وهذا تفسير الكلبي، كما في تفسير أبي الليث ١/ ٥٠٥، وأهل التفسير علىٰ أن الضمير في منها عائد إلىٰ الجنة، أي اهبط من الجنة وهذا الذي لم يذكر الطبري سواه (تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٩، البسيط ٩/ ٤٦).

وقيل: من السماء إلىٰ الأرض، ذكره الثعلبي في الكشف والبيان ١٢/ ٣١٠، وهو محتمل كذلك، لأن فيه معنىٰ الهبوط، أما علىٰ قول الكلبي فلا يتحقق فيه الهبوط.

(٢) البسيط ٩/ ٤٩.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ من صورة الملائكة[١] ﴿مَذۡءُومٗا﴾ معيبًا مطرودًا، والذمُّ العيب والطرد ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾ مبعدًا عن كل خير ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ لام القسم ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ أي لأُدخلن، جواب القسم ﴿جَهَنَّمَ [مِنكُمۡ]﴾ منك وممن اتبعك منهم ﴿أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ أي من بني آدم.

وقال لآدم ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة.

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي زيَّن. سُمِّي شيطانًا لبُعده من رحمة الله.

وفي موضع: «وسوس إليه»، والفرق بين الوسوسة له والوسوسة إليه أنَّ ما كان «له» فيه إيهام النصيحة، والوسوسة «إليه» إلقاء المعنىٰ في قلبه يغترُّ به[٢].

ووصول الوسوسة إليهما وهما في الجنة وإبليس في الأرض مختلفٌ فيه.

قال الحسن: أوصل الوسوسة إليهما وهما في الجنة وهو في الأرض بالقوة التي خلقها الله تعالىٰ له في الوسوسة[٣].

وأكثر العلماء علىٰ أنه دخل بين لحيي الحية، وأقام في رأسها، أتىٰ باب الجنة ونادىٰ يا آدم ويا حواء، فأجاباه، فقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾ تحييان حياته.

---

(١) هذا القول غريب، فقد فسر الكلبي هذه الآية بأنه الخروج من الجنة (البسيط ٩/ ٥٧)، والمصنف يعتمد عليه، ولكنه تركه في هذا الموضع لأنه يخالف ما ذهب إليه آنفا في معنىٰ الهبوط. والمفسرون علىٰ أن المراد هنا: اخرج من الجنة (تفسير الطبري ١٢/ ٣٤٢، تفسير أبي الليث ١/ ٥٠٦).

(٢) وقال الزمخشري: معنىٰ وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه: ألقاها إليه ليبدي جعل ذلك غرضا (الكشاف ٢/ ٩٤)، وانظر: التفسير الكبير للرازي ١٤/ ٢١٨.

(٣) التفسير الكبير للرازي ١٤/ ٢١٧.

قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: يظهر ما ستر من عورتهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ تعيشان أبدًا ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ مع الخالدين، مِن حُرم أهل الجنة الذين خلقوا فيها.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ حلف لهما أنها شجرة الخُلد، وهو لهما من الناصحين ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي: قرَّبهما من الشجرة علىٰ غرور ومكر منه.

والغرور: هو القول الذي يكون ظاهره نصيحة وباطنه خيانة.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي أكلا من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ظهرت عوراتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ عمدا وقصدا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: يلزقان علىٰ عوراتهما من ورق التين استحياءً[1] ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ أي: دعاهما يا آدم ويا حواء ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: عن الأكل منها ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ ظاهر عداوته.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: تجاوز عنَّا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ تعطف علينا، ناب الواو عن تكرار لم ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ أي: نصيرنَّ ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ انزلوا من الجنة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ويقال: طاووس كان معهم ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موقع قرار ومعاش ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي: منفعة ﴿إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤﴾ منتهىٰ آجالكم.

ويحتمل أنهما سألا العود إلىٰ الجنة قبل الموت حتىٰ أجيبا: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ أي: تُبعثُون بعد الموت والدفن فيها.

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٠٨.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ أي: خلقنا لكم لباسًا ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ يستر عوراتكم، وقيل: أراد به إنزال المطر، لأن ما اتخذ منه الثياب كلها لا يستغني عن المطر(١) ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي: ما فيه جمال وزينة، والرياش المال ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: ما يلبس به العورة هو لباس التقوىٰ، أي: المتقين، وقيل لباس التقوىٰ هو التوحيد والعفة والحياء ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ من كل لباس ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي تدل علىٰ وحدانيته، وتدعو علىٰ تفريده ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ أي: يتعظون ويعتبرون.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ لا يضلنكم عن طاعة الله عز وجل ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ احتال في أمر أبويكم حتىٰ أخرجهما من الجنة ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي: لا ينزع عنكم النعم التي وعدتكم كما نزع عن أبويكم لباسكما ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الشيطان ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده من الشياطين ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ لأنه يجري منكم مجرىٰ الدم، وصدوركم مسكن لهم، وأعينكم حجاب لهم ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ [أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧]﴾ قرناء الكافرين وسوينا بينهم في البُعد عن الله تعالىٰ.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ من تحريم البحيرة وغيرها من المنهيات من الأنعام والحرث(٢) ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ أي: بتحريمها ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٠٩.

(٢) وقيل: المقصود بالفاحشة، الطواف بالبيت عراة، وما أحسن هذا القول ومناسبته لقصة آدم وحواء، وفي صحيح مسلم (١٢١٩) عن عروة قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة، إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون عراة، إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا، فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس كلهم يبلغون عرفات.

يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والمعاصي ﴿أَتَقُولُونَ﴾ بل تقولون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أنه حرام عليكم.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالحق، ودعوة الحق، وهو: أن يستوي الإناث والذكور في منافع الأنعام ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ معناه: أمرني أن أقسطوا وأقيموا وجوهكم، أي استقبلوا بوجوهكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل صلاة إلىٰ جانب الكعبة ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بالتوحيد، ولا تشركوا به شيئًا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: كما بدأكم في اللوح المحفوظ تعودون إليه أشقياء أم سعداء، قيل: كما خلقكم أولاً من التراب تعودون ترابًا، وقيل: كما بدأكم يوم الميثاق تعودون بعد الممات[١].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ أرشدهم لدينه ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ فأضلهم وعاقبهم ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أطاعوهم في عبادة الأصنام ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلىٰ الحق.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ البسوا ثيابكم، ما يواري عوراتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: صلاة ﴿وَكُلُوا﴾ من اللحم والدسم، وقيل: كلوا من لحم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ألبانها[٢].

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم هذه الأشياء ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[٣].

---

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٣٨٢، وهي أقوال مؤتلفة غير مختلفة، لإمكان الجمع بينها كلها.

(٢) الكشف والبيان ١٢/ ٣٣٩.

(٣) في صحيح مسلم (٣٠٢٨): عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوافا؟ تجعله علىٰ فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: من منع عن لبس الثياب التي أخرجها الله لعباده من الأرض ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ الحلالات اللذيذات منه ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مشتركة بين الكفار ﴿خَالِصَةً﴾ للمؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشركهم الكفار ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: نبيِّن لهم ما أحللنا.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يعني الزنا في الظاهر، والمخالَّة في السر[1]، وكانوا يستحسنونه سرًا ويستقبحونه في العلانية، ثم قال ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ قيل: هو الخمر والمعاصي أيضًا.

وقيل: الذنوب دون الحد.

﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الاستطالة والظلم على الناس ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ يعني الإشراك بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ كتابًا ولا حجة ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ من تحريم الحرث والأنعام.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة لانقضاء أعمارهم، وقيل: لكل أهل دين أجل وقت هلاكهم ومده لاستئصالهم[2] ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: انقضت أعمارهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عند نزول العذاب طرفة عين ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قبل وقته طرفة عين.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ مهما يأتينكم ومتى ما[3] يأتينكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾

فنزلت هذه الآية ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

(١) في الأصل: المخالفة في السر، وقد تكرر منه هذا التصحيف، وهذا التفسير مشهور بين المفسرين، انظر: الكشف والبيان ١٢/ ٣٤٢، زاد المسير ٢/ ١١٥.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٤٠٥، الكشف والبيان ١٢/ ٣٤٣.

(٣) كتبها في الأصل متصلة، وانظر: تفسير أبي الليث ١/ ٥١٣، تفسير السمعاني ٢/ ١٧٩.

آدميون[1] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ بالأمر والنهي ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشرك وتاب منه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أي: آمن بالرسول وأصلح العمل بينه وبين ربه ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ أي: تعظموا وتكبروا عن الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أيُّ شيء أشنع من الكذب على الله ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بكتبه ورسله، والأعاجيب التي في أرضه وسمائه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ ما كتب لهم في اللوح المحفوظ من العذاب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ مَلَك الموت وأعوانه ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يقبضون أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: اشتغلوا بأنفسهم عنَّا، وذهبوا عنَّا، وبطلت عبادتنا إياهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أقروا عند الممات وفي القيامة ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي: مع أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي: مضت على منهاجكم قبلكم ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ أخت الشيء: جنسه الموافق له في المعنىٰ.

لعنت أختها: أهل ملتها التي تقدمتها، يلعن المشركون المشركين واليهودُ اليهودَ والنصارىٰ النصارىٰ[2].

والمصنف علىٰ مذهب سيبويه في تفسير: أمَّا، فإنه يفسرها بـ «مهما يكن من شيء» (الإتقان ٢/ ١٩٧).

(١) في الأصل: أميون، وهو تصحيف لا معنىٰ له، والتصحيح من تفسير الكلبي: تنوير المقباس ١٢٦. وانظر: تفسير أبي الليث ١/ ٥١٣، الهداية ٤/ ٢٣٥١.

(٢) الكشف والبيان ١٢/ ٣٤٦، البسيط ٩/ ١٢٠.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها وتداركوا فيها، أي: النار ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ دخولاً، وقيل: أُخرىٰ الأمم [﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾] لأول الأمم، أو لأولهم دخولاً[(١)].

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ عن دينك وأمرونا بالضلالة ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: ضعفي ما علينا ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي: لكل واحد من القادة والأتباع ضعفٌ، أي: عذاب مضاعف ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ أنتم ما عليهم.

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ﴾ أي: القادة ﴿لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: للسِّفلة ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ بتخفيف العذاب، كفرتم كم كفرنا، فأنتم ونحن سواء، قال الله تعالىٰ ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ من الشرك والتكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: تعظَّموا عن الإيمان ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ﴾ أي: لأعمالهم ﴿أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولا لأرواحهم عند القبض، وعمل المؤمن يصعد إلىٰ الله كل صباح أو[(٢)] مساء، وإذا مات فُتِحَتْ أبواب السماء لروحه[(٣)]

---

(١) الفرق بين القولين: أن الأول المقصود منه اعتبار الأمم كلها، بينما الثاني في الأمة الواحدة، قال مقاتل: يعني أخراهم دولا النار وهم الأتباع، لأولاهم دخولا وهم القادة (تفسير مقاتل ١/ ٧٨٨، الكشف والبيان ١٢/ ٣٤٧، البسيط ٩/ ١٢٠).

(٢) كذا في الأصل، وفي صحيح مسلم (١٧٩) عن أبي موسىٰ، قال: قام فينا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بخمس كلمات، فقال: «إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - وفي رواية أبي بكر: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه».

فهذا يدل علىٰ أن الأعمال ترفع مرتين، صباحا ومساءً.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٤٢١، الكشف والبيان ١٢/ ٣٤٨، البسيط ٩/ ١٢٨.

﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي: في ثقب الإبرة وهذه غاية الإياس ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ أي: نعاقب المشركين.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ أي: فِراش ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ جمع غاشية، وهو الغطاء، أي: يكونون بين أطباق النار؛ فيكون فراشه غاشية لغيره، وغاشيته فراشًا لغيره؛ لقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ الكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من أداء الفرائض واجتناب المحارم ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ أي: مقدار وسعهم، ولا يكلفون فوقه، يأمر بالطاعة بقدر الطاقة[٢]، وقيل: وسعه دون طاقته[٣] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ أي: أخرجنا ما في قلوبهم من حقد بعضهم على بعض؛ حتى طهَّر الله أجوافهم ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: الشكر لله الذي هدانا لهذا المنزل؛ وما أثابنا في الجنة من النعيم، والمِنّة له علينا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ﴾ إلى الإيمان ﴿لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ إلى الإيمان وثوابه ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: بكون هذا اليوم صدقًا

---

(١) الكشف والبيان ١٢/ ٣٤٩، البسيط ٩/ ١٣١، وفيه: قال المفسرون في هذه الآية: هذا إخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب، فلهم منها غطاء ووطاء وفراش ولِحاف.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٨.

(٣) لم أقف عليه. وعرف الزمخشري الوسع فقال: الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح (الكشاف ٢/ ١٠٤)، وقال الرازي: معنى الوسع ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة لا في حال الضيق والشدة والدليل عليه: أن معاذ بن جبل قال في هذه الآية إلا يسرها لا عسرها. وأما أقصى الطاقة يسمى جهدا لا وسعا وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود. (التفسير الكبير ١٤/ ٢٤٢).

فصدقناهم ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ أورثكم الله نصيب الكفار إذ لم يؤمنوا ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ أي: بطاعتكم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ أي: مِن الثواب صدقًا ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ أي: خوفكم من العذاب صدقًا ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ وجدنا، وجواب الاستفهام إذا دخل على النفي يجاب بنعم، ولو كان فيه نفي يجاب ببلىٰ ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ قال ابن عباس: المؤذن جبريل قائم في أعلىٰ غرفة[1]، وقيل: مالك خازن النار.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون الناس عن دين الله ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي: يطلبون في ذلك السبيل ﴿عِوَجٗا﴾ تغيُّرًا وتحريفًا وزيغًا ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥﴾ جاحدون.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار سور أو ستر ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ يعني: علىٰ السور رجال[2].

قال ابن عباس: هم سبعون رجلاً من أمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم ليس معهم امرأة، كان لهم من الحسنات مقدار ما جاوزوا الصراط، ثم طفأ نورهم حيث تسنموا السور، فبقوا في مكانهم، وهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم[3].

---

(١) لم أجد هذا القول، والمفسرون يفسرون: نادىٰ منادٍ، ومنهم من يقول: من الملائكة، ولم يعينوه (الكشف والبيان ١٢/ ٣٥٤، الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٠٩).
بل ذكر الواحدي (في البسيط ٩/ ١٤٦): قال ابن عباس: «وذلك المؤذن من الملائكة وهو صاحب الصور». والظن أن هذا من مرويات الكلبي، وإلا لوجدناه في كتب التفسير المأثور.

(٢) الأعراف جمع عُرف، وكل مرتفع من الأرض يسمىٰ عرفا، ولا خلاف بينهم أنه السور (تفسير الطبري ١٢/ ٤٤٩، الكشف والبيان ١٢/ ٣٥٤).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روي عنه بألفاظ متقاربة.

وقيل: هم الذين استشهدوا في عقوق الوالدين[١].

وقيل: العلماء الذي يشكُّون أمر الرزق[٢].

﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أهل الجنة بإشراق وجوههم، وأهل النار بسواد وجوههم ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ يعني أصحاب الأعراف الجنة ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ۝٤٦﴾ في دخولها.

﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ عُدلت أبصارهم ﴿تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تجاه أهل النار ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ الكافرين.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ بسواد وجوههم وزُرقة أعينهم ﴿قَالُواْ﴾ يا أبا جهل، ويا وليد بن المغيرة، ويا فلان، ويا فلان، قالوا ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ من المال والولد من عذاب الله ولم ينفعكم ذلك ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٨﴾ أي: لم ينفعكم تكبُّركم، ثم عيَّروهم وقالوا:

وهذا أشهر الأقوال وأصحها، مروي عن ابن مسعود وحذيفة وابن عباس، وطائفة من التابعين، انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٢، تفسير أبي الليث ١/ ٥١٧، الكشف والبيان ١٢/ ٣٥٦.

وروىٰ فيه ابن جرير حديثا مرسلا عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: «هم آخر مَنْ يفصل بينهم من العباد، وإذا فرغ ربُّ العالمين من فصله بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلكم الجنة، وأنتم عُتَقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم». إسناده حسن لكنه مرسل.

(١) وهو مروي عن شرحبيل بن سعد، انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٧، الكشف والبيان ١٢/ ٣٥٧، وفيه حديث ضعيف رواه الطبري في التفسير.

(٢) وهو أحد قولين للكلبي، كما في تنوير المقباس ١٢٨.

وروي عن مجاهد لكن بلفظ: قوم صالحون فقهاء علماء (تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٨).

وشذ قولٌ أن أصحاب الأعراف هم ملائكة (رواه ابن جرير في التفسير عن أبي مجلز).

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ أي: الضعفاء الذين في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي: لا يدخلهم الله الجنة، هاهنا وقف تام[١].

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يقول الله لأهل الأعراف: ادخلوا الجنة[٢] ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ من الحساب ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾ مما ينزل بأهل النار من العذاب.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من نعيم الجنة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ أي: منعهما عنهم، ثم نعتهم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ الإسلام ﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ استهزاءً وباطلاً وفرحًا ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ عن طلب الآخرة ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ [كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا]﴾ نتركهم في النار كما تركوا العمل في الدنيا لهذا اليوم ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ أي: بما جحدوا بمحمد والقرآن.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ أي: أنزلنا إلىٰ أهل مكة القرآن ﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: بيَّناه بعلم منَّا ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ أي: هاديًا وراحمًا.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ أي: لا ينتظرون -أهل مكة- في كفرهم إلا عاقبة ما يؤول إليه أمرهم من العقاب ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: عاقبته ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: تركوا الإيمان والطاعة في الدنيا ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ بالبيان من أمر البعث فلم نؤمن بها ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ﴾ إلىٰ

---

(١) لأنه آخر قول أصحاب الأعراف، وما بعده من قول الله تعالىٰ (المكتفىٰ ٧٧).

(٢) وعلىٰ هذا فقد دل القرآن علىٰ أن أهل الأعراف يدخلون الجنة (تفسير الطبري ١٢/ ٤٦٩، الكشف والبيان ١٢/ ٣٦٢).

وقد قيل: إن الآية كلها من مقول الله عز وجل، وهو مروي عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، وهو اختيار ابن جرير.

الدنيا ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ في الدنيا ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بذهاب الجنة ودخول النار ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ أي: بطل افتراؤهم أنَّ الآلهة تشفع لهم.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ من أيام الآخرة ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: استوىٰ أمره علىٰ العرش، وهو قول الحسن[(١)].

وقيل: استوىٰ في علمه القريب والبعيد، لأنَّ العرش أبعد كل شيء.

وقال أهل اللغة: استوىٰ استولىٰ، وهو استواء قهر وتذليل وتسخير[(٢)].

---

(١) لم أجده عن الحسن فيما وقفت عليه من كتب التفسير.

(٢) وهذا تأويل المعتزلة، ويلزم منه أنه تعالىٰ كان مغالَبا عليه، ثم غلب، ولذا تبرأ أهل السنة من هذا القول، وقال الثعلبي: قال بعضهم استولىٰ وغلب وملك وهذه كلها تأويلات مدخولة لا يخفىٰ فسادها (الكشف والبيان ١٢/ ٣٦٥).

قال السمعاني: أول المعتزلة الاستواء بالاستيلاء.. وأما أهل السنة فيتبرؤون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء علىٰ العرش صفة لله تعالىٰ بلا كيف، والإيمان به واجب (تفسير السمعاني ٢/ ١٨٨).

وقال البغوي: قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة: صعد، وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء علىٰ العرش صفة لله تعالىٰ، بلا كيف، يجب علىٰ الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلىٰ الله عز وجل. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [سورة طه:٥] كيف استوىٰ؟ فأطرق رأسه مليا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج.

وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: أمروها كما جاءت بلا كيف. (معالم التنزيل ٣/ ٢٣٦).

والعجب من إضافة المصنف ذلك إلىٰ أهل اللغة، فقد قال ابن الجوزي عن هذا التفسير: منكر عند اللغويين (زاد المسير ٢/ ١٢٨) ثم نقل عن ابن الأعرابي قال: العرب لا تعرف

وإنما خص العرش به لأنه أعظم كل مخلوق؛ فقهرُه يستدل على سائر المخلوقات. وقيل: استوى أي عمد إلى خلق العرش.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطي النهار بظلمة الليل ويغطي سواد الليل ضوء النهار ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يطلب الليل ضوء النهار سريعًا حتى يغلب بسواده بياضه، وقيل: يستمر على منهاج واحد من غير فتور(١).

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: خلق الشمس والقمر ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ مذلّلات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ نصب على الحال ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: له الخلق والقضاء فيهم وله المشيئة ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ تعالى الله بالوحدانية لم يزل ولا يزال.

تبارك: تفاعل من البركة، ولا يجيء منه المتبارك(٢)، خالق كل ذي روح.

استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم. قالوا: وإنما يقال: استولى فلان على كذا، إذا كان بعيدا عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه والله عز وجل لم يزل مستوليا على الأشياء والبيتان – يعني اللذين يستدلون بهما على هذا المعنى - لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوي؛ ولو صحا، فلا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا، نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة.

(١) وجمع المفسرون بين هذين القولين، فقالوا: معنى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ هو أن يستمر الليل في طلب النهار على منهاج من غير فتور يوجب الاضطراب، كما يكون في السوق الحثيث، وهذا معنى قول ابن عباس: لا غفلة له (البسيط ٩/ ١٧٤).

(٢) قال البغوي (في معالم التنزيل ٣/ ٢٣٦): ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى الله وتعظم، وقيل: ارتفع، والمبارك المرتفع، وقيل: تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة، أي: البركة تكتسب وتنال بذكره، وعن ابن عباس قال: جاء بكل بركة. وقال الحسن: تجيء البركة من قِبله، وقيل: تبارك: تقدس، والقُدس: الطهارة، وقيل: تبارك الله أي: باسمه يتبرك في كل شيء، وقال المحققون: معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة الثبوت، ويقال: تبارك الله ولا يقال: متبارك ولا مُبارك، لأنه لم يرد به التوقيف.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ في حال التضرع، أي: تضرعوا تضرُّعًا واستكانة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ في الدعاء، والاعتداء في الدعاء أن يقول بحق جبريل وبحق فلان وفلان، وقيل: هو أن يلعن مؤمنًا.

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد ما أصلحها الله بإرسال الرسل، وبإرسال محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ أي: خوفًا من عذابه، وطمعًا في ثوابه، وقيل: خوفًا ليس فيه قنوط، وطمعًا ليس فيه أمن(١).

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ الموحدين، القريب: إذا كان بمعنىٰ المكان يستوي فيه المذكر والمؤنث، ويفترقان في القرابة بالنسب(٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ واتصال الآية: يعني من رحمته أنه يرسل الرياح قُدَّام المطر ﴿بُشۡرَۢا﴾(٣) قال الفرَّاء: النَّشر من الرياح الطيبة اللينة التي ينشئ السحاب(٤).

وقرئ: نَشُرًا أي: نَشرًا وهو جمع نشور(٥).

---

(١) الكشف والبيان ١٢/ ٣٧٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٤، الكشف والبيان ١٢/ ٣٨١.

(٣) في الأصل: نُشُرا، بالنون، وعليها جاء التفسير، وهي قراءة المدنيين والبصريين وابن كثير، بضمتين في النون والشين. وقرأ ابن عامر مثلها لكن بسكون الشين: نُشْرا.
وقرأ حمزة والكسائي وخلف: نَشْرا، بالنون المفتوحة وسكون الشين.
وقرأ عاصم: بُشْرًا، كما أثبت، بضمة فسكون (النشر ٢/ ٢٧٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨١.

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٥، البسيط ٩/ ١٨٦.

وقرئ: بُشرًا أي مبشرات[١] ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ يعني المطر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا﴾ أي: حملتْ ورفعت سحابًا ﴿ثِقَالٗا﴾ بالماء ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ إلىٰ بلد قحطٍ لا نبات فيها ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ يعني بالريح، وقيل: بالسحاب، وقيل: بالبلد مطرًا ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ من: ألوانها ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ نحييها ونخرجها من قبورهم لفصل القضاء ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ أي: تتعظون في أمر البعث.

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هذا مَثَل ضربه الله للمؤمنين، يعني الأرض الطيبة التي لا يكون فيها سبخة ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ سهلاً كثيرًا، كذلك المؤمن يعمل الطاعات بلا عناء ومشقة.

﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ وهو مثل الكافر، يعني الأرض السبخة ﴿لَا يَخۡرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ إلا قليلاً بالكد والعناء، والنكد القليل الريع[٢] ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبيِّنها ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ۝٥٨﴾ ربهم فيوحدونه.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بالرسالة واللام للقسم ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحِّدوه وقيل: أطيعوه ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ليس لكم رب سواه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ أعلم إن لم تعبدوه ﴿عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩﴾ وهو الغرق ثم النار إن لم تؤمنوا.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ وهم رؤساؤهم وأشرافهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠﴾ في خطأ بيِّن لمخالفة دين آبائك.

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨١، الكشاف ٢/ ١١١.

(٢) تصحف في الأصل: الكد القليل الربع، وانظر: تفسير الطبري ١٢/ ٤٩٥، تفسير أبي الليث ١/ ٥٢٤، البسيط ٩/ ١٩٤، الكشاف ٢/ ١١٢.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ ولا سفاهة ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بالأمر والنهي ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ بالدعاء إلىٰ التوحيد ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ أنه يعذِّبكم إن لم تؤمنوا.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ ألف استفهام -بمعنىٰ التوبيخ- دخلت علىٰ واو العطف، يعني: أتعجبون، وقيل: أتنكرون ﴿أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وحيٌ ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ تعرفونه آدميٌ مثلكم ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ بالعذاب إنْ لم تؤمنوا ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ لكي تتقوا أي: توحدوا ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أنقذناه من الطوفان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهم ثمانون نفرًا ركبوا معه السفينة ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ ودلائل وحدانيتنا ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ قد عموا عن الإيمان.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ علىٰ معنىٰ: أرسلنا إلىٰ عاد ﴿أَخَاهُمۡ﴾ يعني من قبيلتهم ﴿هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ عبادة غير الله ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي: جهالة وحُمق ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ في الرسالة، قيل: الظن هاهنا يقينٌ معناه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ جهالة ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ علىٰ رسالة ربي.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ [ذِكۡرٞ]﴾ خبر، جاءكم وحي ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ آدمي ﴿لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾ يخوِّفكم ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ بدلاً

---

(١) القولان في البسيط ٩/ ٢٠٤، وفيه: وقال أبو إسحاق فكفروا به ظانين لا مستيقنين، وهو قول الحسن، قال: كان تكذيبهم إياه علىٰ الظن لا علىٰ اليقين.

﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ أي: في الطول والجسم فضيلة، كان أقصرهم ستين ذراعًا(١).

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعمه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٦٩﴾ تفوزون ببقاء الآخرة.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ﴾ أي: نترك ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ تخوِّفنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ﴾ وجب ﴿عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ عذاب وسخط ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ تخاصمونني ﴿فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ في أصنام نحتُّموها بأيديكم، وسميتموها آلهة ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بعبادتها من السماء ﴿مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ كتاب وحجة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لهلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾ لهلاككم ﴿مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ يعني هودًا ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ بنعمة منَّا ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ استأصلناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٧٢﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي أرسلنا إلىٰ ثمود ﴿أَخَاهُمۡ﴾ في النسبة ﴿صَٰلِحٗاۚ﴾ وكان عربيًا، وثمود من العرب ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أي بيان ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ علىٰ صدق نبوتي.

آية: نصب علىٰ الحال(٢).

---

(١) وهذا من مرويات الكلبي ومقاتل، انظر: تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٠، الكشف والبيان ١٢/ ٣٩٢.

(٢) أي: انظروا إلىٰ هذه الناقة آية أي علامة (معاني القرآن الزجاج ٢/ ٣٤٩، التبيان ١/ ٥٨٠).

فخرجت الناقة من هذه الصخرة الملساء وبراء عُشراء، تمخضت الصخرة كما تمخض النساء، فخرجت الناقة منها على الصفة التي طلبتم[١].

وقوله: «هذه» ها للتنبيه، وذه اسم مبتدأ، وناقة الله خبره، ولكم تخصيص، وآية منصوب على الحال عمل فيه المقدر في ها، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[٢].

﴿فَذَرُوهَا﴾ أي خلّوها سبيلها ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ترعى في أرض، يعني الحِجر ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي لا تصيبوها بعقْر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ بعد عَقْرها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ مستخلَفين ﴿مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي بعد هلاكهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أسكنكم أرض حجر ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نعماءه عليكم ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وواحد الآلاء: ألاً[٣]، وقيل الآلاء النعماء في الخِلقة وقيل في الدين[٤].

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: ألا تعلموا بالمعاصي.

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٢٨، البسيط ٩/ ٢٠٩، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٣.

(٢) الدر المصون ٥/ ٣٦٢.

(٣) قال في تاج العروس (٣٧/ ٩٧): واحِدُها(إِلْيٌ) بالكسْرِ، (وأَلْوٌ)، بالفتْح، كدَلْوٍ وأَدْلاءٍ، (وأَلْيٌ)، بالياءِ، (وأَلاً) كرَحا وأرحاءٍ، (وإِلىً) بالكسْرِ، كمِعىً وأَمْعاءٍ، وعلى الأَخيرَةِ تُكْتَب بالياءِ فهُنَّ خَمْسٌ، اقتصَرَ الجَوْهرِيُّ على الأَخيرَتَيْن، وزادَ السَّخاوي وزَكريا فِي شَرْحَيْهما على أَلْفيةِ المصطلح: أُلْيٌ بضمٍ فسكونٍ، وإِلْىً بالكسْرِ من غيرِ تَنْوين.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٩.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ تعظموا عن الإيمان من قومه ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي استقهروا ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ علىٰ وجه السخرية ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بالتوحيد وبرسالة صالح ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قتلوا الناقة يوم الأربعاء، عقرها قدار بن سالف، وكان رجلاً قصيرًا أعور، ومعه مصدع بن دهر[(١)] ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ صيحة جبريل بُكرة يوم الأحد ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: صاروا في محلتهم ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ميتين سقوطًا علىٰ وجوههم وبطونهم جثوم الطير[(٢)]، وقيل: صاروا باركين علىٰ ركبهم، وقيل: خرجت نار من تحت أقدامهم فصاروا كالرماد الجاثم ميتين ساقطين علىٰ الوجوه[(٣)].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: خرج صالح من بين أظهرهم قبل العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾ بنزول العذاب ودعوتكم إلىٰ التوحيد ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ حذرتكم من عذابه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ لم تقبلوا نصيحة الناصح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ يعني: أرسلنا لوطًا حتىٰ قال لقومه ﴿أَتَأْتُونَ

---

(١) وقيل: مصدع بن مهرج (انظر: الكشف والبيان ١٢/ ٤٣، معالم التنزيل ٣/ ٢٤٧).

(٢) الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل (زاد المسير ٢/ ١٣٦).

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٥٢٩، زاد المسير ٢/ ١٣٦.

﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي تستعملون اللواطة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ ممن كان قبلكم.

﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: أدبار الرجال ﴿شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أي: هو أشهىٰ عندكم من فروج النساء ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ مشركون.

والإسراف: الخروج عن حد الحق إلىٰ الفساد[١].

و«بل» تكون نفيًا لما تقدم، وإثباتًا لما بعده، ومعناه هاهنا: أعرضت عن ذكر قبائحكم بل أنتم قوم مسرفون[٢].

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي: قالت القادة للسفلة ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ يعنون لوطًا وابنتيه زعورا وريثا[٣]، من مدينتكم: سَدوم ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ أي: يتنزهون من أدبار الرجال وأدبار النساء، عن ابن عباس[٤].

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ تخلَّفت مع الهالكين.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾ علىٰ مسافريهم ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ من الحجارة ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول من عمل

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٥٤٨.

(٢) قال الواحدي: معنىٰ بَلْ هاهنا إضراب عن الأول إلىٰ جميع المعايب من عبادة الأوثان، وإتيان الذكران، وترك ما قام به البرهان، وعلىٰ هذا المعنىٰ دل كلام ابن عباس حيث قال: يريد جمعتم مع الشرك معصية لم يفعلها خلق قبلكم. (البسيط ٩/ ٢٢٠).

(٣) في الأصل: ربثا، والتصحيح من تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٠، في تفسير الثعلبي ١٢/ ٤٣٧: زعورا ورثا.

(٤) رواه الطبري في التفسير ١٢/ ٥٥٠.

عملهم الخبيث قوم لوط، وذلك أن إبليس تمثَّل لهم في صورة غلام صبيح الوجه، ثم دعاهم إلىٰ دبره، ثم عبثوا بذلك العمل زمانًا، فلما كثر ذلك فيهم عجت الأرض إلىٰ ربها، فسمعت السماء، فعجت السماء إلىٰ ربها، فسمع العرش، فعجَّ العرش إلىٰ ربه، فأمر الله السماء أن تحصبهم، وأمر الأرض أن تخسف بهم[1].

قال مجاهد: لو أن الذي عمل ذلك العمل اغتسل بكل قطرة في السماء وبكل قطرة في الأرض ما زال نجسًا إلىٰ يوم القيامة[2].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ معناه: وأرسلنا إلىٰ مدين، ومدين: اسم ولد من أولاد إبراهيم، نسب البلد إليه فسمي باسمه، وكان أخوهم في النسب ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ علىٰ صدق نبوتي ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إذا كِلتم ووزنتم، والإيفاء: هو الإتمام إلىٰ حد الحق ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ حقوقهم، البخس: النقص ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: لا تعملوا بالشرك والمعاصي بعد ما أمرتكم بالصلاح ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني إيفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البخس والنقصان ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي: علىٰ ممر الطريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ لأهل الإيمان بشُعيبٍ بالقتل، وقيل نهاهم عن قطع الطريق ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تصرفون الناس عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي: بالله ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: بملة الإسلام زيغًا ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي:

---

(١) وهو من رواية الكلبي، كما يظهر ذلك من الكشف والبيان ١٢/ ٤٣٦.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٠.

صرتم قليلاً بعد أن [أهلك] الأمم الخالية وكثركم ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ أي: آخر أمر من كان قبلكم من المشركين.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ وهو التوحيد ﴿وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ بالنجاة لنا والعذاب لكم ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ وشعيب لم يكن مأمورًا بالقتال فواعدهم.

﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ أي: تكبروا ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾ أي: بك ﴿مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ مدين ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨﴾ فتجبروننا على ذلك، وقيل: معناه إنا كارهون لدينكم فلا نجيبكم إلى ذلك.

﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ وأكرمنا بالهُدىٰ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ إلاَّ بمشيئة الله التي قد سبق في الأزل، وذلك غيب عنَّا، وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ أحاط علمه بخلقه، من اهتدىٰ منهم ومن ضل، وإنما حكىٰ شعيب عن مؤمني قومه لأن كون الأنبياء علىٰ غير دين الحق لا يجوز أبدًا[1].

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ وثقنا بأنه ربنا يعصمنا ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا﴾ اقض بيننا ﴿وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ بحكمك العدل في نزول العذاب بهم وأنت أعدل القاضين.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ للضعفاء منهم ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا﴾ وآمنتم به ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾ مغبونون.

---

(١) وفي ذلك أجوبة ذكرها العلماء، انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٥، الكشف والبيان ١٢/ ٤٤٤، البسيط ٩/ ٢٣١، زاد المسير ٢/ ١٣٨.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة، وقيل أصابهم حر شديد ثم رُفِعَتْ لهم سحابة فخرجوا إليها يطلبون الرَّوْحَ تحتها فلما صاروا تحتها نزل العذاب، ورجفت بهم الأرض.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ ميتين محترقين.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأن لم يكونوا في تلك المنازل، وهي المغاني ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟﴾ صاروا ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ المغبونين.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ شُعيب قبل نزول العذاب، ولم تعذب أمة قط ما لم يخرج نبيهم من بينهم، فلما خرج ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وقد أخبرتكم بنزول العذاب ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ دعوتكم إلىٰ التوحيد، وحذرتكم من العذاب ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: أحزن عليهم بعد النصيحة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ فكذبوه ولم يؤمنوا ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ عاقبناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الشدة والقحط ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ البلاء والأمراض ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ لكي يتضرع من أراد أن يتضرع.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: حوَّلنا مكان الشدة والرخاء والخصب ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ كثروا، وكثرت أموالهم، ثم اغتروا بما رأوا من سعة العيش ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: أصابهم الفقر واليُسر، وليس ذلك من دعاء النبي وإنما هو عادة الزمان ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بنزول العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أنزلنا ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أمطارًا مباركة، وأخرجنا من ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ نباتًا مباركًا ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ الرسل ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ منعنا

عنهم القطر من السماء والنبات من الأرض بشركهم.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ مكة وغيرها ﴿أَن يَأْتِيَهُم [بَأْسُنَا]﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ ليلاً وهم غافلون.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ﴾ نهارًا ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يخوضون في الباطل.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: عذاب الله جراء صنيعهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله وعقوبته ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ في العقوبة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الهداية: الدلالة المؤدية إلىٰ البغية[1]، معناه: أو لم نبيِّن فعلنا الذي قصصنا عليك من أنبائهم للذين يرثون الأرض من قومك من بعد أهلها، أي: من بعد هلاك أهلها[2] ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ يعني قومك ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ تم الكلام[3]، ثم قال ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عقوبةً علىٰ ترك الاعتبار يختمها بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الهدىٰ.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ نخبرك بهلاكها ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كما جئت إلىٰ قومك ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قيل: بما كذبوا يوم الميثاق، وقيل: لا تصدق أهل مكة بنزول العذاب الذي كذَّبت أوائلهم من قبلهم[4].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالكفر ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ فلا يصدِّقون.

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٦.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٥٧٨.

(٣) وما بعده استئناف (تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٦)، وقيل: إنه كافٍ، كما في المكتفىٰ (٧٨).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٨، الكشف والبيان ١٢/ ٤٥٦، والأول قول الجمهور، وهو يروىٰ عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾ أي: وفاءً بما أمروا من الحلال والحرام ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ﴾ أي ما وجدنا ﴿أَكۡثَرَهُمۡ [لَفَٰسِقِينَ ١٠٢]﴾ إلا فاسقين.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم﴾ أي: من بعد هلاكهم ﴿مُّوسَىٰ﴾ وقيل: من بعد الرسل ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف قومه ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾ جحدوا بها ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ إليك.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ إي: بأن لا أقول، وإن قرأتَ بتشديد الياء: واجب عليَّ أن لا أقول(١) ﴿عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ الصدق ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ بعلامة لنبوتي ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ أي: ابعث مع قومي أولاد يعقوب حتىٰ أذهب بهم إلىٰ أرض ميراثهم ولا تستعبدهم.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ﴾ أي: بعلامة لنبوتك ﴿فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾.

﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ﴾ أي: طرحها ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧﴾ أي: حية بيِّنة ظاهرة فيها الحركة، ولا لبس فيها، والثعبان: الحية الصفراء الذكر العظيمة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ إليها من غير برص، لها شعاع كشعاع الشمس، ولها نور يتلألأ.

قال الكلبي رحمه الله: الثعبان الذي ظهر من عصا موسىٰ حية عظيمة ملأت دار فرعون، ثم فتحت فاها، فإذا شدقها ثمانون ذراعًا، ثم شدَّت علىٰ

---

(١) قرأ نافع (عليَّ) بتشديد الياء وفتحها علىٰ أنها ياء الإضافة، وقرأ الباقون (علىٰ) علىٰ أنها حرف جر (النشر ٢/ ٢٧٠).

فرعون لتبتلعه فوثب فرعون عن سريره، وهرب الناس، وصاحوا إلىٰ موسىٰ[(١)].

وقيل: إنها فتحت فاها وجعل القبة بين نابيها حتىٰ استغاث فرعون بموسىٰ.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي أشراف قومه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾ حاذق بسحره، هو: لطف الاحتيال بغاية التدقيق.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠﴾ قال فرعون لهم: أيُّ شيء تشيرون فيه؟

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾[(٢)] احبسه، وبالهمزة أخِّر أمره ولا تعجل[(٣)] ﴿وَأَخَاهُ﴾ معه ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١﴾ أي: مصر، وما حوله من الشُرَط.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝١١٢﴾ حاذق.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ جُعلاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾ قاهرين لموسىٰ.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾ قال محمد بن إسحاق: كانت السحرة خمسة عشر ألفًا مع كل واحد حبل وعصا[(٤)].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٨، وتكملته: ونادىٰ فرعون يا موسىٰ خذها عني فأخذها، فإذا هي عصا بيضاء بيده كما كانت، وجعل الناس يضحكون مما يصنع موسىٰ. ونحوه في الكشف والبيان ١٢/ ٤٦١، والكشاف ٢/ ١٣٨ وله تكملة أطول، وكل هذا من قبيل الإسرائيليات.

(٢) في الأصل: أرْجِئهُ، بالهمزة، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر (الوافي شرح الشاطبية ٧١).

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٦٠، وذكر أنهما لغتان بمعنىٰ واحد، وكذا ذكر السمرقندي في تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٨.

(٤) كذا في الأصل، وفي تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٩، عنه: ألف رجل وخمسمائة رجل.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عصاك على الأرض ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾ أولاً.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أخذوا أعين الناس بالسحر ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ وخوّفوهم ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ هائل، فتحيَّر فيه موسى.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ من يدك فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ تلتقم، ولا تأخذ بفيها ﴿مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧﴾ ما يسحرون ويكذبون أنها حيات. التقمت كلَّ عصا وحبال لقمة واحدة.

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ظهر واستنار لهم الصدق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ واضمحل سحرهم.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ قُهروا، وصاروا ذليلين، يعني: فرعون وقومه القبط.

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ قال ابن عباس: سجد موسى وهارون شكرًا لله عز وجل، فما تماكثت السحرة أنْ خروا لله سُجَّدًا.

وإنما قال: ألقي لأنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا على وجوههم بمرة[1].

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١﴾ قال: فرعون إياي تعيون؟.

وهذا من قبيل الإسرائيليات ولذا فقد اختلفوا في عددهم اختلافا كثيرا (تفسير الطبري ١٣/ ٢٦، الكشف والبيان ١٢/ ٤٦٦).

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٠، الكشف والبيان ١٢/ ٤٦٨، وهو من تفسير الكلبي كما في تنوير المقباس ١٣٥.

قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ آمركم به ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي: حيلة احتلتموه ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي مصر ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ بالمكر، ثم أوعدهم وقال ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ١٢٣﴾ ما ينزل بكم من النَّكال.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الميامن ﴿وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ المياسر ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ علىٰ جذوع النخل ﴿أَجْمَعِينَ ١٢٤﴾ قيل: هذا من جهالة الملعون، أنه لم يعلم بأن قطع الأيدي والأرجل من خلاف أيسر علىٰ المقطوع، وكان قصده زيادة الشدة.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾ راجعون بالقتل أو بالموت.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي: لا تنكر منا ولا تعيب علينا إلا بإيماننا بآيات ربنا: اليد والعصا ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ ثم قالوا ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: وفِّقنا للصبر علىٰ القتل والقطع والصلب؛ كيلا نترك الإيمان بك ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾ اقبض أرواحنا علىٰ التوحيد، ففعل بهم فرعون ما أوعدهم، فكانوا أول اليوم السحرة، وآخر اليوم شهداء سعداء.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ بعد قتل السحرة ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ بني إسرائيل ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بتغيير دينك ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ ويترك عبادتك، وعبادة الأصنام التي أمرت بعبادتها، وقلتَ: من عبدها فقد عبدني ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ صغارًا كما قتلناهم أول مرة ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ نستخدمهنَّ كما فعلنا بهم من قبل ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ غالبون.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ استوثقوا بالصبر علىٰ أذىٰ فرعون ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ علىٰ البلاء ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم المؤمنون، يعني أرض مصر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ أي: الجنة للموحدين.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا﴾ أي: عُذِّبنا ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ بالرسالة ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ لعلَّ ربكم ﴿أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾ فرعون ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ [فِي ٱلۡأَرۡضِ]﴾ في أرض مصر تسكنون بها بعد هلاكهم ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ تشكرون أم لا.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجوع سبع سنين ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: بذهاب الثمرات ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ يتعظون.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أي: الخصب والرخاء ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ أي: أُعطينا علىٰ استحقاق ونحن أحق بها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ أي: يتشاءموا بهم ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: شدتهم ورخاؤهم من عند الله، وقيل: الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وُعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم[1] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ أي: تأخذ به أعيننا ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ مصدِّقين.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ﴾ الطوفان: المطر الدائم من السماء من سبت إلىٰ سبت، فغرقهم، وقيل: الطوفان الموت الذريع، مات أبكارهم ودوابهم[2].

والجراد: حتىٰ أكلت النبات والزرع والثمار.

---

(١) وبكلا القولين قال طائفة من العلماء (كما في تفسير الطبري ١٣/ ٥١، الكشف والبيان ١٢/ ٤٧٨).

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٠، الكشف والبيان ١٢/ ٤٦٨، وهو من تفسير الكلبي كما في تنوير المقباس ١٣٥.

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهو صغار الجراد وهو الذباب، وقيل: الحَمْنان والسوس[١].

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ خرج من النيل كالليل المظلم فغشيهم حتىٰ كان الرجل من منامه وعلىٰ فراشه قدر ذراع من الضفادع، داخل فراشه.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ حتىٰ صارت مياههم كلها دماء، أنهارهم وقُلُبُهم وماء بني إسرائيل عَذْبًا.

﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ بين كل آيتين شهر[٢] ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: تعظموا ﴿وَكَانُواْ قَوْمٗا مُّجْرِمِينَ ١٣٣﴾ مقيمين علىٰ كُفرهم.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب من كل لون ذكرناه ﴿قَالُواْ﴾ في كل مرة ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: توسل إليه بذلك العهد الذي بينك وبينه ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ فدعا موسىٰ، فكشف عنهم فعادوا إلىٰ كُفرهم فذلك قوله[٣]:

---

(١) الحمنان: ضرب من القراد، (تفسير الطبري ١٣/ ٥٤، الكشف والبيان ١٢/ ٤٨١).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٨، تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٥.

(٣) روىٰ ابن جرير في التفسير ١٣/ ٥٦ عن ابن عباس وسعيد بن جبير قالا: لما أتىٰ موسىٰ فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأبىٰ عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان -وهو المطر- فصبَّ عليهم منه شيئًا، فخافوا أن يكون عذابًا، فقالوا لموسىٰ: ادع لنا ربّك أن يكشف عنا المطر، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنّىٰ، فأرسل الله عليهم الجراد، فسلَّطه علىٰ الكلأ، فلما رأوا أثَره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقىٰ الزرع. فقالوا: يا موسىٰ ادْع لنا ربك فيكشف عنا الجرادَ فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الجرادَ، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسُوا وأحرزُوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزْنَا، فأرسل الله عليهم القُمَّل -وهو السوس الذي يخرج منه- فكان الرجل يخرج عشرة أجرِبة إلىٰ الرحىٰ، فلا يردّ منها ثلاثة أقفِزة. فقالوا: يا موسىٰ، ادع لنا ربك يكشف عنا القمَّل، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه،

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: لتبقيتهم إلىٰ وقت الغرق الذي يبلغونه ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: ينقضون العهد.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ مرة واحدة، وشفينا صدور المؤمنين ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي البحر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بتكذيبهم بالآيات التسع ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي جاحدين أنها ليست من الله.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني مصر، علوها وسفلها شرقيها وغربيها[1] ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وجبت عِدة ربك ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالنصر علىٰ أعدائهم واستخلافهم، وتمت الموعدة لهم ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ علىٰ دين الله وأذىٰ أعدائهم ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي: صنيع

فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينا هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضِفْدَع، فقال لفرعون: ما تلقىٰ أنت وقومك من هذا، فقال: وما عسىٰ أن يكون كيدُ هذا، فما أمسوا حتىٰ كان الرجل يجلس إلىٰ ذَقْنه في الضفادع، ويهمُّ أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه. فقالوا لموسىٰ: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فكشف عنهم فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم وجدُوه دمًا عَبِطًا، فشكوا إلىٰ فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدّم، وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماءِ إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟ فأتوه فقالوا: يا موسىٰ ادعُ لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

(١) الصحيح أنها الشام، وكان في تفسير الكلبي: الشام ومصر، فلعله سقط علىٰ المؤلف (تفسير الطبري ١٣/ ٧٦، تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٥، الكشف والبيان ١٢/ ٤٩٢، تنوير المقباس ١٣٦).

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ يبنون من القصور والكروم، وقيل: ما هيئوا من المكيدة لبني إسرائيل[١].

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ يعني عبرنا بهم مع موسىٰ البحر، وهذه الآية مؤخر في التلاوة مقدَّمة في البيان، لأن مجاوزة البحر كانت قبل الميراث.

وقوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ نقض علىٰ المعتزلة، وفيه دليل علىٰ أنَّ فعل العباد لا يخلو عن صنع الله لأنه أضاف المجاوزة إلىٰ نفسه.

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ [يَعۡكُفُونَ]﴾ مرُّوا علىٰ قوم يدومون ﴿عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ اتخذوها لأنفسهم، وهم العمالقة ﴿قَالُواْ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ نعبده ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ يعبدونها، وإنما قال ذلك قومٌ كانوا حديث العهد بالإيمان ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ جُهَّالٌ عن أمر الله ومعرفته.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ﴾ مُهْلَك ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ وقيل: إن هؤلاء عبدة الأصنام، والأصنام مكسرة منحوتة من الحجارة والخشب.

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ وضلال.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ﴾ أطلب لكم ربًا ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ في زمانكم.

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ ومن بليتهم ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ يذيقونكم ذلك ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ صغارًا ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ يستخدموهن كبارًا ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ مما ذكرنا ﴿بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾.

---

(١) والمعروف الأول، انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٧٩، الكشف والبيان ١٢/ ٤٩٣.
والثاني ذكره أبو الليث تفسيره ١/ ٥٤٦.

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ من ذي القعدة وعشرًا من ذي الحجة[١]، قوله ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ قيل: أمره بالصوم، فصام ثلاثين ليلة، ثم استاك في الطريق، فأمر بصوم عشر ذي الحجة[٢].

قال مجاهد: وَعَده ثلاثين ليلة...[٣] ثم أنزل عليه التوراة في عشر ذي الحجة وكلما فيها ولذلك فُضِّلَتْ أيام العشر، وقد كلَّمه الله في يوم عاشوراء، وقد:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ عند ذهابه إلىٰ الجبل ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ أي: كُن خليفتي في بني إسرائيل ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ وارفق بهم، وأمرهم بالصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: ميعادنا الذي واعدناه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أكرمه بالكلام من غير تكييف، ولكن أسمعه كما شاء، وذكر في المهذب: أنشأ الله تعالىٰ كلمة وصوتًا أسمعه موسىٰ كيف شاء بما شاء[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٨٦.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٧، الكشف والبيان ١٢/ ٤٩٧.

(٣) هاهنا كلمة، صورتها: لا عطا، لعلها: لإعطاء، ولكن سقطت كلمة بعدها، ولم أجد النقل عن مجاهد هذا.

(٤) هذه العبارة ليست جيدة، فإن الإنشاء يعني الخلق، وهي قريبة من عبارة الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٥٢: «وتكليمه: أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح»، فلا فرق بين الخلق والإنشاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾ [سورة الواقعة:٣٥] قال ابن جرير: إنا خلقناهن خلقا (تفسير الطبري ٢٣/ ١١٨).

والصحيح ما ذكره المصنف أولا، من أن الله كلم موسىٰ تكليما، فسمع موسىٰ صوته، بلا تكييف ولا تشبيه، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ قيل: لما كلَّمه الله تعالىٰ وسوس إليه الشيطان فقال: من تكلِّم يا موسىٰ؟ قال: ربي، قال: لعلك تُكلِّم شيطانًا، فحينئذ سأل الرؤية، قاله الكلبي(١).

قيل: وهذا ليس بسديد، لأنَّ نبيًا مثل موسىٰ عليه السلام -وقد اصطفاه الله لكلامه- لا يتمكن الشيطان لوسوسته في حال قوته وكلام ربه.

وقيل: لمَّا سمع موسىٰ كلام الله وقع حلاوة كلامه في مسامعه [فـ]ـاشتاق إلىٰ رؤية ربه فسأل الرؤية في غير وقته(٢).

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ لن تقدر أن تراني، لأنَّ هذا ليس بوقت لرؤيتي، ولكن أريك ما تعرف به عجزك عن احتمال ما طلبت ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الذي هو أشد منك وأقوىٰ خلقًا وعِظمًا، فإنه حجر مصمت باقٍ علىٰ ممر الدهور ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ عندما يرىٰ من عجائب قدرتي ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ حينئذ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر وبان أمره بجبل زَبير(٣) ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ كسرًا مكسرًا، أقيم المصدر مقام المفعول أي: مدكوكًا.

---

(١) ونحوه قال السدي (كما في الكشف والبيان ١٢/ ٤٩٩)، وحاشا لله أن يختلط علىٰ موسىٰ نداء الرحمن بوسوسة الشيطان.

(٢) وهذا المشهور عند المفسرين، وهو مروي عن السدي، والربيع، وأبي بكر الهذلي، انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٩١، الكشف والبيان ١٢/ ٤٩٨.

(٣) لم يقل أحدٌ من المفسرين أن الذي ظهر وبان هو أمر الله، بل حملوا الآية علىٰ ظاهرها، وأن الله عز وجل تجلىٰ للجبل، ولو قال: ظهر وأظهر من أمره ما شاء، لكان ذلك سائغا، لأنه لم يبطل الظاهر.
قال ابن جرير: فلما اطّلع الرب للجبل، جعل الله الجبل دكًّا (تفسير الطبري ١٣/ ٩٧) ثم روىٰ بعض الروايات في ذلك عن أهل التأويل.

ومن قرأ دكاء: أي طار أعلاه، وبقي أسفله، كالناقة الدكاء التي لا سنام لها(١).

قال مقاتل: صار ست قطع، وطار ثلاث منها بمكة ثَبير وثَور وحراء، وثلاث منها طار بالمدينة رَضوىٰ وورقاء وأُحد(٢).

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشيًا عليه من هول ما رأىٰ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ أي: رجع إليه عقله ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ تنزيهًا لك، رجعت وتُبت إليك من مسألتي الرؤية في الدنيا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ بأنك لا ترىٰ في الدنيا.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى﴾ اخترتك علىٰ بني إسرائيل برسالاتي ﴿وَبِكَلَـٰمِى﴾ معك بلا واسطة ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ اقبل كرامتي لك، وقيل: اعمل بما أمرتك.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لنعمائي.

قال الشيخ أبو سهل الأنماري رحمه الله: «لَنْ» كلمة إياس، ولكنه علىٰ ضربين؛ مؤقت وغير مؤقت، وهذا مؤقت في الدنيا، والدليل عليه أن قوم موسىٰ قالوا لموسىٰ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ثم آمنوا ولم يروه، وأظهر من هذا إن الله تعالىٰ قال لليهود: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾، ثم أخبر عنهم أنهم إذا عاينوا النار وشدتها يقولون: ﴿يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى

وفي الأصل: ثبير، وهو تصحيف، وما أثبت من كتب التفسير، كتفسير الكلبي، وتفسير أبي الليث ١/ ٥٤٨، والكشف والبيان ١٢/ ٤٩٩.

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١٠٠، الكشف والبيان ١٢/ ٥١٣، البسيط ٩/ ٣٣٦، تفسير السمعاني ٢/ ٢١٣، الكشاف ٢/ ١٥٥.

(٢) تفسير مقاتل ١/ ٤١٤.

كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ فهذا يدل على التأقيت، وكلمة لن تقع على الوقت، كقوله ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾، وفيه إبطال قول المعتزلة لعنهم الله[١].

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ قيل: كانا لوحين، فذكرهما بلفظ الجمع، وكانت الألواح من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء[٢].

وقال مقاتل: تسعة ألواح كتب فيها كنقش الخاتم[٣].

﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ﴾ نهيًا ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: بيانًا لكل حكم ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي: اجتهاد وصحة عزيمة ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أي: بحسنها، كما يقال الله أكبر ومعناه الكبير[٤].

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: سترون آثار من عصانا في الأرض المقدسة، وقيل: منزل فرعون في النار[٥]، وقيل: خاطب هذه الأمة وأراد به مكة[٦].

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: أمنع عن التفكر في آياتي الذين يتكبرون ويتعظمون ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مصر ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالشرك.

---

(١) وهذا من غرر النقولات عن أبي سهل الأنماري، وفيه الاستدلال بلغة القرآن وعاداته، وهو من أقوى المسالك في الاحتجاج، وأصح الطرق في التفسير.

(٢) وهو قول الكلبي كما في الكشف والبيان ١٢/ ٥٢٣.

(٣) تفسير مقاتل ١/ ٤١٤، وعنه الثعلبي في الكشف والبيان ١٢/ ٥٢٣.

(٤) وهو قول قطرب، كما في الكشف والبيان ١٢/ ٥٢٥، زاد المسير ٢/ ١٥٣.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٠، الكشف والبيان ١٢/ ٥٢٦.

(٦) غريب، ولم أجده في كتب التفسير.

وقال أبو سهل: أراد به فهم معاني القرآن، يقرؤونه ويفسرونه ولا يفهمون ما أراد الله به، وإنما وصف التكبير بغير حق لأن تكبُّر المؤمن علىٰ الكافر لكُفره حق، وتكبر الكافر علىٰ المن لإيمانه بغير حق[1].

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ أي: فرعون وقومه، وقيل: أبو جهل وأصحابه، كل علامة[2] ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ طريق الهدىٰ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ أي: لا يختاروه ﴿سَبِيلًا﴾ أي: دينًا ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ [يَتَّخِذُوهُ]﴾ أي: طريق الضلالة اختاروه ﴿سَبِيلًا ذَٰلِكَ﴾ الاختيار ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ تاركين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي البعث ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بطل ثواب حسناهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: يعاقبون ﴿إِلَّا [مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤٧]﴾ علىٰ جحودهم.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد خروجه إلىٰ الجبل ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ أي: من ذهبهم ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: جثة خاوية عن الروح ﴿لَّهُۥ

---

(١) إنما يصح قول أبي سهل هذا علىٰ أن الآيات هي القرآن، وهو قول بعض السلف، قال ابن عيينة: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال يقول: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي (رواه الطبري في التفسير ١٣/ ١١٢).

وعن ذي النون المصري: أبىٰ الله أن يكرِّم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن (رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٢/ ٥٢٩).

والأولىٰ عند ابن جرير حمل الآية علىٰ عمومها، فتشمل الأدلة الكونية والأدلة الشرعية.

(٢) ويجمع بين القولين بأن المراد: كل متكبر عن آيات الله (تفسير الطبري ١٣/ ١١٤).

ومن العلماء من قال: إن حكم هذه الآية خاص بأهل مصر، ومنهم قال بالعموم (الكشف والبيان ١٢/ ٥٢٧).

﴿خُوَارٌ﴾ أي: صوت، قيل صيَّره مشبكًا يدخل الريح من جانب ويخرج من جانب، فكان مثل الخوار بالحيلة(١).

وقيل: صار له لحم ودم، لأنَّ السامري أخذ من تراب أثر فرس جبريل ورمىٰ عليه، فتحول لحمًا ودمًا فخار خورة، فقالوا: هذا إلهكم وإلـٰه موسىٰ(٢).

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ إلىٰ الحق ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ أي: عبدوه، واتخذوه معبودًا وكانوا ظالمين بعبادتها.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ ندموا علىٰ عبادة العجل، يقال للنادم: قد سُقط في يده، ومعناه: سقط الندم في أيديهم، أي: لم يبق في أيديهم إلا الندم(٣).

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: يتجاوز عنَّا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حزينًا، الآسف: الذي قرب بكاؤه من الحزن(٤) ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ أي: عملتم خلفي وبعد ذهابي ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أسبقتم وعد ربي، وهو أربعون يومًا، وقيل: وحي الله.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرحها من يده فتكسرت، ورجعت عامة الكلام إلىٰ

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٢، تفسير السمعاني ٢/ ٢١٦.

(٢) وهو قول وهب وعكرمة كما في تفسير أبي الليث ١/ ٥٥١، الكشف والبيان ١٢/ ٥٣١، تفسير السمعاني ٢/ ٢١٦، معالم التنزيل ٣/ ٢٨٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٣، البسيط ٩/ ٣٦١.

(٤) وهو قول ابن عباس والسدي والحسن، كما في البسيط ٩/ ٣٦٥، وقيل: الأسف شدة الغضب، وهو القول الثاني في التفسير.

السماء(١)، وكان طول موسىٰ عشر أذرع وطول كل لوح مثله(٢).

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون -وكان شعرانيًا- بيمينه، ولحيته بيده اليسرىٰ ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ إلىٰ نفسه ﴿قَالَ﴾ هارون لموسىٰ ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي: استذلوني ولم يطيعوني ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أرادوا قتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ والشماتة: سرور العدو بسوء العاقبة ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: لا تحسبني من أصحاب العجل فتعاقبني معهم.

وكان هارون أخا موسىٰ لأبيه [وأمه](٣)، ونسب موسىٰ إلىٰ أمه ترقيقًا واستعطافًا(٤).

ومن قرأ: «ابن أمَّ» لأنهما اسمان صارا اسمًا واحدًا [كـ]: البعل بك، وحضرموت(٥).

---

(١) هذا قول الكلبي، كما في تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٢، وعنده: وصعد عامة الكلام.. الخ، وتعقبه فقال: تأويله أن الألواح لما انكسرت ذهب أثر المكتوب منها وهذا إذا كان غير الأحكام. وأما الأحكام أيضـًا فلا يجوز أن تذهب عنه وإنما أراد بذلك حجة عليهم.

(٢) الكشف والبيان ١٢/ ٥٣٤.

(٣) سقطت هذه الكلمة ولا بد منها، فإن هارون شقيق موسىٰ الأكبر، لا خلاف في ذلك، والمصنف قد صدر عن تفسير الكلبي، وهو فيه علىٰ الصواب: تنوير المقباس ١٣٨، تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٣.

(٤) الكشف والبيان ١٢/ ٥٣٤.

(٥) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر شعبة بكسر الميم: ابن أمِّ، وقرأ الباقون بفتحها: ابن أمَّ (النشر ٢/ ٢٧٢).

فالفتح ذكر وجهه علىٰ معنىٰ يا ابن أماه، وجعلها اسما واحدا.

والكسر: علىٰ حذف ياء الإضافة لأن مبنىٰ النداء علىٰ الحذف، وترك الكسرة في الميم لتدل علىٰ الإضافة (الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٨، الكشف والبيان ١٢/ ٥٣٥، البسيط ٩/ ٣٦٧).

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ اغفر لي ذنبي من قتل القبطي، ولأخي إذا لم يناجزهم بالقتال ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ أي: جنتك ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ أعطف العاطفين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ معبودًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ [وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا]﴾ أي: يصيب ذريتهم غضب وذلة بالجزىٰ[1]، وقيل: معنىٰ المذلة ألا يكون منهم مَلِك إلىٰ يوم القيامة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: نعاقب المكذِّبين.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عبدوا العجل وكفروا بالله ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ بالله، أي: قتلوا أنفسهم توبةً، وآمنوا بالله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ يعني السيئة والتوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ متجاوز ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ بهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: سكن، وإنما ذكر السكون لأن الغضبان في تحرُّكه كالناطق، فإذا سكن غضبه فكأنه سكت ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ رفعها بعد ما ألقاها من يده، وقيل: أعيد له في اللوحين[2] ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: نسخة ما بقي منها وانتسخ موسىٰ بعد الكسر ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: بيان لمن عمل بها ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: يخافون عذاب ربهم من أجل ربهم.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ أي: من قومه سبعين شيوخًا ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ أمره الله تعالىٰ بأن يختار سبعين شيوخًا، فلم يجد إلا ستين شيخًا، فاختار مكان العشرة الباقية من الشُّبَّان، فناموا فأصبحوا شيوخًا[3].

---

(١) جمع جزية، كلحية ولحىٰ (تاج العروس ٣٧/ ٣٥٤).

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٤، الكشف والبيان ١٢/ ٥٣٩، تفسير السمعاني ٢/ ٢١٩، معالم التنزيل ٣/ ٢٨٥.

(٣) وهذا كذلك من الأخبار الإسرائيلية، وهو من تفسير الكلبي، تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٤، الكشف والبيان ١٢/ ٥٤٤.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة والنار، لأنهم قالوا: أرنا الله جهرة كما رأيته، فلما هلكوا جعل موسىٰ يبكي ويقول: يا رب إذا رجعت إلىٰ بني إسرائيل فماذا أقول لهم وقد أهلكت خيارهم، وظن موسىٰ أنهم هلكوا باتخاذ بني إسرائيل العجل إلـٰهًا ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ مجيئهم معي إلىٰ الجبل ﴿وَإِيَّٰيَۖ﴾ بقتلي القبطي ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ بعبادتهم العجل ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ حين جعلت الروح في العجل، فهي اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بعبادة العجل ﴿مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ أي: توفّق للإيمان من[1] كان أهلاً ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ربنا وسيدنا ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ المتجاوزين عن الذنوب.

والفتنة في الأصل في الابتلاء، والشر والخيرِ كله باختيار الله تعالىٰ وابتلاؤه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ توفيقًا وعصمة وعافية ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عفوًا ومغفرة وجنة ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: تُبْنا، وهو من مقالة الشيوخ الذين أصابتهم الرجفة بسؤالهم رؤية الله.

وقيل: من سمع كلام الله وهيبته فكادت أوصالهم من هيبة كلام الله أن تنقلع، فدعا موسىٰ لهم فسكَّن الله ذلك عليهم قبل الموت.

وقيل: ماتوا فأحياهم الله وذلك قوله ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾، فلما استقاموا علىٰ حالهم قالوا تبنا إليك.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[2] فتطاول إبليس حين سمع هذا الكلام، وقال: أنا شيءٌ، فآيسه الله، وقال

(١) في الأصل: ما كان.

(٢) قال ابن جرير: قال بعضهم: مخرجه عامٌّ، ومعناه خاص، والمراد به: ورحمتي وَسِعت المؤمنين بي من أمة محمّدٍ صلىٰ الله عليه وسلم. واستشهد بالذي بعده من الكلام، وهو

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والكفر، ويقرون بالزكاة ويعطونها ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

فتطاولت اليهود إذ سمعوا هذا الوعد، فآيسهم الله[1]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ فالأمي الذي لا يكتب بيده، وقيل: نسبة إلىٰ مكة وهي أم القرىٰ[2] ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ ويجدون نعته ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالتوحيد ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي: الكفر ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من لحوم الإبل والشحوم ما حرم علىٰ اليهود ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي: الدم ولحم الخنزير والميتة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يعني العهد الثقيل والشدائد ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أنْ يقتل قاتل العمد البتة ولا يُعفىٰ عنه، ويقتل قاتل الخطأ إلا أنْ يُعفىٰ عنه ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي: بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أعانوه ووقّروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ بالسيف، والتعزير: هو المنع، وأريد به منع أعدائه عنه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ عملوا بالقرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الناجون السعداء.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ نصب علىٰ الحال، يعني: جميع الناس الذين في زمانه وبعده إلىٰ قيام الساعة، لأنه لا نبي بعده فالكل في حاله.

قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، ثم روىٰ عن ابن عباس: أنه قرأ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قال: جعلها الله لهذه الأمة (تفسير الطبري ١٣/ ١٥٦).

(١) وهو مروي عن الهذلي وابن جريج وقتادة، انظر: تفسير الطبري ١٣/ ١٥٧، تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٥، الكشف والبيان ١٢/ ٥٥٠.

(٢) قال الزجاج: الْأُمِّيُّ: هو علىٰ خلقة الأمّة، لم يتعلم الكتاب فهو علىٰ جِبِلَّتِهِ. (معاني القرآن ٢/ ٣٨١، وانظر: تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٦).

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ﴾ الأموات ﴿وَيُمِيتُۖ﴾ الأحياء ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾ فكلماته: الكتب المنزلة علىٰ الأنبياء، وكلمته: أراد به عيسىٰ، واتبعوه: الزموا طريقه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ بالإيمان.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ﴾ أي: في زمانك عصبة منهم يهدون ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يدعون إلىٰ التوحيد ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ أي: بالحق يعملون.

قيل: أراد به عبد الله بن سلام وأصحابه.

وقيل: هم قوم فروا من العدو ورمىٰ بهم من وراء تُبَّتْ، متمسكين بالتوراة والإنجيل مشتاقين إلىٰ الإسلام، يعملون بفرائض الله، بيوتهم مستوية، والأمانة فيهم فاشية، وقبورهم عند أبوابهم، لا تباغُض بينهم ولا تحاسُد، ولا خُلْف ولا خيانة، يعملون بالحق بلا أمير وقاض، رآهم رسول الله ليلة المعراج وآمنوا به، وفيه قصة طويلة(١).

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ جماعة جماعة.

وإنَّما فسر العدد بالجمع ولم يقل: سبطًا؛ لأنه بدلٌ وليس بتمييز(٢).

وقيل: كل قسم منهم أسباط، لأنَّ الواحد سبط، وإنما ذكر التأنيث علىٰ ضمير الفرقة يعني: عشرة فرقة ثم حذف(٣).

---

(١) تُبَّتْ: من بلاد الصين، وهذا من الروايات الإسرائيلية، والقصة مذكورة في تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٧، الكشف والبيان ١٢/ ٥٥٨ من رواية الكلبي وغيره، والحديث الذي ساقه السمرقندي في ذلك موضوع.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٩٩.

(٣) يعني: حذف فرقة، انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨٣.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥ﴾ أي: طلبوا الماء ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: خرجت ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من الأسباط ﴿مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ في التيه يقيهم الحر ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ وقد فُسِّر.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: انزلوا أريحا ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: لا إله إلا الله ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ منحنين ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ الذين لم يعبدوا العجل.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قالوا مكان حطة: هطا سمقاثا[(١)] استهزاءً منهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا، وقيل طاعونا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ يفترون.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ وبينها وبين البحر مسيرة يوم، سلهم -وهو سؤال توبيخ-: ما فعل الله بأهل تلك القرية، وهي قرية أيلة ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ أي: يوم استراحتهم عن العمل ﴿شُرَّعًا﴾ شارعات من غمر الماء إلىٰ قريب من اللجة، آمنات من الاصطياد ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: يوم لا يستريحون عن أخذها لا يأتيهم السمك ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ ابتليناهم بفسقهم[(٢)].

---

(١) تصحف في الأصل، والتصحيح مما سبق ذكره في تفسير سورة البقرة آية٥٩.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٩، الكشف والبيان ١٢/ ٦٣.

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ من المستحلِّين[١]، وذلك أنَّ أهل تلك القرية صاروا ثلاث فِرق: مُستحِل، ومُداهِن، وواعظ.

فالمُداهِن لا يستحل، ولكن يؤاكلون ويشاربون المستحلين.

والواعظون يعظونهم، فقال المداهن للواعظ: لم تعظون قومًا الله مهلكهم بالمسخ، ومعذِّبهم عذابًا شديدًا بالنار.

وكانوا يسدون طريق السمك في يوم السبت حتىٰ لا يرجع إلىٰ الغمر، ثم يأخذونها في يوم الأحد. قال الواعظون: «معذرة»: وعظناكم معذرةً إلىٰ ربكم[٢] ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ أخذ الحيتان.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ أي تركوا ما وعظوا به ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أخذ الحيتان ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ اعتدوا بأخذ الحيتان ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ يستحلون أخذ الحيتان.

﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ﴾ أبوا وأعرضوا ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ أي: حولناهم قردة صاغرين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فيا لها من أكلة ما أوجبها المسخ في الدنيا والنار في العقبىٰ[٣].

---

(١) ومثله في تفسير أبي الليث ١/ ٥٦٠، قال: وهي الظلمة للأمة الواعظة.
وقد اختلف العلماء في أصحاب هذا القول، ذكر الثعلبي هذا الخلاف، ثم رجح أنه كان من القول الناجية، وأنه من قول المؤمنين بعضهم لبعض (الكشف والبيان ١٢/ ٥٦٨).

(٢) البسيط ٩/ ٤١٤.

(٣) لم أجد هذا القول.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أعلم ربك، وقال ربك، وقضىٰ ربك ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ليسلطن علىٰ اليهود قضاءً واجبًا إلىٰ يوم القيامة ﴿مَن يَسُومُهُمْ [سُوءَ الْعَذَابِ]﴾ يعذبهم أقبح العذاب بالجزية، وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم وأمته ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن لا يؤمن به ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ لمن آمن به.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ المسلمون ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ اليهود والنصارىٰ والصابئون ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ اختبرناهم بالخصب والسلامة والصحة، وبالسيئات السقم والفقر ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ فيتوبون.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: جاء من بعدهم قرن، والخَلْف: ولد سوء، وأراد به اليهود ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: علم التوراة عن أوائلهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ وهي: الرشوة في الحكم، والعَرَض: صنوف الأموال، والأدنىٰ تذكيرُ الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ما عملنا بالنهار يغفر لنا بالليل، وما عملنا بالليل يغفر لها بالنهار ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ حرام، كما أخذوه بالأمس ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ اليوم ويستحلوه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ يعني العهد في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الصدق ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ من العهد والميثاق ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أمر الله لينتهوا عن الباطل.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: لا يحرِّفون ما في التوراة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بشرائطها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ والمصلح: المقيم علىٰ الإيمان، المؤدي لفرائض الله اعتقادًا وعملاً.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: رفعنا فوق عسكرهم جبلاً فرسخًا في فرسخ ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ سحابة ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم إن لم يقبلوا التوراة، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ ومواظبة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ واذكر إذ أخذ ربك من بني آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[١] قيل: أخرج ذرية آدم من ظهر آدم، وأخرج بعضهم من بعض علىٰ أمثال الذر، ثم أحياهم وأعقلهم وأنطقهم، وقال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

ذكر المفسر الكبير رحمة الله عليه في تهذيب جامع العلوم: بأنَّ هذه الآية مشكلة، ولا يُعرف تفسيرها إلا من الحديث.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله له ذنوبه-: فقد ذكر طرق الحديث، واخترت من طرقه الأوضح وهو، ما أوردته:

قال: روىٰ الضحاك عن ابن عباس: كان آدم صلوات الله عليه بعرفات في بعض جبالها، أخذ الله الميثاق علىٰ من كان في صلبه إلىٰ أن تقوم الساعة، استخرج من متنه الأيمن ذرًا بيضًا وجعلهم في كف آدم اليمنىٰ ثم يشهدهم الميثاق: ألست بربكم؟ قالوا: بلىٰ، ثم قال: يا آدم هؤلاء أصحاب اليمين هم السعداء من أمتك إلىٰ أن تقوم الساعة، وهم في الجنة برحمتي، ثم ضرب علىٰ صفحة متنه الأيسر، فاستخرج ذرًا سودًا، فجعل في كف آدم الشمال، ثم يشهدهم الميثاق: ألست بربكم؟ قالوا: بلىٰ، ثم قال: هؤلاء أصحاب الشمال هم الأشقياء من ذريتك، وهؤلاء في النار ولا أبالي وذلك قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ ثم قال بعده ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾[٢].

---

(١) في الأصل: ذرياتهم، بالجمع، وهي قراءة من سوىٰ ابن كثير والكوفيين (النشر ٢/ ٢٧٣).

(٢) حديث الضحاك رواه ابن جرير بلفظ مختلف (تفسير الطبري ١٣/ ١٣٠).

ولحديث ابن عباس طرق أشهر من هذه، لكنها مختصرة، فرواه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير (تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٢) وبين أن ذلك كان بوادي نعمان، وهو قريب من عرفات،

قال الزجاج رحمه الله: وجائز أن يكون لأمثال الذر فهمًا يعقل، كقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾[(١)].

﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟﴾ يعني: لكيلا تقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ عن العهد ساهين، فأشهد الله عليهم ملائكته.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ وأسسوا لنا الشرك ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أولادًا صغارًا اقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ المكذِّبون، تعذِّبنا به.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ نبيِّنها كما بيَّنا قصة أخذ الميثاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: يتوبون عن الكفر[(٢)].

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾ وهو اسم الله الأعظم، أعطاه الله بلعم بن باعور، وعلىٰ قول مجاهد: بلعم بن أبرة[(٣)] ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج

وقيل في رواية عطاء بن السائب عن سعيد ن ذلك بدهنا من أرض الهند، وقد استوعب ابن جرير الروايات الواردة في هذا الباب.

والمفسرون مجمعون علىٰ أن الميثاق كان في عالم الذر، ومن آثاره أن يولد المولود علىٰ الفطرة، لأنه أقر بربوبية الرب، في ميثاق الذر، والله أعلم.

(١) معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، وإنما دعاه إلىٰ هذا القول -وهو في غير محله- لأنه نقل نقلا خاطئا، فإنه قال: قال بعضهم: خلق الله الناسَ كالذَّرِ من صلب آدَمَ، وأشهدَهُمْ علىٰ توحيده أهـ. وقول أهل التفسير ليس علىٰ أن الله صير الخلق هذا كالذر، بل أخرجهم هم -بكيفية يعلمها- من صلب آدم أبناؤه الذين يكونون بعده، وشبه أهل التفسير ذلك: كالذر، لا أنهم خلقوا ذرًّا، والله أعلم.

(٢) في الأصل: أي يتوب عن الكفر عن يتوب.

(٣) وقع في الأصل:أيرة، سماه ابن مسعود: بلعم بن أبر، وسماه ابن عباس: بلعم باعر، وعن مجاهد: بلعم بن باعر (كذا في روايات ابن جرير في التفسير ١٣/ ٢٥٤، الكشف والبيان ١٢/ ٥٨٩).

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أدركه، أتبع فلانًا ألحقه، وتبعه ذهب على إثره[١] ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ الهالكين، أي: صار من الكافرين.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: عصمناه، أو رفعناه إلى الدرجات ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ اطمأنَّ إليها ومال إلى الدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ وهوى امرأته ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ إن: طردته يدلع لسانه ﴿أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ يدلع لسانه كذلك، مثل المنافق ومثل بلعم، وإنما ضرب مثل الكلب لأنَّ الكلب عادته أن يخضع ويذل لكل أحد؛ لما يطمع أن ينال منه أدنى شيء، ولا يبالي ما نصيبه من الذل والهوان في نفسه، فكذلك المكذِّب والمهين لآيات الله، لا يبالي بما يصيبه في دينه ونفسه بعد أن ينال شيئًا من الدنيا[٢].

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ بمحمد والقرآن ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ عليهم من القرآن ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ في أمثال الله.

﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ أي: ساء المثل مثلاً، ساء بمعنى: بئس مثلاً ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بمحمد والقرآن ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ لا غيرهم.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ المصيب لدينه ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ أي: يخذله الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾.

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ واللام لام الاستحقاق[٣].

﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ من كفارهم ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ﴿وَلَهُمۡ

---

(١) قال ابن قتيبة: يقال: أتبعت القوم إذا لحقتهم، وقال أبو عبيد: يقال: أتبعت القوم -مثال أفعلت- إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم، ويقال: ما زلت أتبعهم حتى أتبعتهم أي: حتى أدركتهم (البسيط ٩/ ٤٦٢).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩١، الكشف والبيان ١٢/ ٦٠٢.

(٣) لام الاستحقاق التي تقع بين اسم ذات واسم معنى.

﴿أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ المواعظ.

وعند المعتزلة: هذا اللام لام العاقبة، لأنهم قالوا: إن الله خلقهم للجنة ولكنهم استوجبوا النار بأعمالهم[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في المأكل والمشرب وقضاء الشهوة، وهذه همتهم لا غير ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ من الأنعام، لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره، وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يوحدونه.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ كانت الصحابة يقولون: يا الله يا رحمٰن يا رحيم، فكان كفار مكة يقولون: إنهم يعيبون علينا بأن ندعو آلهة؛ اللات والعزىٰ ومناة وإساف ونائلة، ويقولون: يا الله فهذا رب، ويا رحمٰن فهذا رب آخر، ويا رحيم فهذا رب آخر، فنزلت الآية[2].

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وله الصفات العليا، يستحق الأسماء لنفسه أو لفعله ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ فمن أسماء الصفات وطريق المعرفة به، وهو الأول قبل كل شيء، والباقي بعد فناء كل شيء، والقادر الذي لا يعجزه شيء، والعالم الذي لا يخفىٰ عليه شيء، والواحد الذي ليس كمثله شيء، والغني بنفسه عن كل شيء.

قال الشيخ أبو منصور: ظنوا أن في تعديد الأسماء إثبات عدد الذات، فالله تعالىٰ رد عليهم ظنهم[3].

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ أي: يميلون ويعدلون عنه، وذلك الذين

---

(١) ليس بالضرورة أن يلزم ذلك، فالجمهور علىٰ أنها لام العاقبة، فالله خلقهم للنار بعدله، انظر: الكشف والبيان ١٢/ ٦٠٤، زاد المسير ٢/ ١٧١، الدر المصون ٥/ ٥٢١.

(٢) وهو قول مقاتل كما في تفسيره ٢/ ٧٦، والكشف والبيان ١٢/ ٦٠٧.

(٣) تأويلات القرآن لأبي منصور الماتريدي ٥/ ٩٨.

يسمون أصنامهم بأسماء أيضًا هي أسماء الله، مثل: اللات أرادوا أن يسووا اسمه الله، والعزىٰ أرادوا أن يسوُّوا اسمه العزيز.

﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ يعاقبون ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ [وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾]﴾ يأمرون بالحق، ويميلون إلىٰ الحق، ويحكمون بالحق، يعني به أمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

وقيل: الفرقة الهادية هم العلماء الأتقياء؛ لأنَّ الله تعالىٰ مدحهم ودلَّ علىٰ أنهم يعلمون الناس علم الدين؛ حتىٰ يصلوا به إلىٰ الحق اليقين.

قال الشيخ أبو سهل الأنماري رحمة الله عليه: هم أبدال هذه الأمة، والدليل علىٰ صحة هذه القول ما روي عن ابن مسعود أنَّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «إنَّ لله تعالىٰ ثلاث مائة، قلوبهم علىٰ قلب آدم، وله أربعون قلوبهم علىٰ قلب موسىٰ، وله سبعة قلوبهم علىٰ قلب إبراهيم، وله خمسة قلوبهم علىٰ قلب جبريل، وله ثلاثة قلوبهم علىٰ قلب ميكائيل، وله واحد قلبه علىٰ قلب إسرافيل، وصلوات الله عليهم أجمعين، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات الواحد من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات الواحد من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وهكذا مكان السبعة من الأربعين، ومكان واحد من الأربعين من الثلاثمائة، ولو مات واحد من الثلاث مائة أبدل الله مكانه من عامة الخلق[1]، فبهم يحيي ويميت، وبهم يمطر وينبت، ويدفع بهم البلاء، يسألون إكثار هذه الأمة فيكثرون، ويدعون علىٰ الجبابرة فيقصمون»[2].

---

(١) في الأصل: الحق، وهو تصحيف.

(٢) هذا حديث موضوع مكذوب علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وهو من وضع الطرقية وأشباههم من الجهال.

ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾ أي: نأخذهم قليلاً قليلاً، كلما جدَّدُوا معصية جدَّدنا لهم نعمة، وأنسيناهم شكرها، فإذا سكنوا إلىٰ النعمة أُخِذُوا ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ في كفرهم، أصل الإملاء: الاستمرار علىٰ العمل، ومعناه: أُمهلهم ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ عذابي شديد.

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ يعني المستهزئين ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ بقلوبهم ليعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي: ليس محمد بساحر ولا بمجنون ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ رسول مخوف أمين.

﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ليعرفوا ربوبية الله، ويعتبروا بالنظر في الشمس والقمر والجبال والبحار ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ يعني جميع

وقد رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٨، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٥٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٩/ ٢٢٢، من رواية: محمد بن السرىٰ القنطري ثنا قيس بن إبراهيم بن قيس السامري ثنا عبد الرحمن بن يحيىٰ الأرمني ثنا عثمان بن عمارة ثنا المعافىٰ بن عمران عن سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله فذكره، وهذا الحديث لو كان عند المعافىٰ بن عمران أو الثوري أو منصور أو إبراهيم لخرج في الصحيحين، ولكن لما ركب علىٰ الثوري بإسناد علىٰ رسم الصحيح دل علىٰ أن راويه عن الثوري أو من هو دونه قد اختلقه، وإلا فأين أصحاب الثوري عنه، وأين أصحاب منصور عنه، وهكذا.

ورجاله من المعافىٰ إلىٰ الصحابي ثقات، فإذا نظرت فيمن هو دونه وجدت النكرات الذين لا يعرفون.

فأما عثمان بن عمارة فقد ترجمه الذهبي في الميزان، وقال: عن المعافىٰ بحديث كذب، ثم رواه، ثم قال: فقاتل الله من وضع هذا الافك (ميزان الاعتدال ٣/ ٥٠، لسان الميزان ٥/ ٤٠٥).

وقد نبه العلماء علىٰ بطلان هذا الحديث، وانظر مبحثا مفيدا للشيخ الألباني في كتابه: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٦٧٠.

مخلوقاته من الطير والوحش والسباع ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لم ينظروا أنْ عسىٰ أن يكون قد اقتربت آجالهم فيموتوا علىٰ كُفرهم، وهم يسوِّفون بالتوبة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ أي: لم يؤمنوا بهدي القرآن فبأي حديث يؤمنون.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ﴾ أي: يتركهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ يتحيرون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متىٰ حينها ووقتها؟ والإرساء: الإثبات، يقولون: متىٰ تثبتها؟ وإنما سأل أهل مكة علىٰ وجه الاستهزاء لأنهم ينكرون القيامة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها ﴿إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ﴾ أي: ثقل وخفي علمها ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: علىٰ أهلها، وقيل: ثقل وعظم وقوعها علىٰ أهل السماوات والأرض؛ من تكوير الشمس، وانتثار النجوم، وتسيير الجبال[1].

ثم بيَّن وقوعها فقال ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ فجأة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾ عالمٌ بها، وقيل: فرح بسؤالهم لك عنها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أن القيامة حق كائن.

﴿قُل﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: بمشيئته وتقديره لي ذلك ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لو علمت متىٰ أموت لاستكثرت من العمل الصالح قبل الموت، وقيل: لو

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٩٥، تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٣.

علمت متىٰ يكون الجدب لأعددت في السنة المخصبة للسنة المجدبة(١) ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لم يلحقني العيب بأن لا أعلم الغيب(٢) ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ما أنا إلا مخوِّف بالنار لمن عصا ربه ﴿وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ بالله وبالجنة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ آدم صلوات الله عليه ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، من ضلعه القصير، وهو بين النائم واليقظان، فلو كان نائمًا لم يعلم بخلق الله إياها منه، فلم يشفق عليها، ولو كان يقظانًا أصابه شيء من الألم فأبغضها.

قوله ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي باشرها جماعًا ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ يعني المَني ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: ذهبت وجاءت وقامت وقعدت.

وقرئ: «فمَرَتْ به» بالتخفيف شكَّت هل بها حبل أم لا لخفتها(٣).

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ دنت الولادة وثقل الولد في بطنها، جاءها إبليس وقال: ما في بطنك يا حواء؟ لعله حمار وحش أو سبع، فخافت حواء من ذلك، فقال: إن دعوت الله أن يجعله إنسانًا كصورتكما تسميه باسمي، فقالت: ما اسمك؟ قال: اسمي الحارث، فإن ولدت إنسيًا تسميه عبد الحارث؟ فقالت: نعم، فذلك قوله ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ لنعمتك.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا [صَٰلِحًا]﴾ ولدًا سويَّ الخلق ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ أي لله ﴿شُرَكَآءَ﴾ والشركاء والشريك في هذا الموضع واحد ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ من الولد، فسموه عبد

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٣.

(٢) في الأصل: الأولىٰ الغيب، والثانية العيب، والصحيح ما أثبت.

(٣) وهي قراءة يحيىٰ بن يعمر، كما في الكشف والبيان ١٢/ ٦٢١، الكشاف ٢/ ١٨٦.

الحارث، فعاش الولد أيامًا ثم مات ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ أي: تبرأ الله عن ذلك[١].

وقيل معنىٰ قوله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أولادًا مستوية من الرجال والنساء، ثم قال: جعلا له، أي: هذان الجنسان الرجال والنساء، أشركا بالله الأصنام، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾[٢].

وأجمع العلماء أنَّ الشرك علىٰ الأنبياء لا يجوز، فلم يكن المراد به آدم وحواء، ولكن سائر الناس من المشركين.

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾ أي: لا يقدر علىٰ شيء وهم يُنحتون.

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ أي: لا يدفعون عنهم العذاب ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ يعني الأصنام لا ينصرون أنفسهم عند النحت وعند الكسر، خرج الكلام مخرج المتكلمين، وأُمضيَ علىٰ لفظ الناطقين.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ إن دعوتم يا أهل مكة أصنامكم إلىٰ الرشد لم يُرشدوكم، ولا يرشدوا بأنفسهم، ولا يردوا جوابًا، فذلك قوله ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ يا أهل مكة ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ يعني الأصنام ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ ساكتون لا يجيبونكم.

---

(١) وهو قول طائفة من السلف، ورواية عن ابن عباس، وعكرمة وقتادة ومجاهد، قالوا: لم يكن الشرك إلا في التسمية، (تفسير الطبري ١٣/ ٣٠٩).

(٢) وهو قول الحسن البصري (تفسير الطبري ١٣/ ٣١٤).

قال ابن جرير: وأولىٰ القولين بالصواب، قول من قال: عنىٰ بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ في الاسم لا في العبادة، وأن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، لإجماع الحجة من أهل التأويل علىٰ ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ مخلوق كما أنتم، وقيل: أراد به الملائكة الذين عبدوهم ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ عند جر منفعة، أو دفع مضرة ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ لام أمر، بمعنىٰ التعجيز.

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ﴾ إلىٰ حوائجهم ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾ أي: يقتلون بها قرابينكم ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ عبادتكم ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ دعاءكم، فهذا تفصيل عباد الأصنام علىٰ الأصنام، ففيه بيان لقلة أفهامهم وتمييزهم ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ استعينوا بآلهتكم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: اعملوا في هلاكي ما شئتم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ أي لا تؤجلوني.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي: حافظي وناصري ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ يكشف الضر عن المؤمنين.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ أي: لا يقدرون دفع العذاب عنكم، ولا الكسر عن أنفسهم.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ لأنهم أموات ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ مفتَّحة عيونهم ﴿وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ الهدىٰ ولا غير.

وقيل: الخطاب لرسول الله: إن تدعوا المشركين إلىٰ الهُدىٰ لا يسمعوا، ينظرون إليك ولا يبصرون الرشد والهدىٰ[١].

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ الميسور من أخلاق الناس، ولا تستقص عليهم.

وقيل: عاملهم بالعفو عما يكون منهم.

وقيل: تجاوز عن سيئاتهم[٢].

---

(١) وهذا قول مقاتل، وهو شاذ يأباه السياق (تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٦).

(٢) انظر الأقوال في ذلك في تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٦، زاد المسير ٢/ ١٨٠.

وقيل: نسخ بآية السيف[١].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أي التوحيد ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ واصفح عن زلات المسيئين، وقيل: عن المشركين.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ [فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ]﴾ معناه: إن نالك من الشيطان أدنىٰ وسوسة؛ فسل الله أن يعيذك منها ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ بوسوسته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ الشرك ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ﴾[٢] أي وسوسة ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بإلمامٍ بذنب بوسوسته ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما نهوا عنه وعرفوا أنها من الشيطان ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ النجدين، نجد الهدىٰ والضلالة، فيتركون نجد الضلالة، ويأخذون نجد الهدىٰ.

و«طائف» من الشيطان فاعل من الطيف.

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ رجع إلىٰ ذكر الكفرة في التقديم، يعني: إخوان الشياطين من الكفرة وقرناؤهم ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ وقيل: هم إخوان المشركين، أي الشياطين يجرونهم إلىٰ الضلالة.

---

(١) وذلك علىٰ القول بأن المراد: العفو عن المشركين (زاد المسير ٢/ ١٨٠).
وقيل أيضا: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي ما فضل عن حاجتهم، وذلك في الصدقات، ثم قالوا: نسخ بآية الزكاة (تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٨، تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٦).
والحق أن الآية محكمة لا نسخ فيها، كما بين ذلك ابن جرير ١٣/ ٣٢٩.

(٢) ضبطها في الأصل: طَيْفٌ، وهي قراءة أبي عمرو ويعقوب وابن كثير والكسائي، وعليها جاء التفسير، وقرأ الباقون: طائف (النشر ٢/ ٢٧٥).
قال الثعلبي: هما لغتان، ومعناهما الشيء الذي يلم بك، وفرق قوم بنيهما، فقال أبو عمرو: الطائف ما يطوف حول الشيء، والطيف اللمم والخطرة (الكشف والبيان ١٢/ ٦٣٦).

﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾ أي: لا ينتهي الكفار عن قبول الوسوسة، ولا الشياطين عن إلقاء الوسوسة(١).

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ بعلامة سألوكها، ولم تجبهم عنها ساعة، ثم أخبرتهم بعدها بالوحي ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ أي: اختلقتها، يعني: هلا قلتها من تلقاء نفسك ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي: أعمل بما أنزل علي من القرآن ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ بيان ودلائل ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ لمن آمن به وعمل ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ سُمِّي القرآن قرآنًا: لأنه كلام في الطبقة العليا من حسن النظم؛ وعجز الناس عن إتيان مثله.

وكان القوم إذ ذاك يتكلمون في صلاتهم فنهوا عنه بقوله ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ أي: القرآن(٢) ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ أي: اسكتوا ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ فلا تعذبون.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا﴾ أي: القرآن في نفسك في الصلوات الخمس إخلاصًا واستكانة ﴿وَخِيفَةٗ﴾ من عذابه ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: دون الصوت العالي ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أي: الغدوات ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ والعشاءات، تضرُّعًا وخُفية منصوبان علىٰ المصدر ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ عن القراءة في الصلاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لا يتعظمون ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ وطاعته، وقوله: عند ربك بالتشريف لا بالمكان وهم الملائكة(٣).

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٧.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ١٣/ ٣٤٥.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٢٤٥، معالم التنزيل ٣/ ٣٢١.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ يصلون له وينزِّهونه ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ يخضعون في الصلوات.

معناه: فافعل أنت مثلهم يا محمد، لأن دينك دين الملائكة.

عن معاذ بن جبل أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «كان جبريل إذا نزل شيئًا من القرآن فيه السجود قرأ ثم يخرُّ ساجدًا، ويأمرني بذلك، ثم يقول: هذا واجب عليك وعلىٰ أمتك».

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله ذنوبه-: بلغنا عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله تعالىٰ بينه وبين إبليس سترًا يوم القيامة وكان آدم له شفيعًا»(١).

والعلم عند الله.

---

(١) حديث موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان١٢/ ٢٩٢، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٧٤.

سورة الأنفال

مدنية كلها، وهي خمس وسبعون آية(١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ يعني: الغنائم، واحدها نفلٌ.

وهذه الآية نزلت في غنائم بدر، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حثَّ أصحابه علىٰ مال أبي سفيان إذ جاء بعير(٢) وأموال كثيرة من الشام، فعلم أبو سفيان بخروج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه قاصدًا مَاله، فسيَّر أبو سفيان ضمضم بن عمرو إلىٰ أهل مكة يعلِمْهُم بخروج محمد وأصحابه، فخرج أهل مكة بعسكرهم قاصدًا لرسول الله، وحفظًا لمالهم الذي كان مع أبي سفيان، وذهب أبو سفيان من طريق آخر إلىٰ مكة، ونجا بنفسه وماله، وقريش جاءوا إلىٰ موضع يقال له بدر، وهو اسم بئر، وقيل: اسم رجل حفر ذلك البئر، فلما سمع أصحاب رسول الله بنجاة أبي سفيان اغتموا لذلك، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إن الله وعدني إحدىٰ الطائفتين إما العير وإما العسكر» فإن ألغي(٣) العير بقي العسكر، فحرَّضهم علىٰ القتال، وقد قال: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فخرج سرعان الناس وشبانهم إلىٰ الحرب، ولم يبق مع رسول الله إلا الشيوخ، فلما ظفروا وأخذوا أموالهم قالوا: يا رسول الله، أعطنا ما وعدتنا، والشيوخ

---

(١) انظر: الكشف والبيان ١٣/٧، البيان في عد آي القرآن ١٥٨، وهي ٥٧ آية في العد الكوفي والشامي، و٥٦ في المدني والمكي والبصري.

وفي صحيح البخاري (٤٦٤٥) عن ابن عباس أنه قال: سورة الأنفال نزلت في بدر.

(٢) في الأصل: بعين، وهو تصحيف.

(٣) هكذا في الأصل، والمعنىٰ واضح.

يقولون: إنما بقينا عندك يا رسول الله كيلا تعرىٰ راياتك عن الرحال، ولم يبق لنا من الغنائم مال، ووقع بين المشايخ والشبان جدال، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[١].

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ أي حكم الأنفال إلىٰ الله وإلىٰ ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ ثم نُسِخَتْ الآية بقوله في هذه السورة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ إلىٰ آخر السورة[٢].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا حقيقة وصلكم، وقيل: أصلحوا الخصومة بينكم.

وحقيقة المعنىٰ: كونوا مجتمعين علىٰ ما أمركم الله، به وإنما ذكر ذات بلفظ التأنيث لأنها كناية عن الخصومة أو الحقيقة[٣].

والبين أراد به الوصل وهو من الأضداد.

---

(١) هذا الذي ذكره المصنف تلخيص روايات صحيحة، رواه ابن جرير، وغيره، انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٣٦٧، وفي صحيح مسلم (١٧٤٨) عن سعد بن أبي وقاص قال: أصبت سيفا، فأتىٰ به النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، فقال: «ضعه»، ثم قام، فقال له النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «ضعه من حيث أخذته»، ثم قام، فقال: نفلنيه يا رسول الله، فقال: «ضعه»، فقام، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، أؤجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «ضعه من حيث أخذته»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

(٢) اختلف العلماء في هذه الآية هل منسوخة أم محكمة؟ وبالنسخ قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد هي محكمة، (تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٠، الكشف والبيان ١٣/ ١٥). ورجح ابن جرير أنها محكمة، وهي تخيير النبي صلىٰ الله عليه وسلم في أن ينفل من شاء، فنفل القاتل السلب، وجعل للجيش في البداءة الربع، وفي القفلة الثلث، بعد الخمس، والله أعلم.

(٣) أي: الحال التي هم عليها، (انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٤، معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٠، الهداية ٤/ ٢٧١٣، الكشاف ٢/ ١٩٥).

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ اخشوا الله فيما أمركم ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما بين لكم وأعطاكم من الغنيمة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١﴾ ثم نعت المؤمنين فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المصدِّقون بوعد الله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: ذكر عظمة الله، خافت قلوبهم ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ [عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ]﴾ أي قرئت عليهم آياته من القرآن ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي: تصديقًا ويقينًا، لأن من عرف شيئًا بالدليل ثم رأىٰ دليلاً آخر زادته يقينًا علىٰ يقينه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ أي: بالله يثقون، وعلىٰ فضله يتكلون، يكلون أمرهم إلىٰ الله راضين بفعله ولا يجادلون.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ في تصديقهم ﴿حَقّٗاۚ﴾ لاشك في تصديقهم ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الدرجات: هي المنازل المرتفعة في الجنة علىٰ قدر أعمالهم ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ تجاوز عن ذنوبهم ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ ثواب حسن في المنظر، شهي في المطعم.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ بالمدينة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وتبعك المؤمنون، وإن كانوا كارهين، ثم صار عاقبة أمرهم خيرًا لذلك؛ إن أطاعوك في أمر الأنفال يجعل الله عاقبة أمرهم خيرًا[(١)].

وقيل: حكم الغنائم إليك حق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق[(٢)].

---

(١) اختلف العلماء في الجالب لهذه الكاف في قوله: «كما»، وهذ القول الأول مرجح عند بعض اهل العلم، انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٣، تفسير الطبري ١٣/ ٣٩١، تفسير أبي الليث ٢/ ٥، الكشف والبيان ١٣/ ٢٢، البسيط ١٠/ ٢٥.

(٢) وهو بمعنىٰ القول الأول.

وقيل: هم المؤمنون حقًا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق[١].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ أي: طائفة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥﴾ للخروج.

﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر لهم أنَّ إحدىٰ الطائفتين لهم، وجدالهم: أنَّا لو علمنا أن لنا الحرب مع العدو لاستعدينا لهم، فهلَّا أخبرتنا يا رسول الله ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ من قلة عددهم ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ إلىٰ الموت لشدة كراهيتهم.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ إما العير وإما العسكر ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ تتمنون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ التي ليس فيها حرب ولا سلاح ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ يقال: رجل شاك السلاح، فمنه الشوكة ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ينصر الإسلام ويظهر دينه ﴿بِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ بنصرته ووعده، والحق: وقوع الشيء في موضعه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧﴾ أي: يريد أن يقتل قادة المشركين.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يظهر الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ ويهلك الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ وإن كره المشركون إظهار الإسلام.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ اذكروا حين تطلبون المعونة من ربكم؛ وتستجيرون الله من عدوكم، وكان رسول الله يلح في الدعاء يوم بدر ويقول: «اللهم انصرني علىٰ أعدائك» حتىٰ قال أبو بكر: لا تنشد ربك يا رسول الله[٢].

---

(١) وهو قول عكرمة كما في تفسير الطبري (١٣/ ٣٩١).

(٢) في صحيح مسلم (١٧٦٣) عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلىٰ الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة، حتىٰ

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ أي: أجابكم ربكم ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ متتابعين، واحد بعد واحد، بعضهم علىٰ إثر بعض، قيل: نزل خمس مائة من الملائكة ورئيسهم جبريل، وخمسمائة أخرىٰ ورئيسهم ميكائيل، فكان جبريل علىٰ الميمنة وميكائيل علىٰ الميسرة(١).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إرداف الملائكة ﴿إِلَّا [بُشۡرَىٰ]﴾ بشارة ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ أي: تسكن قلوبكم بإنزالهم ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حقيقة النصر من الله لا من الملائكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ منيع بالنقمة ﴿حَكِيمٌ ١٠﴾ حكم بنُصرة المؤمنين يوم بدر.

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ أي السِنة، وهو ابتداء النوم.

قال ابن مسعود: النُعاس في الحرب من الله وفي الصلاة من الشيطان(٢).

﴿أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ أي: أمنًا من الله تعالىٰ ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: المطر ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وذلك أنَّ الكفار كانوا [علىٰ] ماء، والمؤمنون علىٰ غير الماء، فأصاب بعضهم الجنابة بالاحتلام، فلما أصبحوا وسوس إليهم الشيطان: لو كنتم علىٰ الحق ما بقيتم عن الماء عطاشًا وجُنبًا، فأمطر الله السماء حتىٰ سال الماء في الوادي، حتىٰ

سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه علىٰ منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾فأمده الله بالملائكة.

(١) روىٰ ابن جرير في التفسير (١٣/ ٤١٧) عن علي: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلىٰ الله عليه وسلم وفيها أبو بكر رضي الله عنه، ونزل ميكائيل عليه السلام في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وأنا فيها. وإسناده ضعيف.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ١٣/ ٤١٩.

اغتسلوا من الجنابة، وكان الوادي رملاً تغيب فيه الأقدام، فإذا أصابه المطر اشتد الرمل[١]، فذلك قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الجنابة.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يصبركم على القتال ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ١١﴾ أي: بالطر على الرمل.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ألهمهم ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ ناصر، وقيل: قولوا للمؤمنين إني معكم ومبشرهم بذلك.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ شجعوهم على الكفار، وقيل: ثبِّتوهم برؤيتهم إياكم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف والفزع، ثم علمهم كيف يقتلون الكفار فقال: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الأعناق، وقيل: رؤوسهم[٢] ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ يعني: الأصابع، وقيل: أراد به جميع المفاصل والقبائل[٣]، وقيل: أراد بالبنان الأيدي.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ خالفوه في الدين، وبرسوله كفروا ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ أي يعاديه ﴿وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٣﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل و الهزيمة ﴿فَذُوقُوهُ﴾ فجربوه، وإنَّ قدامكم أشد من ذلك، وهو[٤] ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾.

---

(١) قال ابن جرير: وبمثل ذلك تتابعت الأخبار عن أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم غيره من أهل العلم (تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٠، الكشف والبيان ١٣/ ٣٦.

(٣) القبائل هنا بمعنىٰ الشُّعَب.

(٤) في الأصل: فرق بالضمير بين الواو، وأن، ولا يتأتىٰ ذلك في آيات الرسم العثماني.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ يتزاحفون زحفًا ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ منهزمين.

وقيل: كونوا زحفانًا [ثابتين][1] غير منهزمين.

واللقاء: الاجتماع علىٰ جهة المقاربة، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يغضوا أبصارهم، ويمشوا إلىٰ عدوهم زحفًا مشاةً، وفيه: تحريض الله المؤمنين من أهل بدر أن يقاتلوا العدو مقبلين غير مدبرين.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ أي: ظهره[2] منهزمًا ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ﴾ أي: مستطردًا لقتال، أراد الكرَّة علىٰ العدو ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ أي: ينحاز إلىٰ جماعة شجعان من المسلمين، أي: يجتمع عليهم ليحفظوا ظهره.

والتحرُّف: الزوال عن جهة الاستواء إلىٰ جهة الحرف، والتحيُّز: هو طلب حيِّزٍ، أي: مكان يتمكن فيه[3].

قوله: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استوجب الغضب من الله ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾.

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ أي: يوم بدر بقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ [قَتَلَهُمۡۚ]﴾ نصركم وأعانكم بإمداد الملائكة حتىٰ قتلتموهم ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ وكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم أخذ كفًا من تراب الوادي فرمىٰ به إلىٰ الكفار، وقال[4]: «شاهت الوجوه»، فكثر الله ذلك التراب حتىٰ ملأ أعينهم وأنوفهم وأفواههم،

---

(١) لعلها هكذا، فإنها غير واضحة في الأصل.

(٢) في الأصل: يظهر، وهو تصحيف، والتصحيح من تفسير الكلبي حيث صدر عنه المصنف.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٥، البسيط ١٠/ ٦٢.

(٤) في الأصل: وقد، وهو تصحيف.

فأخبره الله تعالىٰ وقال: ما بلغت بكف من التراب إلىٰ أعينهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ [رَمَىٰ]﴾ تولىٰ ذلك وبلغه إلىٰ أعينهم[١].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ يعني: أراد الله أن يصنع بالمؤمنين من رمي التراب صنعًا بديعًا بالنُصرة والغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٌ ۝١٧﴾ بهم وبعقوبتهم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ مضعف صنيع الكافرين، والكيد: هو احتيال بشيء يوقع الرعب في قلب الخصم.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وإنما نزلت في أبي جهل لعنه الله، حين أراد الخروج من مكة إلىٰ بدر، تعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم انصر أعز الجندين وأكرم الفئتين، فلما اشتدت الحرب ببدر جاء مَلَك وصرعه عن فرسه، فقُتِلَ، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[٢].

﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: تنتهوا عن كفركم ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلىٰ قتالهم مرة ثانية بعد بدر ﴿نَعُدْ﴾ عليكم بالقتل والهزيمة ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ﴾ حينئذ ﴿فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ بعد أنْ يكون الله عليكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ بالنصر لهم والدفع عنهم.

---

(١) رواه الطبري في التفسير ١٣/ ٤٤٣، عن ابن عباس من رواية علي، وعن ابن زيد وقتادة والقرظي وغيرهم، وانظر: الكشف والبيان ١٣/ ٤٩. وهذا محل اتفاق بين المفسرين، ما خالف إلا الزهري في خبر رواه.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (١٣/ ٤٥٢) من طرق عدة، وهذا قول الجمهور، وقيل: إن المخاطب هم المسلمون، وهو ضعيف (الكشف والبيان ١٣/ ٥٥).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمر الغنيمة ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي: عن أمر الله في طاعة رسوله ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ موعظته.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ قيل: هم اليهود[1]، وقيل: هم المنافقون، يقولون: سمعنا كلامك ولا يسمعون ذلك، لأن السماع الحقيقي هو القبول ولا يقبلون.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي: شر الخليقة ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ لا يفهمون أمر الله، يتصاممون ويتباكمون ولا يفهمون.

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ يعني لو علم فيهم أهلية الإيمان لأكرمهم بالإيمان ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾ حتىٰ فهموا ما يراد منه ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عن الهدىٰ ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ لِعلم الله السابق فيهم أنهم مخلوقون للنار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ إلىٰ القتال ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يعني: إلىٰ القتال، حتىٰ تُقتلوا فتصيروا أحياء في الجنة أبدًا.

وقيل: لما يحييكم أي يعزكم ويشرِّفكم.

وقيل: يدعوكم إلىٰ العلم والقرآن الذي فيه سبب حياتكم[2].

---

(١) لم يجر ذكر لليهود فيما مضىٰ، وقد حكاه ابن الجوزي عن ابن عباس (زاد المسير ٢/ ١٩٨)، فيظهر أنه من رواية الكلبي، وهو قول غريب، بل المقصود: المشركون، وهو قول الجمهور، لأن ما مضىٰ يتحدث عنهم، أو المنافقون، وهو قول ابن إسحاق، لأن ما يستقبل ينالهم (تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٨، تفسير أبي الليث ٢/ ١٤، الكشف والبيان ١٣/ ٥٧).

(٢) وكل هذه الأقوال مؤتلفة غير مختلفة، يجمعها: الاستجابة لأمر الله ورسوله في المكره والمنشط، ولذا لما دعا النبي صلىٰ الله عليه وسلم أبا سعيد بن المعلىٰ، وكان أصلي في المسجد، فلم يجبه، ثم أجابه فقال: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال صلىٰ الله عليه

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ معناه: استجيبوا لله والرسول من قبل أن يحال بين المرء وقلبه؛ فتمتنع عنه التوبة بالموت.

وقيل: قبل أن يجعل الله القوي ضعيفًا، والضعيف قويًا، والذليل عزيزًا، والعزيز ذليلاً، والشجاع جبانًا، والآمن خائفًا، فأجيبوا الرسول بالخروج إلىٰ الجهاد قبل هذه الحوادث، واعلموا أنَّ محشركم إلىٰ الله في الآخرة، وعليه مجازاة أعمالكم(١).

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ تكون بعد موت النبي صلىٰ الله عليه وسلم ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ ولكنها تصيب الظالم والمظلوم، وهي ما وقعت بين الصحابة(٢).

والنون دخلت في تصيبن لأنه نهي بعد أمر، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾(٣).

وسلم: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾..الحديث، رواه البخاري (٤٤٧٤)، فدل هذا علىٰ عموم المراد.

ولذا قال ابن جرير بعد أن روىٰ هذه الأقوال: وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق. وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلىٰ حكم القرآن، وفي الإجابة إلىٰ كل ذلك حياة المجيب. أما في الدنيا، فبقاء الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة. وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها (تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٦).

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٨، الكشف والبيان ١٣/ ٦٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٣، الكشف والبيان ١٣/ ٦٧.

(٣) وهو قول نحاة الكوفة، وهو منقول من معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٧، وانظر: تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٥، معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١٠، الكشف والبيان ١٣/ ٦٥.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ معشر المهاجرين ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ أي: كنتم قليلاً في العدد ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ مقهورون في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يختلسكم أهل مكة ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ إلىٰ المدينة، أي: جعل المدينة مأواكم ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي: قوّاكم يوم بدر بظفره ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم الحلالات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ صنائع ربكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الخيانة: منع الحق بعد ضمان التأدية.

نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، أرسله رسول الله إلىٰ بني قريظة يكون حكمًا بينهم وبين النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فقام في مواجهتهم وأشار إلىٰ حلقه، أي: لا تنزلوا فإنه الذبح، فنزلت الآية(١).

أي: لا تنصحوا أعداء الله ﴿وَتَخُونُوٓاْ [أَمَٰنَٰتِكُمۡ]﴾ أمانات الله، وأمانة الله عند العبد أوامره ونواهيه، وترك الشيء منها خيانتها ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ أنكم خُنتم الأمانة(٢).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ الذين عند بني قريظة ﴿فِتۡنَةٞ﴾ وكان عندهم أولاده وماله، فخان المسلمين لأجل ذلك(٣) ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ ثواب وافر للناصحين لأمة محمد.

---

(١) وهو المشهور عند المفسرين، وقد تاب وحسنت توبته، والحديث رواه ابن جرير في التفسير ١٣/ ٤٨١، وهو في سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٧، والكشف والبيان ١٣/ ٧٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٨٦، تفسير أبي الليث ٢/ ١٦.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ يعني: إن تتقوا الله في ترك الخيانة وأداء الأمانة يسبب لكم ولعيالكم فرجًا ونجاةً، وقيل: فرقانًا هداية ونورًا في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل كيلا تخونوا أمانة الله ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ ما قد سلف من ذنوبكم ويغفر لكم الكبائر ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ علىٰ عباده.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: اذكر حين احتال في قتلك الكفار في دار النَّدْوة ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ في الوثاق أو الحبس ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ من البلد، وله قصة طويلة، وكان مدبرهم إبليس، ورئيسهم أبو جهل لعنهم الله، أشار عمرو بن هشام إلىٰ أن يُرْبَط علىٰ بعير ويُخْرَج من مكة ليموت جوعًا وعطشًا «أو يخرجوك»[(١)].

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: يحتالون لهلاكك بدلالة إبليس، ويجازيهم الله جزاء مكرهم، وهو قتلهم ببدر ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ أفضل الصانعين لأنه يجازي، وليس بمبتدئ بمكر.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ﴾ يعني: ما هذا الذي يقرأ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ يعني: ما سطره الأولون من الأكاذيب والأخبار، واحدها: أسطورة[(٢)].

---

(١) القصة في سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠، وانظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٨، تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٤، وبحر العلوم٢/ ١٧، والكشف والبيان ١٣/ ٧٨.

(٢) في الأصل: سطرة، وهو تصحيف، والصواب ما أثبت، قال ابن جرير (في التفسير ١٣/ ٥٠٣): الأساطير جمع أسطر، وهو جمع الجمع، لأن واحد الأسطر سطر، ثم يجمع السطر: أسطر وسطور، ثم يجمع الأسطر: أساطير وأساطر، وقد كان بعضُ أهل العربية يقول: واحد الأساطير: أسطورة. (انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١١، الكشف والبيان ١٣/ ٨٤).

نزلت في النضر بن الحارث[١]، ونزلت فيه أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أمطرت على أصحاب الفيل ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ كعذاب الأمم الماضية[٢].

قال الله تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: لا يعذِّبهم الله تعالىٰ، وكان زائدة[٣] ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي: بين أظهرهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ يعني: في أصلابهم المستغفرون.

وقيل: لا يعذبهم الله لو كانوا يستغفرون.

وقيل: لا يعذبهم عذاب استئصال واصطلام، ولكن يعذِّبهم دون ذلك بالقحط والخوف[٤].

ثم قال ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من بعد خروجك من بينهم، وبعد خلوِّ أصلابهم من المستغفرين ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يصرفون الناس عن الكعبة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: أولياء المسجد، وقيل أولياء الله

---

(١) قال المفسرون: كان النضر بن الحارث يختلف تاجرًا إلىٰ فارس، فيمرّ بالعِباد وهم يقرأون الإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء مكة، فوجد محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد، فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، للذي سَمِع من العباد. فنزلت (تفسير الطبري ١٣/ ٥٠٣، تفسير أبي الليث ٢/ ١٨، الكشف والبيان ١٣/ ٨٤).

(٢) انظر الروايات في النضر ومقولته تلك في تفسير الطبري ١٣/ ٥٠٥، والكشف والبيان ١٣/ ٨٤.

(٣) لا زائد في القرآن، بل كل كلمة في موضعها متمكنة الفصاحة، في أعلىٰ منازلها، وكذا كل حرف، فكان هنا: أفادت أن ذلك ما كان مكتوبا في الأزل، من دلالة الماضي، وهذا أعظم في تشريف النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فكأنه قال: مكتوب في الأزل أنه إذا كان في قوم لا ينزل بهم عذاب لبركته فيهم.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥١١، تفسير أبي الليث ٢/ ١٩، الكشف والبيان ١٣/ ٨٦.

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: ما أولياء المسجد الحرام ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من أمة محمد إلىٰ أن تقوم الساعة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أنَّ أولياءهم المؤمنون.

ثم نعتهم وقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذا صلَّىٰ في المسجد الحرام قام رجلان من بني عبد الدار عن يمين النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فيصفران كما يصفر المكاء، والمكاء: الطير في البادية -مشدد-[1] يصفر في صوته، ورجلان عن يساره فيصفقان بأيديهما[2].

وإنَّما سمَّىٰ الله المكاء والتصدية صلاةً؛ لأنهم: يجعلونها مكان صلاة المؤمنين ومكان الدعاء لهم.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بالله، وتجحدون نبوة رسوله، فقتلوا كلهم ببدر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون الناس عن دين الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ يعني: حسرة وندامة يوم القيامة، ثم يغلبون ويقتلون ببدر.

وأراد به المطعمون ببدر، كانوا يطعمون العسكر، لكل واحد منهم نوبة في الإطعام، وهم ثلاثة عشر رجلاً: أبو جهل، وأخوه الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحارث،

(١) أي: مكَّاء (الكشف والبيان ١٣/ ٩١).

(٢) وهو قول مقاتل في تفسيره ٢/ ١٦، وتتمته: فقتلهم الله ببدر هؤلاء الأربعة، ولهم يقول الله ولبقية بنىٰ عبد الدار: «فذوقوا العذاب» يعنىٰ القتل ببدر «بما كنتم تكفرون».

وحكيم بن حزام، وأُبي بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطب، كلهم من قريش[١].

ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ۝٣٦﴾ إذا ماتوا علىٰ كُفرهم.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: يفرق الكافر من المؤمن، والمرائي من المخلص، والمطيع من العاصي.

واللام: لام القسم[٢]، والتمييز: إخراج الشيء مما ليس منه.

وقيل: أراد به نفقة الكفار عن المسلم[٣].

﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾ فيجمعه جميعًا ﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ المغبونون بذهاب الدنيا والآخرة، إنما يدخل ذلك في النار ليزيد أهل النار بها حسرة، كما تدخل الآلهة معهم في النار.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ إن انتهوا عن الشرك يغفر لهم ما سلف في الجاهلية من الذنوب ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلىٰ الشرك ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ﴾ جرت وخلت ﴿سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ أي: جرت سُنَّة الله في الأولين بنصرة أوليائه، وإهلاك أعدائه، وسُنَّة الأولين من الكفار أن يهزموا ويقتلوا ويحشروا إلىٰ النار.

---

(١) وهو قول الضحاك، كما في الكشف والبيان ١٣/ ٩٦، وتتمته: وكانوا يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر. (انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠، معالم التنزيل ٣/ ٣٥٥).

(٢) لا وجه لذلك، بل هي لام التعليل (الهداية ٤/ ٢٨٢٠، البحر المحيط ٥/ ٣١٧).

(٣) الكشف والبيان ١٣/ ٩٦.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ يعني كفار مكة ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: لا يبقىٰ شرك في جزيرة العرب ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ أي العبادة في الحرم ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر وقتالكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من الانتهاء والتوبة ﴿بَصِيرٞ ٣٩﴾ عالِم.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن طاعتكم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ مالككم وناصركم ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ و«ما» بمعنىٰ الذي، يعني: الذي أخذتم من الكفار.

[﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾]

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وهو افتتاح كلام لأن الأشياء كلها لله، وهو قوله ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ ثم يقسم هذا الخمس علىٰ خمسة أسهم:

خُمس للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، وخُمس لأقرباء النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وخُمس لليتامىٰ من المسلمين، وخُمس للمساكين، وخُمس لأبناء السبيل.

والمساكين: الطوَّافون علىٰ الأبواب.

وابن السبيل: مار الطريق، وقيل الضيف النازل.

فسهم الله وسهم رسوله واحد، وكان رسول الله يأخذه وينفق علىٰ من شاء وما شاء من عمارة الكعبة والسلاح والكراع.

وسهم ذوي القربىٰ يجعله بين بني هاشم، ويجعل لأولاد عبد المطلب نصيبًا، وهم أولاد الحارث بن عبد المطلب، وأولاد العباس وأولاد علي وجعفر وعقيل.

فما توفي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم جعل الغنائم بين اليتامىٰ والمساكين وأبناء السبيل، وذهب سهم الله وسهم رسوله، وسقط سهم ذوي القربىٰ، وقسَم علىٰ ذلك أبو بكر، واتفق أصحاب رسول الله علىٰ ذلك(١).

ثم قال ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: محمد من القرآن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر حين(٢) غلب الحق الباطل، وقيل: يوم النصرة.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد وجمع قريش ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ من النصر والظفر.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: شفير الوادي مما يلي المدينة، يعني: الأقرب إلىٰ مسكنكم ﴿وَهُم﴾ يعني قريش، وهو أبو جهل وأصحابه ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: شفير الوادي الأبعد، وكانوا مما يلي مكة(٣)، والعدوة جانب الوادي ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني: العير، نزلوا أسفل منكم علىٰ شاطئ البحر، بعضكم من بعض قريب، والركب كانوا أربعون رجلاً فيهم أبو سفيان ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكة والعير علىٰ اجتماعكم في منزل واحد في ليلة واحدة لا يمكنكم ذلك ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن﴾ جمعكم الله علىٰ مكان واحد ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليمضيَ حكمًا كان في علمه مفعولاً كائنًا، وهو النُصرة لرسول الله، والهزيمة لعدوه، والهلاك لأبي جهل.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يقتل من قُتِلَ علىٰ الكفر بعد بيان وحجة ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يؤمن من أراد أن يؤمن بعد بيان وحجة.

---

(١) وفي ذلك خلاف بين أهل العلم، وهو مذكور في كتب تفسير الأحكام والفروع، وانظر: تفسير الطبري ١٣/ ٥٤٨، والكشف والبيان ١٣/ ١٠٣، جامع أحكام القرآن ٨/ ٩ فما بعد.

(٢) الكشف والبيان ١٣/ ١٠٥.

(٣) تصحف في الأصل: وحنين.

قيل: ليدخل في النار من كان من أهلها بعد البيان والحُجة، ويدخل في الجنة أهلها بعد البيان والحجة، فشبَّه الإيمان بالحياة والكفر بالموت.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ لدعائك على المشركين، عليمٌ: بعقوبتهم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ يعني: أراك الله الكفار في عينك قليلاً، وكان قد رآهم في نومه فأخبرهم بذلك -يعني أصحابه-.

وقيل: في اليقظة، والأول أوفق لقول الجماعة، ثم إذا التقوا ببدر قلَّل الله المشركين في أعين المؤمنين تصديقًا لرؤيا رسوله[1].

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم من العدو ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم في أمر الحرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أتمَّ لكم الأمر، وقيل: أعطاكم السلامة وأهلك عدوكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣﴾ أي: بإرادة ذوات الصدور.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ يعني: أراكم الله الكفار في أعينكم قليلاً عند الالتقاء حتى أجرأكم عليهم ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ يعني: في أعين المشركين حتى اجترؤوا عليكم ولم يستعدوا للحرب عُدة بالغة ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كائنًا في علمه، وهو: أن ينصر محمدًا صلى الله عليه وسلم ويقتل عدوه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤٤﴾ أي: عاقبة الأمور في الآخرة راجعة إلى الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ يعني: لقيتم فئة من الكفار اصبروا لقتالهم ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالدعاء والاستغفار، وقيل بالتكبير ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ بالظفر على العدو.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٥٦٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣، الكشف والبيان ١٣/ ١٠٨.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمر القتال ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ أي: لا تختلفوا في أمر الحرب فتجبنُوا ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ دولتكم ونصرتكم ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ مع نبيكم في القتال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ معينُهم.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ أي: لا تكونوا في المعصية كالذين خرجوا من مكة ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أشرًا ومراءاةً، منصوبان على الحال[١].

وكان أبو جهل لعنه الله يقول: لا نرجع إلى مكة حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمور ونقيم[٢] القينات، حتى تسمع العرب بخروجنا.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: مع بطرهم وريائهم يمنعون السِّفلة والأتباع عن متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ أي: بأعمالهم الخبيثة.

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: قُبْحَ أعمالهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك أنَّ إبليس قد جاء على صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، وكان سراقة سيدهم، وكان بين قريش وبين كنانة دماء، فخاف أهل مكة أن يعينوا خصمهم، فقال لهم إبليس من لفظ سراقة: لا غالب لكم اليوم من الناس -يعني محمدًا وأصحابه- فجِدُّوا في حربه ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ من بني كنانة، وإذا كنت أنا فيكم لا تخالفونني ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ أي: التقى الجمعان: المسلم والكافر ﴿نَكَصَ﴾ أي: رجع الشيطان ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ خلفه منهزمًا هاربًا، لأنه رأى الملائكة تنزل من السماء ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ فقبض شيبة بن ربيعة بمجامع ثوبه، وقال: يا سراقة، الله الله،

---

(١) وقيل: مفعولان لأجله (التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٦٢٦، الدر المصون ٥/ ٦١٦).

(٢) كذا في الأصل، وفي تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٨، والكشف والبيان ١٣/ ١١٥): وتعزف.

أتخذلنا في هذا الموضع بعدما حرَّضتنا علىٰ القتال، فدفعه دفعة رماه بها وأدبر، وهو ينادي: إني بريء منكم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ مِن الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أن يصيبني معكم بعذابه[1].

قال مقاتل: كذب عدو الله، ما كان به خوف، ولكنهم خذلهم عند الشدة، فانهزموا علىٰ أثره، وقالوا: انهزم بالناس سراقة، فبلغ الخبر إلىٰ سراقة فذهب إلىٰ مكة، وقال: والذي يحلف به ما شعرت بمسيركم حتىٰ بلغني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنه فِعل إبليس[2] [﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤٨﴾].

﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك في دين الله ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ الإسلام، يعنون رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه.

والغرور: إظهار النصح وإبطان الغش.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جميع ما ينويه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٩﴾ منيع بالنِقمة من أعدائه، حكيم للنصر لمن توكل علىٰ الله.

ثم ذكر حال المنافقين ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: تقبض الملائكة أرواحهم يوم بدر ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي: ظهورهم بالعُمُد ﴿وَذُوقُواْ﴾ يعني: يقولون لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠﴾ وجواب الكلام محذوف، وجوابه: لو رأيت ذلك لرأيت أمرًا صعبًا[3].

---

(١) قصة سراقة في السيرة لابن هشام ١/ ٦٦٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٧، والكشف والبيان ١٣/ ١١٦.

(٢) تفسير مقاتل ٢/ ٢١. وعنه في الكشف والبيان ١٣/ ١١٨.

(٣) البسيط ١٠/ ١٩٤.

وقيل: قولهم «ذوقوا عذاب الحريق» يكون في القيامة بعد ما ذاقوا السيف في الدنيا، أي: جربوا[١].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وألسنتكم من الشرك والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ أي: لا يعذِّب بغير جُرم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: عادة[٢] هؤلاء في الكفر كعادة آل فرعون، فجُوزوا هؤلاء بالقتل والسبي كما جُوزي آل فرعون بالغرق والإهلاك ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كعادة مَن كان قبلهم مثل قوم نوح وهود وثمود ﴿كَفَرُوا۟﴾ ربهم، فهؤلاء كفروا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مثلهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وكُفرهم وتكذيبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ في أمرهم، بالانتقام ممن عصاه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ إذا عاقب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب لأهل مكة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: ليعلموا بأن الله ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ [حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ]﴾ أي: لا يزيل علىٰ قوم نعمة أعطاهم حتىٰ يزيلوا ذلك بترك الشُكر واستعمالها في المعصية، كما غيَّر علىٰ أهل مكة حين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؛ فكفروا بنعمة الله فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف[٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ بإجابتكم.

---

(١) الكشف والبيان ١٣/ ١٢٢.

(٢) تصحفت هذه الكلمة في المواضع كلها: عبادة، والتصحيح من كتب التفسير، (مجاز القرآن ١/ ٢٤٧، تفسير الطبري ١٣/ ١٨، معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٠٩، الكشف والبيان ١٣/ ١٢٣، البسيط ١٠/ ٢٠١) وسترد بعد آية علىٰ الصواب.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٩.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: عادة هؤلاء في تغير الرحمة كعادة آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ﴾ أي فرعون وقومه ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ كافرين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ الخليقة ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من بني قريظة وغيرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أبدًا[1].

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ أي: عاهدتهم بأن لا يقاتلوك ثم ينقضون عهدهم بالعُذْر ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ عادتهم ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ نقض العهد.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾ مهما تأسرنهم وتأخذنهم في الحرب وغيره ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: إذا أسرتهم نكِّل بهم تنكيلاً، وعاقبهم عقوبة تشرِّد وتفرق بتلك العقوبة من يأتي خلفهم من أهل العهود ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يتعظون عن نقض العهد.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: تعلمنَّ ﴿مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ بنقض العهد ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: اطرح إليهم العهد وأعلِمهم بذلك ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ لتكون أنت وَهُم في نقض العهد علىٰ استواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ البادين بنقض العهد[2].

---

(١) لا خلاف بين المفسرين أن الآية نازلة في بني قريظة (تفسير الطبري ١٤/ ٢٢، الكشف والبيان ١٣/ ١٢٧، زاد المسير ٢/ ٢١٩).
وفيه: قال المفسرون: كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قد عاهد يهود قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا ثم عاهدوه الثانية، فنقضوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق، وكتب كعب بن الأشرف إلىٰ مكة يوافقهم علىٰ مخالفة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.
(٢) الكشف والبيان ١٣/ ١٢٩.

وقيل: إن قتلتهم بغير إعلام فتكون خائنًا والله لا يحب الخائنين.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ﴿سَبَقُوٓاْۚ﴾ انفلت قوم من المشركين يوم بدر، فاغتم بذلك رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ﴾.

إنْ قرأت بالتاء فالخطاب لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وإن قرأت بالياء فالخطاب للكفار، ومعناه: لا تحسبن يا محمد أنهم سابقين وفائتين من عذابي[1].

﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾ الله عن عقوبتهم.

ثم قال ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أي للكفار ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي سلاح ورمي وقسي ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ أي: ربط الخيل علىٰ العلف ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوِّفون بالخيل ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ بني قريظة والنضير ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ تخوِّفون أعداءً آخرين مِن دون بني قريظة من سائر الكفار[2].

وقيل: أراد به الجن، لأنَّ الجني يخاف من صهيل الفَرَس ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ أنتم ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾[3].

وقيل: هم أهل فارس والروم.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ يوفر عليكم ثوابه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ بنقص الثواب.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وحفص بالياء، واختلف عن إدريس عن خلف، وقرأ الباقون بالتاء (النشر ٢/ ٢٧٧).

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٣٦.

(٣) ذكره أهل التفسير ولم ينسبوه لأحد، تفسير الطبري ١٤/ ٣٦، الكشف والبيان ١٣/ ١٣٣. وفي تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩: أن الجن لا تدخل بيتا فيه قوس وسهام.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ إنْ مالوا إلىٰ الصلح فمِل إليها، وإنْ خفت تدليسًا منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ لما طلبوا من الصلح، ولما أضمروا في قلوبهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟﴾ بني قريظة ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ في الصلح، والخديعة: هي إظهار المحبوب إذا كان الإضمار بخلافه ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ معناه: أن الذي تولىٰ كفايتك هو الله، وهو الذي قوَّاك وأعانك علىٰ عدوك يوم بدر مع قلة أعوانك، وأمدَّك بالملائكة ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأيدك بالأوس والخزرج ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ جمع الله علىٰ الإسلام قلوبهم، وكانوا قبل ذلك متباغضين، وبينهم حرب ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الذهب والفضة لتألِّف قلوبهم ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لم تقدر علىٰ ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ جمع بينهم ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ بالنقمة ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ حكم التأليف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فيه معنيان:

أحدهما: أنَّ الله يكفيك ويكفي المؤمنين أيضًا، فيكون [«من»] في موضع النصب.

والثاني: أنَّ الله يكفيك ومن اتبعك من المؤمنين يكفيك أيضًا، فيكون «من» في موضع الرفع.

والثاني قول الزجاج واختياره وقول الحسن(١)، والأول قول الشعبي وأبي سهل(٢).

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٧، تفسير الطبري ١٤/ ٥٠، معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠، والفراء هو الذي اختار هذا القول، أما الزجاج فحكىٰ القولين.

(٢) وقول الضحاك وابن زيد كذلك، انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٤٩، معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠، الكشف والبيان ١٣/ ١٣٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ قتال المشركين، أي: أخبرهم بثواب المجاهدين، [و] حظهم من الغنيمة ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ يحتسبون في الحرب ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾ من المشركين ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عن الله عز وجل أمره وتوحيده، وأنتم تفقهون ذلك.

ثم قال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ أي: هوَّن الله عليكم الأمر الذي افترضه عليكم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ في النية والصبر ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ الآن ﴿مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ محتسبة ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾ من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ من الكفار ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بأمره ومشيئته ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بمعنى النصرة.

والآية الأخيرة ناسخة للآية المتقدمة على قول الجماعة، منهم: ابن عباس(١)، ولفظ الآية خبر ومعناه الأمر حتى يحتمل النسخ، لأنَّ الخبر لا يحتمل النسخ(٢).

وقيل: نزلت هذه الأخيرة بعد الأولى بمدة طويلة.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما جاء لنبي وما ينبغي له أن يكون له أسرى، أي: يقبل الفداء من الأسارى حتى يثخن في

---

(١) لفظ حديث ابن عباس: لما نزلت هذه الآية، ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفا، فخفف الله عنهم. فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ قال: وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم. وإن كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوّزوا عنهم، رواه الطبري في التفسير ١٤/ ٥٢.

(٢) وهو معنى قول ابن جرير في التفسير ١٤/ ٥٦.

الأرض، حتىٰ يتمكن في الأرض ويبالغ في قتل الأعداء، ويغلب علىٰ جزيرة العرب.

وذلك أنَّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم أسر ببدر سبعين رجلاً من قريش، فيهم عمه العباس، فشاور أبا بكر وعمر في الأسارىٰ، فقال أبو بكر: أرىٰ أن تأخذ منهم الفداء، فيقوىٰ به أصحابك، ولعل الله يهديهم، فأعجب رسول الله ذلك، وقال عمر رضي الله عنه: أرىٰ أن تضرب أعناقهم، والله تعالىٰ أغناك عن الفداء، فكره رسول الله ذلك، وقال لأبي بكر: مثلك مثل إبراهيم حيث قال ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ وقال لعمر: مثلك مثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ فجعل علىٰ كل رجل أربعين أوقية فداء، وعلىٰ عمه مائة أوقية، لإقدامه علىٰ قطع الرحم، وإطعامه أعداء الله، فنزلت الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ﴾ الفداء، إلىٰ قوله ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ كما قال أبو بكر[1].

---

(١) روي هذا عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، وهو لم يسمع منه في قول النقاد، وعن ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة وأبي زميل، وعن بعض التابعين، رواه الطبري في التفسير ١٤/ ٥٩، وذكره الثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ١٤٠.
وحديث أبي زميل في صحيح مسلم (١٧٦٣)، ولفظه: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارىٰ، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لأبي بكر، وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارىٰ؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرىٰ أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة علىٰ الكفار، فعسىٰ الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «ما ترىٰ يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرىٰ الذي رأىٰ أبو بكر، ولكني أرىٰ أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيبا لعمر، فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧﴾ إن شاء انتقم من الكفار من غير قتالكم، وإن شاء حكم عليكم بالقتل.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لولا قضاء من الله سبق بالمغفرة لأهل بدر ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: أصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٨﴾ وقيل: لولا ما قضىٰ من إحلال الغنيمة.

ثم قال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ من غنائم الكفار بعد إخراج الخُمس منه، حلال لكم طيب قد طيَّبها الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ اخشوه ولا تغلوا من الغنائم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ متجاوِز لما فرط منكم ﴿رَّحِيمٌ ٦٩﴾ إذ لم يعذِّبكم فيما فعلتم قبل الرخصة، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «لو نزل العذاب لنجا منه عمر بن الخطاب»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ أي: العباس ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: صدق الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: ما أخذه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم منكم من الفداء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ ذنوبكم مما سلف من الشرك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٠﴾ قال العباس رضي الله عنه: صدق الله وعده، قد أعطاني خيرًا مما أخذ مني، إن لي عشرين مملوكًا كل مملوك يضرب بعشرين ألفًا من التجارة، وأعطاني زمزمًا، وأنا أرجوا المغفرة من ربي(٢).

وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنىٰ من هذه الشجرة» - شجرة قريبة من نبي الله صلىٰ الله عليه وسلم - وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ إلىٰ قوله ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم.

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ٧١، من حديث ابن زيد مرسلا.

(٢) روىٰ ابن جرير نحوه من طرق عدة عن ابن عباس (التفسير ١٤/ ٧٣، ٧٤).

قيل: لما ضرب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الفداء علىٰ العباس مائة أوقية، فقال: يا ابن أخي أتتركني أسأل الناس؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أين الدنانير التي دفعت إلىٰ أم الفضل ليلة خرجت إلىٰ بدر» فقال: من أخبرك بهذا ولم يكن معنا ثالث؟ فقال: «الله أخبرني وهو عالِم الغيب والشهادة» فقال العباس: علمت أنك رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فأسلم(١).

وأخذ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الفداء من الكل غير عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث فإنهما قد ضرب أعناقهما، والآية نزلت بعد أخذ الفداء، والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي: نقض العهد فلا تبال ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ حين قاتلوك ببدر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: غلَّبك عليهم وأظفرك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهم من الخيانة ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ حكم أنهم [إن] عادوا فعُد أنت أيضًا.

والإمكان: القدرة علىٰ المبتغَىٰ من غير مانع(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين صدقوا وهاجروا من مكة إلىٰ المدينة، وحاربوا العدو بأموالهم وأنفسهم لإعزاز دين الله، ثم ذكر الأنصار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ أي أعطوا رسول الله المأوىٰ ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أعانوه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الدين والميراث، يعني المهاجرين والأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أهل مكة ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ كهجرتكم ﴿مَا لَكُم﴾ معشر المهاجرين ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لا ترثونهم ولا يرثونكم ما لم

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢٤، وإسناده جيد.

(٢) البسيط ١٠/ ٢٦٤.

يهاجروا ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ وإن لم يهاجروا إليكم فانصروهم لئلا يردهم الكفار عن دين الإسلام[١].

الوَلاية: بنصب الواو مصدر الولي، وبكسر الواو مصدر الوالي[٢].

ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ مثل بني كنانة، فإنهم إن استنصروكم عليهم فأصلحوا بينهم ولا تدعوهم يقاتلون ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢﴾ صار منسوخًا بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ [إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ] ۝١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ مقدَّم ومؤخَّر، معناه: وإنْ استنصروكم فعليكم النصر إلا تفعلوا أي: لا تعينوهم[٣] ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: ترك نصرهم فتنة لهم،

---

(١) الكشف والبيان ١٣/ ١٥١.

(٢) وقال الكسائي: بالفتح النصر، وبالكسر الإمارة (الكشف والبيان ١٣/ ١٥٢).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٨٥، الكشف والبيان ١٣/ ١٥٢.

قال الواحدي (في البسيط ١٠/ ٢٦٨): في الكناية في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أن الكناية تعود إلىٰ الموالاة، وذلك أن قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ معناه: بعضهم يوالي بعضًا، وهذا يدل علىٰ المصدر، فكني عنه.. قال ابن الأنباري: فتكون الهاء عائدة علىٰ التوارث، أي: إن لا تفعلوا التوارث علىٰ ما حد الله لكم تكن فتنة في الأرض.

وهذا القول كالأول؛ لأن الوراثة كانت بالولاية، فسواء عادت الكناية إلىٰ التوارث، أو إلىٰ الموالاة فالمعنىٰ واحد، وعلىٰ معنىٰ قول ابن جرير تكون الكناية راجعة علىٰ التناصر..، والقولان في رجوع الكناية ذكرهما الفراء والزجاج، ولابد من تقدير تقديم وتأخير في الكلام؛ لأنا إن قلنا: تعود إلىٰ الموالاة فكأن قيل: أولئك بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة، وإن قلنا: تعود علىٰ التناصر فكأنه قيل: فعليكم النصر إلا تفعلوه تكن فتنة (وانظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٩).

يرجعون إلىٰ الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣﴾ بالقتل، الفتنة هاهنا: المحنة بالميل إلىٰ الضلال، والفساد: تناول القبيح.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لا شك في إيمانهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تمحيص لذنوبهم في الدنيا ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾ ثوابٌ حسن في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ المهاجرين الأولين ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ والمهاجرة: فراق الوطن إلىٰ غيره من البلدان، والمجاهدة[1]: تحمل المشقة في قتال العدو.

﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ في الولاية والميراث ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الميراث ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: فرائض الله، وقيل: حكم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾ كان في ابتداء الإسلام لا يجري التوارث بين المهاجر وغير المهاجر إن كانا مسلمين، فنسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الأنفال والتوبة فأنا له شفيع وشهيد يوم القيامة أنَّه بريء من النفاق، وأعطي له من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة في دار الدنيا عشر حسنات، ومُحي عنه عشر سيئات بعددهم، ورفع له عشر درجات»[2].

---

(١) في الأصل: والمهاجرة، وهو سبق قلم.

(٢) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ٧، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٧٥.

سورة التوبة

مدنيَّة[1]، وهي مائة وتسع[2] وعشرون آية في الكوفي[3].

قوله عز وجل: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾:

سئل أُبي بن كعب: لم ترك كتابة بسم الله الرحمن الرحيم علىٰ رأس سورة براءة؟ قال: لأن هذه السورة آخر ما نزل من القرآن، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بيَّن موضع كل سورة، وتوفي ولم يبن موضع هذه السورة، فألحقناها بسورة الأنفال لتشابههما[4].

---

(١) قال ابن الجوزي (في زاد المسير ٢/ ٢٣٠): لها تسعة أسماء: أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة وهذان مشهوران بين الناس. والثالث: سورة العذاب، قاله حذيفة. والرابع: المقشقشة، قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود. والسادس: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة، لأنها بعثرت أخبار الناس وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد وابن إسحاق. والثامن: المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة. والتاسع: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج.
وانظر: مبحث أسماء سورة التوبة في الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٦١.

(٢) تصحفت في الأصل: إلىٰ سبع، والتصحيف بين سبع وتسع مهيع واسع.

(٣) لا خلاف في مدنيتها (الكشف والبيان ١٣/ ١٥٧، البيان في عد آي القرآن ١٦٠، الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٦١). وهي ١٢٩ في الكوفي، و ١٣٠ في عدد الباقين (البيان ١٦٠).

(٤) المعروف أن ذلك من رواية ابن عباس عن عثمان، رواه أحمد في المسند (٤٩٩)، وهو حديث منكر. ورواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦).
قال الزجاج: أمْرَ العهودِ مذكور في سورة الأنفال، وهذه نزلت بنقض العهود فكانت ملتبسة بالأنفال في الشبه (معاني القرآن ٢/ ٤٢٧).
لكن نقله الزمخشري عن أبي بن كعب، فقال في الكشاف ٢/ ٢٤١: وعن أبىٰ كعب: إنما توهموا ذلك، لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود، ولم يذكره الزيلعي في تخريجه.

وفي قول الكلبي: هي من سورة الأنفال[١].

وسُئل علي بن أبي طالب عن ذلك، قال: لأنَّ سورة براءة نزلت في السيف، وليس للسيف أمان، وبسم الله الرحمن الرحيم من الأمان[٢].

وعامل الإعراب في قوله «براءة» أي: هذه براءة[٣]، أي: نقضُ عهدٍ علانيةً من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١﴾ أي: عن الذين عاهدتم، وكلمة إلىٰ مقبض علىٰ قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ معناه: براءة منبوذة إلىٰ الكفار من عهودهم.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ آمنين من القتال، من يوم النحر سنة تسع من الهجرة إلىٰ تمام أربعة أشهر، أمر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عليًّا بأن يقرأ علىٰ أهل الجمع بمنًىٰ تسع آيات من سورة براءة، ومن كان بينه وبين رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عهد أكثر من أربعة أشهر فقد حطَّه إلىٰ أربعة أشهر، ومن كان عهده دون أربعة أشهر أكمل إلىٰ أربعة أشهر، ومن لم يكن له عهد كان آمنًا إلىٰ خمسين ليلة: عشرون من ذي الحجة وثلاثون من المحرم بعده[٤].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي: إن سرتم في الأرض فلم تفوتوا من

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧، وقد عقد ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٢٣١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٦٢، فصلا لبيان سبب ترك البسملة، وهذا القول نسب إلىٰ غير واحد.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٢٣١، القرطبي في تفسيره ٨/ ٦٢، وروىٰ الثعلبي عن ابن عيينة مثله (الكشف والبيان ١٣/ ١٦٤).

وكل هذه التخريجات لا تعدو أن تكون تعليلا لعدم إثباتها، فإنها إنما تركت لأجل الرواية، فالقرآن منقول بالتواتر، وقد أجمع القراء علىٰ ترك البسملة هنا، وهذا الإجماع يفيد العلم اليقين أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم لم يبسمل بها، والله أعلم.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٨، الكشاف ٢/ ٢٤٢، التبيان ٢/ ٦٣٤، الدر المصون ٦/ ٥.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٩٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧، الكشف والبيان ١٣/ ١٦٧.

عذاب الله هربًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ أي معذِّبهم.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذا إعلام من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعني أهل العهد ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يوم عرفة، وقيل: يوم منًىٰ لأنَّ فيه طواف الزيارة(١).

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أيضًا ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ عن نقض العهد، وقيل: رجعتم عن الكفر ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أعرضتم عن الإيمان ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ أي: غير فائتين من عذابه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهم حي من بني كنانة، عاهدوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تسعة أشهر، ولم ينقضوا، فأمر بإتمام عهدهم(٢) ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لم ينقضوا عهدهم ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ لم يعاونوا ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ تسعة أشهر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾ عن نقض العهد.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ أي: ذهب ومضىٰ المحرَّم، لأنَّ بمُضي المحرم تمضي(٣) الحُرُم ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مَنْ لم يكن له عهد ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ في الحلِّ والحرم ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ يعني: ائسروهم ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ أي: احبسوهم ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ أي: خذوا عليهم كل ممر ﴿فَإِن تَابُواْ﴾

---

(١) أي يوم النحر، وهذان قولان مشهوران (تفسير الطبري ١٤/ ١١٣)، ورجح ابن جرير أنه يوم النحر.

(٢) لم يذكرهم ابن جرير، وانظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٣٩، الكشف والبيان ١٣/ ١٩٥، تفسير السمعاني ٢/ ٢٨٨، معالم التنزيل ٤/ ١٢.

(٣) لعلها هكذا، فإنها مصحفة، وصورتها: نصب.

من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أقروا بفرضيتها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أقروا بها ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥﴾ متجاوِز لما سلف من الشرك، قابل لتوبتهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ بعد انقضاء المدة ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: استأمنك فأمِّنه من القتل ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يسمع قراءتك لكلام الله، فيقف على ما أمر الله له ونهاه عنه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: موضع أمنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإجارة لهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ٦﴾ توحيد الله، فيجب أن تقام عليهم الحجة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ على وجه التعجب، وقيل: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يكون للمشركين عهد عند الله ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم بنو كنانة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: بيتوا على الوفاء ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ فاحفظوا عهدهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧﴾.

﴿كَيْفَ﴾ يحفظون عهدكم ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ أي: لا يحفظوا فيكم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الإل: القرابة والذمة: العهد، وقيل: الإل العهد والذمة الأمان، وقيل: الإل اسم من أسماء الله تعالى[1].

المعنى: إن ظفروا بكم لا يحفظون حق قرابتكم وعهودكم ولا حق الله.

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بألسنتهم بغير إخلاص ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تنكر قلوبهم ما يقول باللسان ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ٨﴾ خارجون عن أمر الله.

---

(١) ذكرها في زاد المسير ٢/ ٢٣٨.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ اختاروا بكتمان آيات الله وتحريف التوراة عَرَضًا يسيرًا من الدنيا(١) ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: منعوا الناس عن طريق الحق وهو الإسلام ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾ أي: لا يحفظوا فيكم ﴿إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾ المجاوزون عن الحد.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهم(٢) ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: الإسلام، وإنما ذكر هذا لأنَّ الأول للتخلية، والثاني لإثبات الأخوة ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ يفهمون من الله تعالىٰ.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ نقضوا عهودهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: عانوا علىٰ دينكم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ سادة الكفار، مثل أبي سفيان والحارث بن هشام ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: لا عهد.

وقرئ: «لا إيمان لهم» لأنهم مشركون(٣).

﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ عن الشرك.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا﴾ كلمة «ألا» كلمة تحريض ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾

---

(١) هذا قول الكلبي، أن الآية نازلة في اليهود، وهو قول شاذ، وقال مجاهد وعطاء ومقاتل: في المشركين، لأن أبا سفيان كان يعطي الناقة ليصد عن سبيل الله (تفسير أبي الليث ٢/ ٤١).
وهذا هو الذي اختاره ابن جرير، وهو الظاهر من سياق الآيات (تفسير الطبري ١٤/ ١٥١، الكشف والبيان ١٣/ ٢١٢).

(٢) فصل بين الفاء وإخوانكم بهم.

(٣) في الأصل: لا أمان، وهو تصحيف، وهذه قراءة ابن عامر مصدر آمن إيمانا (النشر ٢/ ٢٧٨).

يعني: قريشًا نقضوا عهودهم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة قبل الهجرة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ بالنكث، حيث أعانوا بني الديل -وهم بنو بكر- علىٰ خزاعة وقاتلوهم، وخزاعة في عهد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم(١).

﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ استفهام بمعنىٰ الإنكار، أي: لا تخشوهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ أي: حاربوهم ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ بسيوفكم ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يذلهم بالهزيمة ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٍ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ يعني: أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم(٢).

وشفاء الصدر: سكون القلب بزوال الهموم.

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ أي: غيظ خزاعة ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ من بني الديل(٣) ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ من كان أهلاً للتوبة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يؤمن ﴿حَكِيمٌ ١٥﴾ في أمره.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ أظننتم يا أصحاب محمد أن تتركوا علىٰ الإقرار فقط ولم تؤمروا بالجهاد ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي: لم يميِّز المجاهدين عن غير المجاهدين، قيل: أراد به العلم الذي يُجازىٰ العبد، وإنما يجازىٰ العبد علىٰ ظاهر فعله، فإذا ظهر منه العمل علم الله منه الفعل الذي يستحق الجزاء.

---

(١) قيل في البدء الأول: قاتلوكم ببدر، وقيل قاتلوا حلفاءكم خزاعة، تفسير الطبري ١٤/ ١٥٨.

(٢) يعين بأصحابه: حلفاؤه من خزاعة.

(٣) في الأصل: الدليل. وبنو الديل -ويقال: الدئل- من خزاعة، وهذا أحد قولين في الآية، وهو قول عكرمة، والثاني: أنه عام في المشركين، وهو المختار (الكشف والبيان ١٣/ ٢٢١، زاد المسير ٢/ ٢٤١).

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ولا دون المؤمنين ﴿وَلِيجَةً﴾ أي: خاصة وبطانة.

والوليجة: الدخيلة في القوم من غيرهم، وهو الذي يتخذه غيرُه صاحبَ سرٍّ يفضي إليه سرَّه، وحقيقة المعنىٰ: أحسبتم أن تتركوا بمجرد قولكم آمنَّا؛ ولا نختبر صحة دعواكم بالجهاد في سبيل الله؛ والإخلاص في دينكم وإيمانكم؛ والامتناع عن موالاة الكفار ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فيه تهديد للمنافقين، وعظة للمخلِصين.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أُسِرَ يوم بدر، عيَّره المؤمنون بأفعاله، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتتركون محاسننا، فقالوا: وما محاسنكم؟ فقال: نحن عُمَّار بيت الله، وفينا السقاية والسدانة، نسقي الحاج ونفك الأسير[1]، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ عمارة المسجد بالطاعة لا بالتزيين والتطيين.

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ لأنَّ اليهودي يقول: أنا يهودي، والنصراني يقول: أنا نصراني، وعابد الوثن يقول: أنا عابد الوثن[2] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بالشرك ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لم يعبد إلا الله ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ أي: لا شك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ بدين الإسلام، وعسىٰ بمعنىٰ اليقين.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ١٧٠، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وذكره في تفسير أبي الليث ٢/ ٤٦، والكشف والبيان ١٣/ ٢٢٥.

(٢) وهذا قول السدي، رواه عنه ابن جرير في التفسير ١٤/ ١٦٦. والمعنىٰ: أنهم يقرون علىٰ أنفسهم بالشرك إما بدلالة الحال أو المقال (الكشف والبيان ١٣/ ٢٢٩).

ثم وبَّخهم فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: كإيمان مَن آمن ﴿بِٱللَّهِ﴾ وقيل: أجعلتم صاحب السقاية وعامر المسجد كمن آمن بالله ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ هذا في الجنة وذاك في النار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ أي: لا يلهم الكافرين ما أصروا على كفرهم، وقيل: لا يهديهم إلى الحجة على أهل الحق.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ من مكة ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أنفقوها في الجهاد ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ نصب على التمييز، أي: درجة المؤمن أرفع عند الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾ بالظفر بالجنة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: يفرحهم بالجنة والكرامة ورضوان بأنْ لا يسخط عليهم، وجنات: بساتين ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١﴾ دائم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: في الجنة خالدين، نصب على حال البشارة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٢﴾ ثواب وافر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قيل: لما أمر رسول الله بالهجرة فكان بعضهم يمنعهم آباؤهم وإخوانهم عن الهجرة، فنزلت الآية(١).

لا تتخذوا(٢) آباؤكم وإخوانكم الذين بمكة أحباء في العون والنُصرة ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: اختاروا الشرك على الإيمان بالله ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ وافقهم في الجلوس بمكة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ لأنفسهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٧٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧، الكشف والبيان ١٣/ ٢٤٠.
(٢) في الأصل: تتخذ.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: أقرباؤكم الذين كلهم بمكة ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها، الاقتراف: الاكتساب للمال ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يخافون ألا تَنفق بالمدينة ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: منازل تحبونها بمكة.

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: طاعة الله وطاعة رسوله بالهجرة ﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي: أحب إليكم من الجهاد ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بنُصرةٍ لنبيه، وقيل: حتىٰ يفتح الله مكة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ خاصة، وحُنين: اسم وادٍ بين مكة والطائف، وذلك أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم خرج في عشرة آلاف رجل إلىٰ وادي حنين، فقال [رجل من الأنصار] (١): يا رسول الله، والله لا نغلب اليوم من كثرة، فساءت رسول الله كلمته، فابتلاهم الله بتلك الكلمة، فجاء مالك بن عوف الدهماني(٢) ومعه أربعة آلاف كسروا جفون سيوفهم، وحملوا علىٰ المؤمنين حملة شديدة فهزموهم جملة، ولم يبق مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إلا قليل من الناس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان يقود ناقة رسول الله، وعباس أخذ... (٣) وأمر رسول الله عباسًا وكان رجلاً صيِّتًا

---

(١) في الأصل: أمير الكفار، وهو تصحيف شنيع، أمير تصحيف من، حيث مدّ النون في الأصل، والأنصار تصحفت إلىٰ الكفار، وقيل إن القائل: سلمة بن سلامة (انظر: تفسير الطبري ١٤/ ١٨٠، تفسير أبي الليث ٢٨/ ٤٨، الكشف والبيان ١٣/ ٢٤٧، البسيط ١٠/ ٣٤٦).

(٢) كذا في الأصل، ودُهمان جده، فهو: مالك بن عوف بن مالك بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن واثلة بن دُهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، أسلم وشهد القادسية.

(٣) كلمة لم أستطع قراءتها، والمشهور أن العباس كان آخذا بلجام دابة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، كما في كتب السيرة والمصادر المذكورة. والقصة في صحيح مسلم مطولة.

لينادي: يا أهل القرآن اجتمعوا إلىٰ رسول الله، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «أيها المهاجرون إليَّ إليَّ، أين أصحاب الصُفَّة، أين أصحاب سورة البقرة» فاجتمع إليه الناس بعد الهزيمة، وحملوا علىٰ الكفار، فهزمهم الله تعالىٰ، فولوا مدبرين فذلك قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: انهزمتم بإعجابكم بالكثرة، فلم تنفعكم كثرتكم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع رحبها وسعتها، حتىٰ كدتم أن لم تجدوا مفرًا ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أعرضتم منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طمأنينته وأمنه ورحمته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا﴾ من السماء ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة صلوات الله عليهم ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والهزيمة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من أهل الطائف فيهديهم لدينه، ومن المنهزمين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ غفور لما كان من هزيمتهم، رحيم بهم حين رخص لهم في التوبة(١).

---

(١) روىٰ مسلم في الصحيح (١٧٧٥) عن عباس قال: شهدت مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقىٰ المسلمون والكفار ولىٰ المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أي عباس، ناد أصحاب السمرة»، فقال عباس -وكان رجلا صيتًا-: فقلت بأعلىٰ صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله، لكأن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ أي: قذر مستقذر، مصدر أقيم مقام الفاعل ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ الحج والطواف ﴿بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهو عام البراءة، سنة تسع من الهجرة ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ يا أهل مكة ﴿عَيۡلَةٗ﴾ أي: فاقة بسبب انقطاع التجار من مكة ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أي: من رزقه مِن وجه آخر ﴿إِن شَآءَۚ﴾ لأنَّ الإغناء بمشيئة الله، قيل: أسلم أهل صنعاء وتُبالة وجُرش[١]، وحملوا الطعام إلىٰ مكة، وأغناهم الله عن تجار بكر وائل[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٞ ٢٨﴾ حكم أنَّ الغنىٰ بيده لا يملكه غيره.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ اليهود والنصارىٰ ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ [وَرَسُولُهُۥ]﴾ أي: لا يؤمنون بالرسول والقرآن

عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر علىٰ أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة علىٰ بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وهو علىٰ بغلته كالمتطاول عليها إلىٰ قتالهم، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم «هذا حين حمي الوطيس» قال: ثم أخذ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حصيات فرمىٰ بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال علىٰ هيئته فيما أرىٰ، قال: فوالله، ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرىٰ حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا.

(١) وهي أصقاع من اليمن، وهذا من تفسير الكلبي، وقيل: أنزل الله عليهم المطر مدرارا فكثر خيرهم ذلك العام، وقيل: عوضهم بالجزية (تفسير الطبري ١٤/ ١٩٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٥١، الكشف والبيان ١٣/ ٢٧١).

(٢) في الأصل: يكون وائل، وهو تصحيف، صوابه ما أثبت من تفسير الكلبي، والكشف والبيان ١٣/ ٢٧٢.

حتىٰ يحرموا الخمر والخنزير ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا يخضعون لله بالتوحيد ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ يعني: إلىٰ أن يعطوا الجزية ﴿عَن يَدٖ﴾ صَغارٍ ومذلة، أي: عنوة ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ أذلاء.

قال الكلبي: يعطوا الجزية قيامًا وصغارة؛ أن تؤخذ ويتلتل بها تلتلة[1].

ثم حكىٰ الله تعالىٰ مقالتهم فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ لعن الله الفريقين لعنًا وبيلاً ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ أي: كذب ليس تحته معنىٰ ولا حُجة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمضاهاة: المشابهة، وكانت الكفار ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ يقولون: اللات والعزىٰ ومناة بنات الله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لعنهم ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ من أين يكذبون علىٰ الله وينكرون توحيده.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾ أي: علماؤهم وأهل صوامعهم ﴿أَرۡبَابٗا [مِّن دُونِ ٱللَّهِ]﴾ يعني: أمروهم بالمعصية والكُفر فأطاعوهم، واتخذوا ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ إلـهًا أيضا ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: ما أمرهم الله في شيء مِن الكتب، ولا أمرهم عيسىٰ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ وتعالىٰ ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ تنزيهًا له عما يقولون.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: يبطلوا توحيد الله بتكذيبهم ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾ أي: لا يفعل الله ما يريدون ﴿إِلَّآ [أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ]﴾ إظهار دينه

---

(١) البسيط ١٠/ ٣٦١، وفي رواية عن الكلبي: إذا أعطىٰ الجزية صفع في قفاه (الكشف والبيان ١٣/ ٢٨٥). وكفىٰ بإعطائها صغارا، فمن زعم أنه يفعل بهم فوق ذلك فقد تعدىٰ (انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٢٠١).

والتلتلة: التحريك والإقلاق والزعزعة والزلزلة (تاج العروس ٢٨/ ١٤٠).

الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ اليهود أعداء الله، والنصارىٰ أعداء الله، لعنهم الله.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ بعث محمدًا ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ والتوحيد ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: يعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: علىٰ الأديان، والدين اسم جنس يقع علىٰ جميع الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾ ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: الجور، ويقال: بالرِّشا علىٰ كتمان نعت محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دين الله ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ يجمعونها، مقدار ما تجب الزكاة فيهما بعد حولان الحول ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزكيها، رده إلىٰ الكنوز ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤﴾.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: تسجر النار علىٰ الكنوز في نار جهنم ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ أي: بالكنوز ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ والكي: إلصاق الحديد الحار بالبدن ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قيل لهم هذا ما جمعتم من المال لهوىٰ أنفسكم، وضيَّعتم حقَّ الله فيها ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ أي جربوا: عقوبة ما تجمعون.

قيل: لا يوضع دينار مكان دينار ولا درهم مكان درهم، ولكن يوسع جلدهم لذلك(١).

---

(١) رواه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٣٣ عن ابن مسعود بإسناد صحيح، وانظر: الكشف والبيان ١٣/ ٣٣٦.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ التي جعلت لسنتكم؛ منازل العمر ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ منذ قدَّر الله خلقهما ﴿مِنْهَآ﴾ أي: من الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، ثلاثة سردٌ وواحد فرد ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الحساب المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تضروا في هذه الأشهر أنفسكم بالقتل والإغارة، والظلم حرام في جميع الشهور، وخص هذه الأشهر تعظيمًا لهنَّ[1].

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: جملة ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فصار القتل مباحًا في الأشهر الحرم، والأشهر الحرم صارت منسوخة[2] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ معين الموحدين.

قوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ كان كفار العرب يشتد امتناعهم عن القتال والإغارة ثلاثة أشهر متوالية، فإذا أرادوا ذلك قام رجل يقال له: جنادة بن عوف، أبو أمامة[3] كُنيته، يوم منىٰ، ينادي: يا أهل منىٰ، إني أحللت المحرم وحرَّمت مكانه صفرًا، فقاتَلوا في المحرم وغمدوا سيوفهم في صفر، فإذا كان عام القابل فيقول ذلك الرجل: يا أهل مِنىٰ، إني أحللت صفرًا وحرَّمت المحرم كما كان، فنزلت الآية[4].

---

(١) نحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٥٦.

(٢) يعني: نسخ تحريم القتال فيها. والجمهور من أهل التأويل أن هذه الآية نسخت ترك القتال في الأشهر الحرم، (تفسير أبي الليث ٢/ ٥٦، الكشف والبيان ١٣/ ٣٥٤) ولم يذكر ابن جرير نسخًا.

(٣) كذا في الأصل: أمامة، ومثله في تفسير أبي الليث ٢/ ٥٧، وفي كتب التفسير الأخرىٰ والسير: أبو ثمامة، وهو الصحيح، و هكذا ترجمه الحافظ في الإصابة ١/ ٦١٠، فقد قيل: إنه أسلم.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٤٤، تفسير الطبري ١٤/ ٢٤٥، الكشف والبيان ١٣/ ٣٦٠.

والنسيء في اللغة: التأخير[١]، أي: تأخير المحرم إلىٰ صفر، زيادة في الكفر: أي هو كفر بنفسه، وهو تحليل حرام الله، ضم إلىٰ كفر آخر.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: يوافقوا عدد ما حرم الله من الشهور الأربعة أشهر، فيحلوا ما حرَّم الله من الدم والأموال ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ أي: قبح أعمالهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ خاص وليس بعام، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لقد رأيت جنادة بن عوف يجر قميصه في النار»[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم أمر الناس بالخروج إلىٰ غزوة تبوك في حر شديد، فتثاقلوا عنها، فنزلت الآية[٣].

ومعناها: مالكم[٤] إذا قال لكم رسول الله: انفروا -اخرجوا- إلىٰ قتال العدو بسبب دين الله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ اطمأننتم إليها، وأحببتم الدنيا

---

(١) البسيط ١٠/ ٤١٧.

(٢) غريب بهذا اللفظ، لم أجده في كتب التفسير والحديث، وكيف يكون ذلك وقد أسلم جنادة، كما ذكره الحافظ وغيره، ولكن المعروف: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، وقد مر هذا الحديث، فلعله تصحف علىٰ المصنف أو علىٰ المصدر، لأن عمرو بن لحي له ذكر هنا كذلك، فإنه -علىٰ بعض الأقوال- أول من نسأ الأشهر، هكذا روىٰ جويبر عن الضحاك عن ابن عباس (كما في الكشف والبيان ١٣/ ٣٦٥)، وهذا إسناد واهٍ عن ابن عباس، كما هو معروف، والله أعلم.

(٣) لا خلاف بين المفسرين في ذلك، انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٢٥٤، تفسير أبي الليث ٢/ ٥٧، الكشف والبيان ١٣/ ٢٦٩.

(٤) في الأصل: ماكلتم.

علىٰ الجهاد ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ رضيتم بنعيم الدنيا من نعيم الآخرة بدلاً، استفهام بمعنىٰ التوبيخ(١).

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي﴾ جنب ﴿ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ أي: تخرجوا مع نبيكم إلىٰ غزوة تبوك ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في النار ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أطوع لله منكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنقصوه بالمعصية شيئًا من ملكه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ من العذاب والبدل.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ إن لم تنصروا محمدًا عليه الصلاة والسلام بالخروج ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أعانه حين أخرجه كفارُ مكة من مكة ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أحد اثنين هو وأبو بكر ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ في كهف من جبل ثور ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ يعني: رسول الله قال لصاحبه ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ يا أبا بكر علىٰ قتلي وعلىٰ ذهاب الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ في الدفع والضر ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: سكون قلب وطمأنينة علىٰ أبي بكر، وقيل: علىٰ رسول الله ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أعانه ﴿بِجُنُودٍ﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ لم تعاينوها ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وهي كلمة الكفر، يعني مغلوبة مذمومة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ التوحيد ﴿هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ العالية القاهرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وقصة الغار معروفة، وقد روي عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال لأبي بكر وهما في الغار: «يا أبا بكر ما أدري أي أياديك أعدها، صدَّقتني حين كذَّبني الناس، وواسيتني بنفسك حين خذلني الناس، وآنستني في وحدتي، فأي يد أفضل من هذا» قال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٧١، ولو قال: معناه الحث –كما قال ابن جرير والثعلبي– لكان أحسن.

الفداء لك، حتىٰ متىٰ تكون أنت وأنا في هذا الغار خائفين، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «أبشر يا أبا بكر، ولا تحزن إن الله معنا بالنصر، ألم تصدقني أول من صدقني» قال: بلىٰ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: «فصدقني بما أقول لك، ليبلغن توحيد ربي مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، حتىٰ يغلب الإسلام كل دين»(١).

قوله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ شبانًا وشيوخًا، وقيل: فقراء وأغنياء وأصحَّاء ومرضىٰ(٢) ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أنفقوا أموالكم وابذلوا دماءكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ [لَّكُمْ]﴾ من القعود ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ ذلك.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ غنيمة قريبة المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا وقصدًا، والقصد: هو الشيء بين الشيئين(٣) ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لأطاعوك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ السفر إلىٰ الشام، فتخلَّف عن غزوة تبوك أربعة وثمانون رجلاً من المنافقين ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ كذبًا ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا

---

(١) غريب بهذا اللفظ، لم أجده بهذه السياقة، وعلامات الوضع بادية عليه، والله أعلم.
وأخرج ابن عساكر (في تاريخ دمشق ٣٠/ ٣١٧) عن أبي بكر رضي الله عنه أن قال: ما دخلني اشفاق من شيء ولا دخلني في الدين وحشة إلىٰ أحد بعد ليلة الغار، فإن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حين رأىٰ إشفاقي عليه، وعلىٰ الدين، قال لي: هون عليك، فإن الله قد قضىٰ لهذا الأمر بالنصر والتمام. وفيه سيف بن عمر متروك.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٦٢.

(٣) قال الليث: القصد استقامة الطريقة، يقال: قصد يقصد قصدًا فهو قاصد..، وقال أهل المعاني: وسفرًا قاصدًا: سهلاً باقتصاده من غير طول في أمره، وإنما قيل للعدل قصد لأنه مما ينبغي أن يقصد (البسيط ١٠/ ٤٥١).

﴿مَعَكُمْ﴾ لو وجدنا من المال لخرجنا معكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالأيمان الكاذبة، والسريرة الفاجرة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٤٢﴾ فيما يعتذرون.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ يؤنسه الله بالعفو، ثم يعاتبه، فقال: تجاوز الله عنك.

والعفو: هو ترك التبعة على الجرم[١].

ثم قال ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في القعود ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: يظهر لك ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ۝٤٣﴾ في أيمانهم.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في الحلف ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا﴾ أي: لا يجاهدوا ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝٤٤﴾ مثل أبي بكر وأصحابه.

ثم وصف المنافقين فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت قلوبهم في أمرك ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ يتحيَّرون، لا يدرون أيخرجون أم يقعدون.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ لاستعدوا [بـ]ـالسلاح ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم معك ولم يُرد[٢] ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ ثقَّلهم عن

---

(١) أي في اللغة، أما في تفسير هذه الآية فالمعنىٰ كما قال: تجاوز الله عنك، وهذه عادة يفسر المفردة، ثم يذكر أصلها اللغوي. قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنتان فعلهما رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارىٰ، فأنزل الله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية (تفسير الطبري ١٤/ ٢٧٤).

وقال الحسين بن الفضل: هذا من لطيف المعاتبة ولو لم يفتتح الخطاب بالعفو ما كان يقوم لقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فطيب الله نفسه بتصدير العفو، وذلك أنه أذن لهم من غير مؤامرة ولم يكن له أن يمضي شيئًا إلا بوحي (البسيط ١٠/ ٤٥٥).

(٢) أوّل المصنفُ الكره بعدم الإرادة، وهو تأويل الزجاج، كما في معاني القرآن ٢/ ٤٥٠.

الخروج، وأدخل حلاوة الجلوس في قلوبهم، وخذلهم ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: مع النساء بالإلهام أو وسوسة الشيطان[1].

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فسادًا وشرًا في أمر العسكر ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ساروا بالسرعة على إبلهم بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: طلبوا إظهار الشرك منكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: جواسيس ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: عالم بعقوبتهم.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل غزوة تبوك، وقيل: قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة[2] ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ظهرًا لبطن، ماذا يفعلون بك وبأصحابك من الشر ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي دينه الإسلام ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في الجلوس، وهو معتب بن قشير كان يقول: إني مستهر بالنساء، فأْذَن لي بالقعود[3].

وبينهما فرق، فالكره هو البغض، والله عز وجل أبغض خروجهم مع نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما أبغض خروجهم ثبطهم، وتأويل الكره بعدم الإرادة غير صحيح، إذ ليس عدم الإرادة لازمًا للكره دائما، لأنه قد يكره الشيء ويقع، ويكون مقدرا ومرادا إرادة كونية، فقد كره الله عز وجل الكفر وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، ومع ذلك وقع ذلك كله قدرا من أناس يعلمهم الله. ولذا كان تفسير ابن كثير للآية هو الصحيح، فإنه قال: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قدرا (تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٩)، والله أعلم.

(١) البسيط ١٠/ ٤٦٤.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٦٣، الكشف والبيان ١٣/ ٣٩٧، البسيط ١٠/ ٤٧٦.

(٣) المشهور عند المفسرين أن قائل ذلك هو الجدُّ بن قيس، على هذا تواردوا، انظر الروايات في تفسير الطبري ١٤/ ٢٨٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٦٤، الكشف والبيان ١٣/ ٣٩٩، تفسير السمعاني ٢/ ٣١٥، معالم التنزيل ٤/ ٥٦. وهذه العبارة نسبها للجد بن قيس الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٧٧، والرازي في التفسير الكبير ١٦/ ٦٥.

﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ أي: لا تؤثمني في بنات الأصفر، يعني: نساء الروم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ أي: في الكفر والنفاق ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ أحاطت بهم جميعًا.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ﴾ أي ظفر وغنيمة لك ساءهم ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ هزيمة وشدة ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: حذرنا من البلاء قبل وقوعها بالتخلف، كما قالوا يوم أُحد ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن الجهاد ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ مسرورون شامتون.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: قضاه الله علينا أو لنا ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ أولىٰ بنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ أي: علىٰ المؤمنين أن يتوكلوا علىٰ الله.

﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إما الفتح والغنيمة[1] وإما القتل والشهادة ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ وهو أحد الشرين ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ بسيوفنا، وهو شر آخر لكم ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ هلاككم بأخذ هذين الشرين، لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد.

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ يعني: إن أنفقتم طائعين أو كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ فالطوع: ما يتصدقون علىٰ المساكين رياء وسمعة، والكره: ما يؤخذ من الصدقات منهم ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾ عاصين بالكفر.

﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ أي: من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم بالله وبرسوله، ويجوز أن يكون بمعنىٰ: ما منعهم الله عن قبول نفقاتهم

---

(١) في الأصل: وإما الغنيمة، سبق قلم.

﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ الأموال ﴿إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾.

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا [فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا]﴾ وفي الآية إشكال، لأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فكيف يعذِّبهم بالزينة؟.

ولكن نقول: في الآية تقديم وتأخير، معناه: فلا يعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذِّبهم بكثرة الأموال والأولاد في الآخرة(١).

﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ كاذبين.

﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ في السر ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ يخافون من القتل والسبي.

﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ حِرزًا ﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ﴾ غِيرانا في الجبل ﴿أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ سربًا في الأرض ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: مضوا إليه ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧﴾ يسرعون إليه.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ﴾ يطعنك ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ اللمز: العيب بكسر الشفاه، والهمز: بكسر العين.

وقالوا: إنَّ محمدًا لم يعدل في القسمة، يعني زيد بن رفاعة وأبا الجواظ، قالا ذلك(٢).

---

(١) انظر: التفسير الكبير ١٦/ ٧٢. وهذا مروي عن بعض السلف، كقتادة وابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة (تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٦). وقيل: التعذيب إنما هو بالكلف والمشاق المترتبة علىٰ هذه الزينة، وهو قول بعض السلف كذلك (تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٦).

(٢) هذا من تفسير الكلبي كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٦٦، والكشف والبيان ١٣/ ٤١٨، ولذا لم يذكره الطبري، بل أخرج نزولها في ذي الخويصرة التميمي، رأس الخوارج.

﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ﴾ أي: أعطوا مقدار مرادهم رضوا بالقسمة ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ۝٥٨﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ ثقتنا به ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ يعطينا ﴿ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: عطيَّته ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ نطمع فيما عنده، لكان ذلك خيرًا لهم، وهذا محذوف الجواب(١).

وقيل: جوابه حذف الواو عن قوله: «وقالوا حسبنا الله»، وقد يذكر الواو والمراد طرحه كقوله تعالىٰ: ﴿۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ معناه: كالأعمىٰ الأصم [و] البصير السميع.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أي صدقات السوائم من الأصناف الأربع للفقراء، من أهل الصُفَّة، وكانوا نحوًا من أربعمائة رجل، هاجروا من أهاليهم وأموالهم، فأسكنهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الصُفَّة، لا يأوون إلىٰ أهل ولا مال.

والفقير: الذي كسرت الحاجة فَقَاره.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الذي: سكَّنته الحاجة عن حال أهل الثروة، وهو يسأل الناس لحاجته(٢).

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ الساعين الذين يأخذونها عن حق، ويضعونها في حق.

﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ قيل: كانوا خمسة عشر رجلاً من بني أمية وبني مخزوم منهم، أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، وأصحابهما، كان رسول

---

(١) مثله في تفسير أبي الليث ٢/ ٦٧، البسيط ١٠/ ٥٠١، الكشاف ٢/ ٢٨٢.

(٢) انظر في الفرق بين الفقير والمسكين: تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٤، الكشف والبيان ١٣/ ٤٢٢.

الله صلىٰ الله عليه وسلم يعطيهم تأليفًا علىٰ الإسلام، ثم منع عنهم أبو بكر رضي الله عنه[١].

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ يعني المكاتبين ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ أصحاب الديون الذين وجب عليهم الدين[٢].

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نفقة الغزاة ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي فني زاده وانقطع عن راحلته.

ذكر «لام الملك» إلىٰ المؤلفة قلوبهم، ثم ذكر «في»[٣]، لأَنَّ[٤] في لام الملك يسلَّم إليهم، وفي الباقي لا يسلم إليهم، ولكن يوضع في حوائجهم بقدرها كيلا يتلفوها[٥].

---

(١) نحوه في تفسير الطبري ١٤/ ٣١٣، وقد سماهم بأسمائهم، ثم روىٰ عن الشعبي أن قطعها كان في زمن أبي بكر (تفسير الطبري ١٤/ ٣١٥).

(٢) شرط الدين ألا يكون في معصية (تفسير الطبري ١٤/ ٣١٧).

(٣) تصحفت في الأصل إلىٰ: حتىٰ.

(٤) في الأصل إلىٰ: أن.

(٥) فيسلم للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، ويصرف في حوائج: الرقاب، والغارمين، والغزاة، وابن السبيل.

وقد روىٰ الطبري (في التفسير ١٤/ ٣١٧): أن مكاتبًا قام إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري رحمه الله تعالىٰ وهو يخطب الناسَ يوم الجمعة، فقال له: أيها الأمير، حُثَّ الناس عليَّ، فحثَّ عليه أبو موسىٰ، فألقىٰ الناسُ عليه عمامة وملاءة وخاتمًا، حتىٰ ألقوا سَوادًا كثيرًا، فلما رأىٰ أبو موسىٰ ما ألقي عليه قال: اجمعوه، فجمع، ثم أمر به فبيع. فأعطىٰ المكاتب مكاتبته، ثم أعطىٰ الفضل في الرقاب، ولم يرده علىٰ الناس، وقال: إنما أعطي الناسُ في الرقاب.

وقال الزمخشري (في الكشاف ٢/ ٢٨٣): فإن قلت: لم عدل عن اللام إلىٰ «في» في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأن «في» للوعاء، فنبه علىٰ أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبا، وذلك لما

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ فرضها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ عليم بأهلها حكيم بقسمتها.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ وهم جماعة، فقال بعضهم لأصحابه: فإنَّا نخاف أن يبلغ قولنا محمدًا، وقال الآخر بل نقول ما شئنا [ونحلف بالله][1] ونعتذر فيصدقنا، فإنَّه أُذن، فأنزل الله تعالىٰ الآية[2].

ثم قال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ يعني هو أذن خير لا أذن شر، يستمع الخير ولا يستمع الشر، وهذا يؤدي إلىٰ الكرم ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ فيما أنزل ويصدِّقُ المؤمنين فيما أخبروا، فذلك قوله: «يؤمن بالله»، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الكسائي: الباء واللام زائدتان، معناه: يصدق الله ويصدق المؤمنين[3].

في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير «في» في قوله وفي سبيل الله وابن السبيل فيه فضل ترجيح لهذين علىٰ الرقاب والغارمين.

فتعقبه ابن المنير بقوله: ثم سر آخر هو أظهر وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكا، فكان دخول اللام لائقا بهم. وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون، فليس نصيبهم مصروفا إلىٰ أيديهم حتىٰ يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم..

(١) في الأصل: ونا لله، والتصحيح من كتب التفسير.

(٢) الخبر في تفسير الطبري ١٤/ ٣٢٥، تفسير أبي الليث ٢/ ٦٨، الكشف والبيان ١٣/ ٤٥٠.

(٣) قال المفسرون: معناه: ويؤمن المؤمنين، لأن العرب تقول فيما ذكر لنا عنها: آمنتُ له وآمنتُه، بمعنىٰ: صدَّقته، كما قيل: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾ [سورة النمل:٧٢]، ومعناه: ردفكم، وكما قال: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [سورة الأعراف:١٥٤]، ومعناه: للذين هم ربَّهم يرهبون (معاني القرآن للفراء ١/ ٤٤٤، تفسير الطبري ١٤/ ٣٢٧، البسيط ١٠/ ٥٢٤).

﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ أي: رحمة من الله، ونعمة للمخلصين منكم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بالطعن ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ بحلفهم بالله، وكانوا يؤذون رسول الله ثم يأتونه ويحلفون أنهم ما فعلوا شيئًا ليرضوهم بذلك ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ ولم يقل يرضوهما لأنَّ في رضىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم رضا الله، فاكتفىٰ بذكر أحدهما عن الثاني[١] ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ ولكن لم يكونوا.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يعادي الله ورسوله ويشاقق الله تعالىٰ.

[فُلان حادَّ فلانا][٢] إذا كان أحدهما في حد وهو في حد آخر، مجانبين[٣].

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٣﴾ الندم...[٤] الدائم، والخزي في الأصل هو الحياء[٥].

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ [تُنَبِّئُهُم]﴾ تخبرهم ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ من الغش والنفاق ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ أي: مُظْهِر ومُعْلِن ما تُخفون من أمر النفاق.

---

(١) نحوه في الكشاف ٢/ ٢٨٥.

(٢) تصحفت في الأصل: فلان جاد لو نا. والتصحيح من كتب التفسير.

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٥٨، الهداية ٤/ ٣٠٥٥، البسيط ١٠/ ٥٣٠، تفسير السمعاني ٢/ ٣٢٣.

(٤) هاهنا كلمة في الأصل، صورتها: والححد، ولعلها مقحمة.

(٥) قال ابن الأنباري: معنىٰ الخِزْي -في اللغة-: الهلاك بتَلفٍ أو انقطاع حُجّةٍ، أو بوقوعٍ في بلاء...، يقال: خَزِيَ، يَخْزَىٰ، خِزْيًا: إذا هلك. و خَزِي، يَخزىٰ خَزايةً: إذا استحيا (البسيط ٦/ ٢٥٦). وانظر: المفردات للراغب ٢٨١.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ يا محمد: لم تضحكون؟ ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نتحدث عن الرَّكْب ونضحكُ فيما بيننا ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ كتابه ﴿وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾[١].

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي: قل لهم يا محمد: لا تعتذروا فإنه لا عذر لكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان، فبعث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إليهم عمارًا وقال: قل لأولئك النفر: احترقتم عليكم لعنة الله، فلما بلغهم ذلك جاءوا معتذرين، وقالوا: ما كنَّا في أمرك، كُنَّا في أمر العسكر[٢].

وقال المختبي بن حمار -ويروىٰ المخشي بن حمار[٣]-: والله ما قلت شيئًا، وإني تائب إلىٰ الله تعالىٰ عز وجل، فتاب الله عليه، فسماه رسول الله: عبد الله بن عبد الرحمن، فنزل: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾.

سمىٰ الواحد طائفة، وقيل: معناه يعف عن نفسٍ طائفة، وهو عبد الله بن عبد الرحمن[٤].

---

(١) وكان من شأنهم فيما روىٰ عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فبلغ ذلك النبي صلىٰ الله عليه وسلم ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تَنْكُبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ (تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٤).

(٢) القصة من رواية مقاتل، كما في تفسيره ٢/ ٥٦، وفي تفسير أبي الليث ٢/ ٧٠، البسيط ١٠/ ٥٣٧.

(٣) سماه ابن إسحاق: مخشي بن حمير (تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٦، الكشف والبيان ١٣/ ٤٦٢، الاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ١٣٨١، الإصابة ٩/ ١٤٩)، وفي تفسير مقاتل ٢/ ٥٧: المخش.

(٤) من معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٥٩، وانظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٧١، البسيط ١٠/ ٥٣٩.

﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ﴾ آخرون ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ٦٦﴾ أي: منافقين في السر.

ثم قال ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي: بعضهم على دين بعض ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بالشرك ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: التوحيد والإخلاص ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ يمسكونها عن النفقة في الخير ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ أي: تركوا طاعة الله فتركهم في النار، ومنعهم العصمة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ الكافرون.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ﴾ يعني: النار تكفيهم عقوبة ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ طردهم عن رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٦٨﴾ دائم.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وعدكم الله من العذاب كما وعد الذين من قبلكم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ أي: منعة وبطشًا ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ منصوبان على التمييز ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ [فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ]﴾ أي: انتفعوا في الدنيا بنصيبهم، فاستمتعوا بخلاقكم فانتفعتم أيضًا بخلاقكم أي: نصيبكم، كما انتفع الذين من قبلهم بنصيبهم ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ أي: دخلتم في الباطل والتكذيب كما دخلوا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بطلت حسناتهم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ بذهاب نصيبهم من الآخرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبر مَن كان قبلهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ حيث أهلكوا بالغرق ﴿وَعَادٍ﴾ حيث أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ حيث أهلكوا

بالنار ﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أُهلكوا بالبعوضة ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ أُهلكوا هدًّا[١] تحت الظلة ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ قُريات لوط بالخسف، ائتفكت بهم الأرض أي: انقلبت ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بخبر العذاب أنه نازل بهم، فكذبوا رسلهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ يعذِّبهم بغير جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ بالكفر.

ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي: علىٰ دين بعض ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: التوحيد وإتباع الرسول ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: الشرك ومخالفة الحق ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ويتمونها ويقرون بفرضيتها ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأموالهم ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أي: ينجيهم من عذابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ أي: عزيز في سلطانه، حكيمٌ حكم أنه يُدْخِل المؤمنين في رحمته، ويعذِّب المنافقين بعذابه.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ من قصور الدر والياقوت، طيَّبها الله بالمسك والريحان ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ في بساتين، وهي مقصورة الرحمن ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ أي رضىٰ الله أكبر من تلك الكرامات ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ باللسان ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ شدِّد علىٰ الفريقين بالقول، ولا ترقَّ لهم ولا ترحمهم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: مصيرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُۖ [وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣]﴾ لكلا الفريقين.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ نزلت في خمسة عشر رجلاً من المنافقين، منهم عبد الله بن أُبي وأصحابه، وخطب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بتبوك وسمىٰ

---

(١) في الأصل: فهد همدا.

المنافقين رجسًا، فقال الجلاَّس بن سويد: إن كان محمد صادقًا فيما يقول فنحن شر من الحمير، فسمعه عامر بن قيس فأخبر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بذلك، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لجلاَّس: «ما هذا الذي بلغني منك» فأنكر وقال: كذب علي عامر، فأمرهما رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أن يحلفا، فحلف جلاس بالله الذي لا إله إلا هو أني ما قلته وأنه كذب علي، فقام عامر وحلف بالله إنه لصادق فيما قال، ثم رفع يده إلىٰ السماء وقال: اللهم أنزل علىٰ نبيك الصادق منك الصدق، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم والمؤمنون: «آمين» فنزل جبريل بهذه الآية قبل أن يتفرقا(١).

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ يعني به الجلاَّس ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ عيب النبي صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَكَفَرُوا۟﴾ بقلوبهم ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ بألسنتهم ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ أي: هموا بإلقاء رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من العقبة.

وقيل: بإخراج رسول الله من المدينة(٢).

وقصة العقبة: أنَّ رسول الله لما توجه تبوك أخذ أصحابه بطن الوادي ورسول الله طريق العقبة، ومعه حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، فهمَّ جماعة

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ٣٦١، عن عروة بن الزبير وغيره، وهذا هو المشهور في سبب النزول، وروىٰ ابن جرير كذلك ١٤/ ٣٦٣ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم جالسًا في ظلّ شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه. فلم يلبث أن طلَع رجل أزرقُ، فدعاه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا، حتىٰ تجاوَز عنهم، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ ، ثم نعتهم جميعًا، إلىٰ آخر الآية.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ٣٦٦ عن قتادة، ودليله: قول تعالىٰ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون:٨].

من المنافقين بإلقائه من العقبة، فتبعوه وأدركوه، فغضب رسول الله وأمر حذيفة بردهم خائبين(١).

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ لأنهم كانوا في شدة من العيش قبل قدوم رسول الله المدينة، فأغناهم الله به، فجعلوا شكر ذلك: النقمة والعداوة لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عن نفاقهم ﴿يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن التوبة ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا [فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ]﴾ في الدنيا بالفضيحة وإعلان الأسرار وفي الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٧٤﴾ أي: ليس لهم قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم.

فلما نزلت هذه الآية قام الجلاس وقال: صدق عامر، وكذبت أنا، وإني أستغفر الله وأتوب إليه، فقبل رسول الله توبته وحسنت توبته.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: أعطانا من رزقه ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ علىٰ الفقراء ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ المؤدين فرائض الله.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: رزقه ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ عن النفقة وأداء حق الله ﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦﴾ أي: نقضوا العهد وأعرضوا عن الإيمان.

﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾ بُخلهم ﴿نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: أورثهم نفاقًا في قلوبهم عقوبة لنقضهم العهد ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ وهو يوم القيامة، لأن الله تعالىٰ أعلم بما في ضمائرهم وموتهم علىٰ نفاقهم ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ من الإنفاق ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝٧٧﴾ أخبر أنَّ هذا المخالف للوعد يموت علىٰ نفاقه بإخلاف

---

(١) وقد سماهم الكلبي في تفسيره، كما في الكشف والبيان ١٣/ ٤٨٥، وقصة العقبة من رواية مقاتل والضحاك، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٧٤، ولذا لم يخرجها ابن جرير.

الوعد، ونعوذ بالله من سوء قضاء قد سبق.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي: ما يتناجون ليلة العقبة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ ما غاب عن علمهم فكيف بما يقولونه.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ مثل عبد الرحمن بن عوف حين تصدق بأربعة ألف درهم علىٰ جيش رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقال: هو شطر مالي، وعثمان جهَّز جيش العُسرة فتصدَّق بألف دينار، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من ثمر، فقبل منه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقال المنافقون: إن عبد الرحمن بن عوف لعظيم الرياء، وإن الله عن صاع أبي عقيل لغني، فنزلت الآية(١).

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾، أي: المتنفلين(٢) في الصدقات ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: طاقتهم، والجهد: الحمل علىٰ النفس بما يشق، فالمنفِق بجهده أبو عقيل [الأنصاري](٣)، [والمطوع](٤) عبد الرحمن بن عوف ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم جزاء سخريتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ مؤلم.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ٣٨٢ عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي، وعن غيره، وانظر: الكشف والبيان ١٣/ ٥٠٦.

وفي صحيح البخاري (١٤١٥)، وصحيح مسلم (١٠١٨) عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: " لما نزلت آية الصدقة، كنا نحامل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.

(٢) في الأصل: المتنلفين، وقد كثر منه مثل هذا التصحيف.

(٣) في الأصل: المعري، ولا معنىٰ لها هنا.

(٤) في الأصل: والمودع.

فجاءوا وطلبوا الاستغفار من رسول الله فنزلت الآية ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا محمد ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ماداموا علىٰ نفاقهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ عليم في سابق علمه أنه يموت علىٰ الكفر.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الفرح: لذة تظهر في القلب، عند تنكُّب المسلمين فرح المخلَّفون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ مخالفة رسول الله، وهم بضع وثمانون رجلاً منهم من اعتل بشدة الحر، ومنهم بالمرض، ومنهم بالعُسرة.

﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الكراهية: معنىٰ يدعوا إلىٰ ترك الأمر ﴿وَقَالُوا۟﴾ لمن أطاعهم ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي: لا تخرجوا إلىٰ تبوك في هذا الحر ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ من حر الدنيا، وقد استوجبتم نار جهنم لتخلفكم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: يعلمون حرارتها.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ اللفظ لفظ الأمر، ومعناه التوبيخ، أي: من ضحك في الدنيا قليلاً بكىٰ في الآخرة كثيرًا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من الشرك.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلىٰ المتخلِّفين بعد فراغك عن غزوة تبوك ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلىٰ غزو آخر ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ﴾ إلىٰ قتال عدو ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان، يقتضي التأبيد في القابل ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ أي: فرحتم بالتخلُّف عن غزوة تبوك ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ قيل: مع النساء والصبيان، وقيل: مع المنافقين المتخلِّفين.

ثم قال ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي: من المنافقين بعدما

صليت على عبد الله بن أبي، وكان لعبد الله ابنٌ مؤمنٌ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلِّيَ عليه ويكفِّنه حتى لا يشمت به الأعداء، فأجاب رسول الله، وصلى عليه، وألبسه قميصه، فنُهِي عن ذلك بعده(١).

وقيل: لمَّا ألبسه قميصه أسلم على ذلك ألف رجل من الخزرج(٢).

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ بالدعاء والاستغفار ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في السر ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ثابتون على النفاق.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا [فِى ٱلدُّنْيَا﴾ و] في الآخرة تشبيهًا مقدَّم ومؤخَّر ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أرواحهم من أجسادهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: سورة براءة ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ العدوَّ ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوا القدرة على المال من المنافقين ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن﴾ بالمدينة ﴿مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من أهل القلعة(٣).

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: النساء ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالنفاق ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

---

(١) روى البخاري في الصحيح (١٢٦٩) ومسلم في الصحيح (٢٧٧٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عبد الله بن أبي لما توفي، جاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم قميصه، فقال: «آذني أصلي عليه»، فآذنه، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «أنا بين خيرتين، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾» فصلى عليه، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٧٩.

(٣) كذا، ولا وجه لها، ولعلها: العذر، فتصحفت، والله أعلم.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ في السر ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ مع عدوه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ الحسنات المقبولات، ولهم الجواري الحسان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ النجاة الوافر.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ المعذِّر: مَن اعتذر بالحق أو بغير حق، لأنه المعتذر، وقرئ: «المُعذِرون»[1] وهم: الذين لهم عذر[2].

قال الضحاك: هم أسد وغطفان الذين خالفوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بالتخلُّف، وقالوا: إن بنا جهدًا وشدة[3].

ثم ذكر المخلَّفين بغير عذر فقال: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أي تخلف الذين خالفوا الله ورسوله في الشر من أهل النفاق ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

ثم رخص للزَّمْنىٰ والمرضىٰ بالجلوس فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ أي: الشيوخ والزَّمْنىٰ ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ مأثم بالتخلف ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي: كانوا مؤمنين بالله ورسوله ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي: ما علىٰ المخلصين من إثم وحرج ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ لا يكلِّفهم فوق طاقتهم.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ علىٰ الدواب في الجهاد،

---

(١) وهي قراءة يعقوب وحده (النشر ٢/ ٢٨٠).

(٢) وهو توجيه ابن عباس، كما في تفسير الطبري ١٤/ ٤١٦.

(٣) الكشف والبيان ١٣/ ٥٢١.

وقيل: لتزودهم في الطريق، وهو عبد الله بن المغفل المزني مع سبعة نفر، قالوا: يا رسول الله احملنا فإنَّا لا نجد ما نخرج عليه[1] ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من الدواب ﴿تَوَلَّواْ﴾ أي: راجعوا من عندك ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ نصب على الحال، أي: محزونين[2] ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ في الخروج إلى الجهاد.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي: الإثم والخروج ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي: مع النساء ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ إلى المدينة ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ أي: لن نصدِّقكم ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي: أخبرنا الله بأعمالكم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ بعد اليوم فيما بقي من عمركم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ يرى أيضًا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ أي: ترجعون ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الغيب: ما غاب عن العباد ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما علمه العباد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾ في دار الدنيا.

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ أي: رجعتم ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ من تبوك ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ ولا تعاقبوهم ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي مصيرهم ومرجعهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾.

﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٤٢٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٨١.

(٢) فيه قولان آخران، انظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٦٥٥، الدر المصون ٦/ ١٠١.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ يعني أسد وغطفان، كانوا من حاضري [المدينة][(١)]، أشد كفرًا: أي ثباتًا علىٰ الكفر، وأقسىٰ قلبًا، وأبعد من سماع التنزيل[(٢)] ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ أن: يكونوا كذلك، لأنهم لا يعلمون أحكام الله وما أنزل الله علىٰ رسوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ في أمره للأحكام.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يحسب ﴿مَا يُنفِقُ﴾ في الجهاد ﴿مَغۡرَمٗا﴾ أي: غُرما عليكم ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ﴾ وينتظر بكم أيها المسلمون ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ أي: الهلاك والموت ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ أي: عاقبة السوء ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم حيث قالوا: ندفع إلىٰ محمد شيئًا من أموالنا حتىٰ يخرج إلىٰ الغزو فيقتل ﴿عَلِيمٞ ٩٨﴾ بعقابهم.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ من حاضري المدينة: جهينة ومزينة وغفار ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قربة وفضائل، أي: يطلب بذلك التقرُّب إلىٰ الله ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: يطلب دعاء الرسول ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ يعني: الصدقة والنفقة ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ المبادرون إلىٰ الإيمان ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ قيل: هم أهل بيعة الرضوان بيعة الحديبية صلوا القبيلتين وشهدوا بدرًا[(٣)] ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) بيض لها في الأصل، واستدركتها من كتب التفسير.

(٢) فعلىٰ هذه القول يكون الأعراب عام أريد به الخصوص، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٨٢.
واختار ابن جرير بقاء العموم علىٰ أصله، فقال: يقول تعالىٰ ذكره: الأعراب أشدُّ جحودًا لتوحيد الله، وأشدّ نفاقًا، من أهل الحضر في القرىٰ والأمصار. وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك، لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسىٰ قلوبًا، وأقلُّ علمًا بحقوق الله (تفسير الطبري١٤/ ٤٢٩، الكشف والبيان ١٤/ ٦).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٤٣٥، تفسير أبي الليث ٢/ ٨٣، الكشف والبيان ١٤/ ١٠.

﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بالتوحيد والأعمال الصالحة إلىٰ يوم القيامة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالطاعة ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾(١) دائمًا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ النجاة الكبرىٰ.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ مُزينة وجهينة ﴿مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أيضًا: عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: عتوا ومرنوا وتعودوا النفاق، والمرود: هو الهجوم علىٰ الشيء بالتجرُّد، أي: تجردوا عن الإسلام وخرجوا عنه إلىٰ النفاق(٢).

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يا محمد ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة في الدنيا بالقتل وإظهار العيوب، ومرة في الآخرة في القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ في النار.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بتخلُّفهم عن غزوة تبوك ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: غزوا قبل تبوك مثل بدر وأُحد ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: تخلُّفهم عن غزوة تبوك ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يتجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ غفر لما سلف من ذنوبهم، رحيم: رخص في التوبة.

قيل: نزلت الآية في ثلاث نفر تخلفوا عن غزوة تبوك، وربطوا أنفسهم علىٰ سواري المسجد ندمًا علىٰ التخلُّف حتىٰ(٣) نزلت الآية(٤).

---

(١) في الأصل: من تحتها، وهي قراءة ابن كثير، (النشر ٢/ ٢٨٠).

(٢) البسيط ١١/ ٢٧.

(٣) في الأصل: حين، وهو تصحيف.

(٤) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ٤٤٨ من طرق عن ابن عباس، ورواه عن جماعة من التابعين، وقد اختلفوا في الذين ربطوا أنفسهم من هم، وكم عددهم.

وهم: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن خذام[١]، ووديعة بن ثعلبة، فلما نزلت الآية جمعوا ما لهم إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقالوا: يا رسول الله هذا الذي خلفنا عنك، فخذها منَّا وتصدَّق بها، فقال رسول الله: «ما أُمِرْتُ بشيء من ذلك»[٢] فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أي: بعض أموالهم ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تصلح أعمالهم، ورفع تطهرهم لأنه ليس بجواب الأمر، ولكن خطاب لرسول الله، أي: تطهرهم أنت بالدعاء.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ استغفر لهم ﴿إِنَّ [صَلَوٰتَكَ]﴾ استغفارك ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم بقبول توبتهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ودعائك ﴿عَلِيمٌ ١٠٣﴾ بتوبتهم وإجابتهم، فأخذ رسول الله ثُلث أموالهم وتصدق بها عنهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يقبلها فيربيها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المتجاوز ﴿ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ بالتائبين.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ خيرًا في المستأنف ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين هم شهداء الله في أرضه يرون أيضًا ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ أي: ترجعون

---

(١) كذا في الأصل ومثله في معرفة الصحابة لابن منده ١/ ٣١٢، وفي تفسير أبي الليث ٢/ ٨٥: أوس بن ثعلبة، ووديعة بن خذام، وأشار الحافظ في الإصابة ١/ ٢٩٩، إلىٰ هذا الاختلاف.
وقال: روىٰ أبو الشيخ في تفسيره من طريق الثوري، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، قال كان ممن تخلّف عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلم في تبوك ستة: أبو لبابة، وأوس بن خدام، وثعلبة بن وديعة، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أميّة، فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة فربطوا أنفسهم بالسّواري، وجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله، خذها، هذا الّذي حبسنا عنك. فقال: «لا أحلّهم حتّىٰ يكون قتال»، قال: فنزل القرآن: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾، إسناده قوي.

(٢) رواه الطبري في التفسير ١٤/ ٤٥٤، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

يوم الحساب ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ يخبر كل واحد بعمله، ويجازيه علىٰ فعله.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: أقوام آخرون سوىٰ الثلاثة، مرجون بالهم وغير الهم، أي: مؤخرون لأمر الله، وهم ثلاث نفر سوىٰ الثلاثة الأولىٰ: كعب بن مالك الشاعر الأنصاري، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، كلهم أنصاريون من أهل قباء، لم يفعلوا فعل أبي لبابة وأصحابه، تخلفوا عن رسول الله عن غزوة تبوك، فأوقفهم رسول الله خمسين يومًا، ونهىٰ الناس عن مجالستهم ومؤاكلتهم، فاعتزلوا النساء وتركوا المدينة، وسكنوا الجبال يبكون ويتضرعون، ويسألون من الله المغفرة، ويعتذرون إلىٰ رسول الله ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ﴾ بتخلُّفهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾ أي: عليم بنياتهم، حكيم حكم بإرجاء أمرهم إلىٰ وقته(١).

ثم ذكر المنافقين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا﴾ أي: بنوا مسجدًا ﴿ضِرَارٗا﴾ مضرًا للمؤمنين، الضرار: محاولة الضر ﴿وَكُفۡرٗا﴾ أي: لإظهار الكُفر ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حتىٰ يصلي بعضهم في مسجدهم وبعضهم في مسجد رسول الله ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ أي: إنظارًا(٢) ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ بناء المسجد وهو أبو عمرو الراهب -الذي سماه رسول الله فاسقًا- وعدهم بأن يأتي بجيش يخرج محمدًا من المدينة، فأخبر الله بخبث نياتهم، وأمر بهدم ذلك المسجد(٣)

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٤٦٤، تفسير أبي الليث ٢/ ٨٧، الكشف والبيان ١٤/ ٤٦، البسيط ١١/ ٤٣، روضة المستنصر ١٧٣.

(٢) في معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٦٨، والبسيط ١١/ ٤٦: الإرصاد: الانتظار.

(٣) المشهور: أبو عامر الراهب، وهو الأكثر في كتب التفسير، (تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٠، معاني الزجاج ٢/ ٤٦٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٨٧).

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا ببناء المسجد إلا الخير ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾.

ثم قال للنبي صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وقد سألوا رسول الله أن يكون في مسجدهم بعض الصلوات، وقالوا: نتبرَّك بك ونستأنس بحديثك، قال الله تعالىٰ ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ﴿[مِنْ] أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ دخل المدينة ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أولىٰ أن تصلي فيه، ثم قال ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ أي: يستنجوا بالماء ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ من الأحداث والذنوب[1].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ ألف «أفمن» أَلِفُ إنكار، وهو استفهام بمعنىٰ الإنكار، لأنه لا يجد المجيب وجه الجواب، والمعنىٰ: من أسس بنيانه أي مسجده وهو مسجد قباء أسسه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ وطاعة، وطلب رضوانه ذاك ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ وهو مسجد الضرار ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي هائر، وهذا من المقلوب ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي خر البناء بالباني في نار جهنم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾.

قيل: أمر رسول الله بإلقاء الجيف والعذرات في مسجد الضرار، لأنه مسجد لم يُبْنَ لله تعالىٰ، فلما فعلت الأنصار ذلك بأمر رسول الله صار ذلك حسرة في قلوبهم[2]، فذلك قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾

---

(١) في المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ قول آخر، وهو أنه مسجد النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وهو الذي رجحه ابن جرير لصحة الخبر عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في ذلك، انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٤٨٢، الكشف والبيان ١٤/ ٥٥.

(٢) أورد ابن جرير روايات في حرقه، وأنه بقي يخرج منه دخان حتىٰ دولة بني أمية (تفسير الطبري ١٤/ ٤٩٣).

أي: حسرة وندامة علىٰ ما أنفقوا فيها، وفرق جمعهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ استثناء بمعنىٰ الغاية، أي: لا يزالوا كذلك حتىٰ يموتوا، وقيل لا يزالون خائفين حتىٰ يموتوا[(١)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ ١١٠﴾ حكم بالريب في قلوبهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ الاشتراء: الاستقراض. من الله تعالىٰ: حُسن المعاملة والتلطُّف في الدعاء إلىٰ طاعته، لأنه يملكهم[(٢)] قبل الاشتراء.

وحقيقة الاشتراء: استبدال شيء بشيء ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ بدلاً، ثم بين من هم فقال: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين يحاربون أعداء الله لطلب مرضاته وإعزاز دينه ﴿فَيَقۡتُلُونَ﴾ العدو ﴿وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ علىٰ يدي العدو ﴿[وَعۡدًا عَلَيۡهِ]﴾ وعد الله ذلك المؤمنين ﴿حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وهذا مثل كما قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ليس أحد أوفىٰ من الله في العهد، وهذا تأكيد للوعد، ثم بشّر المؤمنين فقال ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ مع ربكم ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ النجاة الوافر، والسعادة غير المتناهية.

ثم وصف الباعة فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلىٰ الله تعالىٰ بالندم علىٰ ما سلف من ذنوبهم مستغفرين ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ العاملون لله بأمره

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٧١، البسيط ١١/ ٥٩.

(٢) في الأصل: لا يملكهم، وهو تصحيف شنيع، والتصحيح من كتب التفسير (تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩، البسيط ١١/ ٦٤).

وقال السمعاني (في التفسير ٢/ ٣٥٠): معنىٰ الآية: أن الله تعالىٰ أمر المسلمين بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وجعل لهم الجنة ثوابا عليه، فجعل هذا بمنزلة الشراء والبيع.

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ الذين يضيفون ما بهم من خير الله تعالىٰ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، وقيل: السائرون في الخيرات[١] ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ هم المصلُّون لله تعالىٰ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: كلمة التوحيد والطاعة لله تعالىٰ ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي، الشرك بالله والمعصية.

وإنما ذكر الناهون بالواو لأن الصفة جاءت علىٰ مصاحبة الفعل الثاني للأول، لأن الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المعنىٰ كأنهما فعل واحد، حتىٰ لا يكاد يذكر أحدهما بدون الآخر، فيقرن بالواو.

وقيل: هي واو الثمانية بدون الواو[٢].

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ معطوف علىٰ أقرب الكلمات، أي: القائمون بجميع أوامر الله ونواهيه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ المصدِّقين بوعد الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم قام علىٰ قبر أمه ليستغفر لها، فإذا جبريل وضع يده علىٰ صدره وقرأ الآية[٣].

---

(١) زاد المسير ٢/ ٣٠٣.

(٢) انظر: البسيط ١١/ ٧١، زاد المسير ٢/ ٣٠٣، التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٦٦٢.
ونقل الواحدي عن الجرجاني صاحب النظم قوله: «التَّائِبُونَ» إلىٰ قوله «السَّاجِدُونَ» مبتدأ يقتضي جوابًا، وجاء بهذا النظم منسوقًا بعضه علىٰ بعض بلا واو العطف، ثم أجاب هذا المبتدأ بقوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فلما كان الفصل الأول مبتدأ جعل له نظمًا غير نظم الجواب، ونظم الجواب نسق بواو العطف فرقًا بينهما، ولولا هذا الفرق لما امتاز الخبر من المبتدأ، فالتأويل: «التَّائِبُونَ» إلىٰ قوله: «السَّاجِدُونَ» هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، أي الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعلىٰ هذا التأويل دخله واو العطف، لأنه ذهب به مذهب الفعل بعضه في إثر بعض.

(٣) وفيه قول آخر: أنها نزلت في استغفاره لعمه أبي طالب (انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٥١٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٩٠).

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾: أي وإن كان الميت ذا قرابة من الداعي ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٣﴾ ماتوا على الكفر.

فقال بعض المسلمين: هذا إبراهيم خليل الله دعاء لأبويه، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أن يسلم(١).

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ مات على كفره ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي: من موالاته ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: كثير التأوُّه من خوف النار، وقيل: دعَّاءٌ، وقيل: فقيهٌ، وقيل: مسبحٌ(٢).

﴿حَلِيمٌ ١١٤﴾ سيد، لأن الحلم من أخلاق السادة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ نزلت في قوم يعملون بالمنسوخ قبل علمهم بالنسخ، مثل: تحويل القبلة وتحريم الخمر ونحو ذلك(٣).

ومعناه: لا يبطل الله طاعات أقوام عملوا ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: يكون لهم الحجة بالتحريم والنسخ، ويُبطل بعد العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾ من الناسخ والمنسوخ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المُلك السعة المقدور لمن له السياسة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يمنعكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ ١١٦﴾ ينصركم.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٤/ ٥١٤.

(٢) زاد المسير ٢/ ٣٠٦.

(٣) وهو قول مقاتل والكلبي، انظر: الكشف والبيان ١٤/ ١٠٣، زاد المسير ٢/ ٣٠٦.

﴿ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ أي تجاوز عنه زلة رسول الله حين أذن للمنافقين وبعض المؤمنين بالتخلُّف، حتىٰ قال الله تعالىٰ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾(١).

وزلة المؤمنين: أن بعضهم أرادوا التخلُّف عن رسول الله في ساعة العُسرة التي وصفها الله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لأنَّ جيش رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أعسر ما كانوا في هذا الغزو، من عوز الزاد والظهر والماء، كان الرهط منهم يتعاقبون جملاً واحدًا، وكانوا يعصرون أكراش الإبل فيشربون ماءها، وربما شقوا الثمرة بنصفين، ويروىٰ أنَّ النفر منهم ربما اشتركوا في تمره واحدة يمصها واحد بعد واحد، ولهذا سمي: جيش العُسرة، فلما قصدوا الرجوع ولم يرجعوا تاب الله عليهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ تاب عليهم أي: وفقهم للتوبة فتابوا.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ يعني: وتاب علىٰ الثلاثة معطوف علىٰ الأول، والثلاثة قد سميناهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، خلفوا عن قبول توبتهم إلىٰ خمسين يومًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي: مع رحبها وسعتها ضاقت عليهم من شدة الخوف ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: قلوبهم اغتمامًا ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: علموا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: لا مفر من عذاب الله إلا إلىٰ لتوبة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أي: وفَّقهم للتوبة حتىٰ يتوبوا من صنيعهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المتجاوِز عن المذنبين ﴿ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ بعباده التائبين(٢).

---

(١) ما يليق أن يعبر بالزلة في أمر عفا الله عنه وتاب علىٰ نبيه وعلىٰ المؤمنين منه، ولذا كانت عبارة أبي -ومن شابهه- أجود حين قال: يعني: تجاوز الله عن النبي إذنه للمنافقين بالتخلف (تفسير أبي الليث ٢/ ٩٣) ومثله قال السمعاني، وزاد: وقيل: تجاوز الله (تفسير السمعاني ٢/ ٣٥٥) وهذه عبارة الكلبي.

(٢) قصتهم مخرجة في الصحيحين في حديث طويل، صحيح البخاري (٤٤١٨)، وصحيح مسلم (٢٧٦٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في سرائركم ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ أي: مع المهاجرين في السرعة إلىٰ القتال.

ثم وعظ أهل المدينة ليكونوا بالسرعة إلىٰ القتال مثل أبي بكر وعمر فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ مُزينة وجهينة وأشجع وغِفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ عن غزوة يغزوها ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: لا يكونوا أشفق علىٰ أنفسهم منهم علىٰ نفس محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التخصيص لهم ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في غزوهم ﴿ظَمَأٌ﴾ أي: عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ أي: لا يمشون علىٰ الأرض ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وطئهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ مِن قتل أو أسر أو أخذ مال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بكل واحد من ذلك ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ يستحقون به الثواب في الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾ الموحدين.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس: الصغيرة وزن النملة والذرة والكبيرة أكبر منها(١).

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية في طلب الكفار ومعونة المصطفىٰ عليه السلام ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ بها ثواب حسن ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢١﴾ لأن أحسن أعمالهم شدتهم وجرأتهم علىٰ أعداء الله.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ قيل: لما رغَّب الله الناس في الجهاد وأخبرهم بثوابه؛ كلما بعث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سرية

---

(١) لعله من رواية الكلبي لذا لم يروه أهل التفسير، وفي زاد المسير ٢/ ٣٠٩، قال ابن عباس: صغيرة تمرة فما فوقها.

تسارعوا حتىٰ لا يبقىٰ عند رسول الله أحد يحضرون الناسخ والمنسوخ، فنهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا إلىٰ الجهاد جملة[١].

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ أي: هلا خرج ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ ويمكث طائفة مع رسول الله ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: في أمر الدين من رسول الله ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي: يعظوا قومهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ من الغزوات ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ عما نهوا.

وقال الكلبي: نزلت في بني أسد، أقحمتهم[٢] سنة شديدة، فأقبلوا بالأهل والذراري ونزلوا المدينة، وأفسدوا طرقها بالعذرات، وأغلوا أسعار المدينة، فنزلت الآية[٣].

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ إلىٰ المدينة ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ من المدينة ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ أي: يقربكم ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يعني: بني قريظة والنضير ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ ظاهر الأمر متوجه علىٰ الكفار، وحقيقة الأمر للمؤمنين، يعني: ليكن منكم فيهم قول غليظ وصلابة في الدين ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالنصر لهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ﴿فَمِنْهُم﴾ أي المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لبعضهم استهزاءً ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾

---

(١) وفي ذلك خلاف استوعبه الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٦٦.

(٢) في الكشف والبيان: أصابتهم.

(٣) ذكره في الكشف والبيان ١٤/ ١٣٢، وعن ابن عباس نحوه من طريق علي بن أبي طلحة، رواه الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٦٩.

ويقينًا ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدقوا بالله ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا ويقينًا إلىٰ يقينهم الأول ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بنزولها[١].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ فسقًا إلىٰ فسقهم وشكًّا إلىٰ شكهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ مقيمون علىٰ الكفر.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يبتلون ويختبرون بالدعاء إلىٰ الجهاد، وقيل: بالقتل والمكروه[٢] ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ وقيل: بإظهار نفاقهم وما يسرونه من الكلام فيما بينهم، يخبرهم رسول الله بذلك[٣].

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ يتَّعظون.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في عيوبهم وفي إسرارهم ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وأشار بعضهم إلىٰ بعض، ويقولون ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المخلصين ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ خرجوا من المسجد ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أضلهم الله، مجازاة لهم علىٰ فِعلهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أَمْرَ الله تعالىٰ.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ معشر قريش يعني من العرب، وقيل: من بني آدم[٤] ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ما أثمتم، وقيل: ما لقيتم من العنت، أي المعصية، شفقة منه عليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ علىٰ أن تكونوا خيارًا، وقيل: حريص علىٰ إيمانكم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٥٧٧.

(٢) مجموع ما قاله أهل التأويل لا يخرج عن أن يكون الابتلاء بالأقدار الكونية، أو الأوامر الشرعية، انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٥٧٩.

(٣) انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٠،

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٠، الكشف والبيان ١٤/ ١٤٦.

ثم استأنف فقال ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ أي رفيق مشفِق.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: يكفيني الله ولا معبود للخلق سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وقفت علىٰ ما وعدني من النصر والظفر ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ قيل: عرشه سريره، من غير أن يحتاج إليه، وهو رب الملك العظيم، وكل ملك عند ملكه صغير[(١)].

وقيل قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ منسوخ بآية السيف.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا أن الحسين بن منصور رحمة الله عليه كان يقرأ «جاءكم رسول مِن أَنْفَسكم» [(٢)]أي: أجلَّكُم نسبًا، وأعلاكم همَّة، جاد بالكونين عوضًا عن الحق[(٣)]، ما نظر إلىٰ الملكوت ولا إلىٰ سدرة المنتهىٰ، ما زاغ بصره عن مشاهدة الحق وما طغىٰ قلبه عن موافقته.

وبلغنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «تعلموا سورة براءة وعلِّموا نساءكم سورة النور»[(٤)].

❁ ❁ ❁

---

(١) في الأصل: وكل ملك عنده ملكه صغير.

(٢) وهي قراءة شاذة نسبت لغير واحد من السلف، انظر: الكشف والبيان ١٤/ ١٤٦.

(٣) جاد أي من الجود والبذل، وهذه عبارة نقلت عن بعض المتصوفة في كرمه صلىٰ الله عليه وسلم، نقلها السلمي في حقائق التفسير ١/ ٣٧٧، والثعلبي في الكشف والبيان ٢٧/ ١٥٤ منسوبة للواسطي، ونسبها في عرائس البيان للحسين، جون أن ينسبه.
والحسين بن منصور هو الحلاج، المتوفىٰ ٣٠٩، المقتول علىٰ الزندقة والعياذ بالله، انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام ٧/ ١٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٤.

(٤) رواه المستغفري في فضائل القرآن (٨٤٠)، وقد خرجناه هناك.

السورة التي ذكر فيها يونس

مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ إلىٰ آخر الآية[١].

وهي مائة وتسع آيات[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾ أي: المُحْكَم، يقال: أحكمت الشيء فهو محكم وحكيم، وأكرمت الرجل فهو مُكرَم وكريم[٣].

وقوله: ﴿الٓر﴾ معناه: أنا الله أرىٰ[٤]، وقد مر الكلام في ذكر أمثاله.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: أكان إيحاؤنا إلىٰ رجل من نسب العرب عجبًا عندهم، وهذا استفهام بمعنىٰ الإنكار[٥].

والتعجيب: التعجُّب تغيُّر النفس بشيء خرج عن العادة ولا يعلم سببه.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أمرناه أن ينذر الناس بما ينبغي أن يحذروا عنه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالجنة ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ منزلة رفيعة، وقيل: سابقة

---

(١) الكشف والبيان ١٤/ ١٥٥، البيان في عد آي القرآن ١٦٣، زاد المسير ٢/ ٣١٤، والذي استثنىٰ الآيه هو الكلبي، كما سيأتي في تفسيرها.

(٢) في عدد الجمهور، وفي العدد الشامي: ١١٠ (البيان ١٦٣).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٢، الكشف والبيان ١٤/ ١٥٩.

(٤) وهي رواية أبي الضحىٰ عن ابن عباس، وقول الضحاك، كما في تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٩.

(٥) الانكار والتوبيخ (البسيط ١١/ ١١٧)، وقال الزمخشري: الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه (الكشاف ٢/ ٣٢٦).

خير ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ وقيل: شفيع صدق، وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم(١).

قال ابن عمر: قلنا: يا رسول الله ما القدم الصدق؟ فقال: «شفاعتي يتوسلون بها إلىٰ ربكم»(٢).

﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾(٣) يعنون النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

ثم ذكَّر أهل مكة صُنعه، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ طول كل يوم منها ألف سنة(٤) ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استولىٰ أمره فوق عرشه، والاستواء عند أهل المعاني هو: الاستيلاء علىٰ العرش بإنشاء التدبير من جهته(٥).

---

(١) وهذه الأقوال في تفسير الطبري ١٥/ ١٥، والكشف والبيان ١٤/ ١٦٢.

(٢) غريب ولم أجده مسندا، وقد ذكره القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٠٦) بلا إسناد، وهذا القول مروي عن بعض التابعين، كزيد بن أسلم.

(٣) في الأصل: لسحرٌ، وهي قراءة أبي جعفر ونافع وأبي عمرو وابن عامر (النشر ٢/ ٢٥٦).
قال مكي (في الهداية ٥/ ٣٢١٤): ومن قرأ لساحر: فمعناه: هذا النذير لساحر، يعنون النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ومن قرأ لسحر: فمعناه: هذا الذي أنذرنا به سحر، يعنون القرآن.

(٤) وهو قول الكلبي، كما في تنوير المقباس ١٦٩.

(٥) أوّل المصنف صفة الاستواء، وقد سبق التنبيه علىٰ ذلك، وأن تفسير الاستواء بالاستيلاء فاسد، إذ يلزم منه أن يكون غُولب عليه فغُلب ثم غَلب.
وقد حكىٰ السمعاني -في هذا الموضع- هذا المذهب الذي سلكه المصنف ونسبه للمعتزلة، وقال: وأما المعتزلة: فإنهم أولوا الاستواء بالاستيلاء، وهو باطل عند أهل العربية.
حكىٰ عن أحمد بن أبي داود - وكان من رؤساء المعتزلة - أنه قال لابن الأعرابي: أتعرف العرب الاستواء؟ بمعنىٰ الإستيلاء فقال. لا. ويحكىٰ أن هذه المسألة جرت في مجلس المأمون، فقال بشر المريسي: الاستواء بمعنىٰ الاستيلاء، فقال له أبو السمراء - وهو رجل

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ من فوق عرشه إلىٰ الملائكة من رسله، لا يشركه في تدبيره من خلقه أحد، فجبريل دون إسرافيل مما يلي الحُجُب ترعد فرائصه، ينتظر الأمر، كلما أراد الله أمرًا ضرب اللوح جبهة إسرافيل، وضرب الوحي قَلْبُه، ثم يأمر جبريل بذلك الأمر(١).

والتدبير: [تنزيل] الأمور في مراتبها علىٰ أحكام عواقبها(٢).

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يشفع للناس من ملك مقرَّب ولا نبي مرسل ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ في الشفاعة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ وحِّدوه وأطيعوه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ تتعظون.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ أي: منقلبكم إليه بعد الممات يوم القضاء للبر والفاجر ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ أي: وعد وعدًا حقًا، منصوبان علىٰ المصدر(٣) ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي: بدأهم في النشأة الأولىٰ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ للبعث بعد ما صاروا ترابًا ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: يثيبهم بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتوحيده ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: ماء حار قد انتهي حرُّه ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾ أي: يجحدون برسل الله.

من أهل اللغة - اخطأت يا شيخ؛ فإن العرب لا تعرف الاستيلاء إلا بعد عجز سابق.(تفسير السمعاني ٢/ ٣٦٦).

(١) لم أجده، وفي تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٣: عن ابن سابط قال: مدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل، أما جبريل، فعلىٰ الرياح والوحي والجنود، وأما ميكائيل، فعلىٰ النبات والمطر، وأما ملك الموت، فعلىٰ الأنفس، وأما إسرافيل، فينزل إليهم بما يؤمرون. والله أعلم بحقيقة هذا، فإن لم يرد به خبر عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم فنسلم به.

(٢) مثله في البسيط ١١/ ١٢١، والجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٠٨، ومنهما استدركت السقط.

(٣) أي: منصوب علىٰ المصدر بفعل دل عليه الكلام، وهو قوله «إليه مرجعكم» لأن هذا وعد منه سبحانه بالبعث (التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٦٦٥).

ثم زادهم في الدليل فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ أي: خلق الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر.

وفي توحيد «قدَّره» وجهان:

أحدهما: لأن إحصاء شهور الأهلّة ومعرفة المعاملات التي عليها الناس بالقمر.

والثاني: أنه اكتفىٰ بذكر الواحد عن الاثنين، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[1].

﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ حساب السنين والشهور ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: لم يخلق الشمس والقمر إلا لتبيان الحق ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدلائل والعلامات ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥﴾ يفهمون أمر الله.

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذهابهما ومجيئهما ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والرياح، وفي ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] من الأشجار والبحار والأنهار ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ الشرك فيوحدونه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون البعث ولا يقرون به ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: اختاروا ما في الدنيا علىٰ يوم الآخرة ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: سكنوا إليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: السماء والأرض ﴿غَٰفِلُونَ ٧﴾ جاحدون توحيدنا.

---

(١) هذا جواب الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٥٨، وعليه عول المفسرون، انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٣، الكشف والبيان ١٤/ ١٦٨، البسيط ١١/ ١٢٥.

(٢) في الأصل: فصل بين الواو والأرض بحرف الجر: في، ولا يتأتىٰ ذلك في الرسم العثماني.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مصيرهم ومرجعهم جهنم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٨﴾ في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يرشدهم ربهم إلىٰ منازلهم في الجنة[1] ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ في بساتين يتنعمون.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي: قولهم ونداؤهم في الجنة إذا اشتهوا شيئًا أن يقولون ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فإذا ما أتاهم الخدم بما يشتهون يضعون بين أيديهم بالتحية: سلام عليكم يا ولي الله، هذه شهوتك[2]، فذلك قوله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ مع الخُدَّام والملائكة ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دعاؤهم إذا فرغوا من الطعام ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ [لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ]﴾ أي: لو يعجل الله للكفار إجابة دعائهم حين يدعون بالشر علىٰ أنفسهم[3]، مثل النضر بن الحارث إذ قال: «إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء»، وبعضهم يدعون علىٰ أنفسهم بالهلاك في

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٧، الكشف والبيان ١٤/ ١٧٢.

(٢) نسبه الثعلبي في الكشف والبيان ١٤/ ١٧٣ إلىٰ المفسرين. وهو مروي عن ابن جريج وسفيان وقتادة (تفسير الطبري ١٥/ ٣٠).

(٣) علىٰ قوله هذا فإن الناس هم الكافرون، فيكون من العام الذي أريد به الخصوص، وهذا قول مقاتل (٢/ ٨٤، تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٦).

ولكن المفسرين علىٰ أن المراد العموم، وفسروا ذلك بدعاء الوالد علىٰ ولده، ونحوه (تفسير الطبري ١٥/ ٣٤، الكشف والبيان ١٤/ ١٧٥).

الضجر، لو أجابهم الله إلىٰ ذلك كما أجابهم إلىٰ الدعاء بالخير لماتوا كلهم وتفانوا، ولكنه يجيب بالخير ويؤخر الشر، إلا ما وافق القضاء والقدر[1].

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾ في كفرهم يترددون.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ نزلت في هشام بن المغيرة وكان كافرًا متىٰ مسَّه بلاء أو لأواء دعانا مضطجعًا[2] ﴿أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ يعني: إن قام دعا، وإن قعد دعا، وإن اضطجع دعا، مادام في بلائه وضره، فإذا زال عنه الضر؛ قوله ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ استمر علىٰ عادته الأولىٰ ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ وشدة أصابته ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي: المشركين ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ من الشرك.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: أهلكنا بالعذاب من قبلكم قرونًا يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ حين أشركوا ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: العذاب النازل ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ أي: وما كان كفار مكة ليصدِّقوا بنزول العذاب بهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ نعاقب المشركين من الماضين والغابرين.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ يا أمة محمد ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ بدلاً عن الماضين ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ أي: نميِّز كيف تصنعون، تعتبرون بما صنع بالماضين أو لا تعتبرون، وقوله: «لننظر» بالفارسية: تاماي بيهم كي سماحه كنيد.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: يعرض ويقرأ عليهم القرآن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا [ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ]﴾ يعني:

---

(١) البسيط ١١/ ١٣٤.

(٢) وهو من تفسير الكلبي كما في تنوير المقباس ١٧٠.

المستهزئين، وهم خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة[١].

أهلك الله كل رجل منهم بغير ما أهلك به صاحبه، وقد قالوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: ائتِ بقرآن غير هذا أو بدِّله، فاجعل مكان آية رحمة آية عذاب، ومكان آية عذاب آية رحمة ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما يجوز لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ لأنه ليس من عندي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من ربي ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ أي: أعلم ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بتبديل كتابه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ يوم القيامة.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ لام تأكيد، أي: أعلمكم الله من غير تلاوتي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي: مكثت فيكم أربعين سنة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ الوحي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾ أني لم أتقوله، إذ لو تقوَّلته لتقوَّلت في صباي وشبابي.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فجعل له شريكًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بكتابه ونبيه، ثم ابتدأ وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾ أي: لا يسعدون بالبقاء والظفر.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام، وقيل الملائكة[٢] ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بزعمهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا

---

(١) وهو قول الكلبي، ولذا لم يخرجه ابن جرير، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧، البسيط ١١/ ١٤٣.

(٢) لا يذكر المفسرون إلا القول الأول، لأن الآية في مشركي العرب، وجمهورهم عبدة أوثان، إنما كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوا كبيرا (تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٨، الكشف والبيان ١٤/ ١٨٤، زاد المسير ٢/ ٣٢١).

﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ في الآخرة ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ تخبرون الله، وتجعلوه له شريكًا ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لنفسه شريكًا، وليس ذلك ولا يكون، وهو يعلم أنه لا يكون، وهذا على وجه الإنكار، معناه: أنتم علمتم لله وأخبرتم له بما لا يعلم لنفسه ذلك.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ تنزيهًا له وبراءة عن الشرك والولد، تعالى: ارتفع عما يقولون له من الشرك.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ على دين الإسلام يوم الميثاق، وقيل بعد غرق قوم نوح، وقيل على ملة الكفر في زمن إبراهيم[1].

﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ بعد ذلك وصاروا كافرين ومؤمنين ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: وعد سبق من الله بتأخير العذاب عن هذه الأمة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فرغ من هلاكهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ من أمر الدين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ دلالةً على نبوته، يد كيد موسى وعصا كعصاته، وريح كريح سليمان ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ أي: غيب نزول الآيات عند الله ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ هلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ لعذابكم.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ أي: نعمة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ أي: شدة أصابتهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ يقول: إذا أمطرنا لهم مطرًا بعد القحط والجوع يقول: مطرنا بنوء الثُّريا والدَّبران والهَقْعة وأمثالها[2]، ولا يقولون: هذا رزق الله، فكان ذلك زيادة في كفرهم ومكرهم.

---

(١) الكشف والبيان ٢/ ١٨٦، زاد المسير ٢/ ٣٢٢.

(٢) البسيط ١١/ ١٥٥، زاد المسير ٢/ ٣٢٣.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ أي: مجازاة علىٰ مكركم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ أي: الحفظة من الملائكة يكتبون مكركم، مع علمي بذلك، وأراد بالناس الكافرين(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ أي: ربكم الذي يسيِّركم في البر علىٰ الدواب وعلىٰ السفن في البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: ركبتم السفن ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ السفن ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ لا عاصفة ولا قاصفة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بالريح الطيبة ﴿جَآءَتۡهَا﴾ يعني إلىٰ الفلك ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ كاسر للسفينة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ أي: هاجم بهم الموج ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ في البحر ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أيقنوا بالهلاك لأنَّ من أحاط به العدو فقد أشرف علىٰ الهلاك(٢) ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يشركون به غيره، يقولون: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الريح والبليَّة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ لنعمائك.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ من الأهوال ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ أي بغوا في الأرض، والبغي: طلب الفساد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ﴾ أي: ظلمكم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ لا يرجع وبالها إلا عليكم ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ أي: هي ما تتمتعون بها في ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ أيامًا قلائل ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ من الشرك ويجازيكم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في زينتها وفنائها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لم يبق علىٰ وجه الأرض؛ فكذا زينة الدنيا، ثم وصف الماء فقال: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن حبوبها ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ من حشيشها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ

---

(١) يعني كفار مكة، وهو رواية الكلبي عن ابن عباس، وقول مقاتل، فيكون هذا من العام المراد به الخصوص، انظر: الكشف والبيان ١٤/ ١٨٩، البسيط ١١/ ١٥٤.

(٢) البسيط ١١/ ١٥٩.

﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ زينتها ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي: حسنت الأرض وتزيَّنت ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ أي: الحراثون والزراع ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أي: علىٰ جمعها واقتنائهم منها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ أي: عذابنا بالليل أو بالنهار ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ مستأصلة، فصار ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي: كأن لم تكن في المغاني، فقد شبه شباب العبد وكهولته وهرمه وصيرورته إلىٰ حفرته بفصل ربيع واحد، فما بال العاقل يغفل عن أمر آخرته بعد سماع هذا المثل.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبيِّن العِبرات ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ في أمثال الله.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ السلام: اسم الله وداره الجنة، وقيل: دار السلام دار السلامة عن الآفات والعاهات؛ مثل المرض والهرم والموت[(١)].

عن الزجاج: ومعناه يدعوكم إلىٰ أمر تستوجبون به دار كرامته[(٢)].

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي: يكرم بالمعرفة من كان أهلاً في سابق علمه، حتىٰ يثبت علىٰ الإسلام وهو الصراط المستقيم ﴿[إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥]﴾.

﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ قال أبو موسىٰ الأشعري: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «للذين أحسنوا -وهم أهل لا إله إلا الله- الحُسنىٰ: الجنة، وزيادة النظر إلىٰ وجه الرب جل جلاله»[(٣)].

وهكذا يروىٰ عن أنس عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم[(٤)]، وهكذا كان يفسره أبو بكر رضي الله عنه[(٥)].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٩، الكشف والبيان ١٤/ ١٩٦.

(٢) لم أجده في مظنته من معاني القرآن ٣/ ١٥.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في التفسير ١٥/ ٦٥ بإسناد ضعيف.

(٤) رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٤/ ٢٠٠ بإسناد فيه متهم بالكذب.

(٥) رواه ابن جرير في التفسير ١٥/ ٦٣.

وقال الكلبي: الزيادة جزاؤها بعشرة أمثالها[1].

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يغشىٰ وجوههم ولا يعلوها، قتر: كسوف وسواد، ولا ذلة: أي مذلة؛ بعد نظرهم إلىٰ الله عز وجل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ في جوار الرحمن ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لا يموتون ولا يخرجون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الشرك بالله ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي: جزاء الشرك في الدنيا النار في العقبىٰ مكافأة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم وتعلو وجوههم مذلة وكآبة ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانع من عذاب الله ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: ألبست ﴿قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: سوادًا كقطع الليل في حال ظلمته.

و«قطْعًا» بالجزم معناه القطعة[2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ جملة واحدة للعبيد والمعبود ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ قفوا أنتم وآلهتكم علىٰ مكانكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ميَّزنا بين العابد والمعبود حين تبرأ بعضهم من بعض، وقيل للعبدة لم عبدتموها؟ فقالوا: هم أمرونا بذلك.

وقد صح هذا المعنىٰ عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في حديث صهيب، رواه مسلم في الصحيح (١٨١).

(١) وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وقول الحسن وعلقمة بن قيس، رواه عنهم ابن جرير في التفسير ١٥/ ٧٠. وجعل ابن جرير هذين القولين من قبيل التفسير بالمثال، وأنه غير بعيد أن يجمع الله للمؤمنين كل ذلك.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ويعقوب والكسائي (النشر ٢/ ٢٨٣). وقول المصنف: معناه القطعة، أي: بعضًا، بينما قراءة الجمهور علىٰ الجمع (الكشف والبيان ٢/ ٢٨٣).

﴿[وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم]﴾ فقالت الأصنام ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: نحن لم نشعر بعبادتكم إيانا، ولم تعبدونا بأمرنا ولا علمنا.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ معناه: وقد كُنَّا عن عبادتكم غافلين، وقيل: ما كُنَّا عن عبادتكم إلا غافلين[١].

قال عبد الحميد الحاكمي: ذكر المفسر الكبير في المهذب جحود الأصنام لعبادتهم إيَّاها يحتمل معنيين:

أحدهما: الإهانة بالرد عليهم، أي ما اعتددنا[٢] بعبادتكم.

والثاني: أنه في حال دهش ككذب الصبي[٣].

قلت: وإني رأيت في نسخة من تصانيف أبي محمد القتيبي رحمة الله عليه: أنَّ جحودهم علىٰ تأويل: إنكم ما عبدتم إيانا، ولكنكم عبدتم الشيطان لأن الشيطان كان يدخل في جوف الأصنام فيكلمهم بالوعد والوعيد؛ حتىٰ عبدوها، ولهذا قالوا في ابتداء السؤال: هم أمرونا بذلك، زعموا أن ذلك كلام الأوثان، ولكنه كلام الشيطان[٤].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تُخْتَبَر كل نفس، وقيل: تعلم كل نفس وتجزىٰ[٥] ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: قدَّمت من العمل خيرًا كان أو شرًا.

وقرئ: «تتلوا كل نفس» بتاءين[٦]، أي: تقرأ وتتبع.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٨٠، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦.

(٢) في الأصل: ما اعتدنا.

(٣) في الأصل: لكذب الصبي.

(٤) نحوه في التفسير الكبير ١٧/ ٢٤٥، اللباب لابن عادل ١٠/ ٣١٧.

(٥) البسيط ١١/ ١٨٤.

(٦) وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما (النشر ٢/ ٢٨٣).

وجاء في الخبر: أن المؤمن إذا خرج من قبره مُثِّلَ له عمله الصالح في أحسن صورة فيقول له: اتبعني، فيتبعه حتىٰ يدخله الجنة[١].

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلىٰ محاسبته وجزائه رجعوا ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ الحق تابع للمولىٰ في الإعراب، والمولىٰ في محل الخفض، وهنالك: اسم إشارة إلىٰ المكان، كلفظ حين اسم إشارة إلىٰ الزمان، وليس يتمكن فيلحقه الإعراب، كقول: هاهنا وهنا، وموضعه النصب علىٰ الظرف[٢].

وقوله ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ أي: بطل افتراءهم بأن الآلهة تشفع.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ رزق السماء الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد، ورزق الأرض النبات والثمار ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ أي: من يقدر أن يخلق لكم السمع لتسمعوا، والأبصار لتبصروا ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾:أي يقدِّر الأمور ويقضيها في الدنيا والآخرة ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ يفعل ذلك، لا الأصنام، فإذا اعترفوا لزمتهم الحجة ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ عبادةَ الأصنام.

---

(١) ذكر ابن جرير نحوه في حق الكفار، دون أن يسوق إسناده (تفسير الطبري ١٥/ ٨١)، وقال: «من وجه وسند غير مرتضىٰ» وعادته في مثل ذلك هو ما يكون من رواية الكلبي وأشباهه.
وعزاه السيوطي إلىٰ ابن مردويه من حديث ابن مسعود (الدر المنثور ٤/ ٣٦٢).
وفي صحيح البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري: «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقىٰ من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب، إلا يتساقطون في النار» الحديث.

(٢) الدر المصون ٦/ ١٩٢.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وعبادته الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: ليس بعد عبادة الله إلا عبادة الأصنام، وهو ضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ عن الحق إلى الباطل ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني: عذاب ربك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ من الكفرة ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لأنه حقت عليهم كلمت الله وهم في صلب آدم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: معبودكم ﴿مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في العقبىٰ، وقيل: يبدأ خلقه من نطفة ويصوره ويخرجه من الرحم نسمة، ثم يحييه بعد الموت[1]، فإن أجابوك وإلا فقل: الله يفعل ذلك ﴿[قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ] فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ لأيَّة علة تكذبون.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: يرشد إلى الصواب، فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وقل لهم: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: يرشد إلى الصواب ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ ويعبد بأمره، وهو الله تعالىٰ ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ والصواب، وهو الصنم لا يهتدي بنفسه ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي يحمل من مكان إلى مكان[2] ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي شيء لكم في عبادة الأصنام؟ كيف ترضون أن توجبوا ما لا توجبه الحكمة، وهذا استفهام.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما تُعبد الأصنام إلا بالشك ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ في عبادة الأصنام ﴿لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ لا ينفع عند نزول العذاب، ولا يدفع العذاب عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من عبادة الأصنام.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٨٥.

(٢) الكشف والبيان ١٤/ ٢١٣.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس هذا القرآن مما يقدر أحد أن يفتريه ويختلقه لأنه كلام في أعلا طبقات البلاغة، مضمَّن بأجلّ مراتب الحكمة، دال علىٰ فائدة دينية، تعجز الخلق عن إتيان مثله ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: للكتب الذي قبله من التوراة والإنجيل، وقيل: تصديق لأخبار القيامة[1] ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تبيان الحلال والحرام والنهي والأمر ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ أنزله علىٰ سيد المرسلين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل: يقولون أن محمدًا افتراه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: مثل القرآن ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ادعوا كل من قدرتم علىٰ الاستعانة منه، وقيل: ادعوا من عبدتم من الأصنام من دون الله واستطعتم دعاءه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ في مقالتكم أن محمدًا اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ أنكروا وجحدوا ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: لم يحققوا في علمهم أنه كذب ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ولم يأتهم عاقبة ما يؤول إليه أمرهم من العذاب ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبك قومك ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩﴾

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من اليهود، وقيل: من كفار مكة[2] ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قال الكلبي: هذه الآية مدنية في هذه السورة، أي: من اليهود من يؤمن به مثل عبد الله

---

(١) هذا قول الزجاج كما في زاد المسير ٢/ ٣٣١، حمل الكلام علىٰ معنىٰ ما تقدم من السورة، والمشهور الأول، وهو قول المفسرين، انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٩٠، تفسير أبي الليث ٢/ ١١٧، البسيط ١١/ ١٩٩.

(٢) اتبع المصنف تفسير الكلبي (تنوير المقباس ١٧٤)، والقول بأن المراد اليهود ضعيف، إذ لم يجر لهم ذكر، ولما قال ذلك الكلبي بنىٰ عليه: أن الآية مدنية، لأن اليهود كانوا بالمدينة، وعن مقاتل نحو قول الكلبي، وعن الكلبي قول آخر ذكره الواحدي: أنه المراد أهل مكة،

بن سلام وأصحابه ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ يثبت على اليهودية ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾ وعالم بعقوبة الكافرين.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ ديني الإسلام ﴿وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ دينكم الذي أنتم عليه، نُسِخَ بآية السيف[1] ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ من ديني ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١﴾ من دينكم.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ يعني: من الكفرة واليهود، يستمعون حديثك على وجه الاستهزاء ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي: تقدر أن تُفْقِه الكفار ﴿وَلَوۡ كَانُواْ﴾ جهلة ﴿لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾ الإيمان.

﴿وَمِنۡهُم﴾ أي: من كفار مكة ﴿مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ وأنت تقرأ القرآن، نظر استهزاء.

ذكر «ينظر» على الوحدان لأنه يرجع إلى كلمة «مَنْ»، وذكر «يستمعون» على الجمع لأنه راجع إلى قوله «منهم»[2].

ثم قال: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣﴾ ومعنى الكلامين: أنهم في الظاهر يسمعون وينظرون، ولكن فيما يرجع إلى الحقيقة كأنهم صُم لا يسمعون؛ وعمى لا يبصرون لشدة عداوتهم لك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا ينقص من عملهم شيئًا من الشر والخير ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أهل مكة ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ بالكفر والشرك.

وهو الموافق لقول المفسرين (انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٩٤، تفسير أبي الليث ٢/ ١١٨، البسيط ١١/ ٢٠٤).

(١) وهو قول مقاتل والكلبي، كما في البسيط ١١/ ٢٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٤٦.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[(١)] يعني: في قبورهم، يعني يظنون مدة البرزخ ساعة قصيرة[(٢)] ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ التعارف: اعتراف كل واحد لصاحبه، أي: يعرف بعضهم بعضًا[(٣)] ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ أي: عينَ نفسه وأهله الذين كذبوا ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ البعث بعد الموت ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ من الضلالة إلىٰ الحق.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ نخوِّفهم في حال حياتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ بقبض روحك قبل أن نريك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ منقلبهم ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ معناه: والله شهيد علىٰ فعلهم يعاقبهم عليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فكذَّبوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ وبين رسولهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: العدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا ينقص من محاسنهم ولا يزاد علىٰ مساويهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: البعث والعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بنزوله.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ أي: دفع ضر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أي: جر نفع ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يقويني علىٰ ذلك ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمىٰ عنده، المقدر في اللوح المحفوظ ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قبل الأجل.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ [ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾]﴾ أي: من العذاب يعني منفعة لمن يستعجل به.

---

(١) كتبها في الأصل: نحشرهم، وهي قراءة القراء إلا حفصا (النشر ٢/ ٢٦٢).

(٢) وهو تفسير الكلبي، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ١١٨، ونسب لابن عباس، ولا يخفىٰ أنه من رواية الكلبي (الكشف والبيان ١٤/ ٢١٩).

(٣) وهو تعارف توبيخ (البسيط ١١/ ٢١١).

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾ يقول: إذا أنزل بكم العذاب إن صدقتم به ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بالعذاب قبل نزوله ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٥١﴾ به منكرين له.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عند معاينة العذاب، أي: للكافرين ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: جربوا عذاب الأبد ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝٥٢﴾ في الدنيا.

﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ يستخبرونك ويسألونك: أحق هو؟ أصدق ما تخبر به من العذاب؟ ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾ إي صلة للقسم، أي: نعم وربي ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾ أي: فائتين.

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ علىٰ نفسها بالكفر ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جميعًا من أنواع الأموال ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ عند نزول العذاب ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أخفوها من السفلة ورؤسائهم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ وقيل: أظهروا الندامة حين رأوا العذاب[1] ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بين القادة والسفلة بالعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٥٤﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ بالغيب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾ أن وعد الله حق.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٥٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم﴾ في القرآن ﴿مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ نهيٌ عما أنتم عليه ﴿وَشِفَآءٞ﴾ أي: جلاءٌ ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من الرَّيْن والعمىٰ ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي نعمة ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾.

---

(١) البسيط ١١/ ٢٢٤.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام[١] ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل والرحمة ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ ويعجبوا ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ من الأموال يعني الكفار.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني يا أهل مكة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: ما أحل الله من الأنعام والحرث، ويحتمل أن يكون ما استفهام[٢] ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ حرامًا على النساء، وحلالاً على الرجال؛ في البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ على وجه الإنكار، أي: الله أمركم بتحريمها ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ تكذبون.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ماذا يُفعل بهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويوم منصوب بـ«ظن»[٣]، والكلام محذوف الجواب[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الكفار بتأخير العذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾ نعمة الله.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ يا محمد من شؤون النبوة وتبليغ الرسالة ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ يبلغه الله عز وجل ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ من عمل أنت وأمتك ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ حفظاء رقباء على أعمالكم، وقيل: حضور عندكم

---

(١) وقيل بالعكس، فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، كذا (تفسير الطبري ١٥/ ١٠٦، الكشف والبيان ١٤/ ٢٢٤).

(٢) هذا الاحتمال هو لازم قول الزجاج (معاني القرآن ٣/ ٢٥، البسيط ١١/ ٢٣٤).

(٣) الدر المصون ٦/ ٢٢٧.

(٤) أي: أأنجيهم من العذاب أم أنتقم منهم (تفسير الطبري ١٥/ ١١٣، تفسير السمعاني ٢/ ٣٩١، الكشاف ٢/ ٣٥٤، الدر المصون ٦/ ٢٢٧، اللباب ١٠/ ٣٦١).

عالمون بكم، أتىٰ بلفظ الجمع وهو من كلام الكبراء﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أي: تخوضون فيه، أفاض في الشيء: إذا دخل فيه، وأفاض عنه إذا رجع عنه(١).

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أهل السماء والأرض ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أقل من الذر ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ من الذر.

وقرئ: «أكبرُ» بالرفع عطفًا علىٰ محل المثقال(٢)، قيل مقارنة من ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ يكتبه الحفظة(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ «ألا» افتتاح كلام وتنبيه، أي: لا يخافون فيما يستقبلهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ حين يحزن أهل النار.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله ذنوبه وتجاوز عنه-: بلغنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «إن من عباد الله ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله» فقلنا: ما هم؟ وما أعمالهم؟ لعلنا نحبهم بذلك، فقال: «رجلان يتحابان(٤) في الله من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلىٰ منابر من نور، وما يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزنوا، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية»(٥).

---

(١) انظر معنىٰ الإفاضة: في البسيط ١١/ ٢٤٢.

(٢) والرفع في أصغر وأكبر قراءة يعقوب وحمزة وخلف (النشر ٢/ ٢٨٥).

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٠، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦.

(٤) في الأصل: يتحابون.

(٥) رواه أبو داود في السنن (٣٥٢٧) وابن جرير في التفسير (١٥/ ١٢١) وإسناده صحيح.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ الشرك والفواحش ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: بشارة الملائكة عند النزع، وقيل: الرؤيا الصالحة يرها المؤمن لنفسه أو تُرىٰ له[١].

﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ﴾ نجاة وافر والجنة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ لا تغيير لوعد الله ولا خلف ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ﴾ يا محمد ولا تكذيبهم ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ القدرة والمنعة ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾ وهذا تسلية للنبي صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ من الخلق مملوك له، وهو مالكهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ معناه: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، وهذا تقبيح فعلهم[٢].

والقول الثاني: بمعنىٰ النفي، أي أنهم لم يتبعوا شركاء في الحقيقة، لأنهم ليسوا بشركاء الله، ولكنهم يتبعون الظن[٣].

وقيل: معناه أن الصدر الأول كانوا يقولون الناس رجلان متبِع ومتبُوع، وهذا القوم ليسوا بمتبعين في اتخاذهم الأصنام شركاء فكانوا متبوعين[٤].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لا[٥] يعبدونها إلا بالظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦﴾ يكذبون.

---

(١) وقد ورد هذا عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في أحاديث، انظر: مسند أحمد (٧٠٤٤).
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٣.
(٣) البسيط ١١/ ٢٥٢.
(٤) البسيط ١١/ ٢٥٣، حيث نقل عن صاحب النظم الجرجاني قولين في الآية.
(٥) في الأصل: ألا، وهو تصحيف.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: تقروا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ مضيئًا، والنهار مبصرًا كما يقال: ليل نائم، أي ينام فيه ويصام فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ علامات ودلائل علىٰ وحدانية الله ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ يعقلون أمر الله.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ اختار الله لنفسه ولدًا، يعني: عُزيرًا ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزيهًا له ﴿هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ﴾ عن ذلك ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عبيده وإماؤه، إنما يتخذ الولد للحاجة؛ إما الفقر وإما الوحشة وإما الضرورة؛ يدفعها[1] به ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ أي: ما عندكم حجة علىٰ هذا القول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ بل تقولون ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: يختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أنَّ له شريكًا وولدًا ﴿لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ أي: لا ينجون من عذاب الله.

ثم ابتدأ فقال: ﴿مَتَٰعٞ فِى ٱلدُّنۡيَا﴾ قليل ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ الشديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾.

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره حين ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ عظم عليكم ﴿مَّقَامِى وَتَذۡكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: عظتي بكتاب الله فعاديتموني وآذيتموني، فعلىٰ الله توكلت ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ أي: اجتمعوا علىٰ أمر واحد وادعوا ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾[2] وقرئ[3]: بالرفع، أي: يجمع

---

(١) في الأصل: يدفعه.

(٢) فصل بين الواو وشركاؤكم بـ:ادعوا.

(٣) تصحفت في الأصل: وفي.

شركاؤكم(١) ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ملتبسًا عليكم، وقيل: غمًّا عليكم يعني فرِّجوا عن أنفسكم(٢) ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ امضوا إلي وانهضوا إليَّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ أي: لا تؤخرون.

وقرئ: «ثم أفضوا إلي» بالفاء، أي اتجهوا إلي وافعلوا لي ما تريدون مستعدين حتىٰ لو غلبتكم بالحُجة، لا تقولوا: غافصنا(٣).

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن قبول الإيمان ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ [إِنْ أَجْرِيَ]﴾ أي: ثواب وما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ المستقيمين علىٰ الإسلام.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ سكانًا في الأرض من بعد المُهلكين ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وكفروا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الذين خوَّفهم فلم يؤمنوا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: هودًا وصالحًا ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالأمر والنهي ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ ليقروا ويصدقوا بالرسل ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ عند أخذ الميثاق، ومن خروجهم من صلب آدم، وقيل: لم يؤمنوا أهل مكة بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، يعني العذاب النازل(٤).

---

(١) وقد نسبت هذه القراءة للحسن البصري، انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣، الكشف والبيان ١٤/ ٢٥٤.

(٢) الكشف والبيان ١٤/ ٢٥٥.

(٣) المغافصة: المفاجأة، وانظر هذه القراءة: في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٤، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩.

(٤) وهو تفسير الكلبي، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٢٦.

﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾ أي نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ المخالفين لله ورسوله مجازاة.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أنصاره ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دلائلنا ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥﴾ مشركين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ آباؤهم، موسىٰ بالرسالة ﴿مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾ كذب ظاهر وخداع.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾ أنه سحر، وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ وقال ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ أي: لا يقوىٰ الساحر بالظفر، وإني أقول بالظفر فكيف يكون سحرًا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسىٰ ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ﴾ لتصرفنا عن دين ﴿ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ العظمة والمُلك والرئاسة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾ حاذق.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾ من حبالكم وعصيكم.

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ طرحوا ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ أي: ما أتيتم به الخداع وليس بحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ عند مقابلة الحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ أي: لا يرضىٰ عمل السحرة.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يُظْهِر الله الإسلام ويُنْجِز وعده بنُصرة أنبيائه ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ أي: فرعون وقومه يشق عليهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ طائفة من بني إسرائيل قد مات آباؤهم وبقي أولادهم، وقيل: كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل(١).

قيل: كان يعقوب ركب إلىٰ مصر في اثنين وسبعين إنسانًا، فتوالدوا وصاروا ستمائة ألف(٢).

قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: رؤسائهم يعني من قراباتهم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أن يعذِّبهم أو يقتلهم أو يصرفهم(٣) عن موسىٰ ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مخالف في أرض مصر بالتكبُّر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: المشركين والمسرفين في سفك الدماء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قدرتم وصدقتم بوحدانية الله ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ قال ذلك تقوية لقلوبهم.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لا تسلطهم علينا، ولا تعذِّبنا بأيديهم فيفتتنوا ويظنوا أنهم علىٰ الحق.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ أي: اتخذا لهم ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ ومساجد ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مصلًّىٰ نحو الكعبة، يعني اجعلوا

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٦٤، تفسير أبي الليث ٢/ ١٢٧، الكشف والبيان ١٤/ ١٦١، والقول الثاني رواية الكلبي عن ابن عباس. ورجح ابن جرير قول مجاهد، وهو: وهو أن الذرية في هذا الموضع أريد بها ذُرِّية من أرسل إليه موسىٰ من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرُّوا بنبوته لطول الزمان، فأدركت ذريّتهم، فآمن منهم من ذكر الله بموسىٰ.

(٢) وهي رواية مقاتل عن ابن عباس، تفسير أبي الليث ٢/ ١٢٧، الكشف والبيان ١٤/ ١٦٠.

(٣) في الأصل: يصر، لم يتمها.

فيها محاريب نحو الكعبة[١] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ سرًا إن خاف قومكم إظهار الصلاة من فرعون وقومه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾ بالنجاة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ أعطيت فرعون ﴿وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: زهرة[٢] ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ كثيرة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا﴾ أعطيتهم ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ والإضلال من الله: ترك العصمة عما نهىٰ عنه، وترك المعونة علىٰ أمر ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: صيِّر دنانيرهم ودراهمهم حجارة حتىٰ يذهب نفعها، وطمس الشيء: إذهاب أثره ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اجعلها منكوسة وأغلق عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ علىٰ وجه الدعاء ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾ الغرق في البحر.

«فلا يؤمنوا» محله جزم بالنهي، يعني: فلا آمنوا، وهذا بعد ما آيسه الله من إيمانهم[٣].

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ علىٰ الدعاء وقيل: علىٰ الإيمان والطاعة، وقيل: اثبُتا علىٰ أداء الرسالة ولا تستعجلا ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ توحيد الله في استعجال ما سألتم.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ بلا سفينة، أي: عبرنا بهم، وإنما جاز ذلك من الله لأنه معهم في الحفظ ودفع معرة[٤] البحر ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: ساروا خلفه ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلمًا واعتداءً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٧٣، تفسير أبي الليث ٢/ ١٢٨، وقد ضعف ابن جرير هذا القول، وصحح القول بأن المراد: اجعلوا بيوتكم مساجد.
(٢) في الأصل: هرة.
(٣) انظر أقوال المعربين في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٦، الدر المصون ٦/ ٢٦٠.
(٤) في الأصل: مرة.

ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ المخلصين، قيل: إن جبريل ألقمه الحمأة من قعر البحر، وقال:

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ أي: كفرت ﴿قَبْلُ﴾ هذه الساعة ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ القتّالين في بني إسرائيل، فلم يقبل إيمانه لأنه إيمان عند المعاينة.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: مبني على الفتح، يقال: نحن من الآن نصير إليك، فلا يعمل فيه العامل، لأن الألف واللام للمعهود، والآن لم تعهده قبل الوقت[1].

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نُخرِج بدنك من الماء، ونُلقيك على الساحل عريانًا بلا روح ﴿لِتَكُونَ﴾ لتصير ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبرة، كيلا يقولوا مثل قولك، وليعلم من خلفك أنك لو تكون بالماء غرقت.

عن ابن عباس: قال كان الملعون طوله ستة أشبار ولحيته قريبًا من قامته[2].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ دلائل وحدانيتنا ﴿لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ساهون.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ﴾ أنزلناهم منزل ﴿صِدْقٍ﴾ أرضًا كريمة منازل فلسطين والأردن والأرض المقدسة ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الغنائم ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ﴾ أي اليهود في رسول الله ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ في التوراة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في الآخرة ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدين.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد غيره، معناه: فإن كنت أيها الشاك في شك[3].

---

(١) المفردات ١/ ١٠١.

(٢) الغالب على ما ينقله عن ابن عباس أنه من رواية الكلبي، وهذا لم أقف عليه.

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٥٥.

﴿مِمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ وأضاف الإنزال إليه كما قال في آية أخرىٰ ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: المراد رسول الله، لأنَّ الله تعالىٰ كان أنزل علىٰ رسول الله القصص جملة مختصرة، وكان حريصًا علىٰ أن يسمعها مشبعة، فأذن الله له أن يسمع ويسأل مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: إنَّ حرف «إن» بمعنىٰ «ما» النفي، كقوله عز وعلا ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ﴾ أي: ما نقول، ومعناه: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، ولكن سلهم لغيرك[1].

﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ برسالة الرسول ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الشاكين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في كتمان نعت النبي صلىٰ الله عليه وسلم كأحبار اليهود ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ﴾ أي: وجبت ﴿عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: عِدةُ ربك بالعذاب ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ البتة.

﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أي: علامة ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ عند النزع.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ عند نزول العذاب، أي: هلا آمنوا عند ذلك ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ ومعناه: أنه لم ينفعهم الإيمان بنزول العذاب ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾

---

(١) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٣.
وانظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٠٢، البسيط ١١/ ٣١٥، زاد المسير ٢/ ٣٥٠.

فإنه نفعهم إيمانهم ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ أي: الهوان ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ أي: منتهىٰ آجالهم.

والقصة فيه: أنَّ يونس صلىٰ الله عليه وسلم لما دعا قومه إلىٰ التوحيد أبوا عليه، فخرج من بينهم وأوعدهم بعذاب الله بعد ثلاثة أيام، فمضىٰ يومان وأيقنوا بنزول العذاب، عمدوا الليلة الثالثة إلىٰ الولدان ففرَّقوها من أمهاتها من ذرية آدم والبهائم إلىٰ انفجار الصبح، ثم نظروا فإذا نار نزلت من السماء، فخرجوا إلىٰ الفضاء وعجوا بأجمعهم، وشقوا جيوبهم، وأقاموا علىٰ الرماد، وجعلوا الرماد علىٰ رؤوسهم، وعلت أصوات الولدان من جانب، وأصوات الأمهات من جانب، وارتفعت أصوات البهائم وأولادها، ونزل العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل، وغشي دخان النار سطوح بيوتهم، وبلغ حر النار إلىٰ وجوههم، حتىٰ رويت أثر حُمرة النار علىٰ أكتافهم، فلما علم الله منهم الصدق كشف الله عنهم البلاء يوم الجمعة يوم عاشوراء(١).

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ أي: لو شاء أكرم جميع أهل الأرض بالمعرفة(٢) ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تجبرهم علىٰ التوحيد ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ مصدِّقين.

---

(١) القصة في تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٣، الكشف والبيان ١٤/ ٢٩٥.

(٢) تكرر منه تفسير الإيمان بالمعرفة، وفيه قصور، فإن المفسرين يتواردون علىٰ تفسير النداءات مثل: يا أيها الذي آمنوا، ومتصرفات الإيمان بالتصديق بالله ورسوله، وربما اختصروا فقال: التصديق، وهذا هو الصحيح، لموافقته المعروف من لسان العرب، أما الاقتصار علىٰ المعرفة فغير سديد، فإن العباد يعرفون الله بالميثاق الذي أخذه عليهم.

ولذا فقد أحسن ابن جرير -كعادته- فقال في تفسيره هذه الآية: ولو شاء يا محمد ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا بك، فصدَّقوك أنك لي رسول، وأن ما جئتهم به وما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبودة له، حقٌّ، ولكن لا يشاء ذلك، (تفسير الطبري ١٥/ ٢١١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئة الله ﴿وَيَجْعَلُ﴾ الله ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذاب، وقيل: الكفر[1] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أمر الله، أي: يتركهم علىٰ كفرهم.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ اعتبروا ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الآيات ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ﴾ أي: لا تنفع الآيات ﴿وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ أي: الرسل قومًا ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ في العقوبة ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ هلاكي ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ هلاككم، أمر بمعنىٰ الوعيد.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ من العذاب النازل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أيضًا ننجيهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي ننقذهم من الهلاك.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ أي: ريب ﴿مِّن دِينِى﴾ وترجون مني الدخول في دينكم ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ أي: أطيعه ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يقبض أرواحكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أمرت أن أقم وجهك، أي: دينك وأخلِص عملك لله ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن سائر الأديان ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ لا ينفعك إنْ عبدتَه، ولا يضرك إنْ لم تعبده ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: عبدت غيره ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الضارين لنفسك.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٤.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: ليصبك ببلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لذلك الضر ﴿إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لسلامة وغنىً في الرزق وصحة في الجسم ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ أي: لا مانع لما ساق إليك ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يخص بفضله وعطائه من يشاء ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز لمن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ بعد التوبة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ يعني الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي: مَنْ أجاب داعي الله تكون هدايته لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان بالكفر ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: عقوبته عليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: حفيظ، منسوخ بآية السيف[1].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ افعل ما تؤمر في القرآن ﴿وَٱصْبِرْ﴾ علىٰ أذىٰ قومك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ﴾ بفتح مكة أو القتل يوم بدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ وولي المتقين، ثم حكم وأمر رسوله بقتالهم.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله ذنوبه-: بلغنا عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدَّق بيونس وكذَّب به، وبعدد من غرق مع فرعون»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) وهو قول الكلبي قالها في هذه والتي قبلها (الكشف والبيان ١٤/ ٣٠٢).

(٢) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٤/ ١٥٦، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٧٦.

سورة هود

مكية إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [(١)]، وهي مائة وثلاث وعشرون آية[(٢)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ معناه: أنا الله أرىٰ[(٣)]، هذا كتاب أحكمت آياته بالحلال والحرام والأمر والنهي ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالثواب والعقاب ﴿مِن لَّدُنۡ﴾ عند ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ عالم.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ وهذا تفصيل الآيات ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾.

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ اطلبوا المغفرة من ربكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ في المستأنف إليه ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يعيشكم عيشًا بلا عذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: وقت الموت ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ يُعطي كل ذي عمل جزاءه في الآخرة ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن قبولها فقل لهم ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ أي: اعلم ذلك.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ مردُّكم في الآخرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾.

---

(١) وقيل: كلها مكية بلا استثناء، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٧، الكشف والبيان ١٤/ ٣٠٧، زاد المسير ٢/ ٣٥٥.

(٢) في العد الكوفي، و١٢١ في المدني الأخير والمكي والبصري، ١٢٢ في المدني الأول والشامي، البيان في عد آي القرآن ١٦٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٧.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يعطفونها علىٰ عداوة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقيل: يضمرون في قلوبهم أشياء ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

وقيل: من الله جهلاً منهم بعلم الله[١].

والصدر موضع السر ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: يغطون رؤوسهم بثيابهم ليخفوا عملهم؛ لا يقدرون إخفاءه، لأن الله ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ أي: عالِم بما في القلوب.

والآية نزلت في الأخنس بن شريق قال لأصحابه: نغلق الأبواب، ونرخي الستور، ونثني الصدور علىٰ عداوة محمد، فكيف يعلم ربه، فأخبر الله رسوله بذلك[٢].

ثم قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: علىٰ وجه الأرض ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ والله ضامن لرزقها ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تستقر من وجه الأرض، ومأواها الذي تأوي إليه بالليل ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ حيث تموت في بطن الأرض، وقيل: المستودع الولد في البطن والنطفة في الصلب[٣].

﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ في اللوح المحفوظ مع علم الله به.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ﴾ قبل ذلك ﴿عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أي: علىٰ الموج المكفوف، والماء علىٰ متن الريح[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٣٥، تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٨، الكشف والبيان ١٤/ ٣١٥.

(٢) وهو من رواية الكلبي، ولذا لم يروه ابن جرير، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٨، الكشف والبيان ١٤/ ٣١٥.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١، الكشف والبيان ١٤/ ٣١٩.

(٤) رواه ابن جرير في التفسير ١٥/ ٢٤٩ من طريق عن ابن عباس.

وخلق العرش في ستة أيام، أولها يوم الأحد، آخرها يوم الجمعة، ولو شاء لخلقها في أقل من قدر لمحة، ولكن فعل ذلك لتعلم الناس أن العجلة غير محمودة، لاسيَّما ممن لا يفوته المراد، وليس بمأمور لغيره.

ثم قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهو الكلام لاتصاله بالعرش، فقد قيل: إنه متصل بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ليبلوكم.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ يا معشر قريش ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: خداع ظاهر.

واتصال البعث بأول الآية: لأنه ذكر ابتداء الخلق، ثم ذكر البعث؛ ليعلم العاقل أنَّ البعث ليس بأعجب من ابتداء الخلق، وأول ما خلق الله العرش، ثم الكرسي، ثم اللوح، ثم القلم، ثم قال للقلم: اكتب ما هو كائن؛ وما أنا خالق؛ وما أنا قاضٍ إلىٰ يوم القيامة، فجرىٰ القلم بما هو كائن إلىٰ قيام الساعة.

قال ابن عباس: خلق الله عرشه من نور، وأنطقه بالتسبيح والتهليل، وإنَّ له لسانًا بعدد اللغات كلها، والعرش يحمله ثمانية صفوف من الملائكة؛ أكثر من الجن والإنس والملائكة والكروبيين بثمانية أضعاف، فالسماوات السبع في جنب الكرسي بمنزلة حلقة في أرض فلاة.

وخلق الجان من ألسنة النار، وخلق الله الملائكة من نهر في السماء يقال له[1]: نهر النور، علىٰ باب الضراح، والضراح: البيت المعمور، يدخله جبريل كل يوم فيغتسل فيه، ثم ينفض فيقطر منه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطره ما كان يدخلون البيت المعمور في اليوم مصلون

(١) في الأصل: لها.

فيه[١]، فلا تكون لهم النوبة إلىٰ أن تقوم الساعة[٢].

وخلق الشياطين من دبر إبليس، وذلك أنه يبيض في كل يوم سبعين[٣] ألف بيضة، خلق الله تعالىٰ من كل بيضة شيطانًا، وهم المردة، فهذا معنىٰ قوله: «خلق السماوات والأرض في ستة أيام»[٤].

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلىٰ وقت معلوم، سنين معدودة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لك ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي: ما الذي يحبس عنّا العذاب ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ اعلموا أنَّ اليوم الذي يأتيهم العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: ليس بممنوع عنهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: نزل بهم عذاب الاستهزاء وحلَّ بهم.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: الكافر[٥] ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: سعة في الرزق وصحة في الجسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ سلبناها منه ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ أي: آيس من رحمتي ﴿كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ بنعمتي، واليؤوس: كثير اليأس من رحمة الله.

---

(١) كذا فيه، وأظن الصواب: يخلق الله من كل قطرة ملائكة يدخلون البيت المعمور في اليوم يصلون فيه..الخ.

(٢) سيأتي ذكره في تفسير سورة الطور، انظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الكشف والبيان ٢٥/ ١١.

(٣) في الأصل: سبعون. وهكذا ثبت هنا، وفي تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٤٢٠: قال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات، فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالىٰ خلق له في فخذه اليمنىٰ ذكرا وفي اليسرىٰ فرجا، فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة، فهو يخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة، وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين.

(٤) لا يخفىٰ أن هذا من الاسرائيليات، وفي جملتها مناكير، والله أعلم.

(٥) وهذا من تفسير الكلبي، وهو يحمل هذه الآية ونظائرها علىٰ أن المراد بها: الكافر، فهو من العام الذي أريد به الخصوص، والمفسرون يقولون هنا بالعموم (تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٦).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ أي: لو أنعمنا عليه بعد شدة وفقر أصابه ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: زالت الشدائد عني لاستحقاقي ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ أي: بطر بالمعاصي ويفتخر بطرًا بها[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ وهم أهل التوحيد ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفرائض، ليسوا كذلك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ ثواب جزيل.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من عيب آلهتهم.

قوله «لعلك»: لفظ شك، ومعناه: النهي عما وقع لفظ الشك عليه[٢].

﴿[وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟]﴾ وقد أمر الله نبيه بالثبات على أمره، وألا يضيق صدره بقول الكفار ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ فيزيل فقره ويستغني، أو يقترحون[٣]: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ فيؤدي الوحي معه، حتى نعلم صدقه أنه نبي، بهذا الكلام يريدون أن يزلونك، أو يتوهم أن يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر دينك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «[لا] أدع ما أوجبت إلي ولا يضيق صدري على البلاغ وإنْ كُذِّبت أو قُطعت»[٤].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ مخوِّف ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ حفيظ، وقيل شهيد على رسالتك.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمد من تلقاء نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ تفترونه أنتم، مثل سورة البقرة إلى سورة هود.

---

(١) في الأصل: به.

(٢) انظر: البسيط ١١/ ٣٦١، التفسير الكبير ١٧/ ٣٢٤، اللباب ١٠/ ٤٤٦.

(٣) في الأصل: يفترون، وهو تصحيف، صوابه ما أثبت، وهي الكلمة الواردة عند المفسرين في هذا الموضع، انظر مثلا: الكشاف ٢/ ٣٨٢.

(٤) وهذا ليس على أنه حديث، بل تقدير الجواب (انظر: المحرر الوجيز ٣/ ١٥٤).

ولكن فيه شبهة: لأنَّ هذه السورة مكية، وسورة البقرة وأخواتها مدنيات[١].

والصحيح: بعشر سور مثل القرآن في الفصاحة والبلاغة، لأنَّ البلاغة ثلاث طبقات أعلاها معجز، وأوسطها وأدناها ممكن، والقرآن أعلاها.

﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استعينوا بفصحائكم وشعرائكم ومعبودكم من دون الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ في مقالتكم أن محمدًا افتراه.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ إن: لم تجبكم الأصنام والشعراء على إتيان مثله وعجزتم بأنفسكم ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وقد علم الله أنه حق ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: فاعلموا أن لا معبود إلا هو ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٤﴾ مخلصون بالتوحيد، استفهام بمعنى الأمر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ بعمله الذي فرض عليه ﴿وَزِينَتَهَا﴾ ولا ينوي به الآخرة من أهل الإيمان ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: يوفر جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي الدنيا ﴿لَا يُبْخَسُونَ ١٥﴾ لا ينقص من جزاء أعمالهم.

نزلت في الفجار من المؤمنين، ونظيره في حم عسق ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ إلى آخر الآية[٢].

---

(١) وهذا أصلا قول الكلبي، فإنه قال: يعني: بعشر سور مثله مثل سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة، ويونس. وهود، لأن العاشرة هي سورة هود. نقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ١٤١، ثم قال: وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح، لأن سورة هود مكية، والبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة مدنيات، أنزلت بعد سورة هود بمدة طويلة. ولكن معناه: فأتوا بعشر سور مثل سور القرآن، أي سورة كانت، مفتريات يعني: مختلقات إن كنتم تزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم يختلقه من ذات نفسه. (وانظر: اللباب لابن عادل ١٠/ ٤٤٩).

(٢) وقيل: إنها في الكفار، وقيل إنها في اليهود والنصارى، وهو أليق، ليكون توطئة لما بعده (تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٥، الكشف والبيان ١٤/ ٣٢٨).

قال المفسر الكبير: عندي أنه من صفة المشركين، يعني من أراد الدنيا وهو ينكر العُقبىٰ نعطيه من الدنيا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي بطل ثواب ما صنعوا لغير الله ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بيان من أمر الله تعالىٰ: توحيده، وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ الهاء كناية راجعة إلىٰ القرآن، أي: يقرأ القرآن عليه ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ من الله، وهو جبريل عليه السلام(١).

وقيل: يتلوه أي يتبعه أي يتبع محمدًا شاهد من القرآن.

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يشهد له أيضًا، وكتاب التوراة ﴿إِمَامٗا﴾ يقتدي به ﴿وَرَحۡمَةًۚ﴾ لمن آمن به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ إشارة إلىٰ من لم يتقدم ذكرهم، يعني أصحاب محمد صلىٰ الله عليه وسلم يؤمنون بكتاب موسىٰ وبمحمد، مثل ابن سلام وأصحابه ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: اليهود والنصارىٰ والصابئين والمجوس والذين أشركوا، وهم أحزاب في المِلَل ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ مصيره ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: في شك من القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ من أهل مكة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ بالقرآن.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ استفهام بمعنىٰ تعجيب، أي: ليس أحد أظلم لنفسه ممن افترىٰ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن له ولد وشريك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ بالمحاسبة، أي: يوقفون في الموقف الذي يراه العباد أجمع، فكان عَرضًا في المعنىٰ.

---

(١) وهذا قول جمهور المفسرين، الكشف والبيان ١٤/ ٣٣٢.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الأنبياء والملائكة، وقيل: الحفظة[1] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ المشركين.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصدفون الناس عن دين الله ومتابعة رسوله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون غير دين الإسلام دينًا، وبملة الإسلام زيغًا ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ أي بالبعث.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا مهرب لهم من الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ﴾ تمنعهم من عذاب الله ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ أي للرؤساء، يضاعف العذاب مرة إلىٰ الزقوم، ومرة إلىٰ الضريع، ومرة إلىٰ الغساق، ومرة إلىٰ الحميم[2] ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ من محمد ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾ الهدىٰ لشدة كُفرهم وعداوتهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بإهلاكهم إياها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٢١﴾ علىٰ الله.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا شك حقًا.

والجرم: الباطل، فإذا قال لا جرم أي: لا باطل، فإذا لم يكن باطلاً كان حقًا، كقول النبي عليه السلام: «أنا النبي لا كذب» أي حقًا[3].

﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ حيث يعاينون ما كذبوا ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾ أي: أشد خسرانًا، وقيل: المعنىٰ لا كما يظنون، بل جرَم أي كسب لهم افتراؤهم الخسران في الآخرة.

---

(١) والحفظة من الملائكة (تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٢، الكشف والبيان ١٣/ ٣٣٩).

(٢) وذلك لكفرهم ولإضلالهم غيرهم (تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٤).

(٣) هذا الذي ذكره هو الراجح، وفي (لا جرم) خلاف، انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٩، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٥، تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٤، البسيط ١١/ ٣٨٤.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أقبلوا بقلوبهم إلىٰ ربهم خائفين، وقيل: تواضعوا إلىٰ ربهم، مشتق من الخبت وهو الأرض السهل اللين[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ قال ابن عباس: لا يستوي من أبصر الهدىٰ وسمع الموعظة؛ وهو عمر بن الخطاب، مع من لا يبصر الهدىٰ ولا يسمع الموعظة؛ وهو أبو جهل لعنه الله[2].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ أي: تتعظون أيها المؤمنون.

وقيل: مثل الفريقين الكافر والمؤمن، كالأعمىٰ وهو الكافر لا يبصر شيئًا من الهدىٰ، والأصم الذي لا يسمع شيئًا من الوعظ، والبصير والسميع المؤمن، يسمع الخير ويقبل الموعظة، ويبصر الهداية، ولا يستويان في الدنيا فكذلك لا يستويان في الآخرة في المثوبة والعقوبة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ لام «لقد» لام القسم، لأنها تدخل علىٰ الفعل.

بعث الله نوحًا وهو ابن أربعمائة سنة وثمانين[3] سنة، ودعا قومه مائة وعشرين سنة، ومكث بعد هلاك قومه ثلاث مائة وخمسين سنة، وركب الفُلك وهو ابن ستمائة سنة[4].

وقال وهب: دعا قومه للإسلام ألف سنة إلا خمسين عامًا[5]. وهو أشبه

---

(١) البسيط ١١/ ٣٨٧.

(٢) لم أجده عن ابن عباس، لكن نقل ابن الجوزي عن بعض المفسرين أنها نزلت مثلا في المؤمنين والكافرين (زاد المسير ٢/ ٣٦٧).

(٣) في الأصل: ثمانون.

(٤) وهذا من الاسرائيليات، ولهذا اختلفوا فيه، انظر: الكشف والبيان ١٤/ ٣٤٥..

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٦.

بظاهر القرآن، والله أعلم.

وهذا ابتداء قصص الأنبياء وما لقُوا من تكذيب قومهم، وما أنزل الله بهم في الدنيا من النكال، وفي ذلك تخويفٌ لكفار هذه الأمة، فأول رسول جاء بالشريعة بعد آدم عليه السلام بتحريم الأمهات والأخوات: نوح عليه السلام، فلبث فيهم ما ذكرنا، دعاهم إلىٰ عبادة الله وترك الأنداد، وخوَّفهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فلم يؤمن من قومه في مدة إبلاغه إلا ثمانين نفسًا، فقال لهم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: أنذرتكم لتوحدوا ولا تعبدوا غيره ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ وهو الغرق، ومعنىٰ الخوف: هو العلم.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الرؤساء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: سفلتنا وضعفاؤنا ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ أنقصنا في الرأي، قرئ: «بادئ» بالهمزة وغير الهمز، فمعنىٰ الهمز أي: أول الرأي من غير فكرة ورويَّة وتدبير، وبغير الهمز[1]: أي ظاهر الرأي معك في العلانية وفي السريرة معنا[2].

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ مِن مُلك ولا مال ولا شرف ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ولست برسول يا نوح.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بيان وحجة ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ نعمة منه وهي النبوة.

---

(١) في الأصل: وتغير الهم، وهو تصحيف.

(٢) بالهمز قراءة أبي عمرو، وهكذا ضبط الآية في الأصل (النشر ١/ ٤٠٧)، وانظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٧، الكشف والبيان ١٤/ ٣٤٥.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[(١)] أي: خفت عليكم، و«عُمِّيَت»: لُبِّسَت[(٢)] ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: نقدر أن نقلِّدكم إياها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يعني لا إجبار على المعرفة.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي: على التبليغ والتوحيد ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ما ثوابي إلا على الله ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لست بالذي أرد[(٣)] إيمان الضعفاء ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ معاينوا ربهم بعد الموت يجزيهم بأعمالهم ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أمر الله تعالى.

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ يدفع العذاب عني ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: لا أقبل إيمانهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تتعظون.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: مفاتيح رزقه ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ متى ينزل العذاب ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ نزلتُ من السماء ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحتقره ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: لم يكرمهم بالمعرفة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الإيمان، وليس عليَّ اطلاع على الاعتقاد وعلى تصديق ما يُظهرون، وعلم اليقين والنفاق عند الله ﴿إِنِّي إِذًا﴾ إنْ لم أقبل إيمانهم ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: تخوِّفنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ﴾ أي: بالعذاب ﴿إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فائتين من عذابه.

---

(١) في الأصل: فعَمِيَت، بالتخفيف وهي قراءة من سوى الكوفيين، إلا شعبة، وعليها جاء التفسير، ثم أتبع بالقراءة الأخرى (النشر ٢/ ٢٨٨).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٧، الكشف والبيان ١٤/ ٣٤٦.

(٣) في الأصل: أرادوا.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ دعائي ونصيحتي ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ يعني: قد أردت أن أنصح لكم وأدعوكم إلىٰ التوحيد ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ كيف ينفعكم نصحي؟ وقيل: إن أراد أن يهلككم مجازاة لفعلكم[1] ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أولىٰ بكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يوم القيامة.

فإن قيل: إنَّ نوحًا شاء منهم الإيمان وإبليس شاء منهم الكُفر؛ فكان كما شاء إبليس، ومشيئة إبليس موافقة لمشيئة الله تعالىٰ، ومشيئة نوح مخالفة لمشيئة الله تعالىٰ.

قلنا: لم يكن كذلك، ولكن كلٌّ شاء ما شاء الله، ولم تخالف مشيئته مشيئة الله، كان نوح مأمورًا بأن يشاء[2] لهم الإيمان، وقد شاء الله أن يشاء نوح لهم الإيمان، فشاء نوح كما شاء الله، واستحق المثوبة بامتثال أمر الله تعالىٰ، وشاء الله منهم الكفر وشاء أيضًا أن يشاء إبليس منهم الكفر، فشاء إبليس كما شاء الله، ولكن إبليس كان منهيًا عن هذه المشيئة فاستحق العقوبة بالنهي، فوقع[3] الاتفاق في المشيئة، ولكن الاختلاف في الأمر والنهي والعقوبة والمثوبة، فتأمله فإنه لطيف.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل: يقولون اختلقه من عنده ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: عقوبة جرمي إن صح ذلك ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: تأثمون فلا أؤاخذ به.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وهم ثمانون رجلاً أصحاب السفينة ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) انظر: البسيط ١١/ ٤٠٦.
(٢) في الأصل: شاء.
(٣) في الأصل: فوق.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ أي: بمنظر منا وتعليمنا، لأنه كان لا يحسن صنعة الفُلك، فعلَّمه الله تعالىٰ بالوحي حتىٰ جعلها كرأس الحمامة في جانب الرأس، وذنبها كذنب الديك، طولها ثلاث مائة ذراع في الأرض، وعرضها مائة وخمسون ذراعًا، وطولها في السماء أربعون ذراعًا، ولها ثلاثة أطباق، وكان قبل ذلك لم يرىٰ الناس نهرًا ولا بحرًا، وكانوا يسقون من المطر، فكانوا يسخرون به إذ لم يروا الماء الجاري[1].

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ أي: تخاصمني ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ كفروا من أهلك ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ۝٣٧﴾ بالطوفان.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ أي: جماعة من أشراف قومه ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ استهزؤوا ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ بفعلنا ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ عند الغرق ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝٣٨﴾ منَّا.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ مَنْ أحق بالسخرية ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يهلكه ويشقيه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾ في الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي: وقت الغرق ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: نبع الماء من التنور من ثقبها، قيل لنوح: آية عذاب قومك أن امرأتك تسجر التنور؛ فنبع الماء من التنور حتىٰ أطفأ الماء نارها؛ فقد جاء العذاب.

فلما رأىٰ نوح ذلك حذَّر قومه حتىٰ ابتلت أقدامهم، ثم حذَّرهم حتىٰ صار الماء موضع النعل، ثم حذَّرهم حتىٰ صار إلىٰ الكعبين، ثم صار إلىٰ نصف الساق، ثم إلىٰ الرُّكَب، ثم إلىٰ الحقو، وفي كل ذلك يحذرهم وينذرهم، فلما بلغ

---

(١) انظر الروايات في صفة السفينة في: تفسير الطبري ١٥/ ٣١١، تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٩، الكشف والبيان ١٤/ ٣٥٢، تفسير ابن كثير ٤/ ٣١٩. وجل ذلك مأخوذ من الإسرائيليات.

الماء الثُّنْدُوة[١] أقبل نوح يبكي وينوح، وقال: إنَّا لله، غرق قومي، وسُمِّي نوحًا لأنه ناح على الإسلام حيث لم يقر به قومه فهلكوا.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: احمل في السفينة ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ احملهم معك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ أربعون رجلاً وأربعون امرأة.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا﴾ إجراؤها ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: استقرارها أي: جريها وقرارها بسم الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ لمن تاب.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ أي: السفينة تسير بهم ﴿فِى مَوْجٍ﴾ أمواج ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ الرواسي ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي: ناحية من الجبل، وقيل: في بُعد من السفينة ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ فتغرق.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ سألتجئ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يمنعني ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: لا مانع من عذاب الله إلا رحمة الله، وقيل: العاصم أراد به المعصوم[٢] ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: فرّق بينهم الموج ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: صار منهم.

﴿وَقِيلَ﴾ بعد أشهر سبعة[٣] ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ بعد ما أمطرت السماء أربعين يومًا، ونبع الماء من الأرض أربعين يومًا؛ أمر الأرض

---

(١) لحم الثدي، وقيل هو للرجل، والثدي للمرأة (تاج العروس ٧/ ٤٧٠) وفي الأصل: الثدوة، تصحيف.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٤، تفسير أبي الليث ٢/ ١٥٢.

(٣) ذلك لأنهم يقولون: ركب السفينة في أول رجب، وأرست على الجودي في عاشوراء (تفسير الطبري ١٥/ ٣٣٥).

تنشف ماءها، وأمر السماء بالإقلاع، أي: الكف عن الأمطار ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أي: نضب الماء علىٰ وجه الأرض وظهرت الجبال ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: مضىٰ الحكم بغرق الكفار وأهلكوا ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ السفينة ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ وهو اسم جبل بقرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾ أي: سُحقًا وهلاكًا ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ قبل الغرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ وقد وعدتني نجاة أهلي ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أنت صادق الوعد ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ أعدل العادلين.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ الذين وعدتك أن أنجيهم ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ أي: سؤالك ودعاؤك فيه غير صالح، وقرئ: «عَمِلَ غيرَ صَالح» أي: ابنك عَمِلَ غيرَ صالح وهو الشرك[1].

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ وقرئ: «فلا تسألَنِّ»[2] ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ أي: أنهاك أنْ تكون من الجاهلين بسؤالك بما لا علم لك به.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي أمتنع بك ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ عن سؤال إياك ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ أي حجة وبرهان ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ تجاوز عني فما سألت ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ تمنُّ علي بالتوبة ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ أي: انزل من السفينة علىٰ الجودي بسلام، أي: أمان منَّا وسلامة من عندنا ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي: علىٰ

---

(١) وهي قراءة الكسائي ويعقوب (النشر ٢/ ٢٨٩).

(٢) أي بفتح اللام وتشديد النون، وهي قراءة أبي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر، وابن كثير وهشام بفتح النون، وللباقين الكسر (النشر ٢/ ٢٨٩).

جميع العالم الذين يكونون من أولادك الثلاثة: سام وحام ويافث، علىٰ ملة الإسلام، وأمم كلام منقطع ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني: وأمم من ذريتك تكون كفرة نؤجلهم ونعيشهم في الدنيا أيامًا قلائل ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ الأخبار ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ غاب عنه علمه ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي: يخبرك جبريل بأمرنا ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِن قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ﴿فَاصْبِرْ﴾ كما صبر نوح ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ أي: آخر الأمر[١] ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وقيل: الجنة لهم.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وكان أخوهم في النسب لأنه منهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: تكذبون بعبادة الأوثان، لم يأمركم الله بها.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أمر الله.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وحِّدوه ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من الكفر ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ مطرًا دائمًا ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ عددًا إلىٰ عددكم ونعمة إلىٰ نعمتكم، قيل: إنه حبس عنهم المطر ثلث سنين، وانقطع نسلهم ثلاث مائة وخمسين سنة، ووعدهم الله بزيادة العدد بالنسب والمطر[٢] ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بيان ما تدَّعي ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ وعبادتهم ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) في الأصل: الأمن، وهو تصحيف، وعلىٰ الصواب في تفسير الكلبي ص١٨٦.

(٢) روي نحوه عن ابن زيد علىٰ خلاف في المدة (انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٥٩، الكشف والبيان ١٤/ ٣٨٢).

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ بخبل وجنون أصابك، أي: لا يحوقك إلا تخييل آلهتنا إن لم تمتنع عن عيبها ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾ أنتم يا قوم ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾.

﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾ الله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ اعملوا أنتم وآلهتكم في هلاكي ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ أي: لا تمهلوني طرفة عين.

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ علىٰ الأرض ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ هذه عبارة عن التدليل، أي: الخلق كلها تحت قدرة الله تعالىٰ يحيها ويميتها ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ لا يعدل عنه هارب، ولا يخفىٰ عليه مستتر، ولا يكون لأحد مسلك إلا عليه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان يا محمد فقل ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: رسالة ربكم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: بعد هلاككم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: لا تنقصون من ملكه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ لا يغيب عنه شيء(١).

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذاب ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي: بسعادة منَّا ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ ريح باردة تسمىٰ دَبُورا.

﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: هذه قصة قوم هود كفروا بهود، وعصوا رسله؛ هودًا ومَن قبله ومَن بعده ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ والجبار

---

(١) كذا وقع عنده أن هذه الآية ليست من صلة حجاج هود مع قومه، بل خوطب بها النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأمر أن يبلغ قومه ذلك، وعلىٰ هذا جرىٰ الثعلبي في الكشف والبيان ١٤/ ٣٨٥، وأما الطبري فجعلها من صلة قول هود، وهو المناسب لسياق القصة (تفسير الطبري ١٥/ ٣٦٥).

الذي يقبل علىٰ غضبه، أي: أطاعوا أمر كل قتَّال متعظِّم مُعْرِض عن طاعة الله، أي: أطاع الأتباع الرؤساء في الطغيان.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: ألحقوا في هذه الدار بعذاب، وهي الريح العاتية، التي سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يلعنون لعنة أخرىٰ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ وحدانيته ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ أي: هلاكًا وخيبة من رحمة الله ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠ *﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: أرسلنا إلىٰ ثمود، هي موضع بوادي القرىٰ بين[1] المدينة والشام ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسبة ﴿صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق إياكم من الأرض ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أي: عمَّركم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض، وقيل: جعلكم عمَّارَها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: توبوا إليه من الشرك ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ قريب ممن يقرب إليه، مجيب لمن دعاه.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ نرجو أن تكون أفضلنا في عبادة الأوثان ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عن عبادة أوثان يعبدها آباؤنا ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ أي: ذو ريبة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ بيان وبرهان ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي أكرمني بالنبوة ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ بأمركم، أي: من يقدر أن يمنع عذابه عني ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ عند نزول العذاب إن تركت أمر الله ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٣﴾ وتتبيب، والتخسير والتتبيب: الخسران[2].

---

(١) في الأصل: من، وهو تصحيف. وانظر: تفسير السمعاني ٢/ ٤٣٨.

(٢) قال السمعاني (في التفسير ٢/ ٤٣٩): وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٣﴾ فيه قولان: أحدهما: إن اتبعتكم ما كنت إلا كمن يزداد خسارا وهلاكا، والقول الثاني: فما تزيدونني غير

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ دالة على صدق نبوتي، أخرجها الله لكم من صخرة ملساء حاملة كما سألتم ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: في أرض الحجر ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي: لا تصيبوها بعقر ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ عاجل، إلى ثلاثة أيام، والعَقر: قطع العرق الذي له تأثير في النفس.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ﴾ أي: تلذَّذوا بالعيش في منازلكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ﴾ العذاب ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ ولا مردود، اليوم الأول تحمار فيه وجوهكم، واليوم الثاني تصفار، واليوم الثالث تسواد.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ أي: من عذاب ذلك اليوم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ بنُصرة أوليائه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ المنيع في ملك سلطانه.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ صيحة جبريل من وسط سحابة أقبلت، فخرجت الأرواح بتلك الصيحة من الأبدان ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي: منازلهم وعساكرهم ﴿جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ ميتين.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ يعني: كأن لم يكونوا في تلك المنازل، والمنزل: المُقام ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ أي: هلاكًا وخيبة لهم.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ أي: جبريل ومعه اثني عشر مَلَكًا، وقيل: معه ملكان، والأول أعرف(١).

تخسير لكم، وحقيقته: أني أطلب منكم الرشد، وأنتم تعطونني الخسار والهلاك، يعني: لأنفسكم، هذا كله جواب عن سؤال من سأل في هذه الآية: كيف قال ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ ولم يك صالح في خسار؟.

(١) انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٠، الكشف والبيان ١١/ ٤٦٦، البسيط ١١/ ٤٦٦، والله أعلم بعددهم فإن هذه الروايات من قبيل الأخبار الإسرائيلية. والقول المروي عن ابن عباس هو من رواية الكلبي.

﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: البشارة بالولد ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: سَلَّمُوا سلامًا ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿سَلَٰمٌ﴾ عليكم ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي: ما أقام بعد السلام ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩﴾ أي: مشوي نضيج، والحنيذ: الذي اتخذ له حفير في الأرض فيشوى[(١)].

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: لا يأكلون منها ولا تصل أيديهم إلى الفم ﴿نَكِرَهُمْ﴾ وأنكرهم واحد[(٢)]، أي: رآهم منكرًا، وخاف منهم أنهم لصوص، لأنَّ من لا يأكل طعام أحد في ذلك الوقت لا يأمن منه ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أضمر وامتلأ رعبًا ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ٧٠﴾ بالعذاب لنهلكهم.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة ﴿قَآئِمَةٌ﴾ على رؤوسهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ من عجب من خوف إبراهيم، وقيل: تعجُّبًا من البشارة، قيل ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ فضحكت سرورًا، مقدم ومؤخر[(٣)]، فبشرناها بإسحاق ولدًا ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ٧١﴾ ولد الولد.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ تعجُّبًا ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ نصب على الحال، وقيل: نكرة وصف بها معرفة تنصب على القطع[(٤)].

فكان إبراهيم إذ ذاك ابن تسع وتسعين سنة، وسارة ابنة ثمان وتسعين سنة[(٥)] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ٧٢﴾ ظهور الولد من الشيخين الكبيرين.

---

(١) الكشف والبيان ١٤/ ٣٩٩، البسيط ١١/ ٤٧١.

(٢) يقال: نكرته وأنكرته واستنكرته، البسيط ١١/ ٤٧١.

(٣) الكشف والبيان ١٤/ ٤٠٤.

(٤) معني القرآن للزجاج ٣/ ٦٣، التبيان ٢/ ٧٠٧، الدر المصون ٦/ ٣٥٧.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٣٩٢، الكشف والبيان ١٤/ ٤٠٨.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال جبريل ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ وقدرته ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: هذه البشارة رحمه الله رحمكم بها وبركات الله عليكم ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ حميد: أي قابل لأعمالكم ومثيبكم عليها، مجيد يكرمكم بولد صالح.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ الخوف ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ البشارة ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ أي: يجادل رسلنا بسبب قوم لوط.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي: مخلص وسيد، لأن الحلم خُلُق السادة ﴿أَوَّٰهٞ﴾ ذاكر لربه، يتأوه من خوف النار ﴿مُّنِيبٞ ٧٥﴾ مُقبِل إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي: اترك المجادلة، وجدال إبراهيم بسبب قوم لوط من المؤمنين، ولوط وأولاده ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ لهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ يعني قوم لوط ﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ غير مصروف.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: ساءه مجيئهم إشفاقًا عليهم من قومه ومن فعلهم الخبيث ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: ضاق قلبه بمجيئهم، وقيل: ضاق وسعه، فناب الذرع والذراع عن الوسع، وأصله: من ذرع الدابة، وهو خطوها بقوائمها إذا مشت علىٰ قدر طاقتها، فمتىٰ ضاق ذرعها دل علىٰ نقصان طوقها[1].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ شديد شرُّه.

---

(١) الذرع يوضع موضع الطاقة، والأصل فيه أن يذرع البعير بيديه في سيرة ذرعًا علىٰ قدر سعة خطوه، فإذا حمل علىٰ أكثر من طوقه ضاق ذَرْعُهُ عن ذلك فضعف ومد عنقه، فجُعِلَ ضيق الذرع عبارةً عن ضيق الوسع والطاقة، فيقال: ما لي به ذرع ولا ذراع، أي: ما لي به طاقة (تهذيب اللغة ٢/ ١٢٧٨، البسيط ١١/ ٤٩٢).

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يسرعون إلىٰ بيته[١] ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: من قبل مجيء لوط يعملون الفواحش واللواطة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ أي: أَحلُّ لكم.

وأراد به بنات قومه، لأن كل بني كالأب لقومه، وإنما قال: أطهر لكم وأطيب، يعني بالنكاح[٢].

قيل: عرض عليهم بناته مع كُفرهم لأن تزويج المسلمة للكفار في دينهم جائز، وأراد به نساء قومه[٣].

وقيل: أراد به بنات نفسه وله تسع بنات في قول وهب[٤]، وكلهن يخطبن قبل ذلك، فلم يجب لوط الخواطب، حتىٰ كانت الليلة قال للخواطب -وهم رؤساء القوم-: أزوِّجكم بناتي بشرط أن تخرجوا العامة من داري[٥] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أي: لا تخجلوني ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ عاقل بذلكم علىٰ الصواب، والخزي: الفضيحة.

﴿قَالُواْ﴾ ذلك القوم من الخطاب ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ الساعة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ أي: اللواطة.

---

(١) في الأصل: بلده، وهو تصحيف.

(٢) وهذا الأشهر عند المتقدمين (تفسير الطبري ١٥/ ٤١٤، تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٤، الكشف والبيان ١٤/ ٤١٧).

(٣) زاد المسير ٢/ ٣٩٠، الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٧٦.

(٤) وهذا خلاف المشهور.

(٥) في الأصل: الفاغة من للدي. وخبر وهب رواه الطبري في التفسير ١٥/ ٤٢٨، وليس فيه هذه الجملة.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط يعني للملائكة ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ فأبطش بكم الساعة وأدفع السوء عنكم ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ أي: عشيرة منيعة، والركن: الناحية من الجبل، شبه عشيرة الرجل به.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بالسوء ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ ببنتيك زعورا وريثا، وفي قول وهب: بتسع بناتك ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ آخر السحر، وقيل: ربع الليل ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ﴾ أي: لا يتخلف ﴿مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ بالنصب: يعني: فأسر بأهلك إلا امرأتك. وبالضم: لا يلتفت أحد إلا امرأتك[(١)].

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ من العذاب، ثم مسح جبريل وجوه القوم الذي يُهرعون إليه فعميت عيونهم، فخرجوا يجول بعضهم في بعض، ويصيحون: أعميتنا يا لوط ستعلم ما نفعل بك غدًا، ثم قال ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ لأنَّ لوطًا كان يستعجل في العذاب.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بهلاكهم وأراد لوط أن يخرج أولاده وأهله من بينهم وله أغنام، وباب المدينة مسدود، فقال جبريل: إني سأحملك وغنمك وابنتيك وامرأتك حتىٰ أرمي بهم من وراء السور وقت السحر، ففعل وساروا من المدينة فرسخين، وقد أمره أن لا يلتفت عند الوجبة، وقال جبريل: يا لوط إنك تسمع للمدينة وجبةً إذا أنا طرحتها، فاشتمل علىٰ ابنتيك، وأما امرأتك فإنها ستلتفت عند الوجبة فتهلك[(٢)].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء، وقرأ الباقون بنصبها (النشر ٢/ ٢٩٠).
ولاختلاف القراءتين اختلف قول المفسرين في امرأته، هل سرت معهم أم لا، والتوجيه الذي ذكره المصنف هو المشهور عند المفسرين، أنظر: تفسير الطبري ١٥/ ٤٢٤، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٠، وسبيل الجمع في مثل هذا أن يقال: أسرىٰ بابنتيه فتبعته زوجته من غير أمر منه، فلما هلك قومهم التفتت فهلكت مع الهالكين.

(٢) نحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٤، وهذا من قبيل الإسرائيليات.

وكانت المدائن أربعة: سدوم، وعامورا، وصبوايم، وذاذوما[1]، في كل مدينة مائة ألف مقاتل، فأخذ جبريل المدائن الأربع فاقتلعها من منتهىٰ الماء الأسود، وحملها علىٰ جناحه ثم رفعها حتىٰ سمع أهل سماء الدنيا نباحَ الكلاب وصياحَ الديكة، ثم قلبها فجعل ﴿[جَعَلْنَا] عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا﴾ خلفها بالحجارة علىٰ كل رجل حجرًا، واتبع كل رجل منهم من الغائبين المسافرين حجرًا قتله.

قال وهب رحمه الله: أمطر الله عليهم أولاً الكبريت والنار، ثم بعدها الحجارة، فذلك قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال ابن عباس: سجيل فارسي معرب، بمعنىٰ سنك وكل، كأنه: مطبوخ الآجر.

وقيل: سجيل مسجل مكتوب علىٰ كل حجر اسم صاحبه[2] ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ متتابعة.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة بخطوط الحُمرة والسواد ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: من خزائنه التي لا يصرف منها شيء إلا بإذنه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ أي: قريات لوط ليست من كفار مكة ببعيد، ممرهم عليها.

وقيل: الحجارة ليس من ظالمي أمتك ببعيد، أي: كل من عمل عملهم[3].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أرسلنا إليهم ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ يعني:

---

(١) كذا في الأصل: بذالين معجمتين، وفي الكشف والبيان ١٤/ ٤٢٦: داذوما، وفي تفسير القرطبي ١٨/ ٢٦٢: خمس قريات: صبعة وصعرة وعمرة ودوما وسدوم.

(٢) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري ١٥/ ٤٣٤، تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٥، الكشف والبيان ١٤/ ٤٢٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٥.

أتموا الكيل والوزن في المبايعات ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: في سعة ورُخص ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤﴾ يحيط بكم عذابه.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أتموها بالعدل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تنقصوا حقوقهم ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أي ثواب الله وطاعته ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ وقيل: توحيد الله خير لكم[1] ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۝٨٦﴾ أي رقيب أجبركم على الإيمان.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ أي: كثرة صلواتك[2]، وقيل: دينك ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأوثان ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ من البخس ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ قالوا ذلك استهزاءً، يعنون به السفيه الأحمق على الضد، كقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ يعني الذليل اللئيم، ويجري ذلك في كلام الحذّاق، يقولون للأعمى: بصيرًا وللحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجون[3].

---

(١) الأصل أن بقية الله: ما أبقاه الله لكم، بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط، فأحلّه لكم، خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان (تفسير الطبري ١٥/ ٤٤٧).

(٢) وذلك لأن شعيبا كان كثير الصلاة (الكشف والبيان ١٤/ ٤٣٥).

(٣) الجون من الاضداد، يطلق على الأبيض والأسود، ولكنهم يريدون هنا السواد (تاج العروس ٣٤/ ٣٨٢). قال ابن السكيت: يقال للأسود أبو البيضاء وللأبيض أو الجون (تاج العروس ١٨/ ٢٦٨).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بيان من عبادة ربي ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أكرمني بالنبوة والإسلام، وأتاني قوتًا حلالاً ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ إلىٰ ما أنهاكم عنه، أي: لا أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أركبه بنفسي، وقيل: دعاكم[1] إلىٰ التوحيد وترك التطفيف وقد ارتضيت ذلك لنفسي.

قال الأزهري: كنت بالبادية أسوق الإبل لأوردها الماء، فاستقبلني بعض العرب فسألته عن: فرطنا، فقال: خالفني، كنت صدرت عن الماء وهو يرد[2].

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ بقدر طوقي ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ في مصالح الأمور ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ أرجع بعملي ونيتي.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي علىٰ أن لا تؤمنوا ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ليس بينكم وبينهم مدة بعيدة.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بالتوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي أَقْبِلُوا عليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ تودد إلىٰ أوليائه بالمغفرة.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: تدعونا إليه وتأمرنا به، من شدة بغضنا لك ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فالضعيف هو الضرير بلغة حمير، وكان شعيب ضريرًا[3]، وقيل: لا قوة لك، معناه ولا حيلة ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي:

---

(١) في الأصل: داكم.

(٢) الأصل في مادة فرط أنها تدل علىٰ السبق والتقدم (تاج العروس ١٩/ ٥٢٧)، وهذه القصة لم أجدها في تهذيب اللغة للأزهري، والله أعلم.

(٣) روي هذا عن بعض السلف، كما في تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٧، وقد فسر سفيان الضرارة: بضعف البصر (الكشف والبيان ١٤/ ٤٣٩).

عشيرتك وقرابتك ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي: قتلناك بالحجارة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ أي: ليس قتلك عندنا بعظيم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هم أكرم عندكم ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢﴾ عالم.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا في هلاكي في منازلكم.

وقال الضحاك: اعملوا على جديلتكم، أي: طريقتكم التي أنتم عليها ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على جديلتي التي أنا عليها ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب ونجونا ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهلكه ويشقيه ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أيضا ستعرفون أمره ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾ منتظر بكم العذاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: سعادة منَّا، وقيل: بمنة ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبريل، خرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ لا يتحركون.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ لم ينزلوا مغانيها ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ من رحمة الله ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ أي: هلكت قوم صالح.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦﴾ وحجة ظاهرة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أطاعوا قوله ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾ أي: ليست طاعته بصواب.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ يتقدمهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهم خلفه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أدخلهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ المدخل المدخول.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي: ألحقوا عذابًا وهو الغرق ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُتبعون يوم القيامة بلعنة أخرىٰ ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: بئس العطاء المعطىٰ، وبئست اللعنة بعد الأمنة.

والرفد في الأصل هو: العون، أي: اللعن الثاني أعان الأول[1].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ بوحي جبريل ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ منها قائم ينظُر إليها الناظر، مثل: مدين، وحجر، وبئر معطلة، وقصر مشيد، قام عينها وباد أهلها، ومنها حصيد: هالِك أهلها، دارس أثرها، طامس منارها.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بربهم ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: عذابه ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ مِن قوله: تبت يداه، أي خسرت.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ يا محمد في الأمم الماضية [﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾] إذا عاقب أهل القرىٰ وهي ظالمة ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وجيع عظيم.

قال الشيخ أبو سهل الأنماري رحمه الله: ذكر بكلمة «إذا» [في] قوله ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وكلمة إذا للمستقبل، ولذلك قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «شيَّبتني سورة هود والواقعة والمرسلات»[2] وهذه الآية من هذه السورة، شيَّبته لأنه خاف أن ينزل ذلك بأمته كما في الأمم الماضية.

---

(١) البسيط ١١/ ٥٤٤.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث أبي بكر الصديق، ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، وروىٰ علي بن صالح، هذا الحديث عن أبي

ومن سورة الواقعة قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ فخاف علىٰ أمته الخروج إلىٰ الحالة الثالثة.

ومن سورة المرسلات ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ فيما يستقبل، فخاف أن ينزل ذلك بأمته حتىٰ شيَّبه الخوف.

وعن بعض الصالحين [أنه] رأىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في المنام فقال له: يا رسول الله ما شيبك من سورة هود؛ قصص الأنبياء وهلاك أممهم؟ قال: لا، ولكن قوله ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ (١).

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يجمع فيه الأولون والآخرون ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ يشهده أهل السماوات والأرضين، أي: يحضره.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ نؤجل ذلك اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ وعيدي لا يعلمه غيري.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ من الفرق ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ والشقي كل الشقي: من شقي بسوء عمله في معصية الرب، والسعيد كل السعيد: من سعد بحُسن طاعته في رضا ربه، فالشقي يساق إلىٰ النار، والسعيد يساق إلىٰ الجنة.

إسحاق، عن أبي جحيفة، نحو هذا، وقد روي عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، شيء من هذا مرسلا.

ورواه الثعلبي في الكشف والبيان من طريقين ١٤/ ٣١٠، وهو حديث مضطرب.

(١) الرائي هو أبو علي السري، انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٤٦٣، الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٠٧.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ أي: صوت كصوت الحمار وهو أول ما ينهق ﴿وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ وهو آخر الصوت، وقيل: الزفير الأنين، والشهيق أشد منه[١].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين في النار ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: سماوات الجنة والنار وأرضيهما[٢]، لأن كل ما علاك فهو سماء وما تحتك فهو أرض، ومعناه: مادامت جنتي وناري.

وقيل: أراد به إياسهم عن الخروج، لأن العرب تضع هذا اللفظ موضع التأبيد الدائم الذي لا انقطاع له[٣].

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ يعني: لا يشاء ربك أبدًا، كقول الرجل: لا أفعل كذا إلا أن أشاء، وهو يعلم أنه لا يشاء، والفائدة فيه: أنه لو شاء إخراجهم لقدر، ولكنه يعلم أنه لا يشاء ذلك أبدًا[٤].

وقيل: إلا ما شاء ربك من ألوان عذابهم.

وقيل: الاستثناء وقع علىٰ أهل التوحيد يخرجون من النار بعد العذاب[٥].

قال الضحاك رحمه الله: رحلتني آيتان من خراسان إلىٰ المدينة، فلقيت أبا سعيد الخدري وأبا هريرة، قالا لي: يا خراساني ما الذي تطلب؟ قلت: قول الله عز وجل ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ ما هذا الاستثناء؟ قالا: سمعنا رسول

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨٠، الكشف والبيان ١٤/ ٤٥١.
(٢) وهو قول الضحاك، كما في الكشف والبيان ١٤/ ٤٥١.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨١.
(٤) وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨، والزجاج في معاني القرآن ٣/ ٧٩.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨١، وهو قول قتادة والضحاك، ورجحه ابن جرير.

الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «إن لجهنم جوانيًّا وبرانيًّا، فجوانيها الكفار والمنافقين، وبرانيها الذين أوبقتهم الذنوب من هذه الأمة، فيمكثون فيها ما شاء الله، ثم أهل جوانيها يُعَيِّرون أهل برانيها ويقولون: إنكم كنتم توحِّدون الله، فما أغنىٰ عنكم توحيدكم وصرتم معنا في النار، فعند ذلك يجأرون إلىٰ ربهم: يا رب، يا رب، عيَّرنا أهل الشرك بك، فيخرجون من النار، فعند ذلك ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ فيخرجون من النار كما أخرج أهل التوحيد، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقعت المثنوية عليهم، لأنهم الموحدون شقوا بأعمالهم»[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ إن شاء أدخل أهل التوحيد في النار، وإن شاء لم يدخلهم وأدخلهم الجنة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ كتبت لهم السعادة ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وهو عبارة عن التأبيد علىٰ ما قدمنا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة النعم والكرامة، وقد مر معناه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ لا مقطوع

---

(١) لم يسمع الضحاك أحدا من أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فينظر في حال الراوي عنه، وقد روىٰ ابن حبان في صحيحه (٧٤٣٢) عن صالح بن أبي طريف أنه سأل سعيد الخدري: أسمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول في هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ فقال: نعم سمعته يقول: «يخرج الله أناسا من النار بعدما يأخذ نقمته منهم قال: لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال المشركون: أليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياء، فما لكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة، فيتشفع لهم الملائكة والنبيون حتىٰ يخرجوا بإذن الله، فلما أخرجوا قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج من النار، فذلك قول الله جل وعلا: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ قال: فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربنا أذهب عنا هذا الاسم، قال: فيأمرهم فيغتلسون في نهر الجنة فيذهب ذلك منهم».

ولا ممنوع، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، والمحدود بالدال واحد.

قال إبراهيم الخواص: الشقي من اعتمد تدبيره والسعيد من فوض أمره إلىٰ ربه.

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: الشك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ﴾ من بطلان عبادتها، فكان ظاهر الخطاب لرسول الله، والمراد أمته، ومعناه: لا تكونوا أيها الجُهَّال بأمر الله في شك مما يعبد هؤلاء الكفار بأنهم ضلال، وأنهم سيعاقبون بعقابي، ما يعبد هؤلاء إلا الأصنام ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ وأوائلهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ ونصيبهم: ما قُدِّر لهم في الأزل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾ آمنت به طائفة وكفرت طائفة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الرحمة سبقت في السابق بتأخير العذاب عنهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي: جاءهم العذاب وفُرِغَ من هلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني المختلفين فيه ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أمر موسى ﴿مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ وقيل: في شك من القرآن مريب ظاهر الشك(١).

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ معناه: وإنَّ كلاً والله ليوفينهم، ومن قرأ: «وإنْ كلاً»(٢) بسكون أنْ معناه: ليس كل إلاَّ ليوفينهم ربك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ ۚ﴾ أي: جزاء أعمالهم، وأراد بالكل الفريقين المذكورين الشقي والسعيد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

---

(١) البسيط ١١/ ٥٦٨.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر شعبة بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد (النشر ٢/ ٢٩١).

وقرئ «لمَّا» بالتشديد والتخفيف[١]، ومعناه واحد، كقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ معناه إلا عليها حافظ[٢].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الاستقامة: الاستمرار على جهة واحدة، معناه: امض في جهاد عدوك، وقيل: استقم على التوحيد[٣]، أنت ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي: لا تميلوا في النعم يا أمة محمد[٤] ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تميلوا إلى الظالمين، وهذا تفسير الاستقامة، وقال الصادق: لا تركنوا إلى أنفسكم فإنها ظالمة.

﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ يعذِّبكم الله بالنار ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله إنْ فعلتم ذلك ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾ أي: لا تمنعون من عذابه.

ثم خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ بشرائطها، قيل: أراد به صلاة الفجر وصلاتي العشي: الظهر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعات الليل، يعني المغرب والعشاء الآخرة.

والزُلفة: القُربة، يعني الصلاة القريبة من أول الليل، وزلف جمع زلفة[٥].

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إنَّ هذه الصلوات الخمس تكفر ما

---

(١) قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة بالتشديد في الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف (النشر ٢/ ٢٩١).

(٢) قال الزجاج: لما -المخففة- هو الوجه والقياس، وتشديدها: معنى إلا (معاني القرآن ٣/ ٨١، البسيط ١١/ ٥٧٠).

(٣) البسيط ١١/ ٥٧٥.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٣.

(٥) البسيط ١١/ ٥٨١.

بينها من الذنوب دون الكبائر ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ أي: موعظة للمتعظين.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أمرت من الاستقامة وترك الركون وإقامة الصلاة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: هلاَّ كان، معناه: لم يكن من القرون الماضية قبل هذه الأمة ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ أي: ذووا عقول، وقيل ذووا جماعة وأصحاب يبقى نسلهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الشرك ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ مع الأنبياء من العذاب ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المشركون ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: أنعموا فيه من الأموال، وتجبروا فيها عما أمروا من أمر الآخرة[1] ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ ومعنى هذه الكلمات: أنهم اشتغلوا بمرضات رؤسائهم لأجل نعيم الدنيا، وأعرضوا عن مرضات ربهم، ومالوا إلى راحة أنفسهم في الدنيا، وتركوا الراحة في العقبى.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يكن ربك يهلك أهل القرى بظلمهم على أنفسهم، وهو إقامتهم على الشرك إذا كان ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾[2] يتعاطون الحقوق فيما بينهم.

وقيل: لا يعذبهم بالشرك في الدنيا ما لم يعملوا مع الشرك شيئًا آخر، مثل الظلم فيما بينهم، أو أذى الأنبياء أو غيره، لأن الشرك عقوبته النار لا عذاب الدنيا[3].

---

(١) الكشف والبيان ١٤/ ٤٧٠.

(٢) في الأصل: أهلها.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٥٣٠، تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٥، الكشف والبيان ١٤/ ٤٧٠، البسيط ١١/ ٥٨٦.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: جمعهم على ملة الإسلام، ولكن علم أنهم ليسوا بأهل لذلك، وهذه تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: لا يزال أهل الأديان مختلفين في الدين.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فعصمه عن الاختلاف وهم أهل الحق ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني: خلق أهل الاختلاف للاختلاف، والآخرين للرحمة، لأنَّ الفريقين خلقهم للشقاوة والسعادة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: تم قول ربك لأهل الاختلاف والكفار حيث قال ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي كلما تحتاج إليه ﴿مِنْ﴾ أخبار ﴿أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ والأمم نقص عليك، نخبرك ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: يقوي به قلبك ويحفظه لتقتدي بهم في الصبر ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السورة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الخبر الصدق ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ نهي ووعظ لمن اعتبر ﴿وَذِكْرَىٰ [لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾]﴾ منفعة لمن يذكر من المؤمنين من أمتك.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: في منازلكم بهلاكي، وقيل: على طريقتكم، أمر تهديد ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ على طريقتنا التي نحن عليها.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: انتظروا هلاكنا إنَّا منتظرون بكم العذاب، وهو القتل ببدر، وعيد خرج على مخرج الأمر.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعلم متى ينزل بكم العذاب، ويعلم ما غاب عن علم العباد ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي: أمر العباد يحكم فيهم ما يشاء من الثواب والعقاب، ثم قال لرسوله ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فوِّض أمرك إليه وثق به.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾[١] أي ما يعمل الكفار.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله له ذنوبه-: بلغنا عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «مَن قرأ سورة هود أُعطي من الأجر من صدَّق نوحًا وهودًا وشعيبًا ولوطًا وإبراهيم؛ ومن كذَّبهم؛ عشر حسنات؛ وكان عند الله يوم القيامة من الشهداء»[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) في الأصل: يعملون، بالغيبة، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وشعبة وحمزة والنسائي وخلف، وعليها جاء التفسير.

وقرأ: ابن عامر وأبو جعفر ونافع ويعقوب وحفص بالتاء، علىٰ الخطاب (النشر ٢/ ٢٦٣).

(٢) حديث موضوع، رواه المستغفري في فضائل القرآن ١١٧٧.

سورة يوسف

مكية، وهي مائة آية وإحدىٰ عشر آية(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ معناه: أنا الله أرىٰ(٢)، وقيل: قَسَمٌ أقسم الله تعالىٰ أَنَّ هذه الآيات [هي] تلك الآيات التي وُعدتم بها في التوراة كما قال ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

ثم قال ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ يعني: بالحلال والحرام.

ويروىٰ أَنَّ المسلمين سألوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سورةً، ويتمون أن تنزل عليه سورة ليس فيها أمر ولا نهي ولا أحكام ولا حدود، يتسلون بها، فأنزل الله تعالىٰ سورة يوسف، وقال: تلك الآيات التي سألتم(٣).

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: عربي اللغة لا عربي الإضافة ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ أي: تفهمون، قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أراد به الكتاب.

---

(١) الكشف والبيان ١٤/ ٤٧٩، البيان في عد آي القرآن ١٦٧، زاد المسير ٢/ ٤١١.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٨.

(٣) وهذا معنىٰ مأخوذ من عدة روايات، كقول ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟: فنزلت ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ رواه ابن جرير في التفسير (١٥/ ٥٥٢) ثم روىٰ عن عون بن عبد الله، قال: ملَّ أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ملَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله عز وجل ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [سورة الزمر:٢٣] ثم ملوا ملَّةً أخرىٰ فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن، يعنون القصص، فأنزل الله ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، فأرادوا الحديث فدَلَّهم علىٰ أحسن الحديث، وأرادوا القصصَ فدلهم علىٰ أحسن القصص..

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وهي قصة يوسف ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: نخبرك بما أوحينا من القرآن ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③﴾ إن كنت لا تعلم قبل نزول القرآن أن نوحي إليك، وقيل كنت لم تعلم بقصة يوسف قبل هذا.

واذكر ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يا أب ﴿يَا أَبَتِ﴾ بالكسر: على الإضافة(١)، وبالنصب(٢): لأنه في معنى يا أبتاه(٣).

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ نصب أحدَ عشر لأنهما اسمان جُعِلا اسمًا واحدًا، مثل حضرموت وعبد قيس وبخت نصر ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ④﴾ نزلن من أماكنهن وسجدن لي.

وظاهر الكلام أن يقول: رأيتها لي ساجدات لأنها لا تعقل، ولكن وصفها بصفة ما يعقل لأنه أضاف إليها فعل ما يعقل وهو السجود، والسجود تعبُّدًا أو تحية، وهذان فعل من يعقل، فوصفها بصفة العقلاء، كما قال الله تعالىٰ في قصة إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ لما أضاف إليها فعل العقلاء وصفها بصفتهم، وقال في قصة سليمان ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ لمَّا خاطبها بخطاب العقلاء وصفها بصفة العقلاء(٤).

وأما تكرار الرؤية في الكلام بقوله ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ثم قال ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ﴾ فمعناه: إني رأيت أحد عشر كوكبًا ورأيت الشمس

---

(١) أي الإضافة إلىٰ نفسه وحذف الياء، لأن ياء الإضافةِ تحذف في النداء (معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٨).

(٢) بالنصب في التاء قرأ أبو جعفر وابن عامر، وقرأ الباقون بالكسر (النشر ٢/ ٢٩٣).

(٣) الكشف والبيان ١٤/ ٤٨٨.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩١، الكشف والبيان ١٤/ ٤٨٩،

والقمر فحسب، ثم قال: رأيتهم -عن الكواكب- لي ساجدين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ فرفع الأبوين على العرش دليل على عدم السجود، والسجود كان من الإخوة، لأن السجود اعتذار من الجناية، والجناية منهم لا من الأبوين[(١)].

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ إن أخبرتهم يحتالوا في هلاكك حيلة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ ظاهرٌ عداوته يحملهم عليه، أضاف الجناية إلى الشيطان لطفًا منه.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك كما أراك الله هذه الرؤيا ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ أي: يفهمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ الرؤيا، وإنما علَّم يعقوب ذلك لأنه عبَّر الكواكب الأحد عشر إخوته، وهم أحد عشر، وعبَّر الشمس والقمر بأبويه، يعقوب وراحيل، أو خالته على التبين، فالقمر أبوه والشمس أمه، وعلم أنَّ الله اختاره على إخوته، وإخوته أنبياء الله؛ لأنهم أولاد نبي.

وقيل: هم أنبياء، والمفضل على القوم يكون أفضل منهم، فإن كانوا أولياء فيوسف بهذا التأويل نبي، وإن كانوا أنبياء فهو رسول حتى يكون أفضل منهم، ولا يكون نبي إلا وهو عالم بتعبير الرؤيا؛ لأن أول النبوة هي الرؤيا.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة والإسلام ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: أولاده بالنبوة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ برؤياك ﴿حَكِيمٌ ۝٦﴾ في إتمام النعمة عليك.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾ أي: في خبر يوسف ﴿وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ أي: عِبَر لكل من سأل عن خبر يوسف، وقيل: علامة لنبوتك[(٢)].

---

(١) انظر: البسيط ١٢/ ١٩.

(٢) لما ورد من أن الأحبار سمعوا قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة (تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠).

﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ حين قالوا ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بن يامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وأقرب مجلسًا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي، جماعة، وهم عشرة كاملة، ذووا قوة، نفعنا عنده أكثر من نفعهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ خطأ بيِّن، وإنما نسبوه إلىٰ الضلالة لأنهم ظنوا أنَّ اختياره ليوسف لجماله علىٰ ما يقتضيه طبع البشر، وكان اختياره[١] لما علم من تعبير رؤياه.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة عن أبيكم ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ حتىٰ يُقْبِل بوجهه إليكم، ويصفوا لكم حبه ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد ذهابه ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ تائبين.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني يهوذا، وقيل: روبيل وهو أكبرهم[٢] ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ الغيابة: ما غاب عنك[٣]، أي: في قَعر الجب ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ يعني العير ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ والسيارة: الذي يسيرون[٤] من بلد إلىٰ بلد، والالتقاط: وجود الشيء من غير أن يحتسب[٥].

ثم اتمروا فيما بينهم، و ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: لا تعدنا أمناء[٦] علىٰ يوسف ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ محبون حافظون.

---

(١) في الأصل: واختباره.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٢.

(٣) البسيط ١٢/ ٣١.

(٤) في الأصل: يشترون، وهو تصحيف.

(٥) البسيط ١٢/ ٣٤.

(٦) في الأصل: أمينا.

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ﴾ أي: يتسع في الخصب والملاذّ ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾ أي: ننشط في الصحراء فيكون أروح لقلبه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ لا يمسه شر، ونرده سالمًا.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يسؤوني ذهابكم به، ومع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾[١] وقد عرفتم وجدي به ﴿وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ قيل: كان يعقوب رأىٰ في المنام ذئبًا شد علىٰ يوسف، فلهذا اعتلَّ، وتلقف أولاده منه فاعتلوا بعلته[٢].

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ جماعة ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ حينئذ ﴿لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ لأنَّا أرباب المواشي، فإذا أخذ الذئب مِنَّا أخانا فكيف لا يأخذ الغنم، فأرسلَهُ معهم يعقوب.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ أي: زعموا أو توافقوا ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ في أسفله ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ إلىٰ يوسف في الجب وهو ابن ثمانية عشرة سنة[٣] ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: لتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا يومًا ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ حينئذ أنت يوسف.

وكان الجب علىٰ ثلاثة فراسخ من كنعان، وقيل: فرسخين[٤].

وماؤه إذ ذاك كدرٌ، فلما ألقي فيها يوسف عذب وحلا الماء، وصفا لونه[٥]، وقام يوسف علىٰ صخرة في البئر، ووكّل الله به ملكًا يحرسه ويطعمه.

---

(١) فصل بين الواو وأخاف، بـ«مع».

(٢) وهذا من تفسير الكلبي كما في النكت والعيون ٣/ ١٣.

(٣) وهو قول الكلبي، كما في البسيط ١٢/ ٤٢، و سيحكي قولا آخر في عمره.

(٤) ويقال أربعة، ذكر ذلك السمرقندي في تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٣، وهذا من الإسرائيليات.

(٥) نحوه في الكشف والبيان ١٤/ ٥١٨.

قال ابن عباس: طرحوه في البئر وهو ابن سبع سنين، وكان في الجُب ثلاثة أيام[1].

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾ يعني إخوته ﴿عِشَآءٗ﴾ عند غروب الشمس ﴿يَبۡكُونَ ١٦﴾ وعشاء منصوب على الظرف.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ نتنضل، وقيل: نتصيد، وقيل: نستقي الماء لغنمنا على النوب[2] ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ فقال لهم: كذبتم، فقالوا ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي: مصدِّق لنا ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ أي: مكذوب، مصدر أقيم مقام المفعول، وقد لطخوا قميصه بدم جدي.

﴿قَالَ﴾ يعقوب: ليس كما تقولون ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ بل: يوجب النفي والإثبات، نفى كلامهم: أكله الذئب، وأثبت التسويل، أي: زيَّنت

---

(١) ومثله روي عن وهب، لكن في سنه لما رأى الرؤيا، كما في الكشف والبيان ١٤/ ٤٩١.
وذكر الثعلبي (في تفسيره ١٤/ ٥١٧)، والسمعاني (في تفسيره ٣/ ١٣)، والقرطبي (في جامع أحكام القرآن ٩/ ١٤٢) أقوالا أخرى.
فعن أبي بكر بن عياش: أنه كان من أبناء اثنتي عشرة سنة، ومكث في الجب ثلاثة أيام، ووصفه السمعاني بأن: هذا هو المعروف.
وفي بعض الروايات أنه ابن ست سنين، حكاه السمعاني، وهو رواية جويبر عن الضحاك (كما في النكت والعيون ٣/ ١٧). وفي بعضها ابن سبع عشرة سنة، وهو قول الحسن البصري.
قلت: ولا نص صحيح في ذلك، والمنقول عن ابن عباس لا يثبت، وهذه الأخبار من قبيل الإسرائيليات، لكن العادة أن الإخوة الكبار لا يغارون من حب أبيهم لأخ صغير في السادسة أو السابعة، فلعله كان في الثانية عشرة أو ما بعدها، لكن مما يرجح كونه صغيرا أنهم ادعوا أن الذئب أكله، وهي دعوى تناسب صغار السن، والله أعلم.
(٢) والأول هو المشهور عند المفسرين، تفسير الطبري ١٥/ ٥٧٧، الكشف والبيان ١٤/ ٥١٣، البسيط ١٢/ ٤٤.

لكم أنفسكم عملاً فصنعتموه[١].

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ لا جزع فيه، أي: مني صبر جميل، والصبر الجميل: هو حبس النفس [illegible] السخط؛ وإن كان القلب محترقًا؛ والدمع منسكبًا[٢] ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ [illegible] منه الإعانة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ من هلاكه.

وقال يحيىٰ بن معاذ[٣]: الصبر الجميل أن يتقلب في البلاء بقلب وجيب، ووجه مستبشر، والحزن في المصائب فلا بأس به؛ إذا لم يكن شق الجيوب، ولا لطم الخدود.

وكان يعقوب يبكي علىٰ يوسف حتىٰ امتنع منه ومن أهل بيته النوم، وكان يبكي وينود، فمن هناك تنود اليهود إذا قرؤوا التوراة[٤].

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ والوارد طالب الماء ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ أرسلها في البئر، وكان قوم يريدون مصرًا فأخطؤوا الطريق، حتىٰ وقعوا بأرض دوثن[٥]، وهي أرض فيها جب يوسف.

---

(١) نحوه في البسيط ١٢/ ٤٨.

(٢) انظر: الكشف والبيان ١٤/ ٥١٧، والبسيط ١٢/ ٤٩.

(٣) هو يحيىٰ بن معاذ الرازي، واعظ مشهور، كان يوصف بحكيم الزمان، توفي سنة ٢٥٨ (تاريخ الإسلام ٦/ ٢٣١).

(٤) ناد ينود نَودًا ونَوَدانا إذا تمايل من النعاس، قال في شرح القاموس (٩/ ٢٤١): " وتنود الغصن وتنوع: إذا تحرك، ومنه نودان اليهود في مدارسهم، وفي الحديث (لا تكونوا مثل اليهود إذا نشروا التوراة نادوا) يقال: ناد ينود، إذا حرك رأسه وأكتافه".

(٥) كذا في الأصل وتفسير الكلبي، وفي كتاب المباني لنظم المعاني ٣/ ٣٨٣: دوثر بين مدين ومصر، ولم تذكر معاجم البلدان دوثر ولا دوثن.

والذي أدلىٰ دلوه هو: مالك بن ذعر بن يويب بن عبابن[١] بن مديان بن إبراهيم الخليل[٢] عليه السلام، من بلد مدين، ومعه عُوَيْدَة بن مارٍّ، فأدلىٰ مالك دلوه فتعلق يوسف بحبله، فلما نزعه رأىٰ يوسف علىٰ أحسن صورة ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾[٣] أي: يا بشراي[٤] أضاف البشرىٰ إلىٰ نفسه وناداها، معناه: يا بشراي أي أنت هذا أوانك.

وقيل: أنَّ بشرىٰ كان اسم غلام له فناداه ثم أخبره بالغلام[٥].

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ أخفوه من العير، وقالوا: استبضعناه من أهل الماء ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) كذا في الأصل، إلا أن الباء الأولىٰ غير منقوطة، فتحتمل أنها ياء أو باء أو تاء، وفي تفسير الطبري: ١٥/ ١٨: عفقان، وفي زاد المسير: عيفا.

(٢) هذه رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما في تفسير الطبري ١٥/ ١٨، وفي النكت والعيون ٣/ ١٧: أنه مالك بن ذعر بن حجر بن يكه بن لخم، وقول ثالث ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٤٢١: «مجلث بن رعويل، قاله وهب بن منبه» ولا يخفىٰ أن هذا كله من قبيل الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

تنبيه: في شرح القاموس (٤/ ٤١٧) أنه: مالك بن دعر بالدال المهملة، وأن جده: يوبب بائين، لكن المشهور في كتب التفسير أنه بالذال المعجمة.

وفي تفسير الطبري: بويب كما ضبطه في شرح القاموس، لكن بين الشيخ شاكر أنه في المخطوطة غير منقوط، وفي نسخة هجر ١٣/ ٦١: ثويب، والله أعلم بالصواب.

(٣) في الأصل: يا بشراي، وهي قراءة من سوىٰ الكوفيين (النشر ٢/ ٢٩٣).

(٤) في الأصل: بشرياي، وهو تصحيف. انظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٧، الحجة لأبي علي ٤/ ٤١٠.

(٥) وهو قول السدي كما في تفسير الطبري ١٦/ ١، وهو قول شاذ.

قال الزجاج (في معاني القرآن ٣/ ٩٧): ومعنىٰ النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب ولا تعقل إنما هو علىٰ تنبيه المخاطبين، وتوكيد القصة، إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت: اعجبوا ويا أيها العجب هذا من حينك. وكذلك إذا قال يا بشراي فكأنه قال: أبشروا، وكأنه قال يا أيتها البشرىٰ هذا من إبانك وأوانك.

عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٩﴾ يعني: إخوته وأهل العير.

والبضاعة: القطعة من المال يتَّجر فيه، فلما قالوا: استبضعنا، قال العير: نحن أحق به من غيرنا، فبيعوه منَّا، فباعوه بعشرين درهمًا.

قال الضحاك: قال ابن عباس: من زعم أن إخوته باعوه فقد كذب، لقد غاب إخوته عنه وأرادوا هلكته، ولهذا لم يذكر رجوع إخوته[1].

وقال الكلبي: رجع إخوة يوسف بعد ثلاثة أيام فلم يجدوه في البئر، ونظروا إلىٰ القوم النزول وأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا: هذا عبد أبق منَّا، فقال مالك بن ذعر: أنا أشتريه منكم بعشرين درهمًا، وفي ذلك الوقت كلما كان دون الأربعين يعدُّونه ولا يزنونه[2]، فذلك قوله: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ أي: باعوه بثمن قليل ظلم حرام، لأن بيع الحر حرام ولاسيما بيع الأنبياء ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ عشرين درهمًا.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ أي: كانوا إخوة يوسف من الزاهدين في ثمنه، أي: مستغنين إذ لم يكن مرادهم الثمن.

قيل: كانوا في يوسف من الزاهدين يعني مالك بن ذعر ومن معه، لم يرغبوا فيه مع جماله وكماله. وقيل: لم يعرفوا حقه[3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ وهو العزيز[4] خازن ملك مصر،

---

(١) وهي رواية ضعيفة، وعنه رواية أخرىٰ أنهم قالوا: عبد لنا أبق منا (الكشف والبيان ١٤/ ٥٢٣).

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٥

(٣) الكشف والبيان ١٤/ ٥٢٧.

(٤) في الأصل: العزيز بن خازن، وهو خطأ.

وهو في فرعون، زمانه واسم العزيز: قطيفيرا، قيل: قطيفيرع[١].

اشتراه بعشرين درهمًا وبردين ونعلين، وقيل: إن مالك بن ذعر باعه بما ذكرنا من رجل، ثم عرض علىٰ البيع في سوق مصر فاشترته زليخا، امرأة العزيز، بوزنه دنانير، وبوزنه دراهم، وبوزنه دُرًّا، وبوزنه مسكًا، وبوزنه حريرًا[٢].

وقيل: اشتراه العزيز ثم سلَّمه إلىٰ امرأته[٣]، وقال ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أحسِني منزلته وكرامته، وقيل: مشربه وملبسه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في أشغالنا ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ أي: نتبنَّاه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ الواو: للتكرار، المعنىٰ: مكنَّاه وعلَّمناه، وقيل: فعلنا ذلك لمكِّنه ولنعلِّمه[٤] ﴿مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ تعبير الرؤيا، سمَّاه أحاديثًا لأنَّ النفس تخرج من الجسد في النوم، فالرؤيا التي يراها النائم يحدثه به مَلك الرؤيا.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: علىٰ أمر يوسف ليتم نعمه عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ ثمانية عشر سنة، الشدة: قوة العقل والبدن، وجمعه أشُد، مثل: نِعم وأنْعم، وقيل: الأشد من ثمانية عشر سنة إلىٰ ثلاثين سنة[٥].

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي: حكمة وعلمًا بتأويل الرؤيا، قيل: الحكم

---

(١) كذا، وسيأتي: قوطيفيرع، وفي كتب التفسير: قطفير أو أطفير أو قطيفير أو قنطور (بحر العلوم ٢/ ١٨٦، الكشف والبيان ١٤/ ٥٢٨، تفسير السمعاني ٣/ ١٨، زاد المسير ٢/ ٤٢٤).

(٢) هذا مروي عن وهب، ونحوه في كتاب المباني لنظم المعاني ٣/ ٣٨٤، وتفسير السمعاني ٣/ ١٨ وعندهما من الزيادة: فبلغ أربعمائة رطل وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة.

(٣) وفي اسم امرأته خلاف، ذكره الثعلبي في الكشف والبيان ١٤/ ٥٣٠.

(٤) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٢٧.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٢١، الكشف والبيان ١٤/ ٥٣٦

النبوة والعلم الفقه ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢﴾ مَن صبر على البلاء كصبر يوسف.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ المعنى: طلبت زليخا إلى يوسف أن يمكِّنها من نفسه، والمراودة: المطالبة ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ على يوسف ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ معناه: هلم لك، أي: أقبل إلى ما أدعوك إليه وهيَّأتُ لك.

و«هيتَ» مصدرٌ لا فعل له من لفظه، قال الشاعر:

أبلغْ أميرَ المؤمنين ... أخَا العِراق إذَا أتَيْتَا

أنَّ العراقَ وأهْلَه ... عَنقٌ إليكَ فهَيْتَ هَيْتَا[1]

يعني: أقْبل وتعالى، وقوله: عنق أي جمع.

قيل: أن زليخا شغفت بيوسف، وجعلت تصبر نفسها وتلوم، وتقول: يا نفس هل سمعتم بملكة حرة ليس لها في العالمين نظير تعشق عبدها، وتفضح نفسها، فلما ذهب نومها وقرارها، وطعامها وشرابها، حتى طال أمرها؛ فرَّغت بيتًا وزيَّنته بصنوف الفرش والأرائك، والسُّرر[2] والحجال، وتلبست بثياب الملوك، وتزخرفت بالجواهر واليواقيت، وتعطرت بالمسك والعنبر، وتمشطت واكتحلت، ثم خلت به وغلَّقت الأبواب، وقالت: هيت لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أعوذ بالله، والمعاذ مصدر استعيذ بالله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني قوطيفيرع مالكي الذي اشتراني ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي: أحسن كرامتي،

---

(١) البيتان غير منسوبين، وهما لشاعر يخاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهما في مجاز القرآن ٢/ ٤٠، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠، الحجة لأبي علي ٤/ ٤١٧، الكشف والبيان ١٤/ ٥٤٦، البسيط ١٢/ ٦٨.

(٢) في الأصل: والسر.

وبسط يدي، ورفع منزلتي ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ لا يسعد ولا يفوز الزناة في الآخرة.

ثم إنَّ زليخا غلبته بالكلام، وألقىٰ الله علىٰ يوسف شهوة أربعين رجلاً، فذلك قوله ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ قيل: همَّت به هم القرار، وهمَّ يوسف همَّ الفرار، وهمُّ زليخا همُّ المواقعة، وهمُّ يوسف همُّ المفارقة، وهم زليخا: هو العزم والإرادة، وهم يوسف: هو الفكر وحديث النفس(١).

فلما حدثت نفسه به ﴿[لَوۡلَآ أَن] رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ قيل: إن برهانه أن رأىٰ صورة يعقوب عاضًا علىٰ أنامله، وقيل: نودي يا يوسف اسمك مكتوب في ديوان الأنبياء، وعملك عمل السفهاء، وقيل: رأىٰ جبريل علىٰ صورة أبيه فضرب يده علىٰ صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: نودي يا يوسف لا تزنِ فإن الطير لو زنىٰ تناثر شعره(٢).

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ يعني: هكذا فعلنا لنصرف عنه الزنا ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ المعصومين.

---

(١) انظر الأقوال الواردة في ذلك في تفسير الطبري ١٦/ ٣٥، تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٨، الكشف والبيان ١٤/ ٥٥١. ثم ختم الثعلبي المبحث بتحرير جيد.

(٢) هذه الأقوال مروية عن بعض أهل التأويل انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٨، الكشف والبيان ١٤/ ٥٦٣،

قال ابن جرير: وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأىٰ يوسف برهان ربه، وذلك آيةٌ من الله، زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن علىٰ الزنا، ولا حجة للعذر قاطعة بأيِّ ذلك كان من أيٍّ، والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالىٰ، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلىٰ عالمه.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ أي: تبادرا إلىٰ الباب يوسف والمرأة ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ﴾ أي: شقَّت وخرقت ﴿مِن دُبُرٖ﴾ من خلف [﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾] وكان زوجها جالسًا علىٰ الباب مع ابن عم لها ﴿قَالَتۡ﴾ زليخا ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: ما عقوبة من أراد بامرأتك فجورًا ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾ يعني يُحْبَس ﴿أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ ضرب وجيع، استفهام بمعنىٰ الجحد، أي: ليس جزاؤه إلا هكذا.

ثم قالت: كنت نائمة فدخل علي ودنا مني، وكشف عني ثيابي، فدفعته فراودني عن نفسي[(١)].

فـ﴿قَالَ﴾ يوسف عند ذلك ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قيل: صبي في المهد، وقيل: ابن عم المرأة اسمه تمليخا، وقد كان سمع صوت يوسف عند الهرب منها قبل أن يفتح الباب، وهو يقول: خرقت قميصي[(٢)]، فقال يمليخا ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾ أي: شق من قدام فهي صادقة.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ من خلف ﴿فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾ نظر إلىٰ قميصه ﴿قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ شُق من خلف ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ أي: صنيعكن ومكركن، إنَّ مكركن عظيم يغلب الرجال الأقوياء.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٩.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٩، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٧٢ حيث أطال في ذكر الشاهد.

ثم أقبل ابن عمها علىٰ يوسف وقال ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ أي: اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد، ثم قال لزليخا ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ أي: اعتذري إلىٰ زوجك واستعفيه أن لا يعاقبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ المذنبين فيما وضح لنا.

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وهن أربع: امرأة الساقي وامرأة الخبّاز وامرأة صاحب البواب وامرأة صاحب السجن[١]، قلن ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ أي: دعت عبدها إلىٰ نفسها ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ نصب علىٰ التفسير، أي: بلغ حبه إلىٰ شغاف قلبها، وهو داخل القلب، وقيل: سويداء القلب[٢] ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ خطأ بيِّن.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ﴾ زليخا ﴿بِمَكۡرِهِنَّ﴾ أي: بقولهن، سمَّىٰ هذا القول مكرًا لأنَّ زليخا قد أطلعتهن علىٰ سرها واستكتمهنَّ، فمكرن بها وفشين سرها، فسمَّىٰ ذلك مكرًا ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ دعتهن إلىٰ الضيافة ﴿وَأَعۡتَدَتۡ﴾ هيَّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي: مكانًا يتكئن عليه، والمَتْكُ[٣] بسكون التاء هو: الأترج ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ﴾ أي: أعطتها ﴿مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ تقطع به اللحم ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ وإنما قالت عليهنَّ ولم تقل إليهنَّ لأنها أرادت بليتهن، فخرج يوسف وعليه قُرْطَق[٤] من حرير وسراويل معمل وخفان أبيضان، وعمامة من خزٍّ أخضر ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي: عظَّمنه ودهشن من جماله ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: خدشن أيديهن حتىٰ يسيل منها الدماء وهن لا يشعرن، وامرأة العزيز تضحك منهن

---

(١) وهو من تفسير الكلبي، تفسير أبي الليث ٩/ ١٧٩، البسيط ١٢/ ٨٧.
(٢) البسيط ١٢/ ٨٩، تفسير السمعاني ٣/ ٢٥.
(٣) حيث قرأ مجاهد بذلك (الكشف والبيان ١٤/ ٥٩٠).
(٤) أي: قَباء، معرب كرته (تاج العروس ٢٦/ ٣٣٧).

﴿وَقُلۡنَ﴾ حينئذ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي ببشر، وقيل: حاش لله استثناء معناه من قال هذا عبد فقد أخطأ في قوله، فليستثن، ويستعمل ذلك في التنزيه، وأصله في اللغة: الجانب والناحية، يقال: فلان في حاشا فلان أي ناحيته(١). ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكࣱ كَرِيمࣱ ۝٣١﴾ على ربه.

وقرئ: «ما هذا بِشِرًا» بكسر الشين معناه ليس بعبد مشترى(٢).

وقرئ: «ملِك» بكسر اللام.

﴿قَالَتۡ﴾ زليخا ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ أي: عذلتنني ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ دعوته إلى نفسي ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ فامتنع بالعفة عني وتحرز ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: لم يطيعني فيما أدعوه ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ في السجن مع السُّرَّاق ﴿وَلَيَكُونࣰا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ الذليلين، وإنه يزعم أن له ربًا يخاف منه، ولا تنام لي عين ولا يهنأ لي طعام ولا شراب من أجله، فأجعله في مكان لا يشبع من الطعام ولا يلذ من الشراب، ولا يجد فراشًا ينام عليه، ويوسف جالس يسمع كلامها، فعند ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ من الفاحشة ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ شرهن ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ يعني: أمِل إليهن وأكُن من الجاهلين بنعمك، ومن الزانين.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أجابه دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٤﴾ لدعاء يوسف، ودعوتهن إياه إلى الفساد.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٧، البسيط ١٢/ ١٠١.

(٢) وهي قراءة أبي الحويرث، انظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٤، المحتسب ١/ ٣٤٢، الكشف والبيان ١٤/ ٦٠٢.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: للعزيز، أي: حضر له ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي العلامات في براءة يوسف؛ من شق القميص من خلف؛ وشهادة الصبي؛ وحكم الشاهد الحكم ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ إلىٰ أن تسكن هذه المقالة عن أفواه الناس.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: مع يوسف ﴿ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ عبدان من عبيد الملك الأعظم في المصر، وذكر كلمة «مع» لاجتماعهما في السجن وإنْ حبسا بعده بزمان، أحد الغلامين صاحب شراب الملك، والآخر صاحب مطبخه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيت في المنام ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ عنبًا بلغة عمان[1]، وقال: دخلت في كرم وإذا بأصل شجر كرم عليها ثلاث عناقيد عصرتها، وسقيت الملك ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ ويطرن في الهواء ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ إلىٰ أهل السجن، لأنه كان يعزي حزينهم، ويداوي مرضاهم.

وإحسانه في طاعة معبوده: أنه يصوم بالنهار، ويقوم بالليل، وأهل السجن يرون ذلك منه[2].

وكان سبب سؤالهم: أنَّ يوسف رآهما حزينين فسأل عن حزنهما، فقالا: لأنَّا رأينا رؤيا ولا ندري تأويلها، فقال: ما رأيتما؟ فذكرا رؤياهما، فقال: أنا أعرف تأويل هذه الرؤيا، فقالا: من أين تعرف ولست بعرَّاف ولا كاهن؟

﴿قَالَ﴾ لا، ولكن أنا نبي الله[3] ودلالة ذلك أنه ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ أي: أخبرتكما بلون هذا الطعام وطعمه وذوقه وحينه ﴿قَبۡلَ أَن

---

(١) زاد المسير ٢/ ٤٣٩.

(٢) الكشف والبيان ١٥/ ١٤، وذكر ابن الجوزي خمسة أوجه من إحسانه (زاد المسير ٢/ ٤٣٩).

(٣) نحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ١٩٢.

﴿يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ أي: قبل إحضار الطعام، كما كان عيسىٰ عليه السلام يقول: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ وقصده بهذا الكلام دعوتهما إلىٰ التوحيد ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي نعبد غير الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفيق ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ سائر المؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ أي: لا يقرون بوحدانية الله، دعاهم أولاً إلىٰ الإيمان وهو سُنَّة الأنبياء.

قوله: ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ بالرسالة لنا إلىٰ خلقه، وعلىٰ الناس جعلنا رسله إليهم.

ثم قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ أي: عبادة أرباب متفرقة متباينة خير أم عبادة الله الواحد القهار؛ الذي يقهر عباده بربوبيته.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي نتحتموها أنتم وآباؤكم وسميتموها ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: حُجة ولا كتاب ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما القضاء إلا لله ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أي: ألا توحدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ أي: لا يصدِّقون، فإذا بين دلالة نبوته ودعاهما إلىٰ التوحيد؛ عبر رؤياهما وقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يعني الساقي يخرج من السجن إلىٰ ثلاثة أيام، ويرجع إلىٰ عمله ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾ بعد ثلاثة أيام ﴿فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ ميتا،

فقال الخباز: والله ما رأيتُ شيئًا وإنما كذبتُ، قال يوسف ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾ أي: أمضىٰ الحكم فيه، وهو كما قلتُ رأيتما أم لم تريا(١).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ أيقن ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند سيدك بأني مظلوم ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: أنسىٰ الشيطان يوسف دعاء ربه أن ينجيه من السجن، فأقره الله في السجن عتابًا حين رجا غيره. وقيل: أنسىٰ الساقي ذكر يوسف عند ربه(٢).

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ قيل أربع سنين، وقيل خمس سنين.
وقال الكلبي: سبع سنين(٣).

والبضع ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة، واشتقاقه من: بضعت الشيء أي قطعته، فمعناه القطعة من العدد، وهي ما دون العشرة، لأن العشرة تسمىٰ كاملة(٤).

قال الصادق رحمه الله تعالىٰ: لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك هبط جبريل في السجن وقال: يا طيب الطيبين، العلي الأعلىٰ يقرئك السلام، ويقول: يا يوسف، من حبَّبك إلىٰ أبيك من بين إخوتك؟ فقال يوسف: الله ربي، قال: فمن أنقذك من أيدي إخوتك؟ قال: الله ربي، قال: فمن قيَّض السيارة لك حتىٰ أخرجوك من قعر البئر؟ قال: ربي، قال: فمن طرح في قلب من اشتراك حتىٰ قال لامرأته أكرمي مثواه؟ قال: ربي، قال: فمن صرف عنك وبال المعصية؟ قال: ربي، ثم ضرب جبريل جنحه إلىٰ الأرضين فانفجرت ليوسف

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ١٩٣، الكشف والبيان ١٥/ ٢٠.
(٢) وهذا القول الثاني هو قول ابن إسحاق، وقد تفرد به، وهو شاذ، انظر: تفسير الطبري ١٦/ ١١٣، الكشف والبيان ١٥/ ٢٤.
(٣) الكشف والبيان ١٥/ ٢٥، وقال: أكثر المفسرين عليه.
(٤) تفسير الطبري ١٦/ ١١٤.

حتىٰ نظر يوسف إلىٰ وجه الصخرة التي عليها الأرضون، فقال جبريل: ما ترىٰ علىٰ الصخرة؟ فقال: أرىٰ ذرة، قال: ما ترىٰ في فم الذرة؟ قال: أرىٰ طعامًا، قال: يقول لك العلي الأعلىٰ: أذكر هذه الذرة في هذا الموضع لم أنسها حتىٰ سُقت إليها رزقها، فكيف أنساك وأنت نبي وابن نبي وابن نبي؟ أما استحييت مني استغثت بغيري، وعزتي لتمكث في السجن بضع سنين، ففزع يوسف وقال: أيكون الرب عني راضيًا أم لا؟ قال: بل يكون عنك راضيًا، فخرَّ يوسف ساجدًا وقال: الأمانَ الأمانَ يا سيدي، بحق آبائي عليك إلا رحمتني، فأنزل الله إليه رسولاً أن قُل ليوسف: وأي حق لآبائك عليَّ؟ فقال: يوسف بمنتك القديم وأياديك الكثيرة إليهم وإلي؛ إلا غفرتَ، فقال الله تعالىٰ: الآن يا يوسف، فغفر له وأخرجه من السجن[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ واسم الملك: ريان بن الوليد، قال لقومه: إني أرىٰ في المنام سبع بقرات سمان ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ يعني: أكلت العجافُ السمانَ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ وسبعًا ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[2] والتوت اليابسات علىٰ الخضر حتىٰ غلبنهن فنشفن ماءهن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ العرَّافون ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وتعرفون عبارته.

﴿قَالُوٓاْ﴾ كلهم ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أباطيل الأحلام المختلطة اجتمعت، والضغث في الأصل: حزمة الحشيش[3] ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لأنه لا يتشاكل.

---

(١) نقل الثعلبي نحوه عن كعب الأحبار (الكشف والبيان ١٥/ ٢٨).

(٢) فصل بين الواو وأخر بـ: سبعًا.

(٣) البسيط ١٢/ ١٢٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا﴾ أي: من عبدي الملك ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين ومدة، قيل: بعد أربع سنين.

وقرئ: بعد «أمهٍ» أي: نسيان، يقال: أمه يأمه إذا نسي[1]، وهو ساقي الملك ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: أخبركم بتأويل الرؤيا ﴿فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾ إلىٰ السجن، فإن فيه رجلاً، وذكر قصة نفسه ورؤياه وتعبير يوسف، فأرسلوه فجاء إلىٰ يوسف وقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ الصادق فيما أخبرتنا ﴿أَفۡتِنَا﴾ أخبرنا ﴿فِى سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٌ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ إلىٰ الملك وقومه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ تأويل رؤياه.

قال يوسف عليه السلام: أما سبق بقات سمان فهي سبع سنين خصب، وأما السبع العجاف فهي سبع شداد قحط، وأما السنابل الخضر فهي الخصب أيضًا، واليابسات القحط، فقال: كيف نصنع؟ ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ فعل مضارع معناه الأمر، أي: ازرعوا دأبًا دائمًا، والدأب استمرار الشيء علىٰ عادة ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أي: تركوه في كعابره[2]، فإنه أبقىٰ له ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ إلا قدر ما تحتاجون إلىٰ أكله.

﴿ثُمَّ يَأۡتِى مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الخصب ﴿سَبۡعٌ شِدَادٌ﴾ سنون قحط ﴿يَأۡكُلۡنَ﴾ أي: تأكلون ﴿مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ أي: جمعتم لهن، وهذا إضافة الفعل إلىٰ غير الفاعل، كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾[3].

---

(١) وهي قراءة شاذة، نسبت لابن عباس وعكرمة والضحاك (تفسير الطبري ١٦/ ١٢٢، المحتسب ١/ ٣٤٤، الكشف والبيان ١٥/ ٣١).

(٢) الكعابر: جمع كُعبُرة، وهي: عقدة أنبوب الزرع والسنبل ونحوه (تاج العروس ١٤/ ٤٨).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٧، البسيط ١٢/ ١٣٧.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ تدخرون وقيل تبذرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: أهل مصر بالمطر ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ العنب والزيتون.

وقرئ: «يُعْصَرُونَ» علىٰ ما لم يسم فاعله، أي يمطرون من المُعصِرات، وهي السحاب[1].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ يعني: إذا جاء الساقي وأخبره بمقالة يوسف أمر بأن يحضر عنده يوسف ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: رسول الملك، وقال: إن الملك يدعوك ﴿قَالَ﴾ له يوسف ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ قل: ليسأل ويتفحص ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لرؤيتي حتىٰ يتبين أني مظلوم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي: عالم ما كان منهن، قال: فجمع الملك النسوة وسألهن:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: معاذ الله ما رأينا من سوء، أي: قبيح، فلما رأت زليخا النسوة قد شهدن بالحق ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ وظهر الحق وتبين الحق من الباطل ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: طلبته ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ في قوله.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ أي قال يوسف: إنما قلت سل عن النسوة ليعلم العزيز والملك ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم أخن العزيز في حال غيابه عن أهله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: عمل الزُناة[2].

---

(١) وهي قراءة شاذة، نسبت لابن الأعرج، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٤، الكشف والبيان ١٥/ ٣٩.

(٢) قال الثعلبي: اتصل قول يوسف بقول امرأة العزيز لمعرفة السامعين (الكشف والبيان ١٥/ ٤٤).

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أي: لا أبريء قلبي من الهم الذي هممت، وإنما قال ذلك حين قال: لم أخنه بالغيب، فجاءه جبريل وقال: ولا هممت بما هممت؟ فعند ذلك قال: وما أبرئ نفسي عن الهم[1] ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: ميَّالة إلىٰ الفواحش ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ يعني: إلا النفس التي رحمها ربي بالعصمة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ﴾ متجاوز عما همت ﴿رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ حين عصمني من الزنا.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ وهو ريان بن الوليد ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أجعله من خواصي دون العزيز ﴿فَلَمَّا﴾ دخل عليه ﴿كَلَّمَهُۥ قَالَ﴾ الملك حين استحسن كلامه وكان ابن ثلاثين سنة ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤﴾ أي: ذو قدر ومنزلة.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: اجعل بيدي خراج أهل مصر أربعين فرسخًا في أربعين فرسخًا ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ بتقديره، وقيل: حفيظ لما تحت يدي من المال ﴿عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ بالناس واللغات، علَّمه الله اللغات كلها، لكي يجعله علىٰ خزائن الأرض ويظفر بإخوته، فلبث علىٰ ذلك سنة ونصف، ثم ملك أرض مصر، وقيل: معنىٰ قوله حفيظ عليم حاسب كاسب[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هكذا مكنا يوسف علىٰ أهل مصر بعد ما استعبد وبيع ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أي: ينزل من ولاية مصر حيث شاء ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا﴾ أي: نخص برحمتنا ﴿مَن نَّشَآءُۖ﴾ ونمكِّنه ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: الآخرة ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الدنيا ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ أي: إذا كانوا يتقون الكفر والفواحش.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٤٣، تفسير أبي الليث ٢/ ١٩٧، الكشف والبيان ١٥/ ٤٥.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٥٠.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ من كنعان بعد ما أصابهم القحط ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: علىٰ يوسف ﴿[فَعَرَفَهُمۡ] وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ لا يعرفونه.

قيل: لا يعرفونه لأن الجفوة حجاب عن المعرفة، وكيف يعرفونه وقد ألقوه في الجُب أسيرًا، ولقوه علىٰ السير أميرًا، وعليه طوق من ذهب، وثياب من حرير، ودابة مسرجة مزيَّنة.

فلما كلَّموه بالعبرانية لم يجبهم يوسف، وأراد أن يشبِّه عليهم، وقال لهم بلسان الترجمان: من أين أنتم؟ قالوا: من كنعان، فقال: أنتم عيون بعثكم ملككم إلىٰ مصر تأتونه بالخبر، ثم يأتي ملككم إلينا بالجنود، فقالوا: لا أيها الصديق، ولكنَّا قوم من أرض كنعان، ولنا أبٌ شيخ كبير، وكنا اثني عشر إخوة فهلك واحد منَّا في الغنم، ووجدنا علىٰ قميصه دمًا، وأتينا به أبانا، وهاهنا نحن عشرة إخوة، وخلفنا عند أبينا أخًا من أم الذي قد هلك في الغنم، فسألهم عن الأخ الذي هلك وقميصه والدم الذي عليه، فتشوش كلامهم، فقال يوسف: احبسوهم فإنهم كذبوا وتشوش كلامهم، فتضرَّعوا إليه، فقال: إن كنتم صادقين فأتوا إلي بأخيكم الذي من أبيكم حتىٰ أصدِّقَكُم، ثم أعطىٰ كل واحد منهم وقرًا[1].

﴿[وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ] قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ حتىٰ أعطيكم لأجله وقرا، أي أجرًا ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أوفره ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ المضيقين في المصر.

﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ﴾ علمتُ أنكم كذَّابين ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ أي: لا أبيعكم الطعام ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠﴾ ولا تدخلوا بلادي، وخلفوا عندي بعضكم حتىٰ ترجعوا فأصدقكم، وأبيع لكم الطعام، فاختار عنده شمعون وأطلقهم[2].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ١٩٩.

(٢) نحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ١٩٩.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنطلبه عن أبيه ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ضامنون له بذلك.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ أي: دراهمهم ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾ جواليقهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لرد الدراهم عِفةً وورعًا منهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ والميزان في المستقبل إن لم ترسل معنا أخانا ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ عن الضيعة حتىٰ نرده عليك، وسألهم عن شمعون فقصُّوا عليه القصة، فازداد همه.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: بن يامين ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أعطف بعباده.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: دراهمهم دُسَّت في جواليقهم ﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ «ما» في موضع النصب، يعني أي شيء نطلب وقد رُدَّتْ بضاعتنا علينا، قيل: معناه ما نكذب فيما أخبرناك عن حال ملك مصر ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ تجربة لصِدقنا، فنحن نردُّ الأمانة ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: نجلب لهم الميرة: الأطعمة التي تحمل من بلد إلىٰ بلد ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ بن يامين ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ أي: حمل بعير من الحنطة ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾﴾ أي: يسير أخذه، ولا حس فيه إن كان هو معنا[1].

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تعطوني عهدًا تُشهدون الله علىٰ ذلك ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ ولا تضيِّعوه كما ضيَّعتم

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠١.

أخاه ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: نزل بكم أمر من السماء، ويحال بينكم وبينه بقضاء الله، وقيل: إلا أن تُغلبوا[1] ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهودهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ شهيد علي وعليكم، ثمَّ قبَّله وشم ريحه، ثم سلَّمه إليهم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ أي: لا تدخلوا مصر من باب واحد، وهذه وصية شفقة، لأنه خشي عليهم العين، والعين صحيح، [كان] النبي صلىٰ الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين بكلمات، ويقول: «أعيذكما من كل عين لامة»[2] ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي: سكك مختلفة ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: لا أنفعكم من قضاء الله شيئًا ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما الحكم والقضاء إلا لله، إن شاء حفظك وإن شاء لم يحفظكم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت، وإليه لأموري فوَّضت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: لم ينفعهم من قضاء الله [من] شيء ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يعني: إلا حاجة إنسانية في نفس يعقوب أظهرها، وهو الخوف من العين أو الحسد ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: بتعليمنا إياه علم أنه لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم وعليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أنَّ الحذر لا ينفع من القدر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قيل: حبس إخوته علىٰ الباب واستدعىٰ بن يامين حتىٰ دخل عليه، فوثب إليه واعتنقه ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٣.

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٣٣٧١) من حديث ابن عباس.

وبكىٰ كل واحد منهما بكاءً شديدًا، وقال له ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٩﴾ أي: يعيرونك بيوسف.

ثم أذن للآخرين بالدخول وكلَّمهم ونزلهم منزلاً ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: كال لهم كيلهم وقضىٰ حاجتهم ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ والسقاية: الصواع الذي يشرب فيه يوسف، أمر بأن يُدَسَّ في رحله، ثم أذن لهم بالرحيل فارتحلوا، حتىٰ نزلوا المنزل فرحين مسرورين بما استفادوا من السلامة.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادىٰ منادٍ بأمر يوسف ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ يا أصحاب العير ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ وذكر التأنيث لأن العير جماعة، والرحل هاهنا: الوعاء التي تحمل علىٰ الإبل.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله ذنوبه-: سمعت واحدًا من أهل العلم وكان له مجال في التفسير: أن قوله «إنكم لسارقون» علىٰ لفظ الاستفهام والسؤال، كيلا يكون فيه إضافة الكذب إلىٰ يوسف، ولا إلىٰ مَن أمره بذلك(١).

﴿قَالُوا۟﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ إلىٰ أصحاب يوسف ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾ أي شيء تطلبون؟

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: لا نرىٰ صواع الملك علىٰ مكانه، والفقد: هو غيبة الشيء، والتفقد: الطلب، قيل كان الصواع من [فضة](٢) أو كان من

---

(١) وهذا قول شاذ، خلاف إجماع أهل التأويل، وقد ذكره الرازي (التفسير الكبير ١٨/ ٤٨٧) وابن عادل (اللباب ١١/ ١٦١) وانظر في الجواب عن هذا الإشكال: تفسير السمعاني ٣/ ٤٩، زاد المسير ٢/ ٤٥٧.

(٢) سقط من الأصل.

ذهب ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ من الحنطة، قال الذي ينادي: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ أي كفيل بالحمل لأني اتهمت بالصواع.

﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ يا أهل مصر ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ أي: ما جئنا لنعمل بالمعاصي والسرقة.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾ في مقالتكم.

﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي عقوبته ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ يعني الاستعباد عقوبته، وهو: أن يكون السارق عبدًا له بالسرقة ما عاش السارق والمسروق منه، فن مات المسروق منه عقب السارق عتق السارق، وإن مات السارق قبله فلا شيء عليه[1].

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ أي: هكذا نعاقب السارقين في حكم يعقوب.

﴿فَبَدَأَ﴾ الباعث ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ أي: جواليقهم ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بن يامين ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ يعني السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ والكيد: اتخاذ الشيء في السر.

يعني: صنعنا ليوسف وأكرمناه بالعلم والفهم والحكمة حتىٰ أخذ أخاه بحكمهم وإقرارهم، وقيل: «كدنا» أي: علمناه جزاء كيدهم الذي فعلوا به من قبل[2].

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: لم يكن ليوسف أن يأخذ أخاه في ملك مصر، لأن حكم ملك مصر بخلافه، وهو أن يضرب السارق ويغرم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: في زعم يوسف أن لا يأخذ بحكم ملك كافر، إلا أن يأذن الله

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣.

(٢) والأول هو الذي ذكره ابن جرير في التفسير ١٦/ ١٨٦.

له، ثم شاء الله أن يظهر له في شريعة أبيه ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ أي: فوق كل عالم من هو أعلم منه، حتىٰ ينتهي إلىٰ الله، فلما ظهر ذلك استحيوا ونكسوا رؤوسهم، ولا يدرون ما يقولون، وأقبلوا علىٰ بن يامين بالتوبيخ والتعيير، وقالوا: أما استحييت من الملك قد أدناك وألطفك، أفٍّ لك ولما صنعت.

ثم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أيها العزيز قد أحسنتَ إلينا وأكرمتنا، وهذا الصبي قد فعل بلا علم منَّا، وإنه ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ وكان يوسف في حال صباه سرق صنمًا لجده أبي أمه فكسره، وألقاه في الطريق، وقيل: كان صنمًا من ذهب سُرق من أبي أمه بأمر أمه لكي يُسْلِم أبوها إذا فقد الصنم(١).

وقال محمد بن إسحق: خبأت جدته مِنطقة إسحق في ثياب يوسف، لتملكه بالسرقة في دين يعقوب، محبة لمقامه عندها(٢).

فتغير لون يوسف عند ذلك ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ أي: أسر مقالتهم أو كلمتهم ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ أي: لم يظهر، و﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ فيما صنعتم بيوسف مما وصفتم من وصفتم، لأنه سرق الوثن كيلا يعبد، وأنتم بعتم أخاكم رسول الله ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ أي: تتقولون علىٰ يوسف.

﴿قَالُواْ﴾ حينئذ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ سمُّوه عزيزًا لمكان سلطانه ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ ضعيفًا حزينًا ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ واحبسه هاهنا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ أي: كثيرًا ما أحسنت إلينا.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٩٤، الكشف والبيان ١٥/ ٩٨.

(٢) وهو قول مجاهد كذلك (البسيط ١٢/ ١٩٤).

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: جائرون.

وظاهر الكلام يقتضي أن لا يكون ظلمًا؛ لأنهم رضوا أن يكون واحد منهم مكانه، فكيف يكون ظلمًا برضاهم؟ ولكن قلنا: إنما ارتفع عنه اسم الظلم في المبايعات، فأما في بدل النفس للاستعباد فلا، لأن الحر لا يسترقُّ برضاه.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ يعني: آيسوا أن يرد أخاهم خلصوا نجيًا، خلوا واعتزلوا يتناجون بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في العقل، وهو يهوذا ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي: ضيَّعتم عهد أبيكم ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أرض مصر ولا أزال[1] هنا مقيمًا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالرجوع ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ برد بن يامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱرْجِعُوٓا۟﴾ أنتم ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ بضم السين وتشديد الراء وكسرها، وهي قراءة الضحاك، وهي جيدة جدًا، أي: رُمِي بالسرقة[2].

﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ورأينا الإناء أُخْرِجَ من متاعه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ معناه: كنَّا نحفظه مادام معنا، وكان قد غاب عنَّا فلا نحفظه في الغيبة، ولم نسطع ذلك.

---

(١) في الأصل: أراك، وهو تصحيف.

(٢) أي: سُرِّق، أي اتهم بالسرقة، وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٢١٠، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٥، إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢١٢، الكشف والبيان ١٥/ ١١٠.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ حين أُخْرِجَ الصاع من رَحْلِه، يعنون قرية عين الشمس من قرىٰ مصر، وقيل: هي قرية عريش[١].

﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ أي: عير كنعان ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ في مقالتنا.

فلما أخبروه بذلك ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ أمرت أنفسكم فيه صنيعًا فصنعتموه ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ أي: صبري جميل لا جزع فيه.

قال محمد بن علي الحكيم: الصبر الجميل أن يلقي عنانه إلىٰ مولاه، ويسلم نفسه إليه[٢].

وقيل: سولت لكم أنفسكم أي: أعطيتم لأنفسكم سؤلها أي مرادها.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ بيوسف وابن يامين ويهوذا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمكانهم ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ في ردهم علي.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ أي: أعرض عنهم بوجهه باكيًا، وقيل: خرج من بينهم[٣] ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: واحزنا ويا مصيبتا علىٰ فوت رؤية يوسف، لأن الأسف علىٰ يعقوب، ولم يرد به أسف يوسف ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ والحزن وإن اشتد فلا يؤثر في العين، ولا يورث العمىٰ، ولكن الحزن يورث البكاء، والبكاء يورث العمىٰ ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ يردد حزنه في جوفه.

﴿قَالُواْ﴾ يعني بنوه حين رأوا عليه علامة الهلاك ﴿تَٱللَّهِ﴾ أي: والله، وتبدل التاء من الواو في هذا الاسم خاصة، ولا يقال: تالرحمن ولا تالرحيم، وقد تبدل التاء من الواو في كلمات، يقال: تقوىٰ وأصله وقوىٰ، وتجاه وأصله وجاه،

---

(١) قيل: إن المراد بالقرية مصر، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٦، البسيط ١٢/ ٢١٠.

(٢) في نوادر الأصول للحكيم الترمذي ٢/ ٢٩١ مبحث عن الصبر الجميل، ولم أجد هذا بنصه.

(٣) البسيط ١٢/ ٢١٢.

وتراث وأصله وراث[١].

﴿تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف، وقد حذفوا حرف لا وإنه فيه مضمر، وحرف لا يحذف في القسم خاصة، كقول القائل:

فآليت[٢] آسىٰ علىٰ هالك ... وأسال نائحةً ما لها[٣]

يعني: أقسمت لا آسىٰ علىٰ هالك.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مدنَفًا مريضًا، عن الزجاج[٤].

وقيل: حرضًا، أي: يذيبك الهم، والأصل: أحرضني المرض أي اذابني يحرضني إحراضًا، وهو حرض، وهي حرض، وهم حرض، الوحدان والجمع والمذكر والمؤنث فيه سواء[٥].

قال ابن عباس: هو السل[٦].

﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾ الميتين.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البث: أشد الحزن، يقول: أشكو أمري الذي أنا فيه إلىٰ الله، لا إليكم، والشكوىٰ: صفة ما يجده من البلوىٰ، وكان شكوىٰ يعقوب علىٰ يوسف خوفًا من أن يُفْتَن عن دين آبائه لا لفقده، قال ذلك التستري[٧].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٥١، الكشف والبيان ١٥/ ٨٧.

(٢) في الأصل: فالليث، وهو تصحف.

(٣) البيت للخنساء كما في ديوانها: ١٢٥، وانظر: البسيط ١٢/ ٢١٨، زاد المسير ٢/ ٤٦٤.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٦، تاج العروس ١٨/ ٢٨٦.

(٥) البسيط ١٢/ ٢١٩.

(٦) لم أجده عند غير المصنف فيما وقفت عليه.

(٧) تفسير التستري ٨٢.

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ أي: أعلم من رحمة الله أن يوسف في الإحياء، ويصدق الله رؤياه، ولا تعلمون أنتم ذلك.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسُّس: طلب الشيء بالحاسة، ونظيره التجسس طلبه بالجس[1]، أي: اطلبوا خبر يوسف وأخيه بن يامين ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا من رحمة الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ﴾ أي: يقنط ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ فذهبوا.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ سُمِّي عزيزًا لأنه عز على أهل مملكته، أي: غلب عليهم، مسَّنا أي: أصابنا الجوع ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: قليلة رديئة، لا تؤخذ إلا بالوكس، والإزجاء: هو الإمضاء، وهو ما يوجد من المعاملات مع إغماض وإزجاء، قيل: كان متاعهم الصنوبر سويق المقل، وقيل: كان صوفًا وسمنًا وجبنا، وقيل: كانت دراهم مزيفة، وقالوا: خذها بالدراهم الجياد[2].

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أعطنا من الطعام كما تعطي من الدراهم الجياد ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ بفضل ما بين الثمنين من الورق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ أي: يثيبهم، فلمَّا[3] سأل الصدقة رق عليهم يوسف، ودمعت عيناه، وباح لهم ما كان يكتمه من شأنه.

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ أي: ألقيتم بيوسف في الجب وقصدتم قتله، وشنعتم على أخيه حين خرجت السقاية فعلموا أنه يوسف.

---

(١) البسيط ١٢/ ٢٢٣.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٢٣٤، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٨، البسيط ١٢/ ٢٢٧.

(٣) في الأصل: فإذا، وهو تصحيف تكرر عنده.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ﴾ نعم ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ من أمي ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بأن جمع بيننا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ في الشدة ويخشىٰ، عند المعصية فإنه محسن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ اصطفاك من بيننا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ وقد كنَّا لمذنبين فيما جنينا.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: لا عيب ولا تعيير ولا لوم.

والتثريب: الإفساد والتبكيت[1].

﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ خبر بمعنىٰ الدعاء ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ معناه: أني رحمتكم مع كثرة جفوتكم.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ الذي جاء به جبريل من الجنة إلىٰ الخليل يوم أُلقي في النار، فورثه يعقوب وجعل ذلك في قصبة، وعلقه بعنق يوسف يوم ذهبت به إخوته، فلما[2] أُلقي في الجب نشر جبريل القميص وألبسه إياه[3].

﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ يعني: إذا شمه رجع بصيرًا ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ من كنعان.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي: خرجت من عين الشمس وجد يعقوب ريح القميص من مسيرة ثمانية أيام[4] ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٢٤٧، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٩.

(٢) في الأصل: فإذا، وهو تصحيف تكرر عنده.

(٣) وهذا قول وهب بن منبه، وهو من الإسرائيليات، وقد ذكره عنه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٩.

(٤) وهو مروي عن ابن عباس بإسناد صحيح، كما في تفسير الطبري ١٦/ ٢٤٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٩.

﴿تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ أي: تجهلوني وتسفهوني، والفند: الخرف[١].

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ﴾ أي: والله ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ أي: في جهلك القديم حيث ترجو وجود يوسف، ولم تصدِّق بموته، قيل: هذه مقالة ولد ولده لأنَّ أولاده كانوا غيبًا، وكانوا في العير في طريق مصر.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يهوذا بالقميص ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ بعد عماه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ في تحقيق رؤيا يوسف.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ أي: سل ربنا أن يغفر لنا ذنوبنا ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾ أي: عاصين.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ عند السَّحر في ليلة الجمعة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾ لمن تاب.

ثم ارتحلوا من كنعان وتوجهوا إلىٰ مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمهما ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ قيل: في الآية تقديم وتأخير، يعني: قال ادخلوا مصر ثم آوىٰ إليه أبويه.

وقيل: إنَّ يوسف خرج مستقبِلاً لأبيه مع أهل مملكته، وآوىٰ إليه أبويه يعقوب وراحيل علىٰ قول الحسن وابن إسحاق كانت أمه في الحياة[٢].

وعلىٰ قول الكلبي ومقاتل: قد ماتت أمه، وأبواه: أبوه وخالته وهي زوجة أبيه أيضًا، واسمها لايا[٣].

---

(١) البسيط ١٢/ ٢٤٣.

(٢) ورجحه ابن جرير، لأنه الغالب في استعمال الناس، ولم تأت حجة يجب التسليم لها أنها خالته (تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٦).

(٣) نسبه الواحدي لعامة المفسرين (البسيط ١٢/ ٢٤٨).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ومعه خرُّوا له سُجَّدًا تحية منهم ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا﴾ السجود ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أربعين سنة، وقيل: ثمانون سنة. وقال ابن إسحق: ثماني عشرة سنة(١).

﴿[قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا] وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: وادي كنعان ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: يصلح الأمور بعد فسادها، وقيل: لطيف بيوسف إذ أخرجه من السجن.

قد ذكر الخروج من السجن ولم يذكر الخروج من الجُب كرمًا علىٰ إخوته لئلا يكون لهم خجلاً فيكون تثريبًا، وابتدأ من نزغ الشيطان عن نفسه حيث قال: بيني وبين إخوتي(٢).

(١) وهذه الأقوال مروية في تفسير الطبري ١٦/ ٢٧١، والأول هو المشهور عند السلف.

(٢) قال أبو الليث السمرقندي (في تفسيره ٢/ ٢١١): إنَّ الله تعالىٰ مدح يوسف في هذه السورة، في ثمانية مواضع.
أولها: أن أخوته لما فعلوا به ما فعلوا، صرف العداوة من إخوته إلىٰ الشيطان. فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾.
والثاني: حين راودته المرأة، قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ فعرف حرمة سيده، ولم يهتك حرمته.
الثالث: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ فاختار السجن علىٰ الشهوة الحرام.
والرابع: قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ بعد ما ظهر أن الذنب كان من غيره.
والخامس: لما اعتذر إليه إخوته، قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.
والسادس: أنه بعث القميص علىٰ يد إخوته كما أدخلوا علىٰ أبيهم الحزن في الابتداء، أراد أنْ يُدخلوا عليه السرور، فقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بعباده ﴿ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ بحكمه.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: أعطيتني مُلك مصر ثمانين سنة[١].

ذكر بكلمة «مِنْ» في الملك وعلم الرؤيا لأنه أعطي بعض المُلك وبعض العلم بالرؤيا[٢]، لأن المُلك والعلم كله لله.

وقيل: أراد به الإنابة[٣] عن سائر الأجناس كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[٤].

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي حافظي ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ أي: علىٰ الإسلام ومخلصًا لك بالتوحيد ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ بآبائي الثلاثة: إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وذلك بعد يعقوب، ومات يعقوب قبل يوسف بسنتين، ودُفِنَ يعقوب وعيص ابنا إسحق بالأرض المقدسة، وخرجا جميعًا من بطن أمهما معًا أيضًا، وكان يعقوب قابضًا علىٰ عقبىٰ أخيه، فمن ثمَّ سمي يعقوب.

فلما أتم الله نعمه علىٰ يوسف وأقرَّ عينه بأبيه فتمنىٰ الموت واشتاق إلىٰ ربه، ولم يتمنَّ نبي الموت إلا يوسف[٥]، فقال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى

والسابع: لما لقي أباه، لم يذكر عنده ما لقي من الشدة، وإنما ذكر المحاسن حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

والثامن: لما تمّ أمره، تمنىٰ الموت وترك الدنيا.

(١) وقيل: اثنتان وسبعون سنة (تفسير السمعاني ٣/ ٦٨).

(٢) في الأصل: الرؤيا بالعلم.

(٣) في الأصل: الإيابة.

(٤) البسيط ١٢/ ٢٥٤.

(٥) هذا مروي عن بعض السلف كمجاهد وقتادة، ورواه السدي وابن جريج عن ابن عباس (تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٨).

بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ فنودي: لم يأن لك يا يوسف، وسأفعل ذلك فأراهم الله يوسف في روضة خضراء من رياض الجنة، ثم مات يوسف بأرض مصر ودُفِنَ بها، حتىٰ بعث الله موسىٰ فولي إخراج عظامه[(١)] من مصر ودفنه عند قبر أبيه[(٢)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخل يعقوب وأولاده مصر مع أحفاده وهم ثلاثة وسبعون نفسًا، وخرجوا منها وهم ألف ألف وسبعمائة ألف ونيف[(٣)].

ثم قال لرسوله محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، من خبر يوسف وإخوته وكان غائبًا عنك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: رأيهم في يوسف ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ في إلقائهم إياه في غيابة الجب.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: ما أكثر الناس من كفار مكة مؤمنين ولو حرصت علىٰ إيمانهم.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني أهل مكة علىٰ ما تدعوهم إلىٰ الإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ما هذا القرآن إلا شرف للجن والإنس.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دلالة علىٰ توحيد الله، يمرون عليها ولا يتعظون بها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: عن الاعتبار.

---

(١) في الأصل: عظمه عظامه.

(٢) وهو مروي عن السدي وغيره، انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٢٨٢. وفيه خلاف بين العلماء، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٢، الكشف والبيان ١٥/ ١٧٤، تفسير السمعاني ٣/ ٦٩، معالم التنزيل ٤/ ٢٨٢.

(٣) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٦٨، وعنده عن وهب بن منبه والربيع روايات أخرىٰ، وفي سفر التكوين أنهم: ٦٦ نفسا سوىٰ النساء.

وقال ابن عباس: الآيات مثل انشقاق القمر، وما يمرون عليها هي الأرض بنباتها وأشجارها وبحارها، والسماء بنجومها ورياحها وأنوارها، والغيم وبروقها وإرعادها وأمطارها(١).

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: يعرفون [أن] الله خلقهم وخلق السماوات والأرض ثم يشركون في عبادة الأصنام وغيرها.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ أي لم يأمنوا ﴿مِّنْ﴾ إتيان ﴿عَذَابِ اللَّهِ﴾ مغافصة فيغشاهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، والساعة هاهنا الموت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا﴾ أي: قل لكفار مكة -للوليد وغيره-: هذه سبيلي في أمر ديني ومنهاج رسل الله قبلي، أدعوكم إلىٰ الله وتوحيده علىٰ بصيرة أي: يقين(٢) أنا، لأن الله أكرمني بوحيه، وجعلني رسولاً إلىٰ كافة خلقه ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ علىٰ ديني ومنهاجي هم علىٰ بصيرة أيضًا.

والبصيرة: المعرفة التي يميز بها الحق من الباطل(٣).

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه له وبراءة وطهارة مما يشركون ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ في عباد الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ من الرسل إلىٰ الأمم الخالية ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾(٤) كما أوحينا إليك ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في

---

(١) وهي رواية الكلبي، كما في تنوير المقباس ٢٠٤.

(٢) لعلها هكذا.

(٣) البسيط ١٢/ ٢٦٢.

(٤) في الأصل: يُوحَىٰ بالياء وفتح الحاء، وهي قراءة من سوىٰ حفص، حيث قرأ بالنون وكسر الحاء (النشر ٢/ ٢٩٦).

تجاراتهم ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذِّبة ﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها ﴿لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الكفر والشرك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[1] ثم انتقل فقال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ معناه: فلما آيس الرسل من إيمان قومهم وانقطع رجاهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف والتشديد[2]:

فمن خفَّف: كان الظن بمعنىٰ الشك، والمراد به الكفار، أي: ظن قوم كل رسول أن رسلهم قد كُذبوا، أي: أُخلفوا فيما وعدوا من النصر فحينئذ ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

ومن قرأ بالتشديد: فالظن بمعنىٰ العلم، أي: علم الرسل من قومهم أنهم كَذَّبوا، أي الأنبياء كُذِّبوا بعد التبليغ جاءهم نصرنا[3].

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: نجينا من شئنا من الرسل ومن معهم من المؤمنين من العذاب ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: لا يدفع عذابنا عن القوم المجرمين.

---

(١) في الأصل: يعقلون، بالياء علىٰ الغيبة، وهي قراءة: ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف ، وقرأ أبو جعفر ونافع ويعقوب وابن عامر وعاصم: بالتاء علىٰ الخطاب (النشر ٢/ ٢٥٧).

(٢) قرأ أبو جعفر والكوفيون بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد (النشر ٢/ ٢٩٦)، والخلاف بينهم في هذه القراءة من نوع: خلاف التضاد، وهي أشهر الأمثلة علىٰ هذا النوع من الخلاف، ولذا فقد أطلت الحديث عليه في نوع: أنواع الاختلاف بين القراءات، في كتاب: معرفة علوم القراءات.

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، تفسير الطبري ١٦/ ٢٩٦، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٤، البسيط ١٢/ ٢٦٦، معالم التنزيل ٤/ ٢٨٦، الكشاف ٢/ ٥١٠.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أي: قصة يوسف وإخوته ﴿عِبۡرَةٞ﴾ وقيل: في قصص الأنبياء وهلاك قومهم عبرة عظة[1] ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ والعقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ أي: ليس بخبر كذب مختلق ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: تصديق لما قبله من الكتب من التوراة ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فيه بيان علم كل شيء ﴿وَهُدٗى﴾ لمن طلب الهُدىٰ وآمن به من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ أنَّ هذا الوحي من عند الله.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن أُبي بن كعب عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «علِّموا أرقاءكم سورة يوسف، فأيَّما مسلم قرأها وعلَّمها أهله أو ما ملكت يمينه هوَّن الله تعالىٰ عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة أنْ لا يحسد مسلمًا»[2].

* * *

(١) النكت والعيون ٣/ ٩٠، زاد المسير ٢/ ٤٧٨.

(٢) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٤/ ٤٨٠، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٧٨.

سورة الرعد

مكية، غير آية واحدة، وهو قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية(١)، وهي ثلاثة وأربعون آية(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنا الله اللطيف الملك الرحيم، تلك آيات الكتاب أي: علامات الكتاب هذه الحروف على أن هذا الكتاب عربي مبين بلسان العرب(٣).

قال الضحاك: عنى بآيات الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن الصدق الذي لا شك فيه ﴿ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أي: لا يصدِّقون بالقرآن أنه منزَّل من عند الله.

ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ معناه: الذي أشركتم به هو الله الذي رفع السماوات من الأرض في مسيرة خمسمائة عام.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لا عمد لها كما ترون. والثاني: أنه خلقها بعمد لا ترونها، وهي قدرة الله(٤).

---

(١) الكشف والبيان ١٥/ ١٩٩، وقيل إنها مدنية: زاد المسير ٢/ ٤٧٩.

(٢) البيان في عد القرآن ١٦٩.

(٣) وهو مروي عن ابن عباس وبعض تلاميذه، انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٣٢٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٥، تفسير السمعاني ٣/ ٧٥، زاد المسير ٢/ ٤٧٩.

(٤) الأول قول قتادة وإياس بن معاوية، والثاني قول ابن عباس وطائفة من أصحابه، ورجحه ابن جرير (تفسير الطبري ١٦/ ٣٢٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٥، البسيط١٢/ ٢٨٢).

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ قال ا بن عباس: أمره علىٰ عرشه فوق بريته[١]، وقيل: استوىٰ عنده القريب والبعيد ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ ﴾ أي: ذللهما بقدرته ﴿ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ إلىٰ منتهىٰ ينتهي إليه ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ بحكمته في الليل والنهار ﴿ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ يبيِّن العلامات الدالة علىٰ قدرته ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾ .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ خلقها وبسطها علىٰ وجه الماء ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ الجبال الثوابت ﴿وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ يعني خلق أنهارًا ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من أنواع الثمار ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ حلوًا وحامضًا، وأبيض وأحمر، ومن كل نوع زوجًا ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ ﴾ يغطي ظلمة الليل ضوء النهار، وبضوء النهار ظلمة الليل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من صُنعه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: علامات ودلائل علىٰ وحدانيته ﴿ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ في صنعته.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ﴾ أمكنة ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ أي: متلاصقات، وقيل: متقاربات[٢]، السبخة والطيبة، وقيل: سبخة ردية تحتها أرض طيبة جيدة[٣].

---

(١) لم أجده عن ابن عباس بهذه اللفظ، وما ينقله المصنف عن ابن عباس مما ليس في الأصول يكون غالبا من روايات الكلبي ومقاتل عنه، علىٰ أن الذي في تفسير الكلبي (كما في تنوير المقباس ٢٠٥): كان الله علىٰ العرش قبل أن رفع السماوات، ويقال استقر، ويقال امتلأ به، ويقال استوىٰ عنده القريب والبعيد علىٰ معنىٰ العلم والقدرة.

قال ابن جرير والثعلبي: أي علا عليه (تفسير الطبري ١٦/ ٣٢٥، الكشف والبيان ١٥/ ٢٠٦)، وقد سبق التنبيه علىٰ ذلك فيما مضىٰ.

(٢) والمعنىٰ واحد: أي متدانيات متقاربات، يقرب بعضها من بعض بالجوار، وتختلف بالتفاضل، فمنها عذبة ومنها مالحة، ومنها طيبة تنبت ومنها سبخة لا تنبت، الكشف والبيان ١٥/ ٢٠٨.

(٣) تحتها: أي إلىٰ جنبها، وهذا المعنىٰ مذكور في كتب التفسير، انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٣٣٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٦، تفسير السمعاني ٣/ ٧٦، زاد المسير ٢/ ٤٨١.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: من الكروم ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ والصنوان: جمع صنو وهي النخل التي تكون أصلها واحد وعليها نخلتان أو أكثر[1] ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾[2] أي: ماء المطر وغيره ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر والطعم تزيد حلاوة بعضها على بعض ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: علامات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ أمر الله تعالىٰ.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيبهم إياك مع صدقك وأمانتك ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ من إنكارهم البعث.

والعجب: تغير النفس بما خفي سببه، وذلك العجب منهم أن قالوا ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ نُبعَث بعد الموت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ﴾ قيل: إن الغل يكون في يمين الكافر مجموعة إلىٰ عنقه، ويده اليسرىٰ تكون من وراء ظهره، وقد صفد ما بين قرنه إلىٰ قدمه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل العفو، أي: لا يسألون العفو، نزلت في النضر بن الحارث كان يقول: وددنا أن نرىٰ العذاب الذي تخوفنا يا محمد، عجله لنا[3].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ﴾ أي: مضت العقوبات في الأمم الماضية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾ أي: يتجاوز عنهم مع شركهم إذا تابوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ لمن لم يوحده ومات مشركًا.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٣٣٥، البسيط ١٢/ ٢٨٩.

(٢) في الأصل: تسقىٰ، بالتاء، وهي قراءة من سوىٰ يعقوب وابن عامر وعاصم (النشر ٢/ ٢٩٧).

(٣) وهي رواية مقاتل، كما في تفسيره ٢/ ١٦٨، والكشف والبيان ١٥/ ٢١٦، ٢١/ ٧٧.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمحمد والقرآن ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: هلاَّ أنزل عليه ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ علامة لنبوته قل يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مخوف بالنار لمن لا يؤمن بك ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ وداعٍ يدعوهم إلىٰ الهُدىٰ من الأمم السالفة، وهو نبيهم، كما تدعو أنت يا محمد.

ثم قال ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ في رحمها من ذكر أو أنثىٰ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ الغيض هو ذهاب المائع عن مكانه ونقصانه، قيل: أراد به ما ينقص الأرحام عن تسعة أشهر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ علىٰ تسعة أشهر في الحمل.

وقيل: الغيض أن ترىٰ المرأة الدم في الحبل فينتقص[(١)] به الولد، والزيادة إذا لم يهرق دمها في الحبل فتم الولد وعظم[(٢)].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ من العد[(٣)] والأجل.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: ما غاب عن العباد، والشهادة: ما علمه العباد ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ فوق كل شيء بقدرته وسلطانه، وعلا عمَّا وصفه الجُهَّال[(٤)].

---

(١) في الأصل: فينتقض، بالضاد المعجمة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٠، النكت والعيون ٣/ ٩٦، زاد المسير ٢/ ٤٨٤. والذي عليه جمهور أهل التأويل -ولا يكادون يختلفون فيه- أن غيض الأرحام من حملها في الأشهر التسعة إرسال دم الحيض، وما تزداد فيحملها علىٰ الأشهر التسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض، فالغيض دون التسعة، والزيادة فوقها، ثم قالوا: إن هذا يؤثر علىٰ الولد زيادة ونقصانا، فإذا لم تهرق الدم عظم وتم (تفسير الطبري ١٦/ ٣٦٠، البسيط ١٢/ ٣٠١).

وفي الآية ليل علىٰ أن الحامل قد تحيض، وإليه ذهب الشافعي (الكشف والبيان ١٥/ ٢٢٤).

(٣) في الأصل: العدو.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٣٦٦، الكشف والبيان ١٥/ ٢٢٩.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: مستوٍ عنده وفي علمه من أسر القول منكم، أي: أضمرها وأخفاها ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أعلنه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مستتر في الظلمات ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ أي: سائر ظاهر معلن.

والمعنىٰ: أن الله يعلم الإنسان في تصرفات أحواله، لا يخفىٰ عليه مستتر[١] ولا يزداد المعلن عنده ظهورًا، فوجب أن يحذر من هذه صفته[٢].

ثم قال ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: ملائكة يعقُب بعضهم بعضًا، ملائكة الليل وملائكة النهار يتعاقبان في حفظ بني آدم قدامه ووراءه[٣] ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الجن والهوام.

وقال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير، معناه يحفظونه من بين يديه ومن خلفه بأمر الله تعالىٰ[٤].

ذكر المعقبات ثم قال ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: يحفظنه، والمعقبات مثل المرسلات والنازعات والصافات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من نعمة وأمن ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ترك الشكر فيغير ما بهم من النعمة، والتغيير من جهة العبد بمعاصيه[٥].

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عذابًا وهلاكًا بما جنوا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: لا راد لقضائه ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ أي: ليس له من دون الله مانع يمنعهم من العذاب وملجأ يلجؤون إليه.

---

(١) في الأصل: مستقر.

(٢) البسيط ١٢/ ٣٠٤.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٣٦٩، البسيط ١٢/ ٣٠٧.

(٤) لم أجده في تفسيره ٢/ ١٧٠، ونحوه في الكشف والبيان ١٥/ ٢٤٦.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٣٨٣.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا للمسافرين وطمعًا للمقيمين ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ بما فيها من المطر[١].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وهو مَلك يسوق السحاب يسبِّح بحمده، بما فيه من الدلالة علىٰ تعظيم الله، وهو القول المختار[٢].

وقيل: إن في الرعد وهوله تنزيهًا لله تعالىٰ عن الشرك وتعظيمًا له.

وقال ابن عباس: أقبلت اليهود إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد، ما هو؟ قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من النار، يسوق به السحاب إذا زجره حتىٰ ينتهي إلىٰ حيث أمر، قالوا: صدقت[٣].

وقال أنس بن مالك: البرق والرعد وعيد لأهل الأرض، فإذا رأيتم ذلك فكفوا عن الحديث وعليكم بالاستغفار[٤].

وقوله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ يعني: وتسبح الملائكة لله من خيفته، ميَّز بين الملائكة والرعد كما ميز بين جبريل وميكائيل والملائكة[٥].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٣٨٧.

(٢) وعليه عُظم أهل التأويل، انظر الروايات عنهم في تفسير الطبري ١/ ٣٤٠.

(٣) رواه أحمد ٢٤٨٣، والترمذي ٣١١٧، والثعلبي في الكشف والبيان ١٥/ ٢٤٩، من طريق بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو حديث منكر، تفرد به بكير، وهو نكرة، فلو كان عند سعيد بن جبير لرواه عنه أصحابه، فإنه مما يحتاج إليه، ولا سيما في التفسير.

(٤) روىٰ مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٢) عامر بن عبد الله بن الزبير، أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته»، ثم يقول: «إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد».
فقد يكون ما وقع في الأصل تصحيف صوابه: روىٰ مالك بن أنس، والله أعلم.

(٥) تفسير الثعلبي ١٥/ ٢٥٣.

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ العذاب المهلك، وقيل: نار لا صوت فيها ولا دخان ﴿فَيُصِيبُ بِهَا﴾ أي: بالصاعقة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيحرقه، كما أحرق بها أربد بن قيس، وكان أربد بن قيس وعامر بن الطفيل العامريين قدما المدينة، وسألا رسول الله: أخبرنا من أي شيء إلٰهك، وهمَّ أربد بقتل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فنزلت نار فأحرقته، وهرب عامر فطعن في خنصره فمات بها(١).

رواية(٢): ودعا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «اللهم اكفني عامرًا واهد بي بني عامر».

وقيل: نزلت ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جوابًا لقولهما، وأخذت الصاعقة أربد وسلَّط الله الطاعون علىٰ عامر في بيت امرأة سلولية، فجعل يقول عند النزع: يا آل عامر، قتيل بغير سلاح، غُدة كغدةِ البعير وموت في بيت سلولية(٣).

﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ وجدالهم ما قالوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: مِنْ أي شيء إلٰهك؟(٤).

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٦/ ٣٩٣ عن ابن جريج وعبد الرحمن بن زيد، ورواه الثعلبي من طريق الكلبي عن ابن عباس (الكشف والبيان ١٥/ ٢٤١)، وذكره ابن كثير في التفسير ٤/ ٤٤٤ من حديث عطاء بن يسار عن ابن عباس، رواه الطبراني، وفيه علة.

(٢) في الأصل: راوية.

(٣) صدر المصنف عن تفسير مقاتل ٢/ ١٧١، وانظر: الكشف والبيان ١٥/ ٢٤٤. وأصله في صحيح البخاري (٢٨٠١) دون ذكر سبب النزول.

(٤) روىٰ ابن جرير في تفسيره ١٦/ ٣٩٢ : بإسناد فيه ضعيف، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: بعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم مرةً رجلا إلىٰ رجل من فراعنة العرب، أن ادْعُه لي، فقال: يا رسول الله، إنه أعتىٰ من ذلك، قال: اذهب إليه فادعه، قال: فأتاه فقال: رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يدعوك، فقال: مَنْ رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ قال: فأتىٰ الرجل النبي صلىٰ الله عليه وسلم فأخبره، فقال: ارجع إليه فادعه، قال: فأتاه فأعاد عليه وردَّ عليه مثل الجواب الأوَّل، فأتىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم فأخبره،

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾ والمحال: الكيد والمكر والعقوبة، وأصله: الحيلة، يقول الرجل: ماحلتُ فلانًا إذا قاويته ليظهر أيُّنا أقوىٰ[(١)].

وعن الحسن: هو شديد المحال إذا محل أي أهلك[(٢)].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: دين الحق وكلمة الإخلاص ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يجيبون الكفار بشيء ينفعهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ يعني كمادٍّ كفيه إلىٰ الماء فيدعو الماء ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ الماء إلىٰ شفته ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: كما أنَّ الماء لا يبلغ إلىٰ فمه كذلك الصنم لا يجيب داعيه.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤﴾ أي: ما عبادة الأصنام إلا ضلال بعيد عن الحق.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: يصلي ويطيع ويخضع ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فأهل السماء من الملائكة طوعًا، وكذلك المؤمنون من أهل الأرض، الذين ولدوا في الإسلام.

وكرها: المنافقون ومن أجبر علىٰ الإسلام فأسلم كرهًا[(٣)].

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: يسجد ظلالهم ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي: من أول النهار إلىٰ انتصاف النهار ﴿وَٱلْءَاصَالِ ۩ ۝١٥﴾ إذا زالت الشمس إلىٰ غروبها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن أجابوك وإلا ﴿قُلِ ٱللَّهُ قُلْ

فقال: ارجع إليه فادعه، قال: فرجع إليه، فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما، إذ بعث الله سحابة بحيالِ رأسه فرَعَدت، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقِحْفِ رأسه، فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾.

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٣، تفسير الطبري ١٦/ ٣٩٧، البسيط ١٢/ ٣١٨.

(٢) رواه الطبري في التفسير ١٦/ ٣٩٦.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٤٠٣.

﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أربابًا من الأصنام بعد ما عرفتم أنَّ الربوبية لله في الأرض والسماء.

والأصنام ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ فكيف يملكون الكفر والإسلام ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أم بمعنىٰ بل جعلوا لله شركاء ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ أي: الأصنام، يعني: أخلق الأصنام كخلقي[1] شيئًا ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فتشابه عليهم خلق الله من خلق غيره، ولا يتميزون بينهما فيعبدوه ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ الذي لا شبيه له ولا شريك.

ثم ضرب للحق والباطل مثلاً[2]، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وهو القرآن كإنزال المطر ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أولو اليقين علىٰ قدر يقينهم، وأولو الشك علىٰ قدر شكهم، والأودية مثلٌ للقلوب ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ فالسيل الأهواء احتملها القلوب، والزبد الرابي ما علا في وجه الماء علىٰ الأرض، معناه: احتمل السيل في الأودية زبدًا عاليًا طافيًا علىٰ وجه الماء، فإذا نظر في آيات الله وتدبر فيها استبان لهم الحق وذهبت الشكوك، كالماء إذا سكن وضربته الريح يصفو وجه الماء، ويذهب الزبد، فهذا مثل واحد[3].

ثم ذكر مثلاً آخر فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾[4] أي: توقدون علىٰ جواهرها مثل الذهب والفضة.

---

(١) في الأصل: كخلق.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٠٨.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٤٠٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٢، البسيط ١٢/ ٣٣١.

(٤) في الأصل: توقدون، بالتاء، وهي قراءة الحرميين والبصريين والشاميين وشعبة، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالياء (٢/ ٢٩٨).

ثم ثلَّث في المثل[١] فقال: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ من جواهر الأرض من الحديد والنحاس والرصاص، له ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ والحلية: ذهب وفضة وخبثه[٢] مثل خبث الماء وزبده[٣].

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يبيِّن الأمثال للحق والباطل، فمثل الحق مثل الماء الصافي والذهب الصافي والرصاص الصافي، والباطل مثله الزبد وخبث الحديد وخبث الرصاص.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ والخبث ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ متلاشيًا، لا ينتفع به، كذلك الباطل يذهب ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وهو الماء الصافي والذهب الصافي ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لينتفع به، كذلك الحق، ثم قال ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ بالتوحيد ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ اشتروا به أنفسهم ما تُقُبِّل منهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا تُقْبَل حسناتهم ولا يتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٨﴾.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ إنه الحق مثل عمار بن ياسر ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عن الحق مثل أبي جهل ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتعظ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾.

ثم وصفهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الإيفاء: هو جعل الشيء على مقدار من غير زيادة ولا نقصان[٤].

---

(١) المثل الثاني: الذهب والفضة، والمثل الثالث: المتاع، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٣.

(٢) في الأصل: وحيث مثل حيث.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٥، وقال: والذي يوقد عليه في النار ابتغاء حلية: الذَّهَبُ والفِضةُ، والذي يوقد عليه ابتغاء أمْتِعة الحديدُ والصُفْر والنحاس والرصاص.

(٤) المفردات ٢/ ٨٧٨.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ الذي أُخذ عليهم في عهد آدم، وقيل: الفرائض الذي فرض عليهم[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يعني: صلة الأرحام، وقيل: صلة الإيمان بالرسل[(٢)] ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ بنقض العهد فلا ينقضونها ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ شدة العذاب.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ أداء الفرائض والمصائب واجتناب المحارم ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ طلب مرضاته ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون الهجر والأفحاش عن أنفسهم بالعفو، أو حُسن الكلام، وقيل: بكلمة التوحيد الشرك[(٣)] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ الجنة في الآخرة.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ أي آمن من آبائهم ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ نسائهم ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ أولادهم ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ بإذنهم مع التحق من الله.

يقولون ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: سلامة لكم وسعادة من الله لكم ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ علىٰ أمر الله ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ أي: نعم الدار التي عقبتم بالدار التي هاجرتم منها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ الذي أخذه عليهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ توكيده وتغليظه ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الإيمان ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعملون فيها بالمعاصي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ العذاب ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ

---

(١) زاد المسير ٢/ ٤٩٢.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٠.

(٣) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٤٩٢ خمسة أقوال في ذلك، ترجع كلها إلىٰ أنهم يدفعون بالحسن الجميل السيءَ القبيحَ.

قال ابن زيد: يدفعون الشر بالخير لا يكافئون الشر بالشر (تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٢).

﴿ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ وهي النار.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسع على من يشاء﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ وربما يبسط على الكافر استدراجًا ويقدر على المؤمن امتحانًا ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: سُروا بالحياة الدنيا وزينتها وزهرتها ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بجنب الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ ۝٢٦﴾ منفعة يسيرة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ عن دينه ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ۝٢٧﴾ رجع إليه بالتوبة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بوعد القرآن ووعيده، وقيل: بما ضمن الله من الرزق[1].

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ للمؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ۝٢٩﴾ طوبى: عيش طيب، وقيل: شجرة في الجنة[2].

ومعناه في كلام العرب: بلوغ الأمنية إذا قيل طوبى لفلان أي قد بلغ أمنيته. وحُسن مآب: الجنة.

قال ابن عباس: طوبى شجرة في الجنة ساقها من ذهب، الورقة[3] منها

---

(١) المشهور أن المراد بذكر الله المتبادر المعروف من هذا اللفظ، وهو ذكر الله عز وجل باللسان أو القلب، وعليه المفسرون، قال قتادة: سكنت إلى ذكر الله واستانست به (تفسير الطبري ١٦/ ٤٣٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٦).
وقال الماوري (في النكت والعيون ٣/ ١١٠): «يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: بطاعة الله. الثاني: بثواب الله. الثالث: بوعد الله تعالى لهم» وهذا الذي ذكره كله من لوازم ذكر الله.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٨، النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٣) في الأصل: الورق.

تغطي الدنيا كلها، ليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن من أغصانها[١].

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ [فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ]﴾ أي: كما أعددنا النعمة لأهل الجنة في الجنة فكذلك أرسلناك نعمة إلىٰ أمتك بالرسالة ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ من القرآن ﴿وَهُمۡ﴾ يعني أهل مكة ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ يقولون: لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ أي الرحمن ربي ومالكي الذي أعبده ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق الألوهية إلا هو ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ وثقت في أمري ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ مرجعي ومصيري[٢].

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ قيل: إن أهل مكة قالوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: إن كنت نبيًا فسل ربك أن يسيِّر جبالنا حتىٰ تتباعد عنَّا فلا تؤذينا بحرها وغمها، وإن لم يفعل ربك هذا فسله أن يُحيي به ميتًا من جملة موتانا حتىٰ يخبرنا أن ما جئت به حق، وليكنْ ذلك جبير بن عدي فإنه أصدق البرية عندنا، فنزلت الآية[٣].

ولو أنَّ كتابًا من كتب الله: قرآنًا، سُيِّرت به الجبال عن أماكنها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: قصرت بسببه المسافة البعيدة فيطوي به الطرق ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ أي: أحيي به الموتىٰ حتىٰ تكلم، وهو متروك الجواب، ومعناه: لكان هذا الكتاب[٤].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٦، وهو من تفسير الكلبي (تنوير المقباس ٢٠٨).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٤٦.

(٣) الذي في تفسير مقاتل ٢/ ١٧٧ -وعنه الثعلبي في الكشف والبيان ١٥/ ٢٩٨- أنَّ أبا جهل قال: ابعث لنا قصي بن كلاب فإنه كان صدوقا.
وفي تفسير الطبري ١٦/ ٤٤٧ عن ابن عباس من طريق العوفي وابن جريج نحوه، وعن مجاهد وابن كثير المقرئ.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٤٤٨، الكشف والبيان ١٥/ ٣٠٠.

وقال الزجاج: معناه: جوابه أنهم لم يؤمنوا[١].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي: الحكم كله لله إن شاء فعل ما سألتم، وإن شاء لم يفعل.

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: المؤمنون من إيمان هؤلاء أنهم لا يؤمنون[٢].

وقيل: أفلم ييأس الذين آمنوا أي: لم يعلم الذين آمنوا، واليأس بمعنىٰ العلم بلغة حي من نخع[٣].

قال الشاعر:

أَلَمْ يَيأَس الأقوامُ أنّي أنَا ابنه وإنْ كنت عن أرض العَشيرةِ نَائيا[٤]

المعنىٰ: ألم يعلموا.

﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ الهدىٰ لجميع خلقه لهداهم ﴿[لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ] وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمحمد والقرآن ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي: عقوبة وعذاب وغارات بسراياك يا محمد ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ أنت يا محمد ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أي: بفنائهم بنفسك مع عسكرك ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ فتح مكة، وقيل: البعث[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ أي: إنه وعد إظهار دينك علىٰ الأديان ولا يخلف وعده.

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٤٨.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٧، تفسير السمعاني ٣/ ٩٤.

(٣) وهو قول الكلبي، كما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٤، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٥١، والكشف والبيان ١٥/ ٣٠٠.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٦/ ٤٥٠، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٩.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٤٥٧.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ كما يستهزؤون بك ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾ أي: أمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ أي: عقوبتي لهم.

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ أي: قائم بتدبيره، وجزاؤه بما كسبت نفسه حافظ له قادر عليه، وجوابه محذوف معناه: كمن ليس بقائم على هذه الصفة(١).

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ من الأصنام ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ أي: صفوا أصنامكم إنهم فعلوا فعلة، أو خلقوا خلقة، أي خلق ذلك ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ أي: بما ليس ذلك، لأنكم تجعلون له شريكًا وليس له شريك، وهذا لا يوجِب نفي العلم عن الله تعالىٰ ولكن يوجب نفي المعلوم، كما يقول الرجل: لا أعلم لنفسي شريكًا في داري، هذا يوجب نفي الشركة لا نفي العلم، وحرف «أم» إذا لم يسبقه استفهام كان الميم فيه صلة، كقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾.

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ يعني: بل بباطل من القول، وهو ما يُلقىٰ(٢) خلف الظهر ولا يعلم به من الكلام(٣).

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: شركهم وسوء فعلهم ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي: خذلوا وصرفوا عن دين الله ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله عن دينه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ أي: مرشد إلىٰ دينه.

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بالقتل يوم بدر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في النار ﴿أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم﴾ من عذاب الله ﴿مِّنَ وَاقٖ ٣٤﴾ أي: دافع(٤).

---

(١) البسيط ١٢/ ٣٥٩.

(٢) في الأصل: يلتقي، وهو تصحيف فيما يظهر.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٥، البسيط ١٢/ ٣٦١.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٩.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: صفة الجنة ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الموحدون.

قال سيبويه: فيما أقص عليكم مثل الجنة(١)، وقيل: مثل الجنة التي وعد المتقون جنات(٢).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تحت أشجارها الأنهار ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أيضًا دائم، لا شمس فيها ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي: آخر منزل المتقين هذه الجنة ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ۝٣٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علم التوراة، عبد الله بن سلام وأصحابه(٣) ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهم اليهود والنصارىٰ أنكروا بعث رسول الله، وصفة الإسلام ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ غيره كما أشركتم، إلىٰ الله أدعو الخلق ﴿[إِلَيْهِ أَدْعُوا] وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝٣٦﴾ أي: مرجعي في الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن من اللوح المحفوظ، ووجه التشبيه في الآية: أنه شبه إنزاله ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ بإنزاله كتابًا بيِّنًا، إنعامًا ومِنّة.

وقوله ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: محكمًا بلغة العرب(٤).

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: عملت بمرادهم ورجعت إلىٰ دين آبائك ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: البيان أن الحق معك: وهو الإسلام؛ والكعبة قبلة ﴿مَا لَكَ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي قريب ينفعك ﴿وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾ يقيك من عذاب الله، خاطب رسول الله خطاب الأمة، والله أعلم.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٩.
(٢) فعلىٰ هذا هو من المتروك جوابه.
(٣) الكشف والبيان ١٥/ ٣١١.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٠.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ مثل ما أعطيناك أو أكثر ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: الرسول لا يأتي بآية ولكن الله يأتي بها إذا شاء، وذلك أنهم سألوا رسول الله آيةً فنزلت الآية[1].

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ أي: لكل كتاب أجل إذا كتب في اللوح المحفوظ.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يمحوه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء أن يثبته.

قال الضحاك: يمحو الله ما يشاء من أيدي الحفظة، ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب[2].

وقال سعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من اللوح إلا السعادة والشقاوة والرزق والأجل[3].

وقيل: يمحو الله أن ينسخ الله من القرآن ما يشاء ويثبِّت ناسخًا ما يشاء.

وقال الصادق: الكتاب الذي فيه سعادة وشقاوة لا يزاد فيه ولا ينقص، كقوله عز وجل: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ أي: اللوح المحفوظ.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ نخوِّفهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: نُميتك قبل أن نعذبهم ولا نريك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: التبليغ وعلينا الحساب الجزاء.

---

(١) وهذا قول الكلبي، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٠.

(٢) الكشف والبيان ١٥/ ٣١٦، منسوبا للضحاك وأبي صالح، وهو مروي عن ابن عباس (تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٨).

(٣) الكشف والبيان ١٥/ ٣٢٠، وفي تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٧ عن سعيد بن جبير من روايته عن ابن عباس.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: يعتبر أهل مكة ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ أي: نفتحها ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ونواحيها أرضًا بعد أرض، عربية مرة، وفدك مرة، وخيبر مرة[١].

وقيل: ينقصها بموت علمائها وفقهائها، فلا يخاف أهل الأرض أن يصل النوبة إليهم[٢].

قال الحدادي رحمه الله تعالىٰ: ألا ترىٰ أيها الشيخ أن النقصان قد دخل في أطرافك، وظهر الوهن في أعضائك، أما تخاف أن تصل النوبة إلىٰ روحك.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: يقضي ولا مبدل لقضائه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل كفار مكة بأنبيائهم كما مكروا بك ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: إنفاذ المكر ورده بالله، وقيل: عقوبة مكرهم عند الله.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ برة أو فاجرة من خير أو شر ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي الجنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يا محمد ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بأني رسوله ولا شاهد أكبر منه ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كفىٰ شهادة من عنده علم الكتاب، التوراة والإنجيل.

وفيهما بعث رسول لله ومخرجه ومولده ومنشأه، وخاتمه، وهجرته، وأمته.

قيل: هو عبد الله بن سلام ويامين بن يامين[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٣، الكشف والبيان ١٥/ ٣٢٥.

(٢) وهو رواية عطاء عن ابن عباس ١٦/ ٤٩٧.

(٣) في الأصل مصحف، صورته: ويامنن ريامنن.

قال مؤلفه عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الرعد أُعطي من الأجر بوزن كل سحاب مضىٰ وكل سحاب يكون إلىٰ القيامة عشر حسنات، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل»(١).

❁ ❁ ❁

وروىٰ الطبري ١٦/ ٥٠١ عن عبد الله بن سلام قال: فيَّ نزلت هذه الآية. فيحتمل أن تكون هذه الآية مدنية.

قال الواحدي (في البسيط ١٢/ ٣٨٩): وأنكر سعيد بن جبير أن يكون عبد الله بن سلام من هذه الجملة، لأن السورة مكية، وإسلامه كان بعد هذه السورة.

وأما يامين بن يامين فلا يعرف في الصحابة إلا من رواية الكلبي ومقاتل (تفسير مقاتل ١/ ١٠٩، الإصابة ٦/ ٥٠٢).

(١) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٥/ ٢٠٠، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٧٩.

سورة إبراهيم عليه السلام

مكية، غير آيتين، قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ بالمدينة نزلتا[1]، وهي اثنتان وخمسون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ معناه: أنا الله أرىٰ، كتاب أنزلناه: أي هذا الكتاب، وكتاب مرفوع لأنه خبر ابتداء محذوف، يعني: هذا[3].

وقوله ﴿الٓر﴾ هي حروف، وليس للحروف إعراب، وإنَّما الإعراب للكلمات.

قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أنزلنا جبريل به إليك ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لتدعوا الناس ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يعني الإيمان، سمىٰ الكفر ظلمة لأن الكافر يتحير فيه حتىٰ لا يرىٰ وجه الخروج، كمن بقي في ظلمة.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ يعني: إلىٰ دين الرب العزيز بالنقمة[4] عمن لا يؤمن، المحمود في أفعاله.

---

(١) لم يستثن الثعلبي في الكشف والبيان ١٥/ ٣٤٩، واستثنىٰ الداني في البيان ١٧١، وابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٥٠٣، وذكرا أن الاستثناء في الآيتين مروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة.

(٢) البيان للداني ١٧١. وفيه: في البصري خمسون آية، وآيتان في الكوفي، وأربع في المدني، وخمس في الشامي.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٣.

(٤) في الأصل: بالنعمة، وقد مر علىٰ الصواب.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الخلق والعجائب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لم يصدقوا الكتاب والرسول ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ ينزل بهم في الآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ أي: يختارون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ونعيمها، الباقية ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن دين الله ومتابعة رسوله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون بالإسلام زيغًا وطريقًا غير مستقيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ أي: خطأ بعيد عن الحق.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم، وحّدَ للسان وأضافه إلىٰ القوم لأنَّ المراد به اللغة، واللغة اسم جنس[1].

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الحلال والحرام ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلانه ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ أي: عزيز لأن كل الخلق مفتقرون إليه أذلاء، حكيم في جميع أفعاله.

وتلخيص الآية: إنَّا أرسلنا الرسل للإنذار وليس لهم الهداية والإضلال ولكنها من الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع، ولام لقد للقسم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي: قلنا له أخرج قومك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الكفر إلىٰ الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: خوِّفهم بعقوبات الله لمن مضىٰ من الأمم ليحذروا، وقيل: أيام الله ما كان لهم من الشدة والرخاء حين كانوا في عبودة القبط مرة وفي رخاء من نعم الله أخرىٰ[2].

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥١٦، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤.

(٢) الذي عليه عظم أهل التأويل أن المراد بأيام الله: نعم الله، وروي ذلك عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم من وجه لا يثبت (تفسير الطبري ١٦/ ٥٢٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأيام ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ أي: عبرات لكل من صبر علىٰ طاعة الله وشكر نعمته.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ﴾ عبودة ﴿آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يكلفونكم، ثم بين ذلك فقال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ صغارًا ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يتركون بناتكم للخدمة.

وقيل: ذكر الواو هاهنا وأسقطها في سورة البقرة ليعلم أنَّ ذبح الأبناء واستخدام النساء هاهنا فعل آخر غير ما يسومونهم[1] ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: قال ربكم، وقيل: أمر ربكم، وقيل: أسمع ربكم العباد[2] ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: إن شكرتم نعمتي بالرزق وصحة الجسم لأزيدنكم النعم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ النعم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ لمن كفرها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من سكانها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن إيمانكم ولا ينقص من ملكه شيء ﴿حَمِيدٌ ۝٨﴾ يقبل اليسير مع غناه.

وأما أهل المعاني والتفسير اللغوي فقالوا: المراد: خوفهم بأيام عاد وثمود وأشباههم بالعذاب (معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٨، البسيط ١٢/ ٤٠٤).

وليس قول أهل المعاني بمعارض لقول أهل التأويل، فإنَّ من ذكَّر بالنعم فقد عرض بالعقوبة، إلا أن ختم الآية يشهد لأهل التأويل، فإنَّ النعم علىٰ بني إسرائيل جاءت بعد صبر، وهي تحتاج لدوامها إلىٰ الشكر، فتأمل تجد أن أهل التأويل أدرىٰ وأعلم.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٨، البسيط ١٢/ ٤٠٦.

(٢) البسيط ١٢/ ٤٠٧.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خبرهم وهم قوم نوح كيف فعلنا ﴿وَعَادٍ﴾ قوم هود ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من سائر الأمم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكثرة عددهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالأمر والنهي ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: وضعوا أصابعهم علىٰ أفواههم وقالوا للرسول: اسكت لا سكتَّ، وقيل: عضوا علىٰ أناملهم تغيظًا عليهم في دعائهم، وقيل: كناية عن التكذيب(١).

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ من التوحيد ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ ظاهر الشك أي: شك مع شك ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: في توحيده شك، وهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ خالقهما، يدعوكم إلىٰ توحيده ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم، و«مِن» صلة، كقوله ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: منتهىٰ آجالكم ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ آدمي شبهنا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ أي: تصرفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: حجة ظاهرة علىٰ دعواكم.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين لهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ما نحن إلا آدميون كما زعمتم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيختاره للرسالة ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ بحجة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: يثق الواثقون المصدِّقون.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: نثق بالله ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أكرمنا بإرشادنا إلىٰ ديننا ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ من التكذيب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٦، زاد المسير ٢/ ٥٠٥.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ فليثق الواثقون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ الملة والطريقة والسيرة واحدة، يعني: إلاَّ أنْ تعودوا في ديننا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾ الكافرين.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: نُنزلنَّكم أرضهم وديارهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد هلاكهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب والإسكان ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: قيامه بين يدي للمحاسبة ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ بالنار.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: انتصروا يعني الرسل من الله، وطلبوا الفتح ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٥﴾ أي: خسر عند الدعاء كل متكبر جبار معرض عن الإيمان.

الجبار: الذي عتا علىٰ الله، والعنيد: الجائر عن القصد(١).

قال الضحاك: نزلت في كلِّ كفار مكة حيث تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم انصر أوصلنا للرحم وأفكَّنا للعاني، وأقرانا للضيف، وأصدقنا، فاستجاب الله دعاءهم بنصر نبيه صلىٰ الله عليه وسلم(٢).

ثم قال ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ قال الضحاك: مِن وراء أبي جهل جهنم مع خيبته من الدعاء في الدنيا(٣).

---

(١) وهو معنىٰ ما روي عن السلف في ذلك، انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٥٤٣، معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٨، تفسير السمعاني ٣/ ١٠٩، معالم التنزيل ٤/ ٣٤٠.

(٢) وهذا يلزم منه أن الاستفتاح من الكافرين، وهو قول ابن زيد، ويشبه أن يكون شاذا، فإن عظم أهل التأويل علىٰ أن المستفتح هم الأنبياء والمؤمنون (تفسير الطبري ١٦/ ٥٤٦).

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٨.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ عصارة أهل النار منتنة الريح[١].

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: ذلك الماء ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقدر علىٰ ابتلاعه، ومالك خازن النار يضربه بالمقامع ويقول له: اشرب ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: غمُّ الموت وألمه من كل مكان من جسده، من أطراف شعره.

وقيل: من كل جهة عن يمينه وشماله وفوقه وتحته وقدامه وخلفه، فليست شعره ولا عضو ولا مفصل ولا جلد ولا عِرق إلاَّ وقد لزمه لون من العذاب، يجد فيه ألم الموت من تحت كل شعرة[٢].

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ في الحقيقة فيستريح من العذاب ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾.

قال الضحاك: حية تفترسهم أعطىٰ حرها سبعين ضعفًا علىٰ حر النار، فلم يعذب بعذاب أشد منه.

وقال ابن عباس: يلقىٰ عليهم الجرب وأيديهم مغلولة، فتحك أبدانهم الحيات من النار، ويكون حرها أشد من حر جهنم[٣].

ويقال: تسلط عليهم كلاب وأُسد تمزقهم، فيأكل الأسد الواحد أربعمائة أمة، لا يعلم عددهم إلا الله.

وقيل: هو الجوع يسلَّط عليهم حتىٰ يأكلوا الضريع والزقوم، ويرسل عليهم سيولاً من نار علىٰ قدر كل يوم وليلة خمس مرات.

---

(١) الكشف والبيان ١٥/ ٣٦٤، معالم التنزيل ٤/ ٣٤١.

(٢) زاد المسير ٢/ ٥٠٨.

(٣) لم أجد قول الضحاك وابن عباس فيما بين يدي من مصادر، ولعله من منقولات الكلبي أو مقاتل.

أعاذنا الله من عذابه بواسع رحمته، وإن كنا نستأهله، ورزقنا من فضله نعيم بجنان وإن كنا لا نستوجبه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: صفة الذين كفروا أن أعمالهم التي يتقربون إلىٰ الله عز وجل كرماد اشتدت به الريح، فمرت به الريح فطيَّرته ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ شديد الريح ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ﴾ أي: بثواب شيء مما عملوا في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر والعمل ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ عن الحق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ لبيان الحق، وما خلقهما عبثًا ولا سدًا ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: يهلكهم في نفس وقدم واحد ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ أطوع منكم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لا يشق عليه إهلاككم وإبدالكم.

ثم ذكر الخلق عند البعث ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجوا من قبورهم التابع والمتبوع ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي: السفلة والأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي: تكبروا عن الإيمان وتشرفوا في أنفسهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أطعناكم في الدنيا فيما أمرتمونا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: حاملون عنَّا اليوم ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ﴾ أي: المتبوع لهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ﴾ لو رزقنا الله الهدىٰ لدعوناكم إليه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ وعليكم ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ تضرعنا ألم لم نتضرع ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: منجىٰ ومخلص.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: العذاب، وقيل: حين ينزل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ علىٰ ألسنة الرسل ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾

---

(١) الكشف والبيان ١٥/ ٣٧٠.

الصدق بالجنة والنار والبعث ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أنها ليست بكائنة ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وكذبتكم وأجبتموني فيما دعوتكم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ غلبة وقهر ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ ووسوستكم ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بالطاعة وتركتم طاعة الله ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بدعوتي إياكم ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ بإجابتكم إياي ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: مغيثكم ومنجيكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: مغيثيَّ ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت بشرككم، وقيل: تبرأت مما أشركتموني في الطاعة مع الله تعالىٰ في الدنيا وقديم الكلام، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم في الدنيا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ في الآخرة.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين فيها لا يبرحون منها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أمر ربهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: تحييهم الملائكة بسلام عند تلاقيهم، ويخاطبوهم بالكرامة، ويرسل إليهم ربهم بسلام منه.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: بيَّن الله مثلاً ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ أي: وصف الله الكلمة الطيبة يعني دعوة الإسلام، وهو دين الله الذي جاء به الرسل، وأنزل الله به الكتب كقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾.

ومعنىٰ: كلمة طيبة: زاكية نامية، تثمر لصاحبها الخير الدائم في دار البقاء[1].

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: عروقها في الأرض ثابتة ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ أغصانها صاعدة، كذلك المعرفة ثابتة في قلب المؤمن وفروعها الشرائع والشهادة صاعدة مع عمله إلىٰ السماء ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾

---

(١) الكشف والبيان ١٥/ ٣٧٤.

أي: تعطي وتُخرِج ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: ستة أشهر، وقيل: سنة، كذلك المؤمن يتكلم بتوحيد ربه ويعمل الخير أحيانًا ليلاً ونهارًا، وغدوًا وعشيًا[١].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي: للمؤمنين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يتأملون في أمثال القرآن.

ثم ضرب مثل الكفر والكافر فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الشرك، فليس في الكلام شيء أخبث من الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة[٢]، فكما أنها ليس في الأشجار شجرة أخبث من الحنظلة فكذلك ليست في النفوس نفس أخبث من نفس الكافر ولا كلمة أخبث من الشرك.

قال أبو سهل: هو عندي الفشاغ[٣]، لأن الحنظلة وإن كانت تقلبها الريح فإن لها أصلاً في الأرض، والفشاغ إذا ارتفع من الأرض ووجد خضرًا تعلق به، وانقطع من أصله فهو يطوف من شجرة إلىٰ شجرة، فذلك قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ اقْتُلِعَتْ واستؤصلت ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ تدور فوق الأرض.

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: أُخِذَتْ جُثَّتُه بكمالها، كذلك الكافر ليس له كلمة أصل ولا قرار[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٠.

(٢) وذلك في قول أكثر المفسرين، كم قال الطبري (في تفسيره ١٦/ ٥٨٣).

(٣) الفشاغ، ويقال له: الفشغة هو اللبلاب، يعلو الشجر ويعتلي عليه، وقالوا: هو قطنة في جوف القصبة، وقالوا: إنه نبات يلتوي عن الأشجار ويعلوها ويفسدها، وكل هذا من وصفه صحيح لأنها مراحل له (انظر: تاج العروس ٢٢/ ٥٥٢) ويسمىٰ هذا: الكَشُوث، أو الكَشُوثىٰ.
وهذا القول معروف في كتب التفسير، انظر: البسيط ١٢/ ٤٦٩، السمعاني في تفسيره ٣/ ١١٤، والبغوي في معالم التنزيل ٤/ ٣٤٩، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٥٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٥١٢.

(٤) نحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦١، تفسير الطبري ١٦/ ٥٨٦.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على هذا ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى أن يموتوا ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: يثبتهم عليها في القبر إذا ماتوا حتى لو سئلوا عنها يجيبوا ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في القبر، أي: يخذلهم عن الإجابة ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ من التوفيق والخذلان، لأنَّ المؤمن إذا وضع في القبر يُسْأَل: من ربك، وما دينك، ومن نبيك، فيقول: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، فقد ثبَّته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا(١).

وأما الكافر يُسْأل فيقول: لا أدري، فقد خذله الله عن الإجابة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: غيَّروا نعمة الله بترك الشكر، وهم كفار مكة، أنعم الله عليهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فلم يقبلوا ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي، منزل الهلاك، وهي بدر، أنزلهم ببدر وأهلكهم، وأُدْخِلُوا ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها بعد القتل ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ أي: المثوى والمأوى؛ النار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: وصفوه بأشكال والشركاء ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: يصرفوا الناس عن دينه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ أمر تهديد، أي: عيشوا في دنياكم وسرورها ﴿فَإِنَّ﴾ ـهُ يضمحل ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ أي: مرجعكم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: قل لأهل صفوتي من الموحدين يقيموا الصلاة ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: ليتصدقوا على الفقراء مما ملَّكناهم ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ لا فدية فيه، ولا ينفع أحدًا خلة أحد فيصرف العذاب عنه، وهذا في حق الكفار، وأما

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٨٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٤٢.

المؤمنون فتنفعهم الشفاعة والخُلة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أوجدهما من عدم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهي المطر، قيل: من نفس السماء، وقيل: من نحو السماء، وقيل: من السحاب لأنَّ ما علاك فهو سماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بالمطر ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: ذلَّله ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ﴾ بإذنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ ذلَّل ماءً لكم يجري علىٰ أراضيكم.

﴿وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ﴾ يجريان علىٰ عادتهما لا يفتران ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ يجيئان ويذهبان ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ أعطاكم ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ وما لم تسألوه فاكتفىٰ بذكر أحدهما عن الثاني ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ النعمة هاهنا بمعنىٰ النعم، أي: لا تقدرون إحصاءها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ علىٰ نفسه بالمعصية ﴿كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ بنعمة ربه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: الإنسان هاهنا الكافر لأنَّ المؤمن يشكر ربه(١).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعني: مكة يأمن فيه الخائف، أي: مأمونًا ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ اعصمني وأولادي وإسماعيل وإسحاق ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ فهذا خليل الله يخاف علىٰ نفسه وأولاده فما بالنا لا نخاف.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ أي: ضلَّ كثير من خلق الله بسببهنَّ، وكل مَن ضل بسبب شيء فكأنَّ ذلك الشيء أضله، والأصنام لا تفعل ولا تعقل ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ في ديني ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾ وعلىٰ منهاجي وأنا منه ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ وخالف ديني ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: متجاوز عمن تاب رحيم علىٰ من مات علىٰ التوبة.

---

(١) وهو من رواية الكلبي، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٢٤٥. والآية عامة في كل الناس، لأن الغالب عليهم ذلك.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: أنزلتهم وهو إسماعيل وهاجر ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ فيه ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن في ذلك الوقت بيت مبني، ولكن في عهد نوح فخرب ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتهم لإقامة الصلاة وإقامة دينك وطاعتك ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: قلوب الناس ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ وتريدهم وتشتاق إليهم، ولو لم يقل من الناس لازدحمت عليه الروم والتُرك، وأراد خواص الناس المخلصين ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ارزق أهل مكة من الثمرات ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ نعماءك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي: ما نُسرُّ ونُبْدي، وقيل: ما أخفي من وجدي بإسماعيل، وما أظهر من طاعتي لسارة ولم أجد بُدًّا من طاعتها[1].

ثم قال: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ ذرة ولا أصغر منها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أعطاني بعد الهرم ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ وبعده ﴿وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ ولد له إسحق وهو ابن تسعة وتسعين سنة، وسارة بنت ثمان وتسعين سنة[2].

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ لمن دعاه بالإخلاص.

---

(١) وهذا القول الثاني غريب، بل هو من الدخيل، وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس، كما في الدر المنثور ٥/ ٤٩، ولم يذكره ابن كثير، وفي نفسي من نسبته إلىٰ ابن أبي حاتم شيء، فإن هذا الخبر من رواية الكلبي ومقاتل، وعهدي بابن أبي حاتم يضرب صفحا عن روايتهما (انظر: تفسير مقاتل٢/ ١٩٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٤٦، الكشف والبيان ١٥/ ٤٠٤، زاد المسير ٢/ ٥١٦).

(٢) وهذه رواية الكلبي، كما في تفسير ابي الليث ٢/ ٢٤٦، وعنده عن الضحاك: ابن ١٢٠، وفي قول ابن جبير: بُشِّر بعد ١١٧ سنة (تفسير الطبري ١٧/ ٢٧).

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي مقيمي الصلاة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ اجعلهم كذلك ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ بالإجابة.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾ ذنوبي ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾ وإنما دعا لأبويه لموعد جرىٰ بينهما، فلما تبين له موتهما علىٰ الشرك تبرأ منهما.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا تَظُنَّنَّ أنه يترك الظالمين هملاً لا يعاقبهم علىٰ ظلمهم، بل أعدَّ لهم العذاب يوم الحشر، فذلك قوله ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليوم ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ أي: لا تطرف أعينهم من هول ما يرون، وهؤلاء الظالمون في الآية هم كفار مكة، الذين آذوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وكذَّبوه.

ثم قال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، الإهطاع الإسراع[1].

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعي رؤوسهم، والمقنع: هو الرافع رأسه حتىٰ لصق قمحدوته بقفاه ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يرجع بصرهم من الهول ولا يغتمضون ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ نزعت من صدورهم، وارتفعت إلىٰ حلوقهم.

وقال الحسن: مواقع أفئدتهم خالية عن الفؤاد.

وقيل: أفئدتهم تتردد في أجوافهم، لا يستقر علىٰ مكان واحد.

وقيل: يبست قلوبهم لدىٰ الحناجر لا ترجع إلىٰ مكانها، كقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[2].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦.

(٢) ورجح ابن جرير أنها خالية من الخير (تفسير الطبري ١٧/ ٣٤).

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: خوِّفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ارددنا إلىٰ الدنيا كما كُنَّا فيها ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ إلىٰ التوحيد ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: نؤمن بهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾ أي: انتقال من الدنيا ولا بعث لنا.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ نزلتم ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك، مثل قوم نوح وهود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وعذبناهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ لتعتبروا بها.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي: صنعوا صنيعهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاؤهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾ فاللام الأولىٰ لام تأكيد، واللام الأخيرة أصيلة ضُمت لفعل المضارع[1].

وقرئ: لِتزولَ، بكسر اللام الأولىٰ وفتح الثانية، معناه: ما كان مكرهم أن تزول به الجبال، ووجه المعنىٰ: أنه لا يبطل دين الله عز وجل وأمر رسوله صلىٰ الله عليه وسلم بمكرهم، لأنه ثابت كالجبال[2].

وقيل: إنَّ هذا في قصة نمرود لعنه الله، حين جلس في التابوت وعلق كل قائمة من التابوت علىٰ نسر عظيم مثل البخاتي، وعلق فوقه آدميًا أحمر، حتىٰ ظنت النسور أنها لحم فطارت في الهواء، فرفعت التابوت إلىٰ الهواء، حتىٰ غاب شكل الأرض والجبال والبحار من عينه، ونظر إلىٰ السماء، فإذا هي كما كانت، فرمىٰ بالأديم إلىٰ الأرض وانقلبت النسور إلىٰ الأرض بالتابوت، فلما سمعت

---

(١) وهذا علىٰ قراءة: لَتزولُ، وهي قراءة الكسائي وحده، وقرأ الباقون كما أثبتُ (النشر ٢/ ٣٠٠).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٧، الدر المصون ٧/ ١٢٦.

الجبال حفيف النسور وحفيف التابوت كادت الجبال [تزول] عن أماكنها، لحلم الرب الكريم، وجرأة العبد اللعين اللئيم[١].

قال ابن عباس: التابوت يتجلجل[٢] في الأرض كل يوم قامة، واللعين الخبيث وقع من التابوت حيًا، ليريه الله العبر، حيث أراد قتال ربه، فسلَّط الله عليه أضعف خلقه، بعوضة عذَّبه بها أربعين يومًا ثم قتله الله بها، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ وهو نزول العذاب علىٰ الكفار، فأنت يا محمد أشرفهم كيف يخلف وعدك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ﴾ في ملكه ﴿ذُو ٱنتِقَامٖ ۝٤٧﴾ من أهل معصيته.

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: الانتقام منهم عند ذلك، وهو: أن تبدَّل هذه الأرض بأرض تمد كما يمد الأديم العكاظي، أرض بيضاء من فضة لها نور يتلألأ، وقيل: تبديلها أن تسوىٰ الجبال والآكام[٣].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ أي: تبدل السماوات أيضًا، وتذهب شمسها وقمرها ونجومها ﴿وَبَرَزُواْ﴾ من قبورهم علىٰ تلك الأرض ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨﴾ أي: لمحاسبة الله تعالىٰ الذي لا شريك له، القهار لكل أحد.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٩ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بإسناد فيه نظر.

(٢) في الأصل: يتخلخل، وهو تصحيف، والتجلجل السوخ في الأرض (تاج العروس ٢٨/ ٢٢٣).

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٤٦، تفسير ابن ابي حاتم ١٦٦٢٨، تفسير السمعاني ٣/ ١٢٥، معالم التنزيل ٤/ ٣٦٢. والأديم العكاظي منسوب إلىٰ عكاظ، وهو ما حمل إلىٰ عكاظ فبيع فيها (تاج العروس ٢٠/ ٢٣٩).

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يعني المشركين ﴿يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾ القيود والأغلال.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ قال ابن عباس: القطران الذي يطلىٰ به البعير أبلغ في الاشتعال[1].

وقرئ: «سرابيلهم من قطرٍ آنٍ»[2]، علىٰ كلمتين، أي: قُمصهم من صُفر مُذاب يصب من فوق رؤوسهم فيلزق بأبدانهم، فيصير كالقميص لهم.

﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ أي: تعلوها وتحرقها.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ من خير أو شر، واللام لام القسم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾ إذا حاسب فحسابه سريع.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: عظة وعبرة ودلائل، يعني القرآن ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: يتيقنوا ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ أي: ليتعظ من مواعظ القرآن ذوي اللُب والحجىٰ، وهم المؤمنون من جملة الناس.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله له-: بلغنا عن أُبي بن كعب أنَّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة إبراهيم أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عَبَدَ الأصنام، وبعدد من لم يعبدها»[3].

---

(١) وهو رواية الكلبي، وقد ذكره أبو الليث عن عكرمة ٢/ ٢٤٩. وروىٰ ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس أنه قال: النحاس المذاب، زاد في رواية: آن لهم أن يعذبوا به (١٧/ ٥٥).

(٢) وهي شاذة نسبت لبعض الصحابة، كعلي وأبي هريرة وابن عباس والحسن من التابعين، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٥٥، الكشاف ٢/ ٥٦٧، التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٧٥، الدر المصون ٧/ ١٣٣.

(٣) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٥/ ٣٥١، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٨٠.

سورة الحجر

مكية، وهي تسع وتسعون آية(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تلك كناية إلىٰ السورة، أي: هذه السورة آيات الكتاب، يعني: التوراة والإنجيل قبل نزول القرآن ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ أي: آيات قرآن مبين، أي: بيِّن بتحقيق ما في الكتب كلها مِن وحدانية الله تعالىٰ، وذِكر البعث والجنة والنار.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ قالت طائفة: هذا الوداد عند المعاينة، حين عاين الكافر الموت، يود أن لو كان مسلمًا.

وقيل: إذا رأوا المؤمنين يدخلون الجنة تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

وقيل: إذا رأوا أفزاع القيامة(٢).

وروي عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنَّ ذلك إذا خرج العصاة من النار وبقي الكفار تمنوا أن لو كانوا مسلمين(٣).

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ اتركهم في باطلهم ليأكلوا من نعيم الدنيا، وينتفعوا بالأموال والأولاد والنساء ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ أي: ينسيهم طول الأمل

---

(١) الكشف والبيان ١٥/ ٤٢٥، البيان في عد آي القرآن ١٧٣، زاد المسير ٢/ ٥٢٢.

(٢) لخص الأقوال الواردة في ذلك ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٥٢٢.

(٣) رواه ابن جرير في التفسير ١٧/ ٦١ عن أبي موسىٰ وابن عباس وأنس، موقوفا عليهم، واستوعب الحافظ ابن كثير في التفسير ٤/ ٥٢٥ الطرق المرفوعة، فذكر أربعة أحاديث.

من الاستعداد للموت ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله، وهذا وعيد من الله لهم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ أي: لأَجلها كتاب معلوم لا يسبقها الهلاك ولا يتأخر.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ طرفة عين ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ مثله.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ وذلك أنَّ أهل مكة مثل الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وغيرهما قالوا بأعلىٰ صوتهما -حين صلَّىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في دار الندوة، وقرأ القرآن بأعلىٰ صوته-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ بزعمه ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تأمرنا بترك عبادة اللات والعُزىٰ[1].

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ هلاَّ تأتينا ﴿بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ شهداء ليخبرونا بأنك نبي مرسل ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾ في دعواك.

قال الله تعالىٰ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما تَنزل الملائكة علىٰ قوم إلا لهلاكهم، ولو نزل الملائكة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾[2] أي: مؤجلين طرفة عين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ عن الشياطين، حتىٰ لا يزيدوا ولا ينقصوا، وقيل: جعلنا معجزًا لا يقدر الخلق علىٰ مثله، والزيادة فيه والنقصان عنه.

---

(١) تفسير مقاتل ٢/ ١٩٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥١.

(٢) فصل بين الواو وما بـ: نزل.

وقيل: هي كناية عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، أي: إنَّا له حافظون حتىٰ نؤديها إلىٰ الأمة(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾ أي: أرسلنا في فرق الأولين رسلاً كما أرسلناك في الآخرين رسولاً.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ كما استهزأ بك قومك.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: ندخل الكفر والتكذيب ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾ من كفار مكة، الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ أي: مضت طريقة الماضين بتكذيب الرسل، وأهلكنا آباءهم بالعذاب.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا﴾ علىٰ كفار مكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾ أي: ظلت الملائكة يصعدون إلىٰ السماء وهم ينظرون.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ بالسحر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ مخدوعون.

وقوله: سُكِّرتْ: قال بعضهم: أخذ من سَكْر النهر(٢)، أي: شدُّهُ وحبْسُه، أي: حبست عن النظر.

وعند البعض: هو من السُّكر، وهو دوران العين وغشيانها، ما يمنع من النظر(٣).

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥١.

(٢) في الأصل: النهیٰ، وهو تصحيف. انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥٢.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥، البسيط ١٢/ ٥٥٨.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ البروج: ظهرٌ منزله ممتنعٌ بارتفاعه وتحصنه، وأصله: الظهور[١].

والبروج: هو أماكن الشمس والقمر والنجوم تجري فيها.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦﴾ إليها والمعتبرين بها.

والبروج اثنا عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت[٢].

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ يعني السماء بالكواكب ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾ مرجوم باللعن والطرد، لئلا يستمعوا إلىٰ الوحي ولا يصلوا إلىٰ عجائب الله.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ اختطف قليلاً من كلام الملائكة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ لحقه كوكب مُضيء وهو الثاقب.

قال أبو عبيدة: إلا هاهنا في موضع الواو، معناه: ومن استرق السمع[٣].

وقال ابن عباس: الكوكب في مكانه لا يزول، ولكن له شهب نار تتأجج تتبع الشيطان حتىٰ تحرقه[٤].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها مِن تحت الكعبة مسيرة خمسمائة عام ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: خلقنا في الأرض الجبال الثوابت ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾ من الذهب والفضة والحديد والرصاص، تخرج من المعادن، ومنها ما يكال أيضًا، ولكن اكتفىٰ بذكر أحدهما.

---

(١) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٢٠٠.

(٢) الكشف والبيان ١٩/ ٤٥٣.

(٣) لم أجده في المجاز، وقد يكون من قول أبي عبيد لا من قول أبي عبيدة، فالله أعلم، وانظر: التبيان ٢/ ٧٧٨، الدر المصون ٧/ ١٥٠، فقد ذكر خمسة أوجه ليس منها ما ذكره المصنف.

(٤) وهو من رواية الكلبي.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ مما تعيشون به من النبات ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ فيعيش به من لم تقدروا علىٰ ترزيقه من البهائم التي لا ترزقونها، وعبيدكم ودوابكم، فالعقلاء إذا اختلطت بغير العقلاء عبر بعبارة العقلاء، لأنَّ كلمة «ما» توضع موضع «من»، و«من» توضع موضع كلمة «ما»، كقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: ما من شيء من الرزق إلاَّ مفاتحه بأيدينا وقدرتنا ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢١﴾ وأراد المطر، ينزله الله بقدر معلوم ووزن معلوم معدود، مع كل قطرة ملك يضعها موضعها.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: ذات لقاح تلقح السحاب، وقيل: جمع لاقحة يحمل السحاب، واللاقح الحامل، يعني السحاب حاملة بالرياح[(١)].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا لكم سقيا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ أي: مالكين للمطر، لا تملكون خزائنه ومفاتحه.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله ذنوبه-: بلغنا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خلق الله الماء في الريح فتفرغه الريح في السحاب، فتُمرىٰ السحاب كما تُمرىٰ الناقة، فتدر بإذن الله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ١٤﴾[(٢)].

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ قال الضحاك: نحيي للبعث ونميت في

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥٣.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ١٧/ ٨٦ من طريق قيس بن السكن عن ابن مسعود، وفي بعض ألفاظه: ثم تمريه فتدر كما تدر اللقحة. ومري الناقة: مسح ضرعها لتدر، (تاج العروس ٣٩/ ٥٢٢).

الدنيا[١] ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الأرض ومن عليها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قيل: آدم ومن بعده، وقيل: الصف الأول في الصلاة والصف الآخر، وقيل: القرون الماضية وأمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم[٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ المتقدم والمتأخر ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ بالجزاء علىٰ الأعمال ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ بمقدار ما يستوجبون من الثواب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ وهو الطين اليابس، الذي يسمع له عند النقير صلصلة، أي: صوت.

وقيل: هو الخزف الذي يصلصل، والحمأ جمع حمأة، وهو الطين المتغير المنتن الذي يصرف إلىٰ السواد[٣].

والمسنون المتغير المنتن أيضًا، كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير[٤].

وكان آدم صلوات الله عليه ترابًا، فعجن التراب بالماء فصار طينًا، ومضىٰ زمان علىٰ الطين فصار حمأً مسنونًا، ثم صورَّه فتُرِك حتىٰ صار صلصالاً وفخارًا، فمكث كذلك أربعين سنة، ثم نفخ فيه الروح بعد أربعين سنة فصار بشرًا[٥].

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أب الجن أي: من قبل آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ وهي نار صافية، ليس لها دخان، قيل: هي نار بين سماء الدنيا وبين

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥٤.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٨٩.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٩، البسيط ١٢/ ٥٩١.

(٥) البسيط ١٢/ ٥٩٢.

الحجاب، وهي التي يكون منها الصواعق.

قال ابن عباس: السماء موج مكفوف ودونها حجاب، والنار تكون بين السماء وبين الحجاب، والشمس والقمر والنجوم في ذلك الموج، يدور بها الفلك[(١)].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: سويت خلقه في الكمال ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: أدخلت فيه روحًا من أرواحي، والأرواح كلها لله عز وجل وصار بشرًا.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: خرُّوا له على وجوهكم خاضعين.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ توكيد بعد توكيد، يعني الملائكة الذين كانوا سكان الأرض ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ﴾ أي: إلا الذي صار إبليس بإبائه عن السجود ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: لم يرد أن يكون مع الخاضعين لآدم وإبليس؛ لم يكن من جملة الملائكة، ولكنه من الجن، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهذا استثناء ليس من المذكور، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ومعناه، ولكن: إبليس أبى[(٢)].

و﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ معناه: أيُّ شيء لك ينتفع في امتناعك عن سجوده.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ وفيه ثلاث عيوب: الظلمة والسواد والنتن.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من صورة الملائكة، وقيل: من

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٢٠٨٨، الكشف والبيان ٢٦/ ١٩، ٢٧/ ٩٩، الدر المنثور ١/ ١٠٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٩.

الأرض، وقيل: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ ملعون مرجوم.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ ثم النار أبد الآبدين.

﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أجِّلني ولا تُمِتْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وأراد أن لا يموت بنفخة الصعق، فأجابه الله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ المؤجلين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ نفخة الصعق فتموت مع من يموت من الملائكة.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي: بإغوائك إياي وإضلالك، وهذا حلف من اللعين، وقيل: كما خيبتني من رحمتك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أزيِّن لهم الشهوات واللذات ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أُضلنهم عن الهدىٰ جميعًا.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ المعصومين فإنه لا سبيل لي عليهم.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ يعني: الدين الإسلام وبيانه، والهداية إليه، وقيل: هذا تهديد إلىٰ ممركم ومرجعكم.

وقرئ: «صراطٌ عليٌّ مستقيمٌ»، يعني: رفيع شريف[1].

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أي: خواص عبادي ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ حجة ومقدرة علىٰ أن تغويهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ أي: أطاعك ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وسلك طريقك، فإن لك عليهم سبيل بالوسوسة.

ثم ذكر مكان من أطاعه فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: موعد الشيطان ومن اتبعه من الكفار ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أي: لجهنم سبعة أطباق،

---

(١) وهي قراءة يعقوب وحده (النشر ٢/ ٣٠١).

وسبع دركات أسفل من طبق، يقتسمون الدركات بقدر ما اجترحوا من السيئات، كما يقتسم أهل الجنة الدرجات بالطاعات.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لكل دركة من أهل النار ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نصيب من الناس معلوم.

قال معاذ: هي سبع دركات؛ المنافقون واليهود والمشركون في الدرك الأسفل من النار، وهي الهاوية، والنصارىٰ في الدركة التي تليها، وهي الجحيم، والمجوس في الدركة الثالثة، وهي سقر، والصابئون في الدركة الرابعة، وهي الحُطمة، والذين آثروا طاعة المخلوقين علىٰ طاعة الله، وكانت هيبتهم من الملوك أشد من هيبتهم من الله تعالىٰ، الدركة الخامسة، وهي السعير، والفراعنة في الدركة السادسة، وهي لظىٰ، ومن أوبقته الذنوب من أهل التوحيد، الذين يخرجون من النار بعد تعذيبهم، الدركة السابعة وهي أعلا الدركات واسمها جهنم[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: الذين يتقون الشرك في جنات وأنهار جارية.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: قيل لهم ادخلوا الجنة مع سلامة من الآفات آمنين من الموت.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: ينزع ما في قلوبهم من غش وخيانة، الذي كانوا عليها في الدنيا، فصاروا متحابين ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ متزاورين، وقيل في التفسير: لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: في الجنة تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أبدًا.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥٧، البسيط ١٢/ ٦١٠، علىٰ خلاف في ذكر الدركات.

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ أهل صفوتي ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ المتجاوز المتحنن على التائبين.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ لمن لا يتوب ﴿هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ قيل: لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣﴾ بكت الصحابة أيامًا، حتى نزل قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ لمن اعترف، وعذابي أليم علىٰ من اقترف(١).

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ جبريل ومن معه من الملائكة ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ علىٰ زي البشر ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ سلمنا سلامًا، نصب علىٰ المصدر، فأجابهم: عليكم السلام، قوم منكرون، ثم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ أي: خائفون، وذلك حين لم يأكلوا من طعامه.

﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾ أي: لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ أي: بولادة غلام ﴿عَلِيمٖ ۝٥٣﴾ في صِغره حليم في كبره.

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ وقد بلغت في حال أيست فيه من الولد ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ بالصدق أم بالمزاح.

﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لا بالمزاح ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ الآيسين.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ الذين لا يعرفون حقيقة قدرته.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧﴾ الخطب: الأمر والشأن، أي: هل لكم شأن غير بشارتي ﴿قَالُوٓاْ﴾ نعم ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨﴾ إلىٰ قوم لوط

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١١١، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٥٨.

لنهلكهم، قال إبراهيم: إن فيها لوطًا ابن أخي وابنتيه، فأجابوا وقالوا ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ ابنتاه زعوثا وريثا[١]، وامرأة له أخرىٰ غير الغابرة في الهلاك ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ واعلة[٢] ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الباقين في الهلاك.

ثم خرجوا من عند إبراهيم ودخلوا علىٰ لوط، فذلك[٣] قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولم يعرفهم لوط ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لا تشبهون السفر ولستم من أهل البلد.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يشكون وهو العذاب ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالخبر الصدق وهو العذاب الكائن ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ إنَّ العذاب نازل بهم.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: آخر الليل، وقيل بعد مضي هزيع من الليل، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: سر أنت خلفهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ حين سمعتم الوجبة ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: حيث أمركم الله، يعني إلىٰ الحرم عن الضحاك، وإلىٰ الشام عن مقاتل[٤]، وإلىٰ صُعر[٥] عن الكلبي، وهي قرية من

---

(١) تصحف اسم الابنتين في الأصل إلىٰ: رعونا ورثنا.
وفي تفسير مقاتل ٢/ ١٢٦: ريثا وزعوثا، ولأنه صدر عنه فقد صححته علىٰ ما هو عند مقاتل.
وفي تفسير الطبري (ط هجر: ١٢/ ٤٩٦): الكبرىٰ ريثا، والصغرىٰ زغرتا. وفي الكشف والبيان (١٤/ ٤١٨) وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٥٩: زعورا وريثا.

(٢) وقيل: واعلة زوجة نوح وواهلة زوجة لوط (الكشف والبيان ٢٧/ ٥٨).

(٣) في الأصل: فلذلك.

(٤) تفسير مقاتل ٢/ ٢٠٧.

(٥) هكذا بالعين المهملة، ومثله في تنوير المقباس ٢١٩. وهو تصحيف فيما يظهر، الصواب بالغين المعجمة: ففي بعض المصادر: صُغَر بالغين المعجمة، وبعضها: زُغَر (الكشف والبيان ١٥/ ٤٨١، تفسير السمعاني ٣/ ١٤٥، معالم التنزيل ٤/ ٣٨٦، زاد المسير ٢/ ٥٣٧).

قُرياته لم يستعملوا الفاحشة.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أوحينا إلىٰ لوط بالعذاب النازل ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ودابر كل شيء أصله، وقيل: دابرهم أي آخرهم، وعقب الرجل دابره ﴿مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ منصوب علىٰ الحال، أي: نهلكهم إلىٰ آخرهم حين أصبحوا.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧﴾ يفرحون بعملهم القبيح وبأضياف لوط.

﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨﴾ بالتعرض لهم، والفضيحة: ظهور السيئة الذي يلزم بها العار.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اخشوه ﴿وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩﴾ أي: لا تخجلون.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾ من الغرباء ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ أي: بنات أمتي ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾ فتزوجوا بهنَّ وقد تقدم تفسيره.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ أي: بحياتك يا محمد ومدة بقائك: إنهم لفي جهالتهم يترددون ويتحيرون، أقسم الله تعالىٰ بعمر رسوله، وهذه رتبة ومنزلة لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لا يبلغها أحد من خلق الله تعالىٰ[1].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل ﴿مُشْرِقِينَ ۝٧٣﴾ عند طلوع الشمس،

والذي في معجم البلدان ٣/ ٤١١: صُغَر، وقال: هي: زغر، وقال في زُغَر ٣/ ١٤٣: قرية بمشارف الشام، وقيل: اسم ابنت لوط نزلت بهذه القرية فسميت باسمها.

(١) عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم علىٰ الله من محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ١١٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٠، البسيط ١٢/ ٦٣٢.

وهو نصب على الحال أي: في تلك الحالة[١].

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: عالي البنيان أسفل، فما كان في أعلاه صيَّره في أسفله، وما كان أسفل البنيان صار أعلاه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ أي: على مسافرتهم، ومن شذَّ منهم في البلاد، وقد تقدم تفسير السجيل في سورة هود[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما صنع بهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ عبرات ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ المعتبرين.

﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني قُريات لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ أي: يمر عليها أهل مكة إذا سافروا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨﴾ وهم قوم شعيب، والأيكة: الشجرة، وقيل الغيضة، لظالمين: أي كافرين.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أهلكناهم بالعذاب ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: قُريات لوط وأماكن قوم شعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾ لبطريق واضح، وقيل: مكتوب في اللوح المحفوظ ما فعل بهما[٣].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾ يعني به قوم صالح، والحجر: موضع بوادي القرى[٤]، كذبوا صالحًا وسائر الأنبياء ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ علاماتنا

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٧٦.

(٢) سورة هود آية ٨٢.

(٣) والأول هو المعروف عند أهل التأويل (تفسير الطبري ١٧/ ١٢٣). قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٨٦: والإمام اسم لما يؤتم به فسمي الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه لأنها مما يؤتم به.

(٤) في الأصل: قرئ.

علىٰ الوحدانية، وقد آتاهم الناقة في زمن صالح ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾ بالجحود بها.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: ينقبون فيها ﴿بُيُوتًا﴾ ومخادع ﴿ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ أي: تسقط عليهم، وقيل: آمنين من الموت بزعمهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بالعذاب ﴿مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾ أي: عند الصبح.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي: لم يغن عنهم ولم ينفعهم من العذاب الذي نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾ من الكفر والتكذيب، وقيل: ما يكسبون من الأموال والبنيان في الجبال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لسان الحق وإلزام الحجة علىٰ الخلق ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ كائنة للجزاء ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ أي: أَعْرِض عنهم وتجاوز عنهم بلا شتم ولا ضرب، ولكن تجاوزًا حسنًا جميلاً، نسختها آية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ بخلقه من يؤمن ومن لا يؤمن قوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي: سبع آيات من المثاني، أي: مَا يثنَّىٰ في الصلاة، وهي فاتحة الكتاب.

وقيل: السبع الطوال أولها البقرة، ثم ما بعدها إلىٰ السبع.

وقيل: هي جميع القرآن سُمِّيت مثاني لأنه يثنَّىٰ فيها الأخبار والأمثال والحكم[1].

---

(١) وأولىٰ الأقوال بالصواب عند ابن جرير (في تفسيره ١٧/ ١٣٧) أنها أم الكتاب لأجل الحديث الذي رواه البخاري (٤٤٧٤) (٤٧٠٤) عن أبي سعيد بن المعلىٰ وأبي هريرة: أم القرآن هي السبع المثاني.

ثم قال ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ أي: الشريف العظيم قدره.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظرن بعين الرغبة ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أي: أعطينا ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ مثلاً في النعم، يعني: لا تنظرن إلىٰ ما أعطيناه للكفار من الأموال فما أعطيناك خير مما أعطيناهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: علىٰ كفار قومك إن لم يؤمنوا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ لِيِّن جانبك وأحسن خلقك مع ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾.

﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ الرسول المخوف ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ أي: أخوفكم من العذاب كما أنزلنا عليهم، هم قوم اقتسموا أعقاب مكة، وهم ستة عشر رجلاً، علىٰ كل عَقَبة أربعة رجال، حتىٰ إذا جاء أحد يريد الإسلام منعوهن ويقول بعضهم: هو ساحر، وبعضهم: هو شاعر، وبعضهم يقول: كذاب ومجنون، فأنزل الله علىٰ كل رجل نوع عذاب فأهلكه(١).

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ أي: عضوه(٢) كما تعضىٰ الجزور.

أي(٣): في فرقوا فيه القول ولم يجتمعوا علىٰ شيء(٤)، لأن بعضهم قال: هو سحر، وبعضهم قالوا: أساطير الأولين، وبعضهم قالوا: شعر.

وأصل عضين: عِضة، وجمعه عضين، كما يقال: عزة وجمعها عزين، وثبة وجمعها ثبين، في محل الكسر، وقيل: يراد به السحر، لأنَّ العاضه في كلام العرب الساحر، وقيل للساحرة: العاضهة، والعضيهة: البهتان العظيم(٥).

والسحر: العضه بالهاء.

---

(١) البسيط ١٢/ ٦٥٨.

(٢) أي فرقوه، معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٢.

(٣) في الأصل: عضا الجزور أن في قوافيهم القول.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٦، البسيط ١٢/ ٦٦٣.

وكان خمسة من المقتسمين: رؤساؤهم: الوليد بن المغيرة في بطن مكة، يقول: هو ساحر، وعقبة بن أبي معيط في عَقبة يقول: هو مجنون، والعاص بن وائل في عَقبة أخرىٰ يقول: هو كاهن، والأسود بن عبد يغوث في عقبة أخرىٰ: يقول هو شاعر، والأسود بن حنظلة علىٰ عَقبة أخرىٰ يقول: هو كذاب، قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ يعني: هؤلاء الخمسة والذين اتبعوهم وأطاعوهم ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ ويقولون علىٰ رسول الله الكذب، ويعرضون عن قول لا إله إلا الله.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أظهِر أمرك بمكة يا محمد، وافرق بين الحق والباطل، وامض علىٰ ما أُمِرْت من تبليغ الرسالة، فلما بلَّغ الرسالة واستقبله كفار مكة بالأذىٰ والتكذيب قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ إعراض الإهانة.

﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ أي رفعنا عنك مؤنتهم وأذاهم يا محمد.

أما الوليد بن المغيرة مرَّ علىٰ نبَّال فتعلق سهم بردائه فأراد يقصه فأصاب عرقًا في عقبه فجعل ينزف منه الدم حتىٰ مات، والعاص بن وائل نزل عن ناقته للبول في بعض الأودية فلدغته الحية فانتفخ حتىٰ مات، والأسود بن عبد يغوث قعد تحت شجرة فجاء ملك فجعل يضرب رأسه علىٰ الشجرة حتىٰ تناثر الدماغ من أنفه، وهو يستغيث من عبده، وعبده يقول: ما أرىٰ أحدًا، فعلىٰ من أنصرك؟ حتىٰ قتله الله كذلك، والأسود بن حنظلة أصابه السموم فاسود لونه فهرب إلىٰ منزله عطشًا، فلما بلغ باب داره رأوا إلىٰ سواد وجهه فأنكروه، ولم يفتحوا له الباب، فمات عطشًا، وعقبة بن أبي معيط قتله الله يوم بدر بالسيف، وكان ذلك في يوم واحد، إلا هلاك عقبة، وكلٌّ يقول: قتلني رب محمد(١).

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٥٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٣، البسيط ١٢/ ٦٧٣.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ حين ينزل بهم العذاب ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ ويؤذونك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ بأمر ربك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ المصلين ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ أطِعْهُ ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ وهو الموت، فإنَّ عند الموت يُعايَنُ الخبر[1] اليقين.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة الحجر أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم»[2].

❁ ❁ ❁

(١) في الأصل: الخير.

(٢) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٥/ ٤٢٦، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٨١.

سورة النحل

مكية بعضها، مدنية بعضها(١)، وهي مائة وعشرون وثمان آيات(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: دنا أمر الله بعذاب أهل مكة، والأمر: هو العذاب، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ وصالحًا وشعيبًا(٣).

وقيل: دنا قيام الساعة، وكانوا يستبطئون العذاب وقيام الساعة، فأخبرهم الله أنه بمنزلة ما قد أتىٰ، فلا تستعجلوا في طلبه.

وقيل: أتىٰ أمر الله بالنُصرة والفتح لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم(٤).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تنزيهًا له وبراءة عن السوء، وهو الاستعجال، من صفات العاجز والخائف ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ أن: يقال له شريك في المُلك.

---

(١) فصل الداني (في البيان ١٧٥)، وابن الجوزي (في زاد المسير ٢/ ٥٤٨) المكي من المدني منها، والحاصل أن الجمهور علىٰ أنها مكية إلا آيات بعينها، قيل ثلاث وقيل خمس وقيل سبع، إلا جابر بن زيد فإنه قال: أربعون آية من أولها مكي والباقي مدني. وكذا قال قتادة، ونقل الداني عن ابن عباس أنها نزلت بين مكة والمدينة، واختار الثعلبي أنها مكية إلا من قوله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ إلىٰ آخر السورة (الكشف والبيان ١٦/ ٨).

(٢) لا خلاف في عددها (البيان ١٧٥).

(٣) كذا قال، يريد أنها ثلاث آيات.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ١٦٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٥، زاد المسير ٢/ ٥٤٩، ورجح ابن جرير أنه تهديد من الله ووعيد للكافرين بقرب العذاب منهم والهلاك.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي من اللوح المحفوظ إلىٰ إسرافيل، ومن إسرافيل إلىٰ جبريل، ومن جبريل إلىٰ الرسل[1]، فذلك قوله: ﴿[مِنۡ أَمۡرِهِۦ] عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾.

قال مجاهد: الروح خلق ليسوا من الملائكة، ولا تراهم الملائكة، والروح النفس الهادئة، أي يحيا بها البدن.

وقيل: بالروح أي بالنبوة[2].

﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ مَن لم يجبكم بالتوحيد ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ وحدوني وأطيعوني في جميع ما آمركم به.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ولم يخلقها باطلاً ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ مع غيره.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ قيل: أراد به أبي بن خلف المكذِّب بالبعث ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ [مُّبِينٞ] ۝٤﴾ جدل بالباطل، وذلك أنه أخذ عظمًا باليًا وقال: من يحيي هذا، وقيل: هو في عامة الكفار[3].

ثم ذكر نعمه علىٰ خلقه فقال ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ﴾ أي: لمتاعكم،

---

(١) ذكر إسرافيل قول غريب.

(٢) قد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير ستة أقوال في الروح، ليس منها هذا ٢/ ٥٥٠.
والمروي عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح: لا ينزل ملك إلا معه روح (تفسير مجاهد ٤٢٠، تفسير الطبري ١٧/ ١٦٦).
وقال السمعاني: مجاهد عن ابن عباس: أن الروح خلق من خلق الله تعالىٰ علىٰ صور بني آدم، وليسوا بالملائكة، لا ينزل الله ملكا إلا ومعه روح، والقول الثاني: أن الروح هو الوحي؛ لأنه تقع به حياة القلوب، كالروح تقع بها حياة الأبدان، وقيل: إنها النبوة، وقيل: إنها الرحمة

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٦.

والأنعام نصب علىٰ أنه مفعول بفعل مؤخر وهو الخلق.

﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: يدفئكم من الحر والبرد ﴿وَمَنَافِعُ﴾ في أوبارها وأصوافها وجلودها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝﴾ من لحومها ما قد أباح لكم أكلها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: في الأنعام جمال مفخر ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ من الرعي إلىٰ منازلكم بالمساء ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝﴾ أي: ترسلونها إلىٰ الرعي أول النهار.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ قيل: أبدانكم، وقيل: أمتعتكم ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ من البلدان.

قال عكرمة: إلىٰ مكة[1].

﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾ لو تكلفتم بلوغه ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي: بجهدها في المشقة والتعب ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ بهذه النعم وغيرها.

وقيل: لا تختص بهذه الآية مكة، لأنَّ السورة نزلت بمكة وهم فيها، فلا يحتاجون إلىٰ الأنعام لأجل مكة[2].

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ أي: خلقها لتركبوها ﴿وَزِينَةً﴾ أي: خلقها منظرًا حسنًا لكم، لأنَّ الراكب أزين من الماشي ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ أي: ما لم يسمه لكم من سائر الخلق.

وقال ابن عباس: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «إن الله تعالىٰ خلق أرضًا بيضاء، مثل الدنيا ثلاثين مرة، مشحونة خلقًا، لا يعلمون أن الله تعالىٰ يعصىٰ في الأرض، قالوا: يا رسول الله، أهم من ولد آدم؟ قال: هم لا يعلمون أن الله تعالىٰ

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٧/ ١٧٠. وهو من قبيل التفسير بالمثال.

(٢) البسيط ١٣/ ١٧.

خلق آدم، قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس عنهم؟ قال: لا يعلمون أن الله تعالىٰ خلق إبليس، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾»(١).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: هداية من اهتدىٰ.

وقيل: علىٰ الله تبين الطريق المستقيم إليه بالحجج والبراهين.

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: من السبيل ما هو مائل إلىٰ الأديان المختلفة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المطر ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ينبت منه وكذلك الكلأ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ ترعون فيه أنعامكم، والنبت يسمىٰ شجرًا.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ الحنطة وسائر الحبوب ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ أي: الكرم ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ينبت الله بالماء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في خلق الأرض والمطر والأشجار ﴿لَأَيَةً﴾ أي: عبرة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ في توحيد الله وعجائبه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ أي: جعلهن جاريات بأمره إلىٰ أوقاتها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ عن الله أمره.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق فيها ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أجناسه، نصب علىٰ الحال(٢)، يعني: من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر ﴿إِنَّ فِى

(١) وهو من تفسير الكلبي، ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٧. ولمقاتل عن ابن عباس رواية أخرىٰ، ذكرها الثعلبي في الكشف والبيان ١٦/ ٢٤، وكلا الحديثين باطلان.

(٢) التبيان ٢/ ٧٩١.

ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ يتعظون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ لكم حتىٰ ركبتم ظهوره، مع أهواله وأمواجه ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ وهو ما صِيد من السمك ولَفَظَه البحر ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ أي: يلبسها نساؤكم ويتحلين به من اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ يعني السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جولتين علىٰ وجه الماء مُقبلة ومُدبرة، والمَخر: الشق، وهو أن تشقَّ السفن الماء بحاجبها، ويقال للسابح: ماخر، لأنه يشق الماء(١).

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: يطلبوا من رزق الله عز وجل بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ نعماء الله تعالىٰ.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ يعني الجبال الثوابت خلقها في الأرض ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي: كراهة أن تميد بكم، وقيل: منعها أن تميد بكم، وقيل: أن لا تدور بكم.

والميد: الميل(٢).

﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ أي: جعل في الأرض أنهارًا سائلة ﴿وَسُبُلٗا﴾ أي: بيَّن فيها طرقًا في السهل والجبل ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: تعرفون الطرق في أسفاركم إلىٰ مقاصدكم.

وقوله ﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾ قيل: هو الجبال علامات النهار، والنجوم علامات الليل حتىٰ ﴿[وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ] يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ في الطرق البعيدة بالجبال، وفي البر والبحر بالنجوم، وهو: الفرقدان والشعرىٰ وبنات النَّعش والجَدي، الذي لا

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٣، البسيط ١٣/ ٣٢.

(٢) البسيط ١٣/ ٣٤.

يزول عن مكانه، يهتدي به المسافر[١].

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يعني: من يخلق هذه الأشياء التي وصفها كمن لا يخلق شيئًا، لا أرضًا ولا سماءً ولا برًا ولا بحرًا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ أفلا تتعظون بما تسمعون فتعبدوا من تجب عبادته.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ معناه: إن تريدوا أن تحصوا نِعَم الله عليكم من الأسماع والأبصار وسائر النعم لا تقدروا علىٰ إحصائها، وقيل: لا تحصوها لا تقدروا علىٰ شكرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ متجاوز بتأخير العذاب، رحيم بكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أي تضمرون ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩﴾ تُظْهِرُون.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تعبدون من دون الله وهي الأصنام ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾ أي: يُنحتون، وقيل: هم مخلَّقون.

﴿أَمْوَٰتٌ﴾ لا روح فيها ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تأكيد للكلام بإعادة[٢] المعنىٰ بغير اللفظ الأول، كقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾.

وقول المفسرين: أموات لا روح فيها مجاز، لأن الحي لا يكون حيًا بالروح فالروح[٣] في نفسه حي ولا روح فيه، والله عز وجل حي بلا روح، ومعناه: أنه جماد لا يتكلم ولا يعقل ولا يعلم البعث ووقته، والله تعالىٰ مقيم الساعة في لمح البصر، فكيف يكون ذلك العاجز شريكًا لهذا القادر، وهو معنىٰ قوله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ متىٰ يحشرون مِن قبورهم[٤].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٨.

(٢) في الأصل: بادعائه.

(٣) في الأصل: في الروح، وهو تصحيف.

(٤) يعني الأصنام، وهو المعنىٰ الذي لم يذكر غيره ابن جرير (تفسير الطبري ١٧/ ١٨٨).

وقيل: أراد به المشركين لأنَّ منهم من أنكر البعث، ومنهم من أقرَّ به ولا يعلم وقته ويستعجل به، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾.

والحيُّ: من حييٰ بالعلم، والميت من مات بالجهل، وسمَّىٰ الكفار موتىٰ لجهلهم بأنفسهم وربهم[١].

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ يا أهل مكة ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ وحدانية الله تعالىٰ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عن الإيمان.

﴿لَا جَرَمَ﴾ في معنىٰ القسم، أي: معناه حقًا، وقيل: «لا» رد لقولهم[٢]، وجرم: أي وجب، وقيل: لاشك أنه حق[٣].

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يسرون من عداوة رسوله وما يعلنون له من الشتم والأذىٰ.

وقال الشيخ أبو سهل: يعني جرم أي: كسب، يعني لا كسب إثمًا من ادَّعىٰ أن الله واحد يعلم ما يسرون وما يعلنون[٤].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ عن التوحيد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وأراد به المقتسمين، كانوا يقولون: ما يقوله محمد أساطير الأولين؛ أباطيلهم وكتبهم.

---

(١) البسيط ١٣/ ٣٩.

(٢) في الأصل: لقومهم. وفي معاني الزجاج: رد لفعلهم.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٤، البسيط ١٣/ ٤٠. وقد سبق الكلام عليه في سورة هود آية:٢٢.

(٤) ولا يخفىٰ ما فيه.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يستوجبوا عقوبة أنفسهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: أوزار من كفر بقولهم بغير علم كان لهم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ ألا بئس ما يحملون، «ألا» بمعنىٰ: اعلم.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله له ذنوبه-: بلغنا عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «أيُّما داع دعا إلىٰ الهدىٰ فاتُّبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيُّما داع دعا إلىٰ الضلال فاتُّبع فله مثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل كفار مكة.

قال مقاتل: هو نمرود[2] بن كنعان الذي بنىٰ الصرح ببابل، طوله في السماء خمسة آلاف ذراع وخمسون ذراعًا، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع ليتناول -بزعمه لعنه الله- إله السماء[3].

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: خرب الله الصرح من الأساس، لأنَّه أتاه جبريل في صورة شيخ فقال لنمرود: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أصعد إلىٰ السماء فأغلب عليها كما غلبتُ علىٰ الأرض، فقال جبريل: أتدري كم بينك وبين السماء؟ قال: كم؟ قال: هو مسيرة خمسمائة عام، وغلظها كذلك، ثم التي تليها كذلك، وغلظها كذلك إلىٰ السابع، فأبىٰ أن يترك البناء

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٦٧٤) من حديث عن أبي هريرة، أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «من دعا إلىٰ هدىٰ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلىٰ ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا».

(٢) يجوز فيه إهمال الدال وإعجامها، كما في شرح القاموس ٩/ ٢٤٠. وفي الأصل يرد هكذا وهكذا.

(٣) تفسير مقاتل ٢/ ٢١٨.

وهو يزيده، فصاح جبريل صيحة طار بها رأس الصرح إلىٰ البحر، ووقعت البقية عليهم، وقد قطعه الله من وجه الأساس(١).

﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لأنهم كانوا آمنين من خراب الصرح.

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ أي: يعذبهم ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ أي: يخالفون أنبيائكم لقبلهم، وقيل: يحاربونني بسببهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وهم الملائكة وقيل الأنبياء.

﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني: العذاب والشدة لهم.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بقبض أرواحهم ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ نصب علىٰ الحال، وسقوط النون للإضافة، وظلمهم: شركهم بربهم ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني: استسلموا للملائكة انقيادًا ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ يعني: يقولون كنَّا من أهل التوحيد ولم نكن من المشركين، فيرد عليهم الملائكة ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ من الشرك، وهاهنا انقطع الكلام.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار ادخلوا دركات النار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ دائمين ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ عن توحيد الله تعالىٰ.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ يعني: أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم كانوا علىٰ شعاب مكة لمعارضة المقتسمين، إذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم علىٰ محمد ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ يعني: أنزل كتابًا يأمر فيه بالخير، وينهىٰ عن الشر(٢).

---

(١) تفسير مقاتل ٢/ ٢١٩.

(٢) وهذا علىٰ رواية الكلبي أن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم أرسل أصحابه إلىٰ أعقاب مكة ردا علىٰ المقتسمين الذين اقتسموا أعقاب مكة لتنفير الناس عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ولا سيما أيام المواسم (تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٠٠).

انتصب قوله: «خيرًا» في جواب هذا السؤال، وارتفع قوله: «أساطير الأولين»[(١)].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ وحَّدوا ربهم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾ أي: جنة جزاؤهم ﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ أي: الجنة خير مما أعطىٰ المشركين في الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ الموحدين الجنة.

ثم وصف دار المتقين فقال ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: دار الإقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ أي: يتمنون ويشتهون ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: مثل هذا يثبِّت الله المتقين الموحدين.

ثم نعتهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقبضون أرواحهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين عن الشرك، نصب علىٰ الحال، وهو حال المتوفَّىٰ[(٢)].

وقيل: طيبين مِن طابت أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي: يقول لهم القهارمة من الملائكة والحفظة عند أبواب الجنة: سلام عليكم علىٰ وجه الدعاء، أي: السلامة والسعادة عليكم، وسلمكم الله من الآفات وسلام عليكم ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ثم يمشون بين أيديهم إلىٰ منازلهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ما ينتظرون هؤلاء الكفرة في كفرهم إلا إتيان الملائكة لقبض أرواحهم: ملك الموت وأعوانه ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ

---

(١) أي في جواب سؤال الكافرين، وقال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٦٠٣: نصب هذا ورفع الأول فصلا بين جواب المقر والجاحد (انظر: الدر المصون ٧/ ٢١٤).

(٢) الدر المصون ٧/ ٢١٦.

﴿رَبِّكَۚ﴾ وهو عذاب يوم بدر، أو غيره من الخسف والقذف والغرق ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تربصوا في ريبهم كما يتربصون فأهلكهم الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لعقوبته إياهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ بالشرك.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: عقوبات ما اكتسبوا ﴿وَحَاقَ بِهِم [مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ]٣٤﴾ نزل ودار بهم ووجب عليهم عقوبة استهزائهم برسلهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا نعبد غيره ﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ مثل البحيرة والسائبة وغيرهما، ولكنه شاء وأمرنا به، لم يفرقوا بين الأمر والمشيئة لجهلهم.

وقيل: إنما قالوا ذلك استهزاءً.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تكذيبًا ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ٣٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ لام لقد للقسم، أي: أرسلنا إلىٰ كل أمة رسولاً ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أمرهم بتوحيد الله ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ اتركوا عبادة الأوثان والكُهان ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلىٰ دينه ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ بما في كتب اللوح المحفوظ ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سافروا ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ واعتبروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ حتىٰ تعلموا كيف أبادهم الله بكفرهم، وكيف صنعوا وما صنع بهم.

ثم عزىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ أي: علىٰ إسلام عمك أبي طالب.

والحرص: هو تنازع النفس علىٰ ميل المراد، وقيل: طلب الشيء بالجهد(١).

---

(١) البسيط ١٣/ ٥٦، تفسير السمعاني ٣/ ١٧٢.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ أي: من كتبه الله شقيًا ضالاً لا يهديه أبدًا.

وقرئ: «لا يُهدَىٰ من يُضل» بضم الياء من يهدَىٰ وفتح الدال، وبضم الياء من يضل وكسر الضاد، ومعناه: من أضله الله فلا هادي له ولا يهديه أحد.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ يمنعونهم من عذاب الله.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ومن حلف بالله فقد جهد في يمينه، وكان حلفهم أن قالوا: ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ أي: لا يحييهم بعد الموت، فردَّ الله عليهم كلامهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا﴾ أي: وعد الله، وذلك وعدًا صدقًا، وأوجب علىٰ نفسه البعث للجزاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ أنهم مبعوثون.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: يبعثُهم لا محالة ليعرِّفهم ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من الدين ويشكون في البعث ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بعد الموت ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ فيما يزعمون أنهم لا يبعثون.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ مرة واحدة ﴿فَيَكُونُ ٤٠﴾ أي: فهو يكون، فلهذا رفع، وقد ينصب النون لأنه جواب الأمر بالفاء[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: أُوذوا وعُذِّبُوا بمكة، وهم أسرىٰ أهل مكة، ستة نفر: بلال بن أبي رباح المؤذن، مولىٰ أبي بكر، وعمار بن ياسر، مولىٰ أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وصهيب بن سنان الرومي، مولىٰ عبد الله بن جدعان، وخبَّاب بن الأرتِّ، مولىٰ ثابت بن

---

(١) قرأ ابن عامر بنصب النون من يكون، وقرأ الباقون بالرفع (النشر ٢/ ٢٢٠).
فعلىٰ قراءة الرفع -وهي قراءة الجمهور- تم الكلام علىٰ: كن، فيقف، ثم يستأنف ويقرأ: فيكونُ، وعلىٰ قراءة ابن عامر لا وقف (تفسير ابن جرير ١٧/ ٢٠٥).

أنمار الزهري، وعابس وجبير[(١)] مولىٰ قريش، كانت قريش وجملة أهل مكة يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام، فثبتوا علىٰ دينهم، وصبروا علىٰ البلاء، وهربوا وهاجروا، فنزلت الآية فيهم، والآية مدنية[(٢)].

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لنوفِّقنَّهم علىٰ العمل الصالح والنصر علىٰ العدو، ومن قرأ: «لنثوينهم» معناه: لننزلنهم المدينة[(٣)].

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: ثواب الآخرة أكثر وأفضل ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ علىٰ طاعة الله وأذىٰ الكفار ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ نزلت في أبي جهل وأصحابه لعنهم الله، إذ قالوا: هلا بعث الله إلينا ملكًا رسولاً، فأنزل الله الآية.

يعني: ما أرسلنا قبلك إلا مثلك رجالاً يوحىٰ إليهم، آدميًا ولم يكن ملكًا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني أهل التوراة يا أهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ التي أتت بها الأنبياء ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الحلال والحرام ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فيما تأتيهم به.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقُريَّات لوط وقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا

---

(١) في الأصل: عائش وجبر، وهو تصحيف، وعلىٰ الصواب في تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥، وتفسير مقاتل ٢/ ٢٢٣.

(٢) من هنا إلىٰ آخر السورة مدني علىٰ قول قتادة وجابر بن زيد كما أسلفنا.
والآية عامة في كل من هاجر من أهل مكة مظلوما، وما ذكر من الأسماء فهو من قبيل المثال لا الحصر (تفسير الطبري ١٧/ ٢٠٦).

(٣) وهي قراءة شاذة، ذكرها في المحتسب ٢/ ٩، ونسبها لعلي.

يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فجأة ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ بالبحار في البلاد والأسفار ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فائتين حينئذ من العذاب ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ أي: تنقُّص وخوف أنْ يهلك بلدة بعد بلدة، أو قرية بعد قرية، فيخوف الباقين بالهلاك، والتخوف في اللغة: التنقص.

كما قال الشاعر:

تخوَّف السيرُ[1] منْها تَامِكًا قَرِدًا كما تخوَّفَ عودَ النَّبعةِ السَّفَنُ[2]

معناه: ينقص السير من الناقة سنامها، وكان متلبدًا سمينًا، كما ينقص العود النبعة، وهو شجر صلب، والسَّفَن: من آلات النجارين ينحت به.

يروىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أدري ما التخوف حتىٰ سمعت هذا البيت[3].

وقيل لرجل من العرب: ما فعلت بدينك؟ قال: قد تخوفته، أي: نقصته.

ومعنىٰ الآية: أنه إذا أخذ قومًا بالعذاب أو الجوع أو الخوف يَخاف به من يليه، فربما تضرعوا إلىٰ الله وتابوا وآمنوا خوفًا من ذلك، فإن لم يفعلوا أهلكهم الله فكان أخذًا علىٰ تخوف.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ حين رخص بالتوبة للمذنبين.

---

(١) في الأصل: السفن، وهو تصحيف.

(٢) البيت مختلف في نسبته، قيل لابن مقبل وقيل لزهير وقيل لأبي كبير الهذلي، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٢١٣، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٢، الكشف والبيان ١٦/ ٥١، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية ٦/ ٤٠٠٥، البسيط ١٣/ ٧١، الكشاف ٢/ ٦٠٨، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١١٠، اللسان ٩/ ١٠١ (تخوف).

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢١٤.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: لم يعتبروا ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء من الشجر والطير والجبال والوحش ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ أي: تنقلب ظلاله يمنة ويسرة في مشرقها ومغربها ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ وسجودها لله: صلواتها ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: خاضعون ذليلون صاغرون مجبورون[1].

قال الحسن: أما ظلك فيسجد لله، وأما أنت فلا تسجد، فبئس ما صنعت.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: الخلق الذي يدب علىٰ وجه الأرض، عمومٌ أريد به الخصوص ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيضًا يسجدون ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عن السجود له.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ قاهرًا عليهم، غالبًا علىٰ أمرهم، بائنًا من مخلوقاته ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ لا يعصون الله طرفة عين.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر اثنين تأكيدًا، أي: لا تتخذوا اثنين إلـٰهين، لأنَّ الذي يدخل تحت العدد فليس بإلـٰه، والله تعالىٰ واحد لا من جهة العدد، لأنَّ الواحد لا يدخل في جملة العدد، بل هو منقطع عن العدد، والأعداد وإن كانت تبتدِئ من الواحد ولكن الواحد منفرد عن الأعداد، لأنَّ الواحد ليس بعدد في نفسه حتىٰ يصير اثنين، والعدد لا يكون عددًا حتىٰ يكون الواحد معه، فإذا تكرر الواحد خرج عن حد الوحدانية.

والدليل المحسوس أنَّ الواحد منفرد عن العدد أنَّك لو ضربت الواحد في عدد حوسب العدد ولا يحاسب الواحد، فالواحد إذا ضرب في الواحد فهو واحد، وإذا ضرب في اثنين كان اثنين، وفي الثلاث ثلاث، والواحد في العشرة عشرة، فكلما ضربته في العدد انفرد عن العدد، والعدد في العدد بخلافه، فالاثنين

---

(١) الكشف والبيان ١٦/ ٥٥.

في الاثنين أربعة، والثلاث في الثلاث تسعة، فيحاسب العددان، فتأمل فيه فإنه جيد، كي لا تظن وحدانية الله من العدد.

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾ أي: خافون ولا تخافوا غيري.

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق والعجائب ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ له الإسلام والتوحيد دائمًا، وقيل: له الطاعة، وإن كان فيه الوصب؛ رضي به العبد أو لم يرض[1] ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾ أي: تخشون وتعبدون.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أعطاكم من صحة جسم وسعة في الرزق وكثرة المال والولد كلها من الله ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ والشدة في البر والبحر ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ تصيحون، رافعًا بها صوتكم بالاستغاثة.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ أي: رفع عنكم الضر والشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ الأصنام.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ لام الصيرورة العاقبة[2]، يعني: ليكفروا بما أعطينا من الصحة والجسم ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أيها الكفرة، حوَّل الكلام من المغايبة إلىٰ المخاطبة، ومعناه: قل لهم فتمتعوا في دنياكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾ ما نزل لكم من العذاب.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ أي: مشاركة ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الحرث

---

(١) والواصب: الدائم الثابت في قول كل المفسرين (تفسير الطبري ١٧/ ٢٢١، البسيط ١٣/ ٨٤).

(٢) وتحتمل أن تكون لام كي، ويكون المعنىٰ: أنهم أشركوا بالله غيره ليجحدوا نعمته فاللام بيان عما هو بمنزلة العلة التي يقع لأجلها الشرك، وهؤلاء أشركوا بالعبادة ليكفروا النعمة (البسيط ١٣/ ٨٨).

والأنعام يعني للأصنام ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝٥٦﴾ يعني: عن افترائكم على الله، تسألون سؤال توبيخ وتقرير لإكرام الحجة.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ أي: يصفون له البنات بزعمهم وهم الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧﴾ يعني البنين، كقوله ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝٣٩﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾ أي: صار وجهه ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ متغيرًا من حاله ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨﴾ يتردد الحزن في قلبه وهو يكتمه.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ يستخفي من أهل ملته ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي: من حزن ما أخبر به، يؤامر نفسه ويشاورها ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: يحفظ ما بُشِّر به على هوان ومشقة، وهو استعمالها في الاحتطاب واسترعاء الأنعام[1].

﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ أي: يدفنه حيًا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾ أي: يقضون، الذكر لأنفسهم ولله الأنثى.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ المثل هو الصفة، والمثل السوء: أي جزاء السور وهو النار ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أي: الصفة العليا، وهو قوله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ولا مثل له.

وقيل: لهم مثل السوء أي جزاء السوء[2]، ولله المثل الأعلى[3]: كلمة لا إله إلا الله[4].

---

(١) البسيط ١٣/ ٩٤.

(٢) مثله في تفسير السمعاني ٣/ ١٨١.

(٣) في الأصل: العليا.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٠﴾ حكم أنَّ له المثل الأعلىٰ، ولهم المثل السوء.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ النَّاس: من تقدم ذكره، أي: لو يؤاخذهم بشركهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ أي: علىٰ وجه الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأنَّه إذا أخذهم بظلمهم لم يمهلهم إلىٰ منتهىٰ آجالهم، وإنما دخلت الأرض في هذه الكناية لأن الدابة لا تدب إلا علىٰ وجه الأرض.

وقيل: ذكر الناس عامة وأراد به ظلم جميع الناس، وفيه إشارة أنَّ الناس لهم ظلمة، فيحتمل أنَّ المراد منه أنَّ الظالم إذا ظلم وأعلن بظلمه وسكت عنه من رآه صار شريكًا له في الظلم، وعوقب لأجله، وإلىٰ هذا أشار أبو بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «ألا وإن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا علىٰ يديه أو رأوا منكرًا فلم يغيروه عنهم أعمهم الله بعقاب»[(١)].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ انقضاء آجالهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٦١﴾ قبل الأجل.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ أي: يصفون لله البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: يقولون بألسنتِهم الكذبَ.

وقرئ: «ألسنتهم الكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء، وهو صفة الألسنة، كما يقال صبور وصُبُر، ورسول ورُسُل[(٢)].

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ يقولون كذبًا أنَّ لهم الحسنىٰ أي: الجنة إن كانت كائنة؛

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥٣ بإسناد صحيح، ورواه أبو داود ٤٣٣٨، والترمذي ٢١٦٨ .

(٢) أي: أنه جمع، وهذه قراءة شاذة، ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٦١٤، وأبو البقاء في التبيان ٢/ ٧٩٩، ونسبها السمين في الدر المصون ٧/ ٢٤٧ لمعاذ.

والذكور من الولد في الدنيا ﴿لَا جَرَمَ [أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ]﴾ قسم بمعنىٰ حقًا، أي: حقًا لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ مَترُوكون منسيون في النار، وقيل: مُعجَّلون إلىٰ النار[1].

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك إلىٰ هذه الأمة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: قُبح أعمالهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قرينهم في الدنيا يتولىٰ إضلالهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في الآخرة.

بيَّن الله تعالىٰ أن كُفر هؤلاء القوم ليس ببدع، ولكن يتبعون سنن الكفار من قبل، ولكلا الفريقين عذاب أليم.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: لم ننزل عليك القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ يعني لكفار مكة ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من أمر الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ به.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني مطرًا ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يعني شقَّها فأحياها بالنبات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المطر والنبات ﴿لَءَايَةً﴾ أي: عبرة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يفهمون مواعظه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ إن اعتبرتم، وطريق العبرة: أنَّا ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ ولم يقل: «مما في بطونها» لأنه كناية إلىٰ النعم، معناه: لكم في الأنعام نِعمًا نسقيكم مما في بطونه، كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني منها حجرًا، ولأنَّ اللبن يكون من البعض لا الكل[2].

---

(١) وهذا المعنىٰ علىٰ قراءة الفتح في الراء، وعلىٰ قراءة نافع بكسر الراء، فالمعنىٰ: أفرطوا في القول والمعصية (معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٩).

(٢) اختلف النحويون في العلة التي من أجلها ذكر الكناية، انظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٨، تفسير الطبري ١٧/ ٢٣٧، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٨، البسيط ١٣/ ١٠٨.

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ انظروا إلىٰ قدرته، حيث خلصت اللبن من الفرث والدم، ونسقيكم من عجائب قدرتي فيه؛ أنه لم يغير بين الفرث طيب الشراب، ولم يغير حمرة الدم بياض اللبن، ثم قال: لبنًا خالصًا من الفرث والدم سائغًا للشاربين.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ رزقناكم ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ ولم يقل منها، ولا منهما، ومعناه: أعطاكم من ثمار الكروم والنخيل ما تتخذون منه سكرًا، قيل: هو الخمر، ونزلت الآية قبل تحريمها بمكة(١).

وقيل: هو النبيذ والعصير.

والرزق الحسن: الزبيب، قيل: الثمار والخل والدبس(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ [لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ] ٦٧﴾ لأني لو تركتها نيًا صار مرًا، طبختها بنار القيظ فصار حلوًا.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ الوحي: علىٰ وجوه.

الوحي: الإشارة، كقوله تعالىٰ في قصة زكريا: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾، أي: أشار.

والوحي: التسخير أيضًا، كقوله تعالىٰ في صفة الأرض: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ أي: سخرها، وأشار إليها بالتسخير.

والوحي: هو إلقاء مراد في نفس الحيوان، كوحي النحل وغيرها، وهو قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ أي: ألهمها وألقىٰ في نفسها حتىٰ تمر علىٰ ما طبع عليها.

---

(١) وهو قول ابن عباس رواه ابن جرير في التفسير ١٧/ ٢٤١.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤١، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٨٠، زاد المسير ٢/ ٥٦٨.

ووحي الله إلىٰ الأنبياء كأنه إشارة إلىٰ الرسل بواسطة جبريل[١].

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ مسكنًا ظاهرًا لوضع العسل ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أي: اتخذي من أجواف الشجر مسكنًا ظاهرًا أيضًا ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ما يُهيئ لك بنو آدم، ويبني لك من الكُوارات[٢]، أشار إلىٰ هذه الأشياء الثلاثة: الحجر والشجر والعريش؛ لأنها أطهر للعسل وأبقىٰ، لأنَّ التراب يفسده.

وأمرها باتخاذ المسكن قبل الأكل إشارة إلىٰ بني آدم أنْ يطلب لصدقته قبل أدائه موضعًا طاهرًا كيلا تفسد عليه صدقته[٣].

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من الأنوار والثمار ما يصلح لك ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ ادخلي في طرق الله التي سهلها لك في الجبال، وفي خلل الأشجار مذللة للآدميين[٤].

ذللاً: نصب علىٰ الحال[٥].

ثم رجع من خطاب النحل إلىٰ الحكاية فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ من بين أصفر وأحمر وأبيض وأخضر وذلك أفضلها ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في الشراب شفاء لبعض الناس لا كلهم، لأنَّ صاحب البلغم ينفعه،

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر ٦٢١، بصائر ذوي التمييز ٥/ ١٧٧.

(٢) كُوارة النحل شيء يتخذ من القضبان والطين وهو ضيق الرأس تعسِّل فيه (تاج العروس ١٤/ ٧٧).

(٣) وهذا من التفسير الإشاري، وهو بعيد الشبه.

(٤) وعلىٰ قول مجاهد فالتذليل للنحل، أي: ذلل الله لها السبل، فلا يتوعر عليها مكان سلكته (تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٩)، وانظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩.

(٥) التبيان ٢/ ٨٠٢، الدر المصون ٧/ ٢٦٢، وهو إما حال من السبل، أو حال من اسلكي، ولواحد منه ذلول.

ولكن صاحب الصفراء يضره، كقوله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني به رسول الله وحده.

وقيل: معناه في القرآن شفاء للناس[١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ في أمر الله.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ في بطون أمهاتكم أطوارًا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ إلىٰ الهرم ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ﴾ أي: لا يعقل بعد عقله شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿قَدِيرٌ ۝٧٠﴾ علىٰ تحويلهم من حال إلىٰ حال.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي: فضَّل المالك علىٰ المملوك في الرزق، أي: في المال والخدم ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: لا يردُّ المولىٰ علىٰ ما ملكت يمينه مما رُزق حتىٰ يكون المالك والمملوك سواء، وهذا مثل ضربه الله عز وجل؛ لأنَّ المالك لا يجعل مملوكه في ملكه سواء، فكيف تقولون: إنَّ الأصنام شركاء الله عز وجل في الربوبية[٢].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١﴾ تجوِّزون من الله ما لا تجوِّزون من أنفسكم.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من جنسكم نساءً لمنافعكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ من نسائكم ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ولدًا وولد الولد، وقيل: هم الخدم[٣].

---

(١) القولان مشهوران، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٨١ ورجح الطبري أن عود الضمير علىٰ العسل.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٥٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٨٢.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٢.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ اللذيذات ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني: بالأصنام، وقيل: بالشيطان يؤمنون ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ قيل بالطيبات ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾ أي: لا يقدر أنْ يرزقهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالمطر، ومن ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1] بالنبات ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أي: رزقًا، وهذا مصدر جاء علىٰ خلاف صدره[2] ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ أي: لا يقدرون ذلك.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ أي: لا تصفوا لله أشكالاً وأشباهًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أنه لا شبيه له ولا ولد ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ أي: وصف صفة عبد مملوك ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ وهو الكافر ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ وهو المؤمن ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ أي: لا يستوي الذي يشبه المملوك العاجز، [و]المؤمن الذي يقدر علىٰ الإنفاق يقدم لنفسه ما شاء[3] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ يعني: الحمد علىٰ غناه عن خلقه، وقدرته علىٰ المنع والإعطاء.

ثم قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ وهو الأخرس لا يسمع ولا يعقل ولا ينطق ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: عِيال علىٰ من يتولاه[4]، هذا مثل ضربه الله للصنم لا يسمعه ولا يبصر ولا ينطق، وهو كلٌّ علىٰ عابده، ولا ينفعه ولا يضره.

---

(١) فصل بين الواو والأرض بـ: من.

(٢) البسيط ١٣/ ١٤١.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦٠.

(٤) البسيط ١٣/ ١٤٦.

﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يدعوه من ليل أو نهار لدفع ضر أو جر نفع لا ينفعه بشيء ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وهو الله تعالىٰ، يدعو الخلق إلىٰ توحيده وعبادته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ يهدي الخلق إلىٰ دين الإسلام.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: ما غاب عن أهل السماوات وأهل الأرض.

قال مقاتل: سَأَلَتْ قريش رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم متىٰ الساعة، فنزلت الآية(١).

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أي: أمره لقيام الساعة كلمح البصر وهو طرف العين، لا شيء أسرع منه، لأنه: قوله كن فيكون.

﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ بل هو أقرب من طرف البصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ من إقامة الساعة والبعث وغيره.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ صغارًا ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فعلَّمكم الله بعد الجهل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾ لتسمعوا ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لتبصروا ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لتفقهوا به، وَ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ الله علىٰ نِعمه.

ثم زاد في البرهان فقال ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ﴾ أي: في حال سخرتها وطيرانها ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ ما بين السماء والأرض، وكذلك السُّكاك واللُّوح -برفع اللام- والهواء يجمع الكل(٢).

(١) تفسير مقاتل ٢/ ٢٣١، ومثله في الكشف والبيان ١٦/ ٩٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٤. والسُّكاك: الهواء الذي يلاقي أعنان السماء، واللُّوح الهواء بين السماء والأرض، ومن كلام العرب: لا أفعل ذلك ولو نزوت في اللوح (تاج العروس ٧/ ١٠١).

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ يعني: الطير ما يحفظهنَّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ في حالة القبض والبسط ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ تسكنون منها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ أي: فساطيط وخباء وقبابًا ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تجدونها خفيفًا ويخف عليكم حملها ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ والظعن الارتحال من بقعة إلىٰ بقعة، ويوم إقامتكم سكونكم، يخفُّ عليكم ذلك في الحالين ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا﴾ أي: أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز؛ تتخذون ﴿أَثَٰثٗا﴾ لمتاع البيت، قيل: الأثاث جميع المال ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ أي: وقت غير مؤقت إلىٰ أن تبلىٰ وتفنىٰ.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ يعني: مِن بيوت المدر والأشجار تستظلون.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ أي: غِيرانًا وأسرابًا[1]، حتىٰ يكنَّكم، ولتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾ يعني: القمص من القطن والكتان ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ وتدفع عنكم البرد، ولكن ذكر الحر دون البرد اكتفاءً بأحدهما عنهما ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ كلُّ ما يُلبس لدفع الأذىٰ قيل له: سرابيل، وأراد به الدرع يتقون بها في الحروب عن العدو[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيما بقي كما فعل من قبل ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ لكي تخلصوا لله بالتوحيد.

وقيل: تدخلون في السلامة من بأس العدو[3].

---

(١) البسيط ١٣/ ١٥٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٥، البسيط ١٣/ ١٦٠.

(٣) وكلا القولين مشهوران (انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٠).

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرضوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢﴾.

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ بأنها من الله جل جلاله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بإضافتهم ذلك إلىٰ الأصنام بقولهم: إن الأصنام شفعاؤنا.

وقيل: يعرفون نعمة الله يعني محمدًا، ثم ينكرونها يعني ينكرون رسالته.

﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾ بهذه النعمة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ قيل: من كل ألف واحد مؤمن والباقي كافر.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أذكر لمن أنكر هذه النعمة: يوم نحشر من [كل] جماعة نبيًا يشهد عليهم[1] بالبلاغ ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار والرجوع إلىٰ الدنيا ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾ أي: يسترضون، معناه: لا يكلفون عملاً يرضىٰ به ربهم، والآخرة ليست بدار العمل[2].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي الكفار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ طرفة عين ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ أي: يؤجلون.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أي: أصنامهم ومعبودهم في الآخرة ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ أربابًا ونعبدهم، أخبر الله عز جل أنهم كانوا إذا صادفوا الأصنام استراحوا إلىٰ الإحالة عليها، وظنُّوا أنَّ ذلك ينجيهم من العذاب.

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ يعني: قالت لهم الأصنام: إنكم لكاذبون في اتخاذكم الأصنام إيانا معبودًا ونحن لا نستحق العبادة.

---

(١) في الأصل: عليه. انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٢٨٦.

(٢) استعتب فلان إذا طلب أن يُعتب أي يرضىٰ، واستعتبته أي: إذا طلبت منه أن يرجع إلىٰ رضىٰ صاحبه، (تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٤، البسيط ١٣/ ١٦٥).

وقيل: إنكم كاذبون في قولكم؛ لأنَّا لا ندعوكم إلىٰ العبادة، وما شعرنا بعبادتكم إيانا.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ فحينئذ استسلم العابد والمعبود لله عز وجل، وانقادوا لمعرفة الله بالوحدانية، وأقبلوا إلىٰ العدو وإلىٰ ما صنعوا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بطل عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾ من عبادة الأصنام.

ثم ذكر عقوبتهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الناس مع كفرهم ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ [بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ] ۝٨٨﴾.

قال ابن عباس: خمسة أنهار من صفر[1] مذاب يسيل من تحت العرش عليهم، ثلاثة علىٰ مقدار الليل، واثنان علىٰ مقدار النهار[2].

وقد تقدم تفسير زيادة العذاب في سورة إبراهيم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نبيًا يشهد عليهم من أنفسهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا﴾ أي: مزكيًا ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ علىٰ أمتك الكافر والمؤمن ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيانًا إلىٰ كل ما يحتاجون إلىٰ بيانه من الحلال والحرام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ هدىٰ من الضلالة ورحمة من العذاب وبشرىٰ ﴿لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ المخلصين لله بالتوحيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ قال الضحاك: العدل شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان: الصلاة والصيام والزكاة والحج[3] ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

---

(١) في الأصل: صبر، والتصحيح من تفسير مقاتل ٣/ ٣٠٦، حيث صدر المصنف.

(٢) هذا قول الكلبي ومقاتل، فنسبته إلىٰ ابن عباس لوروده من طريقهما (تفسير مقاتل ٣/ ٣٠٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٨٦).

(٣) وهو مروي عن ابن عباس، كما في تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٨٧.

يعني: صلة القرابة وإن قطعوا ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ الفحشاء: المعاصي، والمنكر: ما يتناكر الناس فيما بينهم ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ هو الظلم.

قال أهل الإشارة: العدل لا يستطيعه أحد سوىٰ الأنبياء، لأن الله تعالىٰ يقول ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فلما لم يستطع أحد العدل بين المرأتين كيف يستطيع العدل في أوامر الله ونواهيه.

والإحسان: هو الاستقامة علىٰ الطاعة إلىٰ الموت علىٰ رؤية المِنَّة من الله، وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

والفحشاء: الاستهانة بالشريعة.

والمنكر: الإصرار علىٰ الذنوب بعد الارتكاب.

﴿يَعِظُكُمۡ﴾ بألطف أدب، وينهاكم بأحسن تنبيه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ تتعظون وتنتهون.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ أتموا الحلف بالوفاء إذا حلفتم ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ وتسديدها ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ﴾ علىٰ ما قال الفريقان ﴿كَفِيلًاۚ﴾ أي شهيدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ من الخير والشر.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ في نقض العهد ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ قيل: هي المرأة من قريش تسمىٰ رايطة[1]، كانت تغزل الصوف والقطن ثم تجلس فتنقض ما

---

(١) في الأصل: رابطة، وهو تصحيف، ومثله في تنوير المقباس ٢٢٩، وفي تفسير مقاتل ٢/ ٢٣٥، والكشف والبيان ١١٢/١٦ عن مقاتل والكلبي: ريطة، وهو صحيح، وفي البسيط ١٧٨/١٣: رائطة، وهو صحيح كذلك، ولم يسمها غيرهما من أهل التأويل، إنما يقولون: امرأة حمقاء بمكة معروفة عندهم، وهذا من سمات تفسير الكلبي ومقاتل، أعني تسمية

غزلت[1].

﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ أي: إحكام وفتل ﴿أَنكَٰثٗا﴾ أي: أنقاضًا، واحدها نكث[2]، وهكذا كان دأبها، وكانت حمقاء، فضربها الله لأهل مكة مثلاً في نقض العهد.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ أي: عهودكم، معناه: لا تكونوا متخذين أيمانكم ﴿دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: غلاً وخيانة ومكرًا، أي: لا تخدعوا الناس بإيمانكم.

والدَّخَل: ما أدخل في الشيء علىٰ فساد[3]، معناه: لا تغدروا.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ معناه: لا تكون جماعة أزيد من جماعة فتغدروا بهم لكثرتهم[4] ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ يختبركم بالوفاء والنقص والقلة والكثرة.

المبهمين في القرآن، ويتفردون في هذا الباب، وعامة ما يذكرونه منكر، وقد أشرت إلىٰ بيان ذلك في كتاب: مشيخة أبي القاسم الحسكاني.

(١) قيل: لحمق فيها، وقيل لوسوسة (البسيط ١٣/ ١٧٩).

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٨٥، الكشاف ٢/ ٦٣١.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٨٦.

(٤) في الأصل: فتعذروهم لكثرة، وهو تصحيف أحال المعنىٰ، وأفسد المراد.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعزّ، فينقضون حِلْف هؤلاء، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ منهم، فنهوا عن ذلك (تفسير الطبري ١٧/ ٢٨٦).

وقال أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٩: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ، أي: فريقا منكم، هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ، أي: هي أكثر وأغنىٰ من أمة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كندة ومراد، وذلك أنه كان بينهم قتال حتىٰ كَلَّ الظهر، ثم تواعدوا لستة أشهر حتىٰ يصلح الظهر -أي: الدواب- ولحم الخيل. فلما مضت خمسة أشهر أمر قيس بن معد يكرب بالجهاد إليهم، فقالوا: قد بقي من الأجل شهر، فمكث حتىٰ علم أنه يأتيهم بعد انقضاء الأجل، فقتلوه وهزموا قومه».

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ من أمر البعث والدين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على ملة الإسلام ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فينور قلبه للإيمان لمن كان أهلاً ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة لا محالة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا من الوفاء والنقض والكُفر والإيمان.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دغلاً وخديعة ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ يخوفهم بانقلاب الأمر والدولة عنهم ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العقوبة ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بصدكم عن وفاء العهد ورددتم الناس[1] عن طاعة الله ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ في الآخرة بنقض العهد الذي عهد به الأنبياء بالإيمان به والبيعة لدينه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تختاروا بنقض عهد الله عرضًا يسيرًا ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب للموفين بالعهد ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأفضل من عرض الدنيا وما فيها للناقضين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وتصدقون بثواب الله.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي يفنىٰ ويذهب ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ دائم لا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ علىٰ الوفاء ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ من ترك الغدر.

والآية نزلت في كندة ومراد، وكان بينهم قتال حتىٰ كلَّ الظهر، فلما مضت خمسة أشهر أمر قيس بن معدي كرب قومه بالجهاز إليهم، فقالوا: قد بقي من الأجل شهر، فمكث حتىٰ إذا علم أنه يبلغ إليهم بعد انقضاء الأجل بيوم وسار

---

(١) في الأصل: النا. غير منقوطة.

إليهم، فإذا هو يوم انقضىٰ فيه الأجل، فقتلوه وهزموا قومه، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا﴾ الآية[١].

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ يعني: جعلناه قنوعًا بما أوتي من الدنيا وإنْ قلَّ، وقيل: الرزق الحلال، وقيل: الجنة، عن قتادة[٢].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ أي: نثبتهم في الآخرة ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ في الدنيا من الإيمان والطاعة، ونعفوا عن سيئاته.

﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني: إذا أردت أن تقرأ القرآن ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ أي: استعذ به وبتوفيقه من شر الشيطان الرجيم الملعون.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ وحجة وقوة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ أي: يفوِّضون أمرهم إلىٰ الله.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي: يطيعونه لأنَّ من أطاع أحدًا فقد تولاه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾ أي: يشركون بالله لأجل الكذب.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ معناه: إذا نسخنا آية فيها شدة وصعوبة بآية ألين منها ويكون العمل بها أسهل ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من الناسخ والمنسوخ، وما فيه مصالح العباد ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني أهل مكة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ علىٰ الله تأمرنا ثم تنهانا عنه ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١﴾ أن الله أنزل ذلك[٣].

---

(١) تفسير مقاتل ٢/ ٢٣٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٠.

(٢) رواه عنه الطبري في التفسير ١٧/ ٢٩١، والثاني قول الضحاك، وعن ابن عباس: السعادة.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩١.

﴿قُلْ﴾ أنت يا محمد ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: جبريل الطاهر نزل جميع القرآن من الله عز وجل ناسخه ومنسوخه بالحق ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لتطمئن قلوب المؤمنين، ويستيقنوا بما فيه من الثواب والعقاب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: القرآن هاديًا ومبشرًا للموحدين.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي: يعلِّمُ محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم بشر: عائش ويسار، وكانا غلامين يهوديين قد أسلما، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يستروح بكلامهما من أذىٰ الكفار، فقال الكافرون: إنما يعلمه عايش ويسار.

وفي رواية: جبر ويسار[1].

ثم قال ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي: لغة جبر ويسار لغة عبرية، أو سرياني، أو رومي ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ لغة تعرفها العرب، فالعربي كيف يتعلم من العجمي مثل هذا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ الحجة، وقيل: إلىٰ دينه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ ثم نفىٰ الكذب عن رسوله فقال:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني بالقرآن وبمحمد ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ علىٰ الله لا محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ نزلت في عبد الله بن أبي سرح ارتد بعد الإيمان.

---

(١) وهي رواية الكلبي كما في تنوير المقباس ٢٣٠. وقيل هو واحد: فلم يذكر مقاتل في تفسيره ٢/ ٢٣٨ إلا أبا فكيهة يسارا.

وقيل: اسمه بلعام، وقيل: يعيش، وقيل: جبر (روىٰ ذلك كله الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٩٨، وانظر: الكشف والبيان ١٦/ ١٢٧).

وقيل: نزلت في عمار بن ياسر عذَّبه الكفار حتىٰ كفر بالله بلسانه[١].

المعنىٰ: من كفر بالله بعد إيمانه مثل عبد الله بن أبي سرح فعليهم غضب من الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ مثل عمار بن ياسر.

وكان جبر رجلاً يهوديًا سمع رسول الله يقرأ سورة يوسف، فأتاه وأسلم، فضربوه حتىٰ عاد إلىٰ اليهودية[٢].

فالله تعالىٰ أطلق الغضب علىٰ المرتدين ثم استثنىٰ مَن كان قلبه ثابتًا علىٰ الإيمان، فقال: إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان: خالصًا مقرًا لله بالوحدانية، فإنه خارج من هذه الشريطة، وعلىٰ المرتدين لسانًا وقلبًا.

﴿[وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا] فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ اختاروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حب حياة الدنيا ﴿عَلَى﴾ حياة ﴿ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ من لم يكن أهلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ عما يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لابد ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ المغبونون.

---

(١) روىٰ الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٥: عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذّبوه حتىٰ باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلىٰ النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فقال النبيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: كَيْفَ تَجدُ قَلْبَكَ؟ قال: مطمئنا بالإيمان. قال النبيُّ صلىٰ الله عليه وسلم: فإنْ عادُوا فَعُدْ.(وانظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٣، الكشف والبيان ١٦/ ١٣٥).

(٢) ثم أسلم مولىٰ جبر، وهاجر هو ومولاه، كما في الكشف والبيان ١٦/ ١٣٩.

وقيل: لا جرم حقًا وجب عليهم العذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم [من] مكة إلىٰ المدينة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: عُذِّبُوا علىٰ الإسلام ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ علىٰ ما أصابهم لوجه الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ هذه الفتنة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما سلف من ذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ بهم بعد التوبة.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي: تخاصم وتدافع وهو يوم القيامة، وقيل: تخاصم مع نفسها ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ بنقصان الحسنات وزيادة من سيئاتهم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: مثل أهل قرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ وهم أهل مكة آمنون من أعدائهم إن يغيروا عليهم ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ من القتل والسبي ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ كثيرًا واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وناحية ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم الله عليهم، وهو القرآن ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: عذَّبهم بدعاء رسول الله سبع سنين؛ بالقحط والخوف من سرايا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم(١).

وإنما سمىٰ الجوع لباسًا لأنه شملهم جملة، كما يشمل الثوب من لبسه.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: بكفرانهم النعمة، وهذه الآية مدنية.

إنَّ النَّبي صلىٰ الله عليه وسلم دعا عليهم بعد ما تحول عنهم، فقال: اللهم اشدد وطأتك علىٰ مُضر، واجعل سنيهم كسِني يوسف، فقحطوا حتىٰ أكلوا

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٩، الكشف والبيان ١٦/ ١٤٧.

الجيف والعظام البالية[١]، ثم بعثوا إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أبا سفيان، وقالوا: يا محمد عاديت الرجال، فما بال النساء والصبيان قد هلكوا، فرحمهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وبعث إليهم الطعام، وأغاثهم الله برحمة رسول الله؛ كما أخذهم بدعائه، فقال[٢]: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ بعدما ذُقتم عذاب الجوع ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ بالإيمان بنبيه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ إن كنتم تريدون بتحريم ما حرمتم رضا الله؛ فإن رضا الله في تحليل ما حلل، وتحريم ما حرم، وأراد به تحليل البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ثم بيَّن المحرمات فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ عند الذبيحة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: طالب لها ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: لا يتعدىٰ من سد الحلة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وقد تقدم تفسيره.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: لما تصفه ألسنتكم

---

(١) وهذا في صحيح البخاري ٨٠٤، ومسلم ٦٧٥ من حديث أبي هريرة، وفيهما: البخاري (٤٨٢١) ومسلم (٢٧٩٨) من حديث عبد الله لأن قريشا لما استعصوا علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتىٰ أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلىٰ السماء فيرىٰ ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ فأتيَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقيل له: يا رسول الله: استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، قال: «لمضر؟ إنك لجريء» فاستسقىٰ لهم فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلىٰ حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: يعني يوم بدر

(٢) في الأصل: فقالوا.

بالكذب ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ من البحيرة وغيرها ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ إنه أمر به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ أبدًا.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ معيشتهم في الدنيا يسيرة، ومنفعتها قليلة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٧﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: مالوا عن الإسلام ﴿حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ من الشحوم وغيرها، وهو في سورة الأنعام[١] في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ﴾[٢].

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بالتحريم عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ بمعصيتهم ربهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ مع هذا كله ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قيل: ركوب الذنب من صاحبه جهالة، علم أنه ذنب أو لم يعلم.

وقال الضحاك: من عمل بمعصية فهو جاهل لا محالة، لأنه خاطر بنفسه فلا يدري أيغفر له أم لا[٣].

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ توبة نصوحًا ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ عملهم بالتوبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٩﴾ غفور لما سلف من ذنوبهم، رحيم بهم فيما بقي من أعمارهم.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ اجتمع فيه من الخير ما يكون في أمة، وقيل: إمامًا يقتدىٰ به[٤].

---

(١) في الأصل: الأنفال، وهو تصحيف.

(٢) انظر: تفسير سورة الأنعام، آية١٤٦

(٣) سبق بيان ذلك في تفسير سورة النساء، آية: ١٧.

(٤) زاد المسير ٢/ ٥٩١.

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعًا ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً إلىٰ الحق مخلصًا ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: ممن يعبد الأصنام.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ لنعمائه ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ اختاره ربه بالخلة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ إلىٰ الدين والنبوة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الثناء الحسن ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: مع المرسلين.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: استقم علىٰ دين إبراهيم حنيفًا تاركًا لكل دين ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ أي: لم يكن علىٰ ملة اليهودية والنصرانية ممن أشركوا بالله.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ يعني: اليهود، ألزم عليهم تعظيم السبت وتحريم العمل فيها.

واختلافهم: أنهم أُمروا بالجمعة فقالوا: نريد السبت لأنه آخر يوم فرغ فيه من خلق السماوات والأرض، فكره موسىٰ مخالفتهم، فقال: يا رب إنَّ قومي أبوْا إلا السبت فاجعله عليهم، أي شدد عليهم في ذلك، ثم جاء عيسىٰ قومه بالجمعة، فقالوا: لا نريد ذلك، واختاروا يوم الأحد، فأعطىٰ الله الجمعة لأمة محمد وحُرموا فضيلتها[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ علىٰ أنبياء الله.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ يعني: ادع الناس إلىٰ دين الله بالقرآن ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لين من القول ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ أي ناظرهم ﴿بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٣٢٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٧، زاد المسير ٢/ ٥٩٢.

أَحۡسَنُۚ﴾ ولا تكن فظًا غليظ القلب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ أي: أعرض ﴿عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ وبثوابهم.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ وذلك أنَّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم لمَّا رأىٰ عمه حمزة قتيلاً وقد مُثِّل [به] بكىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وقال: والله لئن ظفرت بهم لأمثلنَّ بثلاثين منهم مكانه، وروي: بسبعين، فنزلت: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[١] أي: جازهم بقدر ما عملوا من الجنابة ولا تجاوزوا ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾ فلم تعاقبوا ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بتوفيق الله ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: علىٰ الكفار إن لم يدخلوا في دينك، وقيل: لا تحزن علىٰ الشهداء لأن الله أنزلهم منازلهم ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ وذكر في موضع آخر: «ولا» تكن بإثبات النون، لأنَّ حذفها وإثباتها قريبتان، لأنَّ النُّون يخفىٰ في الخيشوم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ وحَّدوه وأطاعوا له معينهم وناصرهم، ويدفع عنهم بأس العدو ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ بالعمل فيما بينهم وبين ربهم.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله له ذنوبه-: بلغنا عن أُبي بن كعب أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة النحل لا يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية»[٢].

---

(١) وهذا مروي عن الشعبي وعطاء بن يسار وابن جريج، ويلزم من ذلك أن تكون هذه الآيات مدنيات (تفسير الطبري ١٧/ ٣٢٣). وفي الآية أقوال أخرىٰ ذكرها الطبري في تفسيره.

(٢) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٦/ ٨، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٨٣.

سورة بني إسرائيل

مكية كلها[١].

وقال ابن عباس: غير قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿نَصِيرًا ۝٤٥﴾ نزلت بالمدينة[٢].

وهي مائة وإحدىٰ عشرة آيةً في الكوفي، وعشر آيات في المدني والبصري[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ نصب علىٰ المصدر، معناه: سبَّح له سبحانًا[٤]، والأصح: أنَّه نصب علىٰ التعجب والتهويل كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[٥].

وأصل التسبيح: التعظيم لله وتنزيهه عن ما [لا] يليق بصفته، وبراءة له من السوء.

المعنىٰ: تباعد الله عن السوء وتنزَّه الذي[٦] أسرىٰ بعبده.

﴿لَيْلًا﴾ أي: سيَّر عبده ليلاً ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني مكة، والحرم كله

---

(١) البيان في عد آي القرآن ١٧٧

(٢) وعن مقاتل مثله وزاد آيات أخرىٰ، كما في تفسيره٢/ ٢٤٦، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٧ عن ابن عباس وقتادة.

(٣) البيان في عد آي القرآن ١٧٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٣٢٩، البسيط ١٣/ ٢٤٣.

(٦) في الأصل مكانها: أي، وأراه تصحيفا، ولا معنىٰ له، والصواب ما أثبت.

مسجد ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بيت المقدس ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بإجراء الأنهار، وإنبات الأشجار، وإخراج الثمرات ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ يعني: البُراق والملائكة والنبيين والجنة والنار وما فيها من العجائب[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالة قريش حين كذَّبوه ﴿ٱلْبَصِيرُ ①﴾ بهم وبعقابهم.

وقصة المعراج طويلة، وذكر عجائبها كثيرة، وعلىٰ الاختصار: ما روت أم هانئ أخت علي ابن أبي طالب قالت: كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم صلَّىٰ العشاء في بيتي ذات ليلة، وصليت معه، ثم تركته علىٰ مصلاه، ونمت فما انتبهت إلا بتنبيهه إياي وقت الغداة، فقال: قومي فإني رأيت عجبًا، فقلت: يا رسول الله كل أمرك عجب، فما رأيت؟ قال: كنت جالسًا علىٰ مصلاي هذا، إذ جاءني جبريل فقال: اخرجن فخرجت فإذا أنا بملك واقف علىٰ الباب، ومعه دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فقال لي: اركب فركبت، فكلما نزلت في وادٍ طالت يداها وقصرت رجلاها، وإذا صعدت جبلاً طالت رجلاها وقصرت يداها، وكان خطوها مد بصرها، حتىٰ ذهبت بي إلىٰ بيت المقدس، فرأيت إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ مع نفر من الأنبياء، فأممتهم وصلوا خلفي، ثم رأيت ما رأيت، وقص القصة، ثم صليت معكِ الغداة، ثم خرج، فقلت: إلىٰ أين يا رسول الله؟ فقال: أخبر قريشًا بما رأيت، فقلت: إذًا يكذبوك يا رسول الله، فقال: لا بد من التبليغ، فخرج وأخبرهم بما رأىٰ، فمن بين مكذِّب، ومن بين واضع يديه علىٰ رأسه، ومن بين حاثي التراب علىٰ وجهه، ثم قالوا: إن لنا في طريق الشام إبلاً فأخبر بخبرهم، فقال: يقدم عليكم العير يوم كذا مع إشراق الشمس، يقدمها جمل أزرق، فخرجوا ذلك اليوم ينتظرون فإذا قائل يقول: طلعت الشمس، والآخر يقول: أقبلت العير يقدمها جمل أزرق، فغلب عليهم الشقاء فلم

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠، البسيط ١٣/ ٢٤٨.

يؤمنوا[١]. وإنما سُمِّيَ المسجد الأقصىٰ لأنه ليس وراءه إذ ذاك مسجد.

ثم قال ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ معناه: أسرينا بمحمد إلىٰ المعراج، وآتينا موسىٰ الكتاب -يعني: التوراة- جملة واحدة[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: جعلناه دليلاً وهاديًا من الضلالة ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أمرناهم ألا يتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ أي: ربًا، وقيل: لا يتوكلوا علىٰ غيري[٣].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب علىٰ أنه نداء مضاف، يعني: يا ذريةَ من حملنا، فلا تتخذوا من دوني وكيلاً[٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ شاكرًا لأنعام الله، يعني نوحًا، كان يشكر حين يأكل ويشرب، ويحمده حين يفرغ، ويذكره حين يقوم ويقعد، وبكل خطوة يخطوها[٥].

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أخبرناهم، وبيَّنا إعلامًا.

والقضاء: فصل الأمر علىٰ إحكام، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته، [كـ]قوله تعالىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي: خلقهن تامًا، ومعناه: أعلمناهم بالحجة الظاهرة[٦].

---

(١) قصة الإسراء مخرجة في الصحيحين، وقد أحسن ابن كثير جمع أحاديثها في تفسيره ٥/ ٦.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠.

(٣) وهما متلازمان، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠، وعن مجاهد أن وكيلا هنا بمعنىٰ شريكا (تفسير الطبري ١٧/ ٣٥٣).

(٤) في نصبها خمسة أوجه، هذا أحدها، والمقدم عند الزمخشري: النصب علىٰ الاختصاص (الكشاف ٢/ ٦٤٨، الدر المصون ٧/ ٣١٠).

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٣٥٤.

(٦) وهذا قول ابن عباس والمفسرين (تفسير الطبري ١٧/ ٣٥٥، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٧، البسيط ١٣/ ٢٥٣).

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ أي: في أرض المقدس تفسدون فسادًا ظاهرًا، وتطغون طغيانًا عظيمًا، وتجبرًا[1] شديدًا، فتهلكون بذلك.

قال مقاتل: كان بين الهلاكين مائتان وعشر سنين[2].

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ أي: عتوًا شديدًا، والعتو: الجرأة على المعصية، وهذا أمر أخبر الله به أنه كائن فيهم لا محالة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: وعد أولىٰ المرتين وإنزال أول العذابين ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: سلَّطنا عليكم ﴿عِبَادٗا [لَّنَآ]﴾ عبيدًا من عبادنا ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ذو قتال وشدة في الحرب، وهو بخت نصَّر وأصحابه، فقتل منهم مائتي ألف وسبعين ألفًا، وسبىٰ اثنين وسبعين ألفًا، وذهب بهم إلىٰ بابل وأحرق التوراة وخرب بيت المقدس، وألقىٰ فيه الجيف، عقوبة لهم بقتلهم يحيىٰ بن زكريا، ونشرهم زكريا بالمنشار[3].

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ طافوا خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه، فقال نبيهم أرميا: أي رب، أي القرىٰ تأمن عقوبتك، وأي العباد يأمنون سطوتك، بعد بني إسرائيل، سلطت عليهم أعداءك عبدة النيران، حتىٰ قتلوهم، وخربوا بيتك المعمور، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا أرميا، إن من عصاني فلا يستنكرن نقمتي، إنَّما سلطت عليهم شرار عبادي لهوانهم عليَّ، ثم قال: يا أرميا، إني أشكو إليك بني إسرائيل، كنت لهم كالداعي الشفيق أجنبهم العرة، حتىٰ صاروا كباشًا ينطح بعضهم بعضًا، فياويلهم.

---

(١) في الأصل: تحيرا، وهو تصحيف.

(٢) تفسير مقاتل ٢/ ٢٤٩، وفي ذلك خلاف بين العلماء.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٣٥٧، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠.

ثم قال ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾ كائنًا موضع الشر[١] في اللوح المحفوظ.

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: الدولة والظهور علىٰ أعدائكم، وذلك أنَّ بخت نصَّر مات وقام ابنه مقامه، وبقي أهل بيت المقدس ببابل ألف شهر، وكان قصة عرير[٢] ظهر بها، فلما مات بخت نصَّر ظهر رجل من أهل همدان، يقال له: كورش وقيل: لورش[٣]، غزاهم وقهرهم وقتل بخت نصَّر، وسكن في الدار، وتزوج امرأة من بني إسرائيل، فسألته المرأة أن يرد قومها إلىٰ أرضهم، فردَّهم إلىٰ المقدس وبنىٰ المسجد بعد خرابه، فذلك قوله: ﴿رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أموالكم وأولادكم ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ أي: عددًا ورجالاً مما كنتم من المرة الأولىٰ.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ يعني: إن أطعتم الله فثوابه لأنفسكم ولا تهلكوا ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾ أي: عصيتم ﴿فَلَهَاۚ﴾ أي: مضرتها عليكم، وقيل: لها الخوف والرجاء، ولها رب غفور، وسبيل إلىٰ التوبة[٤].

فعادوا وعصوا ثانية، فسلَّط الله عليهم ططوس بن أطيانوس، فقتلهم كما قتلهم بخت نصَّر، وهو ملك أرض نينوىٰ رئيس الروم[٥].

---

(١) كذا في الأصل، له وجه، وقد يكون الصواب: موضع الشرط، وهو: إذا جاء..

(٢) كذا، ولم يتبين لي صوابه. ويحتمل: فضة عرين ظهر بها، أو: قصة عزير ظهر بها، إذ كن لعزير ذكر في هذا التخريب، فالله أعلم.

(٣) انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠١، في تفسير مقاتل: ٢/ ٢٥٠: كروس بن مزدك الفارسي.

(٤) البسيط ١٣/ ٢٦١.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٢، زاد المسير ٣/ ١١.

وهو قوله ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: وقت آخر الفسادين والهلاكين ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: ليسوءَ مجيؤهم وجوهكم، أي: يسودها تقبيحًا.

وقرئ: «لنسوءَ وجوهكم» فكان الفعل مضافًا إلىٰ الله، أي: نسوءُ نحن وجوهكم[1].

وقرئ: «ليسوءَ» أي: ليسوءَ هؤلاء القوم وجوهكم[2].

﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ بالتخريب فيخربونها، ففعل بهم العدو[3] كما فعل بخت نصَّر ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: ليُهلكوا ويُفسدوا ويُفرقوا قومكم ﴿مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧﴾ أي: غلبوا، أي في حال علوهم[4].

والتتبير: التفريق والتكسير، يقال لكل شيء متكسر من الذهب والفضة والحديد والزجاج: تبر[5].

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ بعد هاتين المرتين، ويردكم إلىٰ أرض المقدسة بعد تفريقكم في البلاد ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ أي: عُدتم إلىٰ المعصية بعد هاتين المرتين عدنا عليكم بالعذاب.

وقيل: إن عُدتم إلىٰ تكذيب محمد عُدنا عليكم بالكفارات والجلاء والقتل والجزية.

---

(١) وهي قراءة الكسائي، بالنون ونصب الهمزة علىٰ لفظ الجمع (السبعة ٣٧٨، النشر ٢/ ٣٠٦).

(٢) وهي قراءة ابن عامر والكوفيين إلا حفصا (السبعة ٣٧٨، النشر ٢/ ٣٠٦) وهذا المعنىٰ الذي ذكره المصنف ذكره المفسرون في توجيه هذه القراءات، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٣٧١، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨، البسيط ١٣/ ٢٦٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٢٣.

(٣) في الأصل مصحفة، وصورتها أقرب إلىٰ : الندم.

(٤) الكشف والبيان ١٦/ ٢٨٩.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨.

ويقال: المبعوث[١] علىٰ ظلمهم وإهلاكهم في المرة الأولىٰ جالوت، فقتله داود.

وقال سعيد بن جبير: سنحاريب. وقيل: العمالقة[٢].

وقوله ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قيل: إنهم عصوا ثالثًا فبعث الله عليهم ططوس بن أسبسيانوس الرومي، فأهلكهم وخرب البيت، فلم يزل خرابًا إلىٰ وقت عمر بن الخطاب، ثم عادوا إلىٰ العصيان في زمن المؤمنين فأذلَّهم الله بالجزية[٣].

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ⑧﴾ محبسًا.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يعني: إلىٰ الطريقة التي هي أصوب وهو توحيد الله تعالىٰ ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ⑨﴾ ثوابًا عظيمًا، وهي الجنة.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: وبشرهم أن الذين لا يؤمنون من أعدائهم بالآخرة ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ⑩﴾ في الآخرة.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ وهو النضر بن الحارث كان يدعو علىٰ نفسه بالهلاك واللعنة والخزي، وهو وقوله: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية[٤].

وقيل: يدعو علىٰ نفسه شيئًا يزعم أنه خير، ولكنه شر.

---

(١) في الأصل: البعوث.

(٢) هذه الأقوال مذكورة في المصادر، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٣٧٢، معالم التنزيل ٥/ ٧٩، زاد المسير ٣/ ١١.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٢.

(٤) وهذا من مرويات الكلبي ومقاتل، ولذا فلم يخرجه الطبري، انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٢٥١، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٣، تفسير السمعاني ٣/ ٢٢٢.

وقيل: الآية عامة، لأنَّ الإنسان إذا غضب ربما يدعو علىٰ نفسه وولده بالهلاك[١].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ١١﴾ مستعجلاً في الدعاء.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ يدلان علىٰ أنَّ خالقهما واحد، فلِلَّيْل ظلمة، وللنَّهار ضوء، باختلافهما يعرف الأوقات والآجال، ولو كان ليلاً سرمدًا لم يعرف الشهر والسنة.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهو ما تراه في القمر من السواد[٢]، قيل: ذهب من نوره ثلاثة أجزاء مما كان فيه، وذلك بمسح جبريل بجناحه عليه[٣].

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة يبصر بها ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في النهار رزقًا من ربكم بالتجارة وغيرها ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: حساب الشهور ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من إتيان الليل والنهار والأيام والساعات وما يحتاجون إليه ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾ أي: بيناه تبيينًا.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وإنما ذكر الطائر لأنَّ العرب كانت تتشاءم وتتيمن بالطائر، فذكر الله تعالىٰ لفظًا يستعملونه بينهم، والمراد به -والله أعلم-: أنَّ كل إنسان قلدناه أجله ورزقه، وعمله وسعادته وشقاوته، وإنما سُمِّيَ طائرًا لأنه طار لكل إنسان حظه إليه، وألزمه الله تعالىٰ ما قدره له في سابق علمه[٤].

---

(١) وهو الصحيح، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٣٩٣.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٣٩٥.

(٣) وقصة جبريل من مرويات الكبرىٰ، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٣٩٧، البسيط ١٣/ ٢٧٤.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: نظهر بذلك العمل يومئذ ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ لا ختم عليه، مكتوب باسمه الذي يعرف به.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: قيل له اقرأ كتابك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ أي: محاسبًا ومشاهدًا، نصب على التمييز، لأنَّ الله تعالىٰ يختم علىٰ أفواه الكفرة فتنطق جوارحهم بما عملوا، فتشهد عليهم بشركه وتكذيبه(١).

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من آمن فقد آمن لنفسه وله ثوابه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: كفر ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: عليه عقوبة كُفره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل حاملة خطيئة غيرها، قريبًا كان أو بعيدًا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أهل قرية ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بلا مدٍّ، يعني: أمرنا جبابرتها ورؤساءَها بالطاعة ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: عصوا وخرجوا عن أمر الله(٢).

وقرئ: «آمرنا» بالمد(٣)، أي: كثَّرْنا، يقال: آمر الله قومًا فأَمِروا، أي: كثروا(٤).

وقرئ: «أمَّرنا» بالتشديد(٥)، أي: سلَّطنا وجعلناهم أمراء، فخرجوا عن طاعة الله عز وجل(٦).

---

(١) البسيط ١٣/ ٢٨١.

(٢) البسيط ١٣/ ٢٨٤.

(٣) وهي قراءة يعقوب وحده، انظر: النشر ٢/ ٣٠٦.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٩.

(٥) وهي قراءة شاذة، نسبها الثعلبي لأبي عثمان النهدي، وأبي رجاء العطاردي، وأبي العالية الرياحي، والربيع ومجاهد (الكشف والبيان ١٦/ ٣٠٢).

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٤٠٣، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٢، الكشف والبيان ١٦/ ٣٠٢.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: كلمة العذاب وجبت عليهم بفسقهم ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ أي: أهلكناها حينئذ إهلاكًا، وكَّده بالمصدر، والدمار: الهلاك[١].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ عالِمًا بهم وينفرد بهلاكهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ أي: من كان يريد من الفجَّار بعمله عاجل ثواب الدنيا مراءاةً للناس ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ مِنْ عَرض الدنيا ﴿مَا نَشَآءُ﴾ مِقدار ما نشاء ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن نعجله ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة، أي: خلقنا وهيَّئنا له ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾ يدخلها ﴿مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ أي: ملومًا مطرودًا مبعدًا من رحمة الله تعالىٰ[٢].

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بعمله يعني الجنة وثوابها ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ أي: عمل للآخرة عملها ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ مصدِّق في إيمانه، مخلص في عمله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ أي: عملهم مقبولاً يثابون عليه.

ثم قال ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ﴾ أي: نعطي ونجعله مددًا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كلا الفريقين، المؤمن والكافر يرزقهما جميعًا ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ أي: رزقه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ ممنوعًا من البر والفاجر.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ في الدرجات في الدنيا والآخرة ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ﴾ أي: ثواب الآخرة ﴿أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾ من ثواب الدنيا ﴿وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾.

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم والمراد أمته[٣]، وقيل: نزلت حين دُعيَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ ملة

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٤٠٩.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٤١٢.

آبائه ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي: ممقوتًا(١) ﴿مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ متروكًا لا ينصرك أحد.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أمر ربك وأوصىٰ ربك ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: برًا وعطفًا بهما وعليهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ يعني: فمن بقي له والداه أو أحدهما حتىٰ يبلغ حال الكبر والهرم؛ فرض عليه إلطافهما، والخضوع لهما، وتليين القول، وتحسين الكلام، وكل ما فيه معنىٰ(٢) الكرامة والخضوع.

والنون في «يبلغانِّ»(٣) ليست بنون التثنية، ولكن نون التوكيد، ولو كان ذلك للتثنية فمن حقها السقوط، لأنَّه مجزوم بالشرط، وعلامة التثنية هي الألف، فقد جمعهما الله في قوله: «يبلغان».

ثم عطف عليهما قوله: «أحدهما أو كلاهما»، والتأويل فيه: إما يبلغان عندك الكبر أحدهما قبل الآخر، أو كلاهما معًا، لأنَّ بلوغهما الكبر والمرض معًا أثقل من بلوغ أحدهما(٤).

ومن قرأ: «يبلغنَّ» بغير الألف؛ فالمراد أحدهما، والنونُ للتوكيد أيضًا، كقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾(٥).

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وفيه ستُّ لغات: بالخفض منونًا وغير منوَّن، وبالرفع منوَّنًا وغير منوَّن، وبالنصب منوَّنًا وغير منوَّن(٦).

---

(١) في الأصل: ممقتا.

(٢) في الأصل: يعني.

(٣) قرأ الكوفيون إلا عاصما: يبلغانِّ، بألف بعد الغين وكسر النون علىٰ التثنية (النشر ٢/ ٣٠٦).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٠، البسيط ١٣/ ٢٩٨.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٤١٤.

(٦) المتواتر منها ثلاثة: قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: أفَّ، بفتح الفاء من غير تنوين، وقرأ أبو جعفر ونافع وحفص: أفٍّ، بالكسر مع التنوين، وقرأ الباقون: أفِّ، بكسر الفاء من غير تنوين، وما سوىٰ هذه القراءات فهو شاذ لا يقرأ به (النشر ٢/ ٣٠٧).

وفيه لغة سابعة: أُفِّي[١]، وقيل: أُفْ بالسكون.

ومعناه: لا تقل لهما عند معالجتهما ووجود ما تأذيت منهما كلمة فيها أدنىٰ تبرُّم، أي: لا تقل وَاقذرًا ونتنًا.

والأفُّ: وسخ الظفر، ويقال للشيء الحقير: أف، والتف: وسخ الأذن، والمراد به الاستقذار بالشيء المكروه[٢].

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تَصِح بهما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وقِّرهما وأكرمهما.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ هذه عبارة عن التواضع ولين الجانب والخضوع، أي: بالغ في التواضع لهما ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ عليهما، وكن رحيمًا بهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ إنْ كانا مسلمين، وإن كانا كافرين قل: رب اهديهما[٣] ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ معناه: ألقي الرحمة في قلبي لهما كما ربياني ورحماني صغيرًا، وغذَّياني طفلاً.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ أي: قلوبكم من الحب والبُغض لهما ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ بارّين بهما ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من صلة القرابة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ حقَّه من الصدقة ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ حقه من الضيافة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ ولا تسرف في الإنفاق.

وقيل: لا تنفق في غير طاعة الله[٤].

---

(١) ضبطها الزجاج بالياء (معاني القرآن ٣/ ٢٣٤، البسيط ١٣/ ٣٠٢).

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٧، تفسير السمعاني ٢/ ٢٣٢، معالم التنزيل ٥/ ٨٦،

(٣) حقه أن يقول: اهدهما.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٩.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ المُنفِقين في غير طاعة الله أعوان الشياطين يفعلون بأمره ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ٢٧﴾ في نعمه جاحدًا له.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ إنْ أعرضت عن الفقراء، وصل «ما» بكلمة الشرط لتأكيد الشرط ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: انتظار رزق من غنيمة ترجوها، أو قدوم مال غائب تنتظره وأعرضت عنهم في الحال حياءً ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ٢٨﴾ ولا تجمع عليهم الحرمان والقول المعسور، ولكن عدهم عدة حسنة[1].

ثم علَّم رسول الله وجه الإنفاق ليكون سُنَّة في أمته فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وهذا مثل، ومعناه: النهي عن البُخل، لأنَّ من غُلَّت يداه لا يقدر علىٰ بسطها إلا بالإعطاء، وفي الآية شبهة من جهة اللغة، لأنَّ العرب لا تقول: فلان جعل يده مغلولة ورجله مقيدة، وجعل رأسه متوجًا، ولكن تقول: فلان غلَّ[2] يده، وقيّد رجله، وتوج رأسه.

وهاهنا ذكر بلفظ الجعل، لأنَّ الجعل والفعل يردان في الكلام لدوام الفعل، كقوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: مداومًا عليها، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ أي: يداومون علىٰ إعطاء الزكاة، وقال: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ٣٠﴾ أي: داموا علىٰ هجره، فهاهنا نهيٌ عن مداومة الإمساك[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٨.

(٢) في الأصل: علىٰ، وهو تصحيف.

(٣) وهذا الإشكال أورده الجرجاني في كتابه: نظم القرآن وأجاب عليه، وقد اختصر المصنف الجواب، وبسطه الواحدي في البسيط ١٣/ ٣١٨ فقال: «قال صاحب النظم: لا تكاد العرب تقول جعلت يدي مغلولة، ولا جعلت رجلي مقيدة، ولا جعلت رأسي معممًا، إنما يقولون: غَلَلتُ يدي، وقَيَّدتُ رجلي، وعَمَّمتُ رأسي، والعلة في هذا النظم؛ أن الفعل أقل من النعت، والنعت ألزم وأكثر من الفعل؛ كما قلنا في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ لأنه قد كان منه، ولا يجوز أن

وفيه دليل أنَّ الإمساك جائز في بعض المواضع، إذا كان في الإعطاء عيلة للمعطي وليس له ما يدفع به حاجته.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: لا تُعطي جميع ما عندك مرة واحدة ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ والمحسور: هو الذي بلغ الغاية[١] في التعب بلومك سائر الفقراء إذا أتوك فلم يجدوا عندك شيئًا، معناه: بقيت ملومًا يلومك الفقراء، محسورًا مقطوعًا عن الإعطاء[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسِّع على من يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقتر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ بصلاح[٣] ﴿بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ يعلم الذي يصلح له البسط فيبسط، والذي يصلح له القدر فيقتِّر عليه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: لا تدفنوا أبناءكم تحت التراب أحياء ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ مخافة الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني: أولادكم وإياكم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: ذنبًا عظيمًا عند الله تعالىٰ.

والخِطأُ[٤]: لا يكون إلا تعمدًا إلىٰ خلاف الصواب.

يقال: آدم عاصٍ غاوٍ؛ لأن هذا نعت لازم، وكانوا يقولون: يد فلان مغلولة، أي أن المنع عادةٌ له، ولا يكادون يقولون: غُلَّت يده؛ لأن هذا فعل غير لازم، والأول لازم، وقد يمنع الإنسان في مواضع المنع ولا يُرْجَع عليه بلوم، فلذلك قال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، أي: لا تكن ممسكًا عن البذل عادة، ولم يُرِدْ أن لا يمسك عند وقت الإمساك، يدل علىٰ ذلك قوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾؛ ومما يشبه هذا النظم، قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة إبراهيم:٤٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفرقان:٣٠]».

(١) في الأصل: الغياية.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٦.

(٣) فصل بهذه الكلمة بين الباء وعباده.

(٤) وفي هذا الحرف قراءات، فقرأ ابن كثير: خِطَاءًا، وقرأ أبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلف عنه: خَطَأً، وقرأ الباقون: خِطْأً، كما أثبت. (النشر ٢/ ٣٠٧).

و«الخَطَأ» قد يكون غير عمد[١].

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: الزنا قبيح من الفعل، وإنما قال: ولا تقربوا ولم يقل: ولا تزنوا؛ لأنَّه حذرهم عن القُرب إلىٰ الفعل بمقدمات حقيقة الفعل، وهو: النظر والكلام والتمنِّي والاستمتاع، كقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

﴿وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ أي: بئس المسلك الزنا.

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ معناه: إلا بالقصاص، أو الردة، أو الزنا وهو ثيب ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ نصب علىٰ الحال[٢]، أي: عمدًا بغير جرم ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: لولي المقتول حجة، فقتل القاتل ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ خطاب للولي[٣]، أي: لا يقتل غير القاتل، ولا يقتل القاتل بأنواع العذاب.

ومن قرأ: بالياء نهىٰ الغائب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾ أي: ولي المقتول كان معانًا علىٰ قتل قاتل وليه[٤].

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهو أنْ يتَّجر فيه للربح له والزيادة عليه، وقيل: بالقرض ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ مبلغ الرجال، ويؤنس منه الرشد.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠، وقال الثعلبي: كلها لغات معناها واحد (الكشف والبيان ١٦/ ٣٢٨).

(٢)إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧١.

(٣) وهذا علىٰ قراءة: تسرف، وهذا يدل علىٰ أنها هكذا في الأصل، لكن الناسخ كتبها بالياء، وبالتاء قراءة حمزة والكسائي وخلف (الشر ٢/ ٣٠٧).

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٤٠.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ أي: أتموا العهود فيما بينكم وبين الله وبين الناس ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ والعهد لا يُسأل، ولكن ناقض العهد يُسأل عن نقضه، ويُطالب بحقه، والسؤال والطلب من الله عذاب.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ لكم ولغيركم ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ أي: بالميزان العدل ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: ذلك الوفاء بالعهد وإتمام الكيل والوزن خير من البخس والنقص ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ أي: مرجعًا وعاقبة.

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ أي: لا تتبعنَّ لسانك من القول الذي ليس به علم، أي: لا تقل ما لا تعلم، يقال: قفوت الشيء إذا تبعت أثره(١)، والقذف(٢)، يقال: قفاني فلان أي: كذب علي ورماني بالبهتان.

قال مقاتل: يقول الله تعالىٰ: يا ابن آدم لا ترمني بالشرك فإنك ليس لك علم بأن لي شريكًا(٣).

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ مهما استمعت إلىٰ شيء أو نظرت إلىٰ شيء أو عزمت علىٰ شيء ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ صاحبه يُسأل عن حسِّ الأذن، وحسِّ العين(٤).

وقيل: إنَّ الفؤاد حسُّ القلب.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٩.

(٢) في الأصل أقرب إلىٰ: القرب، وهو تصحيف، والصواب ما أثبت، بدلالة ما بعده، وانظر: تهذيب اللغة ٩/ ٢٤٦.

(٣) تفسير مقاتل ٢/ ٢٥٧.

(٤) في الأصل: حسن الأدب، وحسن العين، وهو تصحيف الناسخ.
قال الجرجاني صاحب نظم القرآن: هذه إحساس هذه الأعضاء، التي هي: أذن وعين وقلب، فالسمع حس الأذن، والبصر حس العين، والفؤاد حس القلب (البسيط ١٣/ ٣٣٣).

ثم أمر الخلق بالتواضع فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطرًا وتكبُّرًا ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ ولا تقطعها مثل الملائكة ﴿وَلَن تَبْلُغَ﴾ تحاذي ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ الشوامخ ﴿طُولًا ۝٣٧﴾ وقيل: لن تخرق الأرض: كما خرقها قومٌ[1]، ولن تبلغ الجبال طولاً: كما بلغها عاج بن عنق، أو عوج بن عنق، وقد بلغك ما أصابهم.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ أي: خطيئة ومعصية وإثمًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر والنهي، وقيل: القرآن[2] ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ مما فيه صواب القول والعمل ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تصف ولا تدع مع الله إلـٰهًا آخر، فإن فعلت ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾ أي: مذمومًا مطرودًا مبعدًا من رحمة الله تعالىٰ، هذه كلها خطاب لرسول الله والمراد به غيره.

قال ابن عباس: من قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلىٰ هاهنا ثمانية عشر آية في ألواح موسىٰ عشر آيات[3].

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: يختاركم ربكم بالذكور من الأولاد ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ بناتًا لنفسه ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ منكرًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيَّنا ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وكرَّرنا مرة بعد مرة فيه من كل مثل ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: يتعظوا بأمثال القرآن وعجائبه ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ وتباعدًا من القرآن والإيمان.

---

(١) كذا في الأصل، وقد حذف القوم، ولعل الصواب: قوم عاد.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٤٥٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٢.
(٣) وهو من رواية الكلبي، انظر: تفسير أبي الليث ٢/٣٠٦، الكشف والبيان ١٦/٣٤١، الكشاف ٢/ ٣٦١.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾[(١)] أي: تزعمون أنَّ الملائكة بنات الله فتكون الملائكة بزعمهم آلهة، لأنَّ ولد كل شيء مثله ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ يعني: لطلبوا إلىٰ خالق العرش طريقًا ليغلبوه ويقهروه، ويكونوا كهيئته فيقصدوا إلىٰ معازَّته[(٢)].

ثم نزَّه نفسه فقال ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني: هو أعلىٰ وأعظم وأنزه من أن يكون له ولد ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ ولم يقل «تعاليًا» كما قال «تعالىٰ»، لأنَّ هذا مصدر جاء علىٰ خلاف الصدر، كقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ ولم يقل: بتقبلٍ حسن[(٣)].

---

(١) في الأصل: تقولون، وهي قراءة الجمهور إلا ابن كثير وحفصا، فقد قرآ: بالياء (النشر ٢/ ٣٠٧).

(٢) وهذا قول مقاتل، كما في تفسيره ٢/ ٢٥٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣١٢.
ويروىٰ عن سعيد بن جبير وغيره (الكشف والبيان ١٦/ ٣٤٤، البسيط ١٣/ ٣٤٣، زاد المسير ٣/ ٢٦).
والمشهور في تفسير هذه الآية: أن المعنىٰ إذن لابتغت هذه الآلهة المزعومة القربىٰ لدىٰ الله والزلفىٰ إليه (تفسير الطبري ١٧/ ٤٥٤) وهو الذي صححه السمعاني (تفسير السمعاني٣/ ٢٤٣).
وهذه الآية قطعت علائق المشركين بآلهتهم، وألقمتهم حجر الذل والمهانة، وألزمتهم السفه والحمق، فإذا كانت آلهتكم تبتغي القربىٰ إلىٰ الإله الحق المعبود فما ظنكم بأنفسكم، والعجب أن يسمع عربي فصيح عاقل مثل هذه الآية -العالية في مقعد البلاغة والفصاحة مع وضوح الحجة والبرهان- ثم لا يذعن ولا يسلم، والله المستعان، وهذه السورة الجليلة فيها من هذه البراهين ما لا يوجد في سورة سواها، وهذا من جملة فضائلها.
وهكذا في الأصل: معازته، يقال: عزه يعزه عزا، قهره وغلبه في المعازة، أي المحاجة (تاج العروس١٥/ ٢٢١). وفي تفسير السمعاني: بالمفازة، وهو تصحيف عن المعازة، وفي بعض كتب التفسير: إلىٰ معاداته، وهي صحيحة كذلك.

(٣) الدر المصون ٧/ ٣٦٢.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يعني الأرضون السبع ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ في السماوات والأرضين؛ من الخلائق من الجن[١] والإنس والطير والهوام والوحوش، أي: تنزه له عن مقالة الكفرة.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: ما من شيء إلا يذكر الله عز وجل بتوفيقه وأمره، وقيل: يسبحه[٢] ويحمده، لأنَّ الخلق ثلاثة أنواع، فالمخاطبون يسبحون بأمره، وسائر الحيوان يسبح بإلهامه، والجمادات يسبحون بالجبر والاختيار لها، فصرير الباب تسبيح، وصليل السلاح عند الاستعمال تسبيح.

وقوله: «وإن من شيء» أراد به بعض الشيء، لأنَّ الأشياء كلها لا تسبيح لها، لأنَّ الأعراض والصفات لا تسبيح لها، والتسبيح نفسه لا يسبح.

وقال بعض أهل العلم: ما من شيء إلاَّ فيه دليل علىٰ أنَّ الله خالقه، وأنه حكيم، بريء من صفات السوء، فذاك تسبيحه[٣].

ثم قال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفهمون ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: حليمًا لا يعاقبهم علىٰ إضافة الولد إليه، وغفورًا يغفر لهم إنْ تابوا.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: ساترًا وهو الطبع الذي علىٰ قلوبهم، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ جمع كنان، وهو ما ستر، أن[٤] يفقهوه: أي كراهة أن يفهموه.

---

(١) في الأصل: الحق.

(٢) في الأصل: كرر وقيل: يسبحه مرتين.

(٣) انظر: النكت والعيون ٣/ ٢٥٤، زاد المسير ٣/ ٢٦ .

(٤) في الأصل: أي.

قال ابن عباس: كان أبو جهل وأبو لهب وامرأته أم جميلة وأبو سفيان وحويطب والنضر بن الحارث جالسون، يسمعون كلام رسول الله إذا كلَّم[١] أصحابه، فقال النضر ذات يوم: ما أدري ما يقوله محمد، غير أني أرىٰ حركة شفتيه.

وقال أبو سفيان: إني أرىٰ بعض ما يقوله حقًا.

وقال أبو جهل: هو مجنون، قال أبو لهب: هو كاهن، وقال حويطب: هو شاعر، فأنزل الله تعالىٰ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في صلاتك في دار الندوة جعلنا بينك وبين الكفرة حجابًا مستورًا، لا يدركوا ما تأتي به من الحكمة[٢].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ كيلا يسمعوا ولا ينتفعوا بالقرآن لأن به صمم ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي بالوحدانية، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأشباهها.

﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: نافرين، يعني رجعوا عن استماع كلامك وإجابتك.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ وهو الوليد بن المغيرة وأصحابه، استمعوا إلىٰ قراءة رسول الله في دار الندوة، ويريدون به الطعن والتكذيب[٣] ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يتناجون فيما بينهم، يقولون: ساحر وكذَّاب ومجنون ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ مسلوب العقل مخدوعا[٤].

---

(١) كرر الكلمة في الأصل مرتين.

(٢) وهذا من رواية الكلبي ومقاتل، كما في تفسير مقاتل ٢/ ٢٥٩، الكشف والبيان ١٦/ ٣٥٣، البسيط ١٣/ ٣٤٦.

(٣) روي هذا عن مجاهد وقتادة، كما في تفسير الطبري ١٧/ ٤٦٠.

(٤) في الأصل: مجذوعا، وهو غلط، والصواب ما أثبت، وهو قول مجاهد، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٤، والسمعاني ٣/ ٢٤٦.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وصفوا لك الأشباه من الكلام، يقول بعضهم: ساحر، ويقول بعضهم: شاعر ويقول بعضهم: كاهن ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ إلىٰ الهدىٰ.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ بالية ﴿وَرُفَٰتًا﴾ متفرقة كالتراب، والرفات كل شيء رُفت أي: حطم وكسر ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: مجددًا.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ يعني: لو كنتم بمنزلة الحجارة أو الحديد لمُتُّم ثم أحياكم الله.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ يعني: الموت، الذي هو أكبر في صدوركم، لأماتكم الله ثم أحياكم ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ من يحيينا ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي: خلقكم من غير شيء أول مرة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ سيحركون رؤوسهم استهزاءً وتعجبًا، والإنغاض: تحريك الرأس[1] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: متىٰ حينه ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ لأنَّ كل ما هو آت قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ إسرافيل من قبوركم ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾.

قال أبو سهل: يجيبونه وله الحمد علىٰ كل حال.

وسعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم يسبحون الله ويحمدونه[2].

وقيل: تجيبونه بأمره ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ تحسبون ما لبثتم في قبوركم إلا قليلاً.

وبعض المتكلمين يبطلون بهذه الآية عذاب القبر، لأنَّ مدة العذاب لا ترىٰ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٤، البسيط ١٣/ ٣٦٠.

(٢) رواه ابن أبي حاتم ١٣٣٠٧.

قليلاً، وعلىٰ قول عامة(١) العلماء: يرفَّه العذاب عنهم ما بين النفختين، فنسوا العذاب في البرزخ(٢).

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهىٰ عنه.

وقيل: يقولوا للكفار ألطف القول، ولكنه يخاطب عمر وأصحابه في بدئ الإسلام(٣).

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يغري بين المؤمنين والكافرين ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ لابن آدم ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ ظاهرًا عداوته ويجري منهم مجرىٰ الدم.

نسخت الآية بآية السيف(٤).

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وأعرف بحالكم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فيدخلكم في الإسلام يا أهل مكة ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيميتكم علىٰ الشرك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ حافظًا، وصارت منسوخة أيضًا.

---

(١) في الأصل: غاية.

(٢) قال أبو الليث: قال الكلبي: وذلك أنه يرفع عنهم العذاب ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة، فينسون العذاب، فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا يسيراً، وروي ذلك عن ابن عباس. وهذا أصح ما قيل فيه، لأن بعض المبتدعين قالوا: إذا وضع الميت في قبره لا يكون عليه العذاب إلىٰ وقت البعث، فيظنون أنهم مكثوا في القبر قليلاً. (تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٥).

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٦.

(٤) وهذا علىٰ القول أن المراد: القول للمشركين، وأما علىٰ ما ذكره ابن جرير وغيره من المفسرين من أن المراد: أن يقول بعضهم لبعض حسنا من القول، فلا نسخ (تفسير الطبري ١٧/ ٤٦٩).

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ من الخلق ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ فضل إبراهيم بالخلة، وموسىٰ بالتكليم، ومحمدًا بالاصطفاء والمحبة ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾ كتابًا: مائة وخمسون سورة، فيها ثناء الله وحمده، ليس فيه حُكم ولا حد[1].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: قل لأهل مكة ادعوا أصنامكم ليكشفوا الضرَّ الذي نزل بكم من القحط ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: دفع القحط عنكم ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ نزلت في قوم من خزاعة كانوا يعبدون الملائكة[2]، قال الله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني الملائكة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: يطلبون إلىٰ الله القربة بعبادتهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ مغفرته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ وينبغي أن يكون خوف المؤمن ورجاؤه متساويين، لا يرجح أحدهما، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «لو وزن خوف المؤمن ورجاءه لاعتدلا»[3].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ أي: هو مخوف لا يأمن منه أحد، فاحذروا من ذلك واطلبوا الزُّلْفة من الله.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالموت ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ بالسيف والزلازل والأمراض ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ في اللوح المحفوظ.

---

(١) تفسير السمعاني ٣/ ٢٥٠.

(٢) وهو من رواية الكلبي، كما تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٦، وعن ابن عباس من طريق العوفي: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة وعزيرا وهو الذين يدعون (تفسير الطبري ١٧/ ٤٧١).

(٣) ليس هذا بحديث وإنما هو مروي عن بعض السلف، رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠٨ عن مطرف، و٣/ ٧٦ عن مطر الوراق من قولهما. وهكذا رواه البيهقي في الشعب ٢/ ٣٢٧.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ «أن» الأولىٰ في محل نصب[(١)]، والثانية في محل الرفع[(٢)]، وذلك حين قالوا: لولا أنزل عليه آية من ربه، معناهُ: لم يمنعنا عن إرسال الآيات إلا بتكذيب الماضين من الأمم، ووجوب الهلاك عليهم، والله أخَّر عذاب هذه الأمة إلىٰ القيامة، وقد أعطىٰ رسوله من الدلالة ما يكفيهم الاستدلال به.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: حجة بينه من الله تبصِّرهم ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي جحدوا بأنها من الله ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ لمن هلك ولمن بقي بعدهم[(٣)].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: عَلم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، وكلهم في قبضته، يفتح عليكم مكة ويمنعك منهم حتىٰ تبلغ رسالات الله[(٤)].

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ ليلة المعراج في اليقظة إلا ابتلاءً لأهل مكة: أبي جهل وأصحابه، حتىٰ كذبوا فيما رأيت، وهذا قول عامة أهل التفسير[(٥)].

وقال ابن عباس: هي رؤيا نوم رآها رسول الله في المنام أنه سيدخل مكة ويظفر عليهم، كما قال الله تعالىٰ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[(٦)].

---

(١) أي: من أن نرسل (التبيان ٢/ ٨٢٥).

(٢) أي: فاعل منعنا (التبيان ٢/ ٨٢٥).

(٣) وفي تفسير الطبري ١٧/ ٤٧٧: عن ابن عباس، قال: سأل أهل مكة النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال، فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم لعلنا نجتني منهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، فقال: بل نستأني بهم، فأنزل الله هذه الآية.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٧٩.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٨.

(٦) نسب الواحدي هذه الرواية عن ابن عباس لعلي بن أبي طلحة (البسيط ١٣/ ٣٧٨)، وهذه رواية منكرة، قال الواحدي: هذا القول يضعف من حيث إن هذه الرؤيا كانت بالمدينة، وهذه السورة مكية أهـ، وهذا من النقد باستعمال المكي والمدني، ومعرفة التاريخ.

ثم قال ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ معناه: وما ذكرنا الشجرة في القرآن، وهي شجرة الزقوم[١]، إلا فتنة، ابتلاء للناس، ابتلاء لأهل مكة[٢].

ومن تلك البلية[٣] قول ابن الزبعري: إنَّ محمدًا يخوِّفكم بالزقوم، كثَّر الله في بيوتكم منه، قالوا له: ما هو؟ قال: بلغة بعض أهل اليمن تمر وزبد، فرجع أبو جهل إلىٰ منزله، وقال لجارية له يمانية: زقِّمينا يا جارية، يختبرها في ذلك، فأتت الجارية بتمر وزبد، حتىٰ فشا ذلك في المشركين: إن محمدًا يخوفنا بأكل الزبد والتمر[٤]، فهذه ابتلاؤهم بالزقوم، حتىٰ تمادوا في كُفرهم، فأخبرهم الله أنْ ليس كما ظننتم، ولكنَّ الزقومَ شجرةٌ تخرج من أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين في القُبح، محشوة [بـ]ـالحيات، مملوءة سمًا، فكيف يشبه التمر والزبد.

وقيل: ابتلاؤهم أن قالوا النار تأكل الشجر، فكيف ينبت فيها الشجر، ولكن قيل: الشجرة من جنس النار، ولا تأكلها، كما في الكلاب والحيات والعقارب والزبانية.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: نحذرهم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾ أي: عتوًا عظيمًا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ إذ: من حروف الزوائد، ويكون بمعنىٰ: حين، ومتىٰ، ومعناه: وقلنا للملائكة الذين كانوا في الأرض بوحي أو

وروىٰ ابن جرير الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٨٠، من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هي رؤيا عين، أريها ليلة الإسراء، وليست برؤيا منام، وهذا هو الصحيح الثابت عنه.

(١) وهو قول الجمهور، بل عده ابن جرير إجماعًا من الحُجَّة (تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٤).

(٢) البسيط ١٣/ ٣٨٠.

(٣) في الأصل: النابة. غير منقوطة. وفي تفسير أبي الليث نحو ما أثبت.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٨، البسيط ١٣/ ٣٨١.

إلهام اسجدوا لآدم ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ في حال كونه طينًا، استفهام بمعنىٰ الإنكار(١).

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ﴾ أي: أخبرني كما يقال: أرأيت، والكاف لا معنىٰ له إلا تأكيد الخطاب، معناه أخبرني(٢) عن ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ وهو محذوف الجواب، ودلالة الحال: لأيِّ شيء فضَّلته عليَّ وقد خلقتَه من طين وخلقتني من نار ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ﴾ أي: أبقيتني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ أي: لأستولِينَّ علىٰ ذريته وأولاده(٣).

وقال أبو سهل: معناه لأحذر أحناكهم(٤) وأقودنهم إلىٰ المعاصي، إلا قليلاً من المعصومين من عبادك وأوليائك.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من أطاعك من ذرية آدم في معصيتي ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾ مكافأتكم ﴿جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣﴾ تامًا.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ وهذا أمر التوبيخ، معناه: استدعهم استدعاء يستخفهم إلىٰ إجابتك بصوتك، أي: دعائك، وقيل: صوت المزامير، وذلك أنَّ أولاد هابيل كانوا علىٰ رأس الجبل، وأولاد قابيل أنزلهم آدم في أسفل

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٩، البسيط ١٣/ ٣٨٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٩، البسيط ١٣/ ٣٨٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٩، الكشف والبيان ١٦/ ٣٨٥.

(٤) كذا في الأصل، وأخشىٰ عليه من التصحيف، فإن أصل الحنك الاستئصال، يقال: احتنكت السنة أموالنا أي استأصلتها (تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٨، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٩).
وهذا القول هو الذي عليه أهل التأويل، وذكر الراغب الأصفهاني قولا آخر، فقال: يجوز أن يكون من قولهم حنكت الدابة، أصبت حنكها باللجام والرسن، فيكون نحو قولك: لألجمن فلان ولأرسننه (المفردات ٢٦١، وانظر: البسيط ١٣/ ٣٨٦). أما كلام أبي سهل فغير ظاهر.

الجبل، وكانوا حسانًا ذوات[١] جمال، فلم يقدر إبليس الجمع بينهما، فهيأ المزامير وقام في وسط الجبل وضرب بها، فصعد أولاد قابيل من الأسفل، وانحدر أولاد هابيل من الأعلىٰ، فالتقوا، فواقعوا الزنا وكان أول زنا ظهر في الدنيا.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: اجمع عليهم ما قدرت عليه من مكائدك، أمر وعيد، وجاء في التفسير: أنَّ خيله كل خيل تسعىٰ في معصية الله، ورجله كل ماش في معصية الله.

وأصل الجلبة: شدة الصوت، والرَّجْل: جمع راجل كما يقال مسافر وسَفْر وشارب وشَرْب[٢].

وقوله ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ فمشاركة الأموال: أن يقولوا هذا لله وهذا لشركائنا؛ من البحيرة والسائبة وبعض الزروع وغير ذلك.

ومشاركتهم الأولاد: أن يسموا أولادهم عبد يغوث وعبد مناة وعبد العزىٰ.

وقيل: شركة الأموال مكاسب الحرام، وشركة الأولاد الزنا[٣].

ثم قال ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: ادعهم إلىٰ طاعتك بمواعيدك الغرور أنْ لا جنَّة ولا نار ولا بعث ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: لا يمنِّيهم بمثل هذه الأماني إلا غرورًا لا حقيقة لها، ولا يقال: كيف يجوز من حكمة الحكيم إطلاق المعصية لإبليس، لأنَّا نقول: الأمر إذا تقدمه نهي أو تأخر عنه وعيد فهو بمعنىٰ التهديد والوعيد.

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٠، البسيط ١٣/ ٣٩١.

(٣) زاد المسير ٣/ ٣٧. .

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: أهل صفوتي ليس لك عليهم سلطان، أي: قدرة على الإضلال ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: ربًا حافظًا ومانعًا(١).

ثم ذكر منَّته فقال ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ﴾ أي: يسوق ﴿الْفُلْكَ﴾ يعني السفن ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ لأجلكم ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من رزقه في التجارات ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ حيث لم يغرقكم في الماء.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي: الشدة في البحر عند تعاصف الرياح وتلاطم الأمواج ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: ضلَّ عن ألسنتكم ذكر من تدعونه إلـٰهًا إلا ذكر الله، فإنكم لا تدعون عند الشدة [إلا] إلـه السماء ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن دعائه خالصًا وتركتم ذلك ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ بالنِعَم، يعني بالإنسان الكافر هاهنا(٢).

ثم خوَّفهم فقال ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ إذا خرجتم من البحر إلى الساحل ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ يعني يغور(٣) بكم إلى أسفل الأرضين ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء كما أرسل إلى قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يمنعكم من عذابه.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: ريحًا كاسرًا للسفن(٤) ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بنعمته ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا﴾ بما فعلنا بكم ﴿تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ يتبعنا وينكر علينا ما

---

(١) في الأصل: ربًّا وحافظًا.
(٢) فسر الكفر هنا بكفر النعم (تفسير الطبري ١٧/ ٤٩٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٠).
(٣) في الأصل: يعور.
(٤) والقاصف الكاسر (البسيط ١٣/ ٤٠٠).

فعلنا بكم، أو طالبًا يطلبنا بثأركم، والتبيع: هو الطالب[1].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قيل: بأكلهم بأيديهم والبهائم تأكل بأفواهها، وقيل: العقل والتمييز، وقيل: بالضحك، وقيل: بكونهم منتصبي القامة والدواب والروابع كلها منكبة، وقيل: بجعل الأنبياء والرسل منهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ في البر علىٰ دواب من لحم ودم وأشياء رطبة، وفي البحر علىٰ سفن وهي خشب يابسة.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من لباب كل شيء ومخه، ورزق سائر الحيوان من القشر والتبن ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ أي: شرَّفناهم وسوَّدناهم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ نصب علىٰ المصدر[2].

يعني: علىٰ جميع أهل الأرض وأكثر الملائكة، ويجوز أن يقال في العموم: أن بني آدم أفضل من الملائكة، ولا يجوز أن يقال لكل واحد هو أفضل من جبريل، ويجوز أن يقال محمد أفضل من جبريل.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ﴾ أي: اذكر يوم ندعو كل أناس ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قيل: برسولهم الذي كانوا يأتمون به، فتدعىٰ كل أمة بإتباع نبيهم فيعطىٰ كتابهم فيأخذونها بإيمانهم، ثم يدعىٰ بأتباع الشيطان فيقدمون فيعطىٰ كتابهم فيأخذونها بشمائلهم.

وقيل: إمامه كتاب عمله، وقيل: بدينهم الذي كانوا يدينون به، وقيل: بعمله الذي كان يعمله في الدنيا يقال: أين فلان بن فلان المصلي وأين فلان بن فلان المزكي، وفلان ابن فلان الغازي والحاجي، حتىٰ ينتهي إلىٰ النمَّام والفاسق

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٩٩، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٢.
وفي الأصل: الطلب، علىٰ عادته بإسقاط الألف من اسم الفاعل أحيانًا.

(٢) وفيه معنىٰ التوكيد (إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩).

والخمَّار والمقامر، فانظر أيها اللبيب إلىٰ نفسك، واختر لها اسمًا لا تفتضح في الجمع الأكبر حين تُدْعَىٰ[١].

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ أي: ما في كتابهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ أي: لا تنقص من حسناتهم قدر الفتيل.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: من كان في الدنيا أعمىٰ عن رؤية هذه النعم ولا يعرف أنها من الله ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: هو في نعم الآخرة أشدُّ عمىٰ بقلبه ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ وقيل: من ضل في دار الدنيا حتىٰ لم يتفكر في أرضي وسمائي؛ وما فيهما من الشمس والقمر والنجوم والعجائب والجبال والرياح والليل والنهار؛ ولم يستدل بها أن لها ربًّا فهو في الآخرة أعمىٰ، أي: هو عن أمر الآخرة أجهل؛ حيث كذب بالبعث[٢] ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ أَخْطَأُ طريقًا.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ قال الأخفش: إنهم أرادوا فتنتك حتىٰ يصرفوك عن القرآن، جعل إنْ الخفيفة عوضًا عن الثقيلة.

وقال غيره: إنْ بمعنىٰ ما، واللام بمعنىٰ إلا، معناه: ما كادوا إلا ليفتنونك يستزلونَك[٣] عن الذي أوحينا إليك[٤].

---

(١) هذه الأقوال مروية عن بعض المفسرين، (تفسير الطبري ١٧/ ٥٠٢، النكت والعيون ٣/ ٢٥٨، زاد المسير ٣/ ٤٠) وقال ابن جرير: وأولىٰ هذه الأقوال عندنا بالصواب، قول من قال: معنىٰ ذلك: يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمُّون به في الدنيا، لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما ائتمّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلىٰ الأشهر أولىٰ ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها.

(٢) وكلا القولين متلازمان، فالنعم موصلة إلىٰ الحجج، وعرفة آيات المنعم، (انظر القوال في: تفسير الطبري ١٧/ ٥٠٥، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٢، زاد المسير ٣/ ٤١).

(٣) مهملة في الأصل: يستربونك.

(٤) وعند الزجاج (في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣): إن واللام للتوكيد، والمعنىٰ: كادوا يستزلونك.

يعني: جماعة ثقيف حين أتوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقالوا: ندخل في دينك حتىٰ تعطينا خصالاً نفتخر بهنَّ علىٰ العرب، وهي: أن لا نعشر، ولا نحشر، ولا نُجبَّىٰ[١]، وكل ربًا لنا فهو لنا، وكل ربًا علينا فهو موضوع، وأن نتمتع باللات، وكانت اللات في الجاهلية اسمها طاغية الكبرىٰ، إلا المؤن الموقوفة عليها فسألوا التمتُّع بالطاغية والعزىٰ سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وإن وادي الطائف كحرمة وادي مكة، لا[٢] يعضد شجرها ولا ينفر صيدها، فإن سألت قريش: لِمَ فعلت ذلك؟ فقل: أمرني ربي بذلك، وجاءوا بكاتبهم[٣] فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله أنْ لا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبوا، فلم يكتب الكاتب.

قيل: إن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال لهم: أما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه ولا ركوع ولا سجود، وأما[٤] لا تكسر الأصنام بأيديكم فذلك لكم، وأما التمتع بالطاغية لا أمتعكم، ومن المحال أن نعبد في بلده إلٰهين، فألحُّوا عليه، فسكت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ثم قالوا للكاتب: اكتب ولا يجبوا، والكاتب ينظر إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقام عمر وسلَّ

---

(١) كذا في الأصل، وهو الصحيح، وفي بعض كتب التفسير: ولا ننحني، وهو صحيح من حيث المعنىٰ، لكن الظن أنه مصحف، والتجبية: الانحناء، يريدون أن لا يصلوا، وفي شرح القاموس ٣٧/ ٣١٨: وفي حديث وفد ثقيف اشترطوا علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أن لا يُجبُّوا، فقال صلىٰ الله عليه وسلم لا خير في دين لا ركوع فيه، قال شمر: أي لا يركعوا في صلاتهم ولا يسجدوا كما يفعل المسلمون، قال ابن الأثير: ولفظ الحديث يدل علىٰ الركوع والسجود..

(٢) في الأصل: لن، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: بكتابهم.

(٤) في الأصل: أما ما.

سيفه، ثم قال: أسعرتم -يا معشر ثقيف- قلب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أسعر الله قلوبكم نارًا، وقبوركم نارًا، وبيوتكم نارًا، قالوا: يابن الخطاب إنا لسنا أتيناك نكلمك[1]، إنَّا نكلم محمدًا، فأنزل الله هذه الآية[2]: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ ما لم نقله.

﴿وَإِذٗا﴾ لو فعلتَ ما أرادوا ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ مصافيًا محبًا.

ثم ذكر منَّته فقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ أي: قررناك علىٰ الصواب، وعصمناك عن الزيغ ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ قال الحسن: قاربت بالهم[3] بذلك عن غير عزم[4]، فكان الركون بمعنىٰ الهمِّ، والهمُّ: حديث النفس، والعبد غير مأخوذ بحديث النفس.

---

(١) في الأصل: نكلم.

(٢) السورة مكية ووفد ثقيف وفد إلىٰ المدينة، ولذا فإن هذا القول ضعيف، وهو رواية الكلبي ومقاتل، ومن قال به استثنىٰ هذه الآية من النزول بمكة، ليصح له ذلك.
وقد ذكره مقاتل في تفسيره ٢/ ٢٦٦، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٢٢، والثعلبي في الكشف والبيان ١٦/ ٤٠٨، والواحدي في البسيط ١٣/ ٤١٩، من رواية عطاء عنه، وهي منقطعة. ورواه الطبري عن ابن عباس من طريق العوفي ١٧/ ٥٠٧، فهذه طرق منكرة عن ابن عباس، وقد أنكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٤٢.
وأحسن ما في الباب ما روي عن سعيد ومجاهد من محاولة قريش أن يلم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم بآلهتهم، وفي سبيل ذلك قال قتادة: فخموه وسودوه وقاربوه، يعني تلطفوا بالقول، فرجىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم إسلامهم، فلعله وقع في نفسه أن ينظر في كلامهم، ولم يفعل شيئا مما أمروه به، حتىٰ يستأمر الوحي -كما سيأتي من قول الحسن- فثبته الله علىٰ المنع والإباء، ونزلت الآية مذكرة بنعمة الله عليه.

(٣) في الأصل: بانتهم، ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٤) لم أجده.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ يعني: لو أذنت لهم ما سألوا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، يعني: ضعف عذاب الحياة وضعف حياة الممات، وذلك أن يسلب عنه حلاوة الأُنس في الدنيا، لأنَّ من كان له حلاوة الأُنس فيسلب عنه فهو أشد عقوبة عليه، وأما ضعف عذاب الممات هو القطيعة في العُقبىٰ، لأن القطيعة للموصلين أشد عقوبة من عقوبة من لم يرجُ الوصال[1].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ مانعًا من عذاب نزل بك.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يستخفون بك ويحملوك علىٰ الخفة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: أرض المدينة إلىٰ الشام، وهو أن يهود المدينة قالوا: يا محمد أنت نبي؟ قال: «نعم» قالوا: إن أرض الأنبياء أرض الشام، فإنْ كنت نبيًا فتحول إليه، والله يمنعك الناس إن كنت نبيًا، فخرج رسول الله من المدينة ونزل بذي الحليفة ليجتمع أصحابه، فنزلت الآية[2].

وقيل: الآية مكية، وأراد إخراج أهل مكة إياه من مكة[3].

---

(١) قال القرطبي (في الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٠١): أي لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وهذا غاية الوعيد، وكلما كانت الدرجة أعلىٰ كان العذاب عند المخالفة أعظم.

(٢) وهذا لا يصح رواية ولا دراية، قال ابن كثير: وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنىٰ المدينة بعد ذلك، ثم ذكر الحديث، وضعفه.

(٣) وهو الصحيح. ويدل عليه الواقع، قال ابن كثير (في تفسيره ٥/ ١٠١): وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا؛ وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف؛ حتىٰ جمعهم الله وإياه ببدر علىٰ غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبىٰ سراتهم ؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٧٦] مدة يسيرة.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: كسُنَّة من قد أرسلنا ﴿قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ إذا فعلت أممهم بهم، يعني: سنتنا فيما خلت من الأنبياء أن قومهم إذا قتلوهم أو أخرجوهم من بين أظهرهم عذبوا قريبًا ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [٧٧] وتبديلاً.

ثم أمر رسوله ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ دلوكها: ميلها عند الزوال، والمراد به: صلاة العشي: الظهر والعصر، وقوله: إلىٰ غسق الليل؛ أي: مع غسق الليل، وهو: المغرب والعشاء، والغسق: الظلمة(١).

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ وإنما سماه قرآنًا لتخصيصها بطول القراءة، فقد دخل في الآية الصلوات الخمس.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [٧٨] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، لأنَّ ملائكة النهار تنزل عند الفجر؛ انفجار الصبح، وملائكة الليل ترجع عند الفراغ من صلاة الفجر؛ إذا قرب طلوع الشمس، ثم تمكث ملائكة النهار إلىٰ صلاة العصر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: اسهر، والتهجد: دفع النوم بالتكلف.

نافلة لك: زيادة وفضيلة، تناجي بها محبوبك في وقت خلواتك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [٧٩] أي: واجب علىٰ ربك أن يبعثك المقام الذي يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة، خص الله تعالىٰ بالنافلة نبيَّه

قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب، ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [٣٣].

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥١٢، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٤، معالم التنزيل ٥/ ١١٤.

في الليالي ليعطيه محل الشفاعة(١).

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: أدخلني(٢) مدخل أمن وأخرجني مخرج أمن، حين أخرجتني من مكة وأدخلتني المدينة(٣).

وقيل: أدخلني المدينة علىٰ عزٍّ وشرف برغم اليهود والمنافقين، وإذا أخرجتني من المدينة لفتح مكة فأخرجني مخرج صدق أي شرف وعز علىٰ رغم المشركين(٤).

﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ٨٠﴾ حتىٰ نغلب مشارق الأرض، ومغاربها فأجاب الله دعاءه وعصمه وأظهر دينه.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: ظهر الإسلام والقرآن، وبطل الشرك والأصنام ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾ ليس له بقاء عند مقابلة الحق.

قال الكلبي: لما فتح رسول الله مكة دخل البيت وفيه ثلاثة مائة وستون صنمًا مصفوفة، صنم كل فريق بحيالهم، وبيد رسول الله مخصرة، يأتي الصنم فيطعن بمخصرته في عينه أو بطنه ثم يقول: «جاء الحق وزهق الباطل»، فيجعل الصنم ينكب لوجهه، وأهل مكة يتعجبون والكفار يقولون: ما أسحره(٥).

---

(١) في صحيح البخاري (٤٧١٨) أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتىٰ تنتهي الشفاعة إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.

(٢) في الأصل: سلوكنا، وهو تصيف.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٥.

(٤) وفيه أقوال أخرىٰ، رواها ابن جرير في التفسير ١٧/ ٥٣٤، ثم رجح القول الأول الذي بدأ به المصنف، لمناسبة السياق، وهو جلي لمن تأمله.

(٥) وأصل هذا مخرج في الصحيحين، فلا يحتاج فيه إلىٰ الرواية عن الكلبي ولا عن أمثاله، فقد روىٰ البخاري في الصحيح (٢٤٧٨) ومسلم في الصحيح (١٧٨١) عن عبد الله بن مسعود

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ مِن: زائدة[1]، المعنىٰ: أنزلنا القرآن شفاء لمن آمن به مِن عوارض الشك والشبهة في الدين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن الله إذ هداهم به إلىٰ الفوز العظيم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين مِن أهل أمثال القرآن وعجائبه ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: غبنًا في الآخرة وهلاكًا.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: وسعنا عليه الرزق ﴿أَعْرَضَ﴾ عن سؤالنا ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تباعد عن طاعة الله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفاقة والمشقة ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ أي: صار يؤوسًا من الفرج، قنوطًا من الرحمة.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ الشاكلة: الطريقة، وفي هذا الموضع الذي يعني: كلٌّ من المؤمنين والكافرين يعمل علىٰ دينه ومذهبه، أشار إلىٰ أنَّ كلاً يعمل علىٰ ما يليق به، فالمؤمن يليق بدينه شكر النعمة، والكافر يليق بطريقته

رضي الله عنه أنه قال: دخل النبي صلىٰ الله عليه وسلم مكة، وحول البيت ستون وثلاث مائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة سبأ:٤٩].

(١) سبق التنبيه علىٰ أنه لا زوائد في القرآن، بل كل لفظ فيه له فائدة معنىٰ، وجمال نظم ووقع، لكن بعض أصحاب المعاني يستعمل مثل هذه الألفاظ لأجل تقريب المعنىٰ، فقد يستغل كلامهم لأجل الطعن في القرآن، وإنما مرادهم الزيادة في الإعراب ونحو ذلك.

قال الواحدي في البسيط ١٣/ ٤٥٢: «مِن: هاهنا ليست للتبعيض بل هو للجنس، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الحج:٣٠]، والمعنىٰ: وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن، ما هو شفاء، فجميع القرآن شفاء للمؤمنين. قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، فعلىٰ هذا معنىٰ كونه شفاءً: أنه ببيانه يزيل عمىٰ الجهل وحَيْرَة الشك، يُستشفىٰ به من الشبهة، ويهتدىٰ به من الحيرة، فهو شفاء من داء الجهل.

وقال ابن عباس: يريد شفاءً من كل داء ، وعلىٰ هذا، معناه: أنه يُتَبَرَّك به؛ فيدفع الله به كثيرًا من المكاره والمضار، ويؤكد هذا الوجه ما روي أن النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم قال: من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله».

كفران النعمة، والله تعالىٰ يليق بفضله الإنعام والرحمة لمن يستحقه.

وطريق ذو شواكل إذا كان له شعب، والواحد منها: شاكلة[١].

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ أي: أصوب دينًا.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الذي يحيا به الإنسان ويموت بمفارقته ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: بتدبير ربي يخرج ويدخل في الجسم.

وقال أهل الإعراب: الروح جسم رقيق هوائي، علىٰ بنية حيوانية، في كل جزء منه حياة[٢].

وقال المفسر الكبير: الروح من المتروك الذي لا يصلح النص عليه؛ لأمور من الحكمة تقتضيه، منها أن ليس إلىٰ معرفتها حاجة، فينبغي للعالِم الحاذِق أن يوكل ما في نفسه وعقله من قوة الاستدلال علىٰ معرفة الروح إلىٰ ما فيه من الرياضة علىٰ استخراج الفائدة.

---

(١) معاني القرن للزجاج ٣/ ٢٥٧، البسيط ١٣/ ٤٥٨.

(٢) البسيط ١٣/ ٤٦٦، تفسير السمعاني ٣/ ٢٧٥، قال ابن الجوزي: وقد اختلف الناس في ماهية الروح، ثم اختلفوا هل الروح النفس، أم هما شيئان فلا يحتاج إلىٰ ذكر اختلافهم لأنه لا برهان علىٰ شيء من ذلك وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة؟ فأما السلف، فانهم أمسكوا عن ذلك، لقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (زاد المسير ٣/ ٥١).

قلت: وهذا مما ينبغي عدم الخوض فيه، فإن مباحثه ليست من مباحث الشريعة، بدليل أن اليهود سألوا النبي صلىٰ الله عليه وسلم سؤال متعنت وممتحن، فقالوا له: أخبرنا عن الروح، فأنزل الله هذه الآية في الجواب عليهم، فكان الانتهاء بالمباحثة عن الروح إلىٰ هذا من أجوبة النبي صلىٰ الله عليه وسلم الدالة علىٰ نبوته، فإنهم أهل كتاب، ولم يكذبوه فيما امتحنوه فيه، فانتهىٰ اليهود عن المباحثة إلىٰ ما انتهىٰ إليه رسول الله ولم يزيدوا، وعليه فلا فائدة في البحث عما وراء ذلك، فأكثره رجم بالغيب.

وقال ابن عباس: في الإنسان روح ونفس، فالنفس التي بها التميز والكلام، والروح هي التي يكون بها الغطيط والنفَس، فإذا نام العبد خرجت نفسه وبقيت روحه، وإذا مات خرجا جميعًا.

وقال معاذ بن جبل: الروح خلق عظيم، لم يخلق الله شيئًا أعظم منه؛ إلا العرش، وهو علىٰ صورة الإنسان، له اثنان وسبعون لسانًا في اثنتين وسبعين فَمًا، كل لسان فيه ينطق باثنين وسبعين لغة، يستتر الملائكة بأجنحتها دونه مخافة أن يحترقوا من نوره، ونور ما يسبح الله به، فإذا سبَّح الله وقدس خرج ذلك النور منه، فيخلق من ذلك النور ملائكة يقال لهم: الروحانيون، وهو رئيس الملائكة، فكانت الملائكة يوم القيامة كلها صفًا والروح صفًا[١].

وقيل: الروح هو القرآن، سمي روحًا لأنَّ الروح سبب حياة النفوس، والقرآن سبب لحياة القلوب[٢].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ والله تعالىٰ لم يعط علم الروح أحدًا من العباد.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ﴾ عزَّىٰ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم بهذه الآية؛ حتىٰ يصبر علىٰ أذىٰ قومه، معناه: لو شئنا لمحونا[٣] من القلوب والكتب ما أنزلنا

---

(١) لم أجده عن معاذ، لكن رواه الطبري في التفسير ١٧/ ٥٤٤ عن علي بن أبي طالب، بإسناد فيه مجهول.

وهذا الخبر -علىٰ نكارته- ليس المقصود منه روح الحيوان، التي هي محل السؤال، بل الروح الذي قرن مع الملائكة في بعض الآيات، فهو من الملائكة، مثل قوله ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ [سورة النبأ:٣٨] وهذا علىٰ مذهب من فرق بين الروح والملائكة، وأما من فسر الروح بأنه جبريل، فلا فرق.

(٢) زاد المسير

(٣) كررها في الأصل مرتين.

إليك؛ حتىٰ لا يوجد له أثر، معناه: إني قادر علىٰ أن أمنعك عن حفظ القرآن كما منعتك علم الروح ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ يرده إليك ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: ناصرًا ومعينًا.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ معناه: ولكن رحمة من ربك، دبر في أمرك فأعطاك ما تحتاج إليه من القرآن، ومنعك ما لا تحتاج إليه من علم الروح، فاشكر هذه النعمة.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ حيث اختارك لرسالته وفضَّلك علىٰ الأولين والآخرين.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ أي: قل لأهل مكة لو اجتمعتما جميعًا وأعان بعضهما بعضًا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في نظمه وعجائبه ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: لو كان بعض الجن لبعض الإنس أو بعض الإنس لبعض الجن معينًا عليه، لأنه لا مثل له في الاختصار وجمع الكبير من المعاني في القليل من لفظه.

نزلت هذه الآية جوابًا لقول النضر بن الحارث حيث قال: لو نشاء لأتينا بمثل هذا[1].

واتصال الآية بما قبلها: أن لا تحزن إن لم يعلمك الله علم الروح فقد أعطاك القرآن الذي هوَ[2] صفته.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل عجب تخويفًا وتوعيدًا، وتحريمًا وتحليلاً، والأصول المثبتة حتىٰ يستنبط العلماء منها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ أي: ثباتًا علىٰ الكفر.

---

(١) وهو من رواية الكلبي في ما يظهر، انظر: زاد المسير ٣/ ٥٢.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: هذا.

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني قريش ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ عيونًا جارية ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ يعني وسط الجنة ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا [أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا] ﴿٩٢﴾﴾ بتسكين السين[1]: أي قِطَعًا من العذاب[2].

وقال عبد الله بن أبي أمية: والذي يحلف به لا أؤمن بك حتىٰ تشيد سُلَّمًا إلىٰ السماء فتصعد إليه ونحن ننظر، فتأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بأنك رسول الله، وقد أرسلك إلينا، ثم لا أدري بعد ذلك أؤمن بك أم لا، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا﴾ الآية[3].

﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ أي من ذهب ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ إنه بعثك رسولاً إلينا.

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ أي معاذ الله أن أدَّعي شيئًا مما سألتموني ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ يعني: ما كنت إلا بشرًا.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أي: لم يمنع أهل مكة عن الإيمان ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ البيان في القرآن ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي: إلا مقالتهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾ فموضع: «أن يؤمنوا» في الإعراب نصب، وموضع «أن قالوا»

---

(١) أي: كسْفًا، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف (النشر ٢/ ٣٠٩).

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٠.

(٣) وهذا قول سعيد بن جبير، انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٨، وروىٰ ابن جرير من طريق ابن إسحاق أنهم جماعة نزلت فيهم هذه الآيات (تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٥).

رفع[1]، وحرف: «أن» إذا اتصل بالفعل المستقبل كان بمعنى المصدر، ومعناه: ما منعهم الإيمان إلا قولهم أبعث الله بشرًا رسولاً[2].

وحقيقة المعنى: أي ليس هناك نقصان في الأدلة والتبيان والحُجج والآيات التي تلزمهم الإيمان بأنه رسول الله؛ إلا هذه مقالتهم لحسد يحسدونه.

وقال الضحاك: ازدروا به لفقره ويُتمه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين في الأرض ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا﴾ من جنسهم ﴿رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لأنهم كانوا يقولون: من يشهد أنك رسول الله فأجابهم الله به، ثم قال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: عالِم بعملهم و جزائهم[3].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي: على الهُدى والصواب، يعني: من أرشده الله لدينه فهو المرشَد والراشد ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ من يخذله فلا يوفقه لدينه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: أعوانًا يمنعونهم من عذابه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ عن الحجة ﴿وَبُكْمًا﴾ لا يتكلمون بالحجة ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون خيرًا[4].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٤.

(٢) أي: ليس لهم حجة سوى القول (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٩) وفي هذه الآية إزراء بمن يستدل بالأقوال دون الحجج والبراهين.

(٣) في الأصل: يعلمهم، وهو تصحيف فيما يظهر.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٠، وهذا لا يمنع من أن يكون حشرهم يوم القيامة عميا وبكما وصما، فلا يبصرون شيئا ولا يسمعون قولا، قال ابن جرير (في التفسير ١٧/ ٥٥٩): «فإن قال قائل: وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عميا وبكما وصما، وقد قال ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مستقرهم ومثواهم النار ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكن لهب نارها ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ جددنا لهم وقودًا، وأعدناهم خلقًا جديدا[1] تعمل فيهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كتابنا ورسولنا ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: ترابًا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بعد الموت ﴿خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ كما يزعم محمد، هذا لا يكون أبدًا، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بعجائبها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ثانيًا كما خلقهم بادئًا ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ﴾ أي: لهلاكهم في الدنيا ﴿أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أن عذابهم وموتهم كائن ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ وهم أهل مكة، يعني جحودًا[2].

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: مفاتيح رحمة ربي من الرزق

فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [سورة الكهف:٥٣] فأخبر أنهم يرون، وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [سورة الفرقان:١٣] فأخبر أنهم يسمعون وينطقون؟

قيل: جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العَمىٰ والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلىٰ موقف القيامة، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أُخر غير حال الحشر، ويجوز أن يكون ذلك، كما روي عن ابن عباس في قوله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [سورة الإسراء:٩٧] ثم قال ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ وقال: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ وقال: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ أما قوله: عُمْيًا، فلا يرون شيئا يسرُّهم، وقوله: بُكْمًا، لا ينطقون بحجة، وقوله: صُمًّا، لا يسمعون شيئا يسرّهم».

قلت: وفي مثل هذا أجوبة، يقال: إن ذلك باختلاف المنازل والمراحل، ويمكن أن يقال: إن الله يسمعهم إذا شاء ويصمهم إذا شاء، فيسمعهم ما أراد ويصمهم عما لا يريد، وفي هذا زيادة في النكال والعذاب.

(١) في الأصل: حديد.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٦٣.

والمطر ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: امتنعتم من النفقة مخافة الفقر ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ على نفسه وعياله، أي: بخيلاً مخافة الفقر(١).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ اليد والعصىٰ والسنين والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، وقيل: التاسع هو الطمس، وقيل: الحجر، وقيل: البحر(٢).

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ موسىٰ بمصر، قيل: الخطاب لرسول الله، وقيل: سل يا أيها المُنْكِر لرسالة محمد هل كان كذلك؛ لأن رسول الله لم يكن يعرف هذه الآيات قبل نزولها عليه.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: ساحرًا مفعول بمعنىٰ الفاعل(٣)، وقيل: مخدوعًا.

أجابه موسىٰ و ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الآيات التي أتيتك بها أنزلها الله ﴿بَصَآئِرَ﴾ عِبرًا للخلق ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ﴾ أي: أعلمك ﴿يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ مُهلكًا(٤).

وقيل: ملعونًا، والثبور في اللغة هو المنع، يعني: ممنوعًا من الخير(٥).

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يستخفهم من أرض

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٦٣، البسيط ١٣/ ٤٨٩.

(٢) اتفقوا علىٰ خمس منها، وهي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، واختلفوا في أربعة، فقيل: اليد والعصا والأخذ بالسنين ونقص الثمرات، وقيل بدل الأخيرتين: فلق البحر والطمسة (تفسير الطبري ١٧/ ٥٦٤، البسيط ١٣/ ٤٩٤).

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٦٨.

(٤) وهو قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٦٣.

(٥) وهو قول الطبري في تفسيره ١٧/ ٥٦٩.

أردن وفلسطين ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ وقيل: يستزلهم من أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من مجموعه ﴿جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد هلاك فرعون ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض المقدسة من الأردن وفلسطين ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ البعث بعد الموت ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ مختلطين لا تتعارفون[١]، أي: لا يكلم بعضهم بعضًا، وقيل: لفيفًا جميعًا.

واللفيف: الجماعات من قبائل شتىٰ[٢].

وقال بعض المفسرين: أسكنوا الأرض[٣]: أرض مصر، وإن موسىٰ صلوات الله عيه رجع إلىٰ مصر بعد هلاك فرعون بثلاثة أيام، وبنىٰ قارون بها قصره، وفيها[٤] عبد العجل، وقُتل عاميل[٥]، وكانت التوبة والقتل بمصر، ومنها خرج إلىٰ الجبل فأعطىٰ الألواح، ثم خرجوا بعد ذلك متوجهين إلىٰ الشام، فلمَّا رجعت الجواسيس بأخبار مَن في الأرض المقدسة جبنوا وأبوا دخولها، فحبسهم الله تعالىٰ في تلك المفازة أربعين سنة، حتىٰ مات من كان مدركًا، والآخرون قد أدركوا، ومات فيها هارون ثم بعده موسىٰ، ومضىٰ أمر التيه بعد موت موسىٰ بأربعة أشهر، وخرج بهم من التيه يوشع بن نون، وقد بقي هو وكالوب بن يوفنا من رجال بني إسرائيل، فأول مدينة استقبلتهم من أرض المقدسة فتحها الله عليهم، وأمرهم أن يدخلوا الباب سُجَّدًا فعصوا ودخلوها

---

(١) لا تتعارفون من زيادات المصنف، ولم أجد هذا القيد في كتب التفسير التي وقفت عليها (انظر: البسيط ١٣/ ٥٠١، الكشاف ٢/ ٦٩٨).

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٧٢، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢.

(٣) في الأصل: الأردن، وهو تصحيف.

(٤) في الأصل: وفيه.. ومنه.

(٥) صاحب قصة البقرة.

زحفًا استهزاءً، فأخذهم الرجز، فمات منهم سبعون ألفًا في ثلاثة أيام(١).

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بالبيان والصدق ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ مبشرًا لمن أجابك بالجنة، ونذيرًا لمن لم يُجِبْك بالنار.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ بالتخفيف(٢)، أي: أنزلناه مفرقًا.

ويعني بالتشديد: بيَّنا فيه الحلال والحرام فرَّقنا بينهما(٣).

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مهل ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ متفرقًا من أوله إلىٰ آخره في عشرين سنة، وهذا علىٰ قول من يقول: إنَّ الله أوحىٰ إلىٰ رسوله وهو ابن اثنتين وأربعين سنة، وهو في صدر من السنة الثالثة، ومكث بمكة بعد الوحي عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وهذا أصح الأقاويل عند أهل التفسير(٤).

وبعضهم قالوا: أوحىٰ إليه وهو ابن أربعين سنة، فكان مدة الوحي ثلاث وعشرين سنة(٥).

---

(١) في الأرض المرادة ثلاثة أقوال، مصر أحدها، وقيل: الصين وتُبَّت، وهو قول مقاتل (في تفسيره ٢/ ٢٧٥)، وقد سبق في سورة الأعراف، وقيل: الشام (زاد المسير ٣/ ٥٨).
والراجح الشام، بدلالة قوله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وكانت الأرض هي الشام بلا خلاف.

(٢) في الأصل: بالتشديد، وهو خطأ من الناسخ، سيأتي التشديد بعد. وقد قرأ بالتشديد ابن محيصن (اتحاف فضلاء البشر ٣٦٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) الكشف والبيان ١٦/ ٥٠٣، زاد المسير ٣/ ٥٨.

(٤) وهذا رواه عكرمة عن ابن عباس، رواه ابن جرير ١٧/ ٥٧٤، وهو مبني علىٰ جبر الكسور. وعن الحسن البصري مثله.

(٥) وعن الحسن البصري رواية أخرىٰ: نزل في ثماني عشرة سنة (رواه ابن جرير ١٧/ ٥٧٦).

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ خرج الكلام على لفظ الإباحة، والمراد: التهديد، معناه: إن آمنتم أو لم تؤمنوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ من مؤمني أهل التوراة ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ آيات القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧﴾ يقعون على وجوههم خاضعين لله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ مما أكرمنا برؤية نبيه والاستمتاع من آياته، فكم من قوم ماتوا مشتهين للقاء رسوله ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨﴾ أي: قد كان وعد ربنا فيما وعد في التوراة والإنجيل بأني باعث رسولاً عربيًا حرميًا تهاميًا راكب الجمل مفعولاً، أي: كائنًا[1].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: باكين ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ مما سمعوا من القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ وتواضعًا في دينهم لربهم عزَّ ذكره.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وذلك أنَّ ذكر اسم الرحمن في القرآن كان قليلاً، حتى أسلم ابن سلام وأصحابه ساءهم ذلك لأنَّ ذكر الرحمن في التوراة كثير، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[2].

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ فبأي اسم دعوتموه: الله، الرحمن، الرحيم ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني الصفات العليا ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ يعني: لا تجهر بالقرآن في

والمشهور أنه نزل في ثلاث وعشرين سنة، في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة عشر سنوات (الكشف والبيان ١٦/ ٥٠٣).

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٧٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢، وقيل: المراد بالكتاب هنا، هو كتابهم، وهذا قول بعيد عن الصواب.

(٢) وهذا قول الكلبي، كما صرح به أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٣٣، وهو يقتضي أن الآية مدنية، وهو ضعيف، فقد صح عن أبي الجوزاء عن ابن عباس. قال: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ساجدا يدعو: يا رَحْمَنُ يا رَحيمُ، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدا، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله الآية، رواه ابن جرير (١٧/ ٥٨٠).

صلاتك لأن الكفار كانوا يؤذونه عند الجهر ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ لأنَّ من خلفك لا يسمع المخافتة ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: اسلك بين الجهر والمخافتة مسلكًا، مقدار ما تُسمع أصحابك[١].

فلما هاجر إلىٰ المدينة نسخت الآية بآية القتال[٢].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الحمد لله إضافة النعمة إلىٰ موليها، والإقرار له بها، فأُمر رسول الله أن يقول لأمته: إنَّ المُنْعِم علىٰ الخلق هو الله الواحد الذي لم يتخذ ولدًا.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: ليس له ولد يرث ملكه، ولم يكن له في المُلك شريك يعازُّه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس له ولي من أهل الذل، وهم: اليهود والنصارىٰ.

وقيل: لم يتعزز بأحد من خلقه من ذل أصابه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ أي: عظِّمه تعظيمًا[٣].

---

(١) روىٰ البخاري (٤٧٢٢) ومسلم (٤٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مختف بمكة، كان إذا صلىٰ بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وسلم: ولا تجهر بصلاتك: أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم، وابتغ بين ذلك سبيلا.

وروىٰ البخاري (٦٣٢٧) عن عائشة أنها قالت: «أنزلت في الدعاء».

(٢) ورواه الضحاك عن ابن عباس (تفسير ابن كثير ٥/ ١٢٩).

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٩.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «من قرأ سورة بني إسرائيل فيرق قلبه عند ذكر الوالدين أعطي قنطارين في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية، والأوقية منها خير من الدنيا وما فيها»[1].

❁ ❁ ❁

(١) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٦/ ١٧٤، والمستغفري في فضائل القرآن ١١٨٣.

سورة الكهف

مكية كلها[١]، وهي مائة وخمس آيات في المدني، وأحد عشر آية في البصري[٢].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الشكر والألوهية والثناء لله عز وجل؛ الذي أنزل القرآن من اللوح المحفوظ علىٰ عبده محمد صلىٰ الله عليه وسلم قيمًا مستقيمًا ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا﴾ واللام زائدة، ومعناه: لم يجعله عوجًا، ولم يقل: ولم ينزله معوجًا؛ أي: مخالفًا للتوراة والإنجيل، بل هو موافق لهما في التوحيد وبعض الشرائع[٣].

والعوج في الكلام: هو العدول عن طريق الاستقامة، والفساد[٤].

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ أي: أنزلنا لينذر محمدٌ الناسَ بأسًا شديدًا، أي: يخوِّفهم بالعذاب الشديد ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي: من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يُفرِحْهُم بما وعدهم الله في الآخرة من الثواب، وهم أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم[٥].

---

(١) وهو إجماع من المفسرين (الكشف والبيان ١٧/ ٧، زاد المسير ٣/ ٦٣).

(٢) وست في الشامي وعشر في الكوفي (البيان ١٧٩).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٨.

(٤) كذا، أي هو الفساد، وأخشىٰ أن يكون مصحفا، وصوابه: عن طريق الاستقامة والقصد.

(٥) دخول الصحابة في هذه الآية دخول أولي، ولكن الآية عامة (تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٤).

ثم وصفهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الصلاة والصيام ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ يعلمون بأن لهم ثوابًا كريمًا في الجنة ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾ أي: دائمين في الآخرة، مقيمين في ثواب عملهم، نصب على الحال(١).

﴿وَيُنذِرَ﴾ بالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ عيسى وعزير والملائكة.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بما قالوا ﴿مِنۡ عِلۡمٖ﴾ أي: بيان وحجة ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ الذي مضوا على منهاجهم وهو الشرك ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾ أي: كبرت تلك الكلمة كلمة ﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ ذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ أي: ما يقولون إلا زورًا.

ثم عزّى رسوله ليصبر: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ أي: تريد أن تقتل نفسك أسفًا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي: بعدهم ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: القرآن، و ﴿أَسَفًا ٦﴾ منصوب لأنه مصدر في موضع الحال(٢).

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ أي: خلقنا جميع ما على وجه الأرض من الزخارف زينة(٣) وبهجة للأرض.

فلو قيل: أي زينة للأرض في الذباب والحيات وما أشبههما؟ قلنا: هذا لبعض الأشياء لا كلها، وقد يذكر «كل شيء» ويراد بعضه، قال الله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ وقال في قصة بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ والمراد بعضه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨، التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٨٣٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨، التبيان ٢/ ٨٣٨ . والمعنى: حُزنًا وقيل: غضبًا (معالم التنزيل ٥/ ١٤٤).

(٣) في الأصل: وزينة.

ولأنَّ هذا زين في باب الدلائل لا في باب المنظر، لأنَّ إنسانًا لو استدل بما وضع الله في الأفعىٰ من السم في رأسه وذنبه والترياق في متنيه علىٰ تثبت الصانع وتوحيده تزين به مجلسه.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ أي: أزهد في هذه الزخارف، وقيل: إنهم أكثر شكرًا لنا إذا نظروا إلىٰ صنيعنا[(١)].

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ أي علىٰ هذه الأرض من الزهرة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ أي: ترابًا أملس لا نبات فيها[(٢)].

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ معناه: أحسبت وظننت أنَّ الفتية من أصحاب الكهف ﴿وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ فاحسبهم كذلك، فإنَّ أمرهم عجب.

وقال الكلبي: هم عجب، وعجائب السماوات والأرض أعجب[(٣)].

وقيل: هم عجب وما أطلعتك عليه من الغيب أعجب.

قال الجنيد: لا تعجب فإن شأنك أعجب من شأنهم؛ حيث أُسريَ بك في ليلة من مضجعك إلىٰ سدرة المنتهىٰ، ثم قاب قوسين أو أدنىٰ، ثم رددتُك إلىٰ مضجعك قبل انقضاء الليلة.

وأما الرقيم: فقيل: هو اسم الوادي، وقيل: الكتاب الذي كتب فيه شأنهم.

وقال سعيد بن جبير: هو اسم كلبهم[(٤)].

---

(١) ويجمع هذا: اسم الاختبار والامتحان (تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٩).

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٥، تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٥٦.

(٤) روىٰ ابن جرير في التفسير ١٧/ ٦٠٣، عن سعيد بن جبير أنه قال: الرقيم: لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه علىٰ باب الكهف.

وقيل: اسم الجبل الذي فيه الغار، وقيل: لوح كتب فيه أساميهم ووضع في خزائن الملوك[1].

ثم بيَّن القصة فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: صاروا إليه وجعلوه مأوىٰ، والفتية: جمع فتىٰ، قيل: سماهم فتية لأنهم آمنوا بلا واسطة، وقاموا إلىٰ الله بإسقاط العلائق ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أعطنا من تفضلك رحمة تثبتنا علىٰ ديننا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: سبِّب لنا من أمرنا الذي نحن فيه رشدًا وصوابًا مقرب إليك، ويزلف لديك.

وقيل: اجعل لنا من أمرنا مخرجًا.

قال ابن عباس: كان بمدينة الروم ملك ظهر عليها يقال له: دقيانوس، وتسمىٰ أرضهم: أفسوس، فكان يدعوهم إلىٰ عبادة الأوثان، فمن كفر بالله تركه ومن أبىٰ الدخول في دينه قتله، فهدىٰ الله تعالىٰ شابًا من أهل المدينة فكان يدعوهم سرًا إلىٰ الله تعالىٰ حتىٰ تابعه سبعة أغلمة، فأُخبر الملك خبرهم فهربوا منه، ولم يظفر الملك بهم، ومروا بغلام راعي معه كلب، واسم الكلب قطمير، وكان لونه أدعس، وقيل: أدغس، وهو لون بين اللونين، فدعوه إلىٰ أمرهم فتبعهم[2] واتبعه كلبه، حتىٰ أتوا غار الكهف، فبعثوا واحدًا إلىٰ السوق ليشتري لهم طعامًا فرجع وأخبرهم بأن الملك والناس في طلبهم، فأكلوا ما أتاهم ولم يشبعوا، ثم ناموا علىٰ جوعهم ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ بالنوم ثلاثمائة وتسع سنين، فجاء الملك مجموعة ورأوا آثار أقدامهم داخلين، فدخلوا الكهف

وعنه: هو لوح فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم (معالم التنزيل ٥/ ١٤٥).

(١) انظر: الأقوال في الرقيم في: تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٢، البسيط ١٣/ ٥٣٤، النكت والعيون ٣/ ٢٨٦، زاد المسير ٣/ ٦٦.

(٢) في الأصل: فالببعهم.

فأعمىٰ الله عليهم أبصارهم[١]، وأمر الملك بأن يسدوا عليهم باب الكهف، حتىٰ لو كانوا فيه يموتون[٢].

قال الله تعالىٰ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ﴾ أي أنمناهم فيه ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: ذات عدد، ومنعناهم عن السمع لأن النائم إذا سمع ينتبه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنميز ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: الفريقين ﴿أَحْصَىٰ﴾ المؤمنين أو الكافرين ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ أي: لمكثهم في الغار.

وأمدًا: نصب علىٰ التمييز[٣].

وكان في زمنهم رجلان مسلمان يكتمان إيمانهما من دقيانوس، أخذوا لوح رصاص وكتبا فيه اسم الفتية، وأسماء آبائهم وفرارهم من دقيانوس بسبب إيمانهم، وألزقاه داخل الكهف، فلما بعثهم الله استيقظوا علىٰ الجوع الذي كانوا عليه ناموا، فأقبلوا في تدبير الطعام.

قال الله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خبرهم بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ أي: يقينًا وبصيرة من أمر دينهم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي حفظناهم: علىٰ الإيمان وألهمناهم الصبر ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ في بلدهم يترددون حين خرجوا من عند الملك ﴿فَقَالُواْ﴾ فيما بينهم

---

(١) في الأصل: ابارهم، مهملة.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٥، وروىٰ ابن جرير نحوه عن ابن إسحاق وغيره (تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٩).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠، التبيان ٢/ ٨٣٩.

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فكيف ننظر إلىٰ شيء دونه، ونسكن إلىٰ من سواه ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ غيره، ولو قلنا ذلك أو فعلنا ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ جورًا وكذبًا(١).

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ أي: هلا يأتون علىٰ ما يقولون بحجة بيِّنة أنَّ غير الله آلهة ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ اختلق علىٰ الله باطلاً.

ثم قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ أي: اعتزلتم منهم وعبادة معبودهم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فلم تعتزلوه، وإنما استثنوا الله تعالىٰ لأنهم ظنوا أنَّ فيهم من يعبد الله كعبادتهم، ولأنَّ الكافر يعبد الله في الضراء إن لم يعبده في السراء، ولكن يشركون معه الأصنام(٢).

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي: اجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: ينشئ لكم ويوسع عليكم ربكم من رزقه ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ أي: يبيِّن لكم في أمركم الذي ابتليتم به رشدًا ونجاة.

وقيل: شيئًا يرتفقون به(٣).

ويجوز فتح الميم وكسره والفاء مفتوحة لا غير(٤).

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت﴾ بالغداة ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ أي: تمايل.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٥.

(٢) انظر: البسيط ١٣/ ٥٤٨.

(٣) البسيط ١٣/ ٥٤٩.

(٤) قرأ المدنيان وابن عامر: مَرفِقًا، بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقون كما أثبت في الآية (النشر ٢/ ٣١٠).

قال الكلبي: كان باب الغار نحو بنات النعش في أرض الروم، لم تصبهم الشمس إذا طلعت، تمايل عن كهفهم ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ أي: تعدل عنهم وتتركهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ لأنها تطلع عن يمين الغار، وتغرب عن يساره، فلا تؤذيهم بحرها وسمومها[١].

وقال بعض أهل التفسير: ليس فيما ذكر[٢] كبير فائدة وكرامة، ولكن معناه: أن الشمس كانت تطلع بحذاء باب الغار، ولا يدخله شعاعها، بل تزوَّر عنها، أي: تميل[٣].

قال أهل الإشارة: إنَّ الشمس امتنعت عن أنوارهم، ولو اطلع من نورهم مقدار ذرة أكسفها وذهب بنورها[٤].

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: متسع من الغار ينالهم نسيم الريح ويدفع عنهم غمة الغار ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: عجائب صُنعه ولطفه بعباده المؤمنين ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ أرشده ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ يدله علىٰ الصواب، وينوِّر قلبه للتوحيد.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٠.

(٢) أي الكلبي.

(٣) قال ابن عباس: لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يقلبون لأكلتهم الأرض، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٧/ ٦٢٠، ثم قال: وإنما معنىٰ الكلام: وترىٰ الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم، يقال منه: قرضت موضع كذا: إذا قطعته فجاوزته، وكذلك كان يقول بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة، وأما الكوفيون فإنهم يزعمون أنه المحاذاة، وذكروا أنهم سمعوا من العرب قرضته قُبُلا ودبرا، وحذوته ذات اليمين والشمال، وقُبلا ودبرا: أي كنت بحذائه، قالوا: والقرض والحذو بمعنىٰ واحد..

(٤) وهذا من الإشارة البعيدة.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمد لو رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: نيام غير منتبهين، وقيل: لكثرة تقلُّبهم يظن من رآهم أيقاظًا.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كيلا تأكل الأرض لحومهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ بفناء الباب ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في ذلك الوقت وقبل النوم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: هربت منهم من هول ما دخلك منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ أي: امتلأت ذعرًا.

قال الضحاك: لافتتاح أعينهم والنَفَس الذي يخرج منهم.

وقيل: لأنهم في حالة الوجود وقد أحاط بهم الهيبة من الله[1]، وأهل الدنيا كلهم في حال العدم والفناء، فمن كان في حالة الفناء لا يمكنه الاطلاع علىٰ من كان في حالة الوجود، ولأنَّ الحق أفناهم عنهم وأبقاهم به، فبقوا مع الحق في ميدان عظمته، فمن نظر إليهم من حيث الفناء هرب منهم، ولا يستطيع النظر إليهم.

وقيل: لو اطلعت عليهم فالخطاب له والمراد غيره، معناه: أيها السائل عنهم لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما ناموا كذلك أيقظناهم وفيهم بقية الجوع ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليتحدثوا فيما بينهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ رئيسهم: مكسلمينا[2] ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في هذا المكان نيامًا؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم نظروا إلىٰ الشمس وقد قاربت للغروب فلذلك قالوا: بعض يوم، فلما نظروا إلىٰ الباب ووجدوه علىٰ غير الهيئة التي دخلوه ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وإنما قال ذلك رئيسهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤١.

(٢) وهو من مرويات الكلبي، كما في تفسيره ٢٤٥، وانظر: معالم التنزيل ٥/ ١٥٩.

وقيل: لم يعرفوا الوقت لأنهم كانوا مع المحبوب وقد شغلهم ذكر المحبوب عن ذكر الزمان، لأنَّ ألف سنة مع الحبيب ساعة، وساعة في غيبة الحبيب ألف سنة.

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل: إنَّ أصحاب دقيانوس لما سدوا باب الغار قيض الله رجلاً حتىٰ هدمها، وبنىٰ علىٰ باب الغار حظيرة لغنمه، فقالوا عند ذلك: ربكم أعلم بما لبثتم، ثم بعثوا إلىٰ المدينة بدراهمهم، وكانت الدراهم مثل أخفاف الإبل[1].

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أطيب، أي: أحل ذبيحة لأنَّ أكثرهم كان مجوسًا، وقيل: كانوا يذبحون الخنازير[2] ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: يتوارىٰ في المشي ويرفق في الشراء ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يعلم الرسول أحدًا بمكانكم.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يرجعوكم في ملتهم الشرك ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ إن رجعتم إلىٰ دينهم لن تسعدوا أبدًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما هم علىٰ حالتهم اطلعنا عليهم الملك المسلم ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الذين يكذبون بالبعث أن البعث حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وذلك أنَّ يمليخا[3] صاحب لهم ذهب بالدراهم إلىٰ خباز ليشتري خبزًا، فقال له الخباز: مِن أين لك هذه الدراهم؟ فقال: بعت أمس شيئًا من مالي، وأخذت هذه الدراهم، فقال: تستهزئ بي،

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤١، حيث نسبه لابن عباس من طريق مجاهد.

(٢) معالم التنزيل ٥/ ١٦٠ .

(٣) وفي بعض الروايات: يمليخ (تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٧).

وهذه دراهم ضربت منذ أكثر من ثلاثمائة سنة، في زمن دقيانوس، أنت وجدت كنزًا، فإن جعلت لي فيه نصيبًا وإلا رفعتك إلىٰ الملك، وكان لهم ملك يقال له يستفاد، مسلمًا، وقيل: كان مجوسيًا عادلاً، فأخذه وجرَّه إلىٰ الملك فسأله الملك عن حاله، فأخبره بحاله وحال أصحابه أنهم فروا من دقيانوس، وظنوا أنهم ما مكثوا في الغار إلا بعض اليوم، فأخبر العلماء الملك بما كان من حال الفتية في زمن دقيانوس، وهربهم، فركب الملك في أُناس حتىٰ انتهوا إلىٰ باب الكهف، فقال يمليخا: أنا أسبقكم كيلا يظنوا أن هذا عسكر دقيانوس، فلا يخافون منكم، فدخل عليهم وأخبرهم بحال البلد، وإتيان الملك، فسألوا الله تعالىٰ أن يميتهم من ساعته، وأن يعميهم عن رؤيته، فاستجاب الله دعاءهم(١).

وقيل: إن الملك قد بلغ إليهم وراءهم وكلَّمهم فشكر اللهَ الملكُ علىٰ قوم هلكوا في زمن دقيانوس، ثم أحياهم الله في زمانه، وحسبوا ذلك: فكان ثلاث مائة وتسع سنين.

فلم يبق مع الملك أحد من الكفار إلا أسلم، فبينما هو يحدثهم إذ ماتوا، فبنوا علىٰ باب الكهف مسجدًا، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾ القول فيما بينهم ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ أي: كنيسة، وإنما قال ذلك المجوس ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ أي: بحالهم وقصتهم ولم يكونوا مجوسًا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي: الملك المسلم مع المسلمين ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾﴾ فبنوا علىٰ باب غارهم مسجدًا يصلي فيه، وتم الكلام(٢).

﴿سَيَقُولُونَ﴾ يا محمد في زمانك أي: أهل الكتاب يقولون: هم ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ ذكر الكلب مع أوليائه، كما روي في الخبر: أنَّ الملائكة إذا

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٥.

(٢) اختلف في صاحب هذا القول، أهم المسلمون أم الكافرون (تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٠).

رجعوا من مجلس العلم والذكر يقول الله تعالىٰ: «علىٰ ماذا تركتم عبادي؟ قالوا: يسألون الجنة، فقال: أعطيتها لهم، ثم ذكر استعاذتهم عن النار، فقال: اشهدوا أني حرَّمتها عليهم»(١).

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: قالوا قولاً بالظن وليس له حقيقة ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ يعني: تقول الفرقة الثالثة هم سبعة وثامنهم كلبهم، وهم الملكانية(٢).

دخل الواو في الثمانية للتصديق، وقيل: واو الثمانية(٣).

ومعنىٰ الكلام: يقولون سبعة، تم الكلام، ثم قال مبتدئًا: وثامنهم كلبهم، علىٰ أن الحساب قد بلغ منتهاه(٤).

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلم عددهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من الناس، وهو النبي صلىٰ الله عليه وسلم حيث أخبره الله بعددهم، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

ثم قال لرسول الله ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تناظر ولا تجادل نصارىٰ نجران في عددهم إلاَّ مراء ظاهرًا، أي: أخبرهم بما أخبرناك ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا تسأل أحدًا من نصارىٰ نجران ولا غيرهم من قصة أصحاب الكهف، فيرتابوا في أمرك.

---

(١) ومحل الشاهد في تتمة الحديث: قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم، رواه مسلم (٢٦٨٩).

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٢، الكشف والبيان ١٧/ ٨٣، البسيط ١٣/ ٥٧٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٧، الكشف والبيان ١٧/ ٨٦، البسيط ١٣/ ٥٧٩، معالم التنزيل ٥/ ١٦١.

(٤) وهذا علىٰ قول الجرجاني صاحب نظم القرآن، كما في البسيط ١٣/ ٥٧٥.

وعن ابن عباس: أسماء أصحاب الكهف مَكْسَلْمِينا، ويَمْلِيخَا، ومَرْطُوِيس، ونَوَالِس، وسَارِبيُولُس، وكَفْسُوابَلْط، وتَطْيُونِس سوس.

وفيها روايات مختلفة، وقيل: مَرْطُويس اسم الراعي، والله أعلم(١).

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ معناه: إلا مع: إنْ شاء الله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ معناه: إذا نسيت ثم ذكرته بعد الكلام، فاذكر ربك، وقل: إن شاء الله(٢).

وقيل: إذا نسيتَ غير الله فاذكره لأنَّ ذكر الله وذكر غيره لا يجتمعان(٣).

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ أي: ينصرني ويرشدني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: أسرع من هذا الميعاد الذي وعدت.

وذلك أنَّ الكفار سألوا رسول الله عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، والروح، فقال: سأخبركم غدًا، ولم يقل إن شاء الله، فامتنع عنه جبريل ثلاثة أيام، ويُروىٰ خمسة عشر يومًا، ويروىٰ أربعين يومًا، حتىٰ شمتت الكفار بذلك، وقالوا: إن رب محمد قد قلاه، ثم نزل جبريل بقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية، ثم أخبره بالقصة(٤).

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ [وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا] ﴿٢٥﴾﴾ رقودًا، وأراد

---

(١) وهذه رواية الضحاك عنه، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٣، الكشف والبيان ١٧/ ٩٠، معالم التنزيل ٥/ ١٦٢، وفيه اختلاف عما هنا.

(٢) وهذا عليه أكثر الناس، كما قال الواحدي (البسيط ١٣/ ٥٨٢).

(٣) لعله يريد بهذا القول ما ذكره بعضهم: إذا نسيت الشيء فاذكر الله ليذكرك إياه (النكت والعيون ٣/ ٢٩٩، زاد المسير ٣/ ٧٧).

(٤) والقصة مروية عن ابن عباس في تفسير ابن جرير ١٧/ ٥٩٣ من طريق ابن إسحاق عن شيخ مجهول.

بالسنين التفسير، لأنَّ ذلك بالسنين لا بالشهور والأيام[١].

وقيل: هو جمع السنين علىٰ العدد الذي في المائة، لأنَّ المائة وإن كان لفظها لفظًا لواحد فإنها مشتملة علىٰ أعداد كثيرة، ولذلك جمعه علىٰ السنين[٢].

وقيل: نزلت: «ولبثوا في كهفهم ثلاثة مائة» ثم نزلت بعدها «سنين»، لأنهم قالوا: أي ثلاث مائة شهور، أو أيام، أو أعوام، فأزال الشبهة بالسنين.

ثم قالوا: أما الثلاثمائة فقد عرفناها، وأما التسع فلا نعرف، فقال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ منكم، أخبرني بما أخبرتكم[٣].

﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: علم ما غاب فيهما من المخلوقين ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ أي: ما أبصره وما أسمعه بهم وبغيرهم، لأن بعض الجُهَّال يقولون في صفاته لا يسمع ولا يبصر إنما يعلم فقط.

﴿مَا لَهُم﴾ أي لكفار مكة ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ من خلقه.

وقرئ: «ولا تشركْ»[٤]، علىٰ النهي، خطاب[٥] للرسول صلىٰ الله عليه وسلم، أي: لا تشرك في عبادته.

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ أي: اقرأ عليهم ما أُنزِلَ عليك ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ واختصك به علىٰ أهل مكة ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لما وعد وأوعد في الدنيا

---

(١) وهو مروي عن الضحاك، في تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٨، البسيط ١٣/ ٥٩٠.

(٣) والقائل بحسب هذه الرواية هم النصارىٰ، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٣.

(٤) وهي قراءة ابن عامر وحده (النشر ٢/ ٣١٠).

(٥) في الأصل: خطا.

والآخرة، كقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ وقيل: لا مغيِّر لما وعدك من النُّصرة[(١)].

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ أي: لن تجد من عذاب الله ملجًا ومحرزًا.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: احبس نفسك مع الذين يصلون الصلوات الخمس ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يطلبون رضاه ولا يقصدون بعبادتهم إلا إيَّاه، مثل: سلمان وصهيب وعمار وغيرهم من الفقراء، وقد ذكرنا قصتهم في سورة الأنعام[(٢)].

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تتجاوز بالنظر عنهم إلىٰ غيرهم من أهل مكة ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وزهرتها ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: أخلينا قلبه من التوحيد والتصديق ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ بعبادة الأصنام ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ أي: كان قوله إفراطًا، وقيل: باطلاً، وقيل: ندمًا عليه، وقيل: هلاكًا[(٣)].

وهو قول عيينة بن حصن: إنَّا رؤوس إن نُسْلِم يُسْلِم الناس[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥١، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٤. ونص عبارة الكلبي كما نقلها الواحدي في البسيط ١٣/ ٥٩٨: لا مغير للقرآن.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

(٣) البسيط١٣/ ٦٠٠ .

(٤) والخبر بتمامه -كما ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٤٤: قال ابن عباس: «نزلت الآية في سلمان، وصهيب، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وعامر بن فهيرة، ونحوهم من الفقراء قالوا: بينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وسلَّم جالس ذات يوم، عنده سلمان علىٰ بساط منسق بالخوص أي منسوج إذ دخل عليه عيينة بن حصن الفزاري، فجعل يدفعه بمرفقه وينحيه، حتىٰ أخرجه من البساط. وكان علىٰ سلمان شملة قد عرق فيها فقال عيينة: إنَّ لنا شرفًا، فإذا دخلنا عليك فأخرج هذا أو اضربه، فو الله إنه ليؤذيني ريحه، أما يؤذيك ريحه؟

فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني الله بالصبر معهم علىٰ ذكره»[١].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: القرآن حق من ربكم، وقيل: التوحيد ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ليس بأمر ولا تخيير، ولكن خرج مخرج الوعيد، يعني: بيَّنا ثواب المؤمن وعقاب الكافر، وليختر المرء لنفسه[٢].

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ أي: أعددنا وهيَّأنا لهم نارا ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: النار صار عليهم مثل السرادق المحيط بهم، وقيل: دخانها[٣].

وجاء في الحديث: أنه يخرج من جهنم لسان من نار فيحيط بالكفار فيكونون فيها حتىٰ يفرغ من الحساب، ثم يوجهون إلىٰ جهنم[٤].

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟﴾ وذلك أنهم ينادون: العطش، العطش، بعد ما يغلي الزقوم في بطونهم، يغاثوا ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كُدورته ككدورة الزيت، وحرارته كالصُّفر الذائب، فإذا هوىٰ به إلىٰ فمه ليشربه أنضج جلده وجهه، فسقط في الإناء، فذلك قوله ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المُهل ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ بئست المتكأ النار، نصب علىٰ التمييز[٥].

فإذا خرجنا من عندك، فأدخلهم وأذن لهم بالدخول إن بدا لك أن يدخلوا عليك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً، فنزلت .

(١) رواه ابن جرير في التفسير ١٨/ ٦ عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف مرسلا. وانظر: تفسير سورة الأنعام، آية: ٥٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٠، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨١، البسيط ١٣/ ٦٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٢٥.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٠، معاني القرآن ٣/ ٢٨٢، زاد المسير ٣/ ٨١. .

(٤) وهو من رواية الكلبي، كما بينه في زاد المسير ٣/ ٨٠. .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٢ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: لا نبطل ثواب إيمانهم.

ثم بيَّن ثوابهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنة إقامة في دار الرحمن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ في يد كل واحد منهم ثلاثين أقلبة من ذهب وفضة ولؤلؤ ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والسُندس ما رقَّ من الديباج: أفخره، والاستبرق: الثخين من الديباج، شوَّق الله إليه العباد ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: نائمين[(١)] في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السُرر في الحجال[(٢)] ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ أي: منقلبًا[(٣)] ومصيرًا.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي: صف لأهل مكة إذا أنكروا نبوتك صفة رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما مسلم والآخر كافر، يقال للمسلم: يهوذا، وللكافر: أبو قطروس[(٤)]، ورثا من أبيهما مائة دينار، فقسماه، فأنفق المسلم نصيبه في طاعة الله والصدقة، والكافر اشترىٰ به جنات وغلمان، فذلك قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ وكروم ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: حفظناهما بنخل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجنتين ﴿زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم ينقص من الثمر شيئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي: لأخيه حين أنفق ماله، واحتاج إلىٰ شيء فسأله،

---

(١) في الأصل: ناعمين، وهو تصحيف، ولا معنىٰ له هاهنا، فالاتكاء النوم أو الجلوس كما فسره الكلبي، يريد جلوسا معتمدا علىٰ جهة، البسيط ١٣/ ٦١٧ .

(٢) في الأصل: الخلخال، وهو تصحيف، والصواب ما أثبت موافقا لما عليه أهل التأويل .

(٣) في الأصل: متقلبا، وهو تصحيف.

(٤) في تفسير الكلبي بالفاء بدل القاف، ومثله في الكشف والبيان ١٧/ ١٣٠، وفي تفسير مقاتل ٢/ ٢٨٨: فطرس، وكما ثبت هنا ثبت في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٦، ومعالم التنزيل ٥/ ١٧٠.

فقال له ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه الكلام: أنت أنفقت علىٰ الفقراء، وأنا اشتريت به ما ينفعني ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ وهو غلمانه، أي: أكثر تبعًا.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ آخذًا بيد أخيه المسلم ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: كافر بربه ﴿قَالَ﴾ لأخيه ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾ أي: لا تهلك هذه الجنة أبدًا ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي القيامة كائنة كم تزعم أنت ﴿وَلَئِن﴾ كانت كما تقول و ﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: رب العالمين ﴿لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ أي خيرًا من هذه الجنة موضعًا.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ أخوه المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يعظه[1] ويراجع الكلام ويجاوبه ﴿أَكَفَرۡتَ﴾ يا أخي ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ أي: من آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ قطرة ماء من صلب والدك ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾ أي: سوَّىٰ خلقك مستويًا معتدلاً.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ معناه: لكن أنا[2] أقول: هو الله ربي.

وقرئ: «لكنْ»، ومعناه ظاهر[3].

ومن قرأ: «لكنّا»[4]، في الأصل: لكن أنا، فطرحت الهمزة، والتقت نونان، فأدغم أحدهما في الآخر.

---

(١) في الأصل: يغيظه، وهو تصحيف.

(٢) وهكذا قرأ أبي بن كعب فيما نُسب إليه (المحتسب ٢/ ٢٩).

(٣) وهي شاذة، نُسبت لعيسىٰ الثقفي، كما في المحتسب ٢/ ٢٩، وانظر: الكشاف ٢/ ٧٢٣.

(٤) كلهم قرؤوا هكذا، إلا أن أبا جعفر وابن عامر ورويس أثبتوا الألف في آخره وصلا ووقفا، والباقون أثبتوها وقفا لا وصلا (النشر ٢/ ٣١١).

وفي «أَنَّا» ثلاث لغات: أَنَّا بإثبات الألف في الآخر، وهو ضعيف، وأَنَّ بغير ألف، وهو جيد، وأَنْ بسكون النون، وهو ضعيف أيضًا(١).

واخترنا في هذه الآية: لكنا، بالألف، لأَنَّ الهمزة لما سقطت أثبتت في آخرها الألف للوقف(٢).

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨﴾ من خلقه.

ثم وعظه فقال ﴿وَلَوۡلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يقال: أنَّ «ما» في موضع الرفع، معناه: الأمر ما شاء الله.

وقيل: في موضع النصب، معناه: أي شيء شاء الله، وقيل: ما شاء الله كان، وهو محذوف الجواب(٣).

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: هذه كلها بقوة الله ومشيئته، ولا قوة لأحد على إخراج هذه الأشجار وتثميرها ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ۝٣٩﴾ يعني: إذا رأيتني أقل منك مالاً وولدًا فهلَّا قلتَ: لا قوة إلا بالله.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: رجوتُ من ربي ﴿أَن يُؤۡتِيَنِ﴾ في الآخرة ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هذه ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: بردًا، وقيل: عذابًا، وقيل: نارًا، والحسبان: ما يرمي به(٤).

﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠﴾ أي: ترابًا زلقًا لا تثبت قدمًا، ولا تنبت شجرًا.

---

(١) التبيان ٢/ ٨٤٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٧.

(٣) كذا في الأصل، وقد صدر عن كتب المعاني، وقوله: وقيل: ما شاء الله كان، هو تقدير للجواب المحذوف إذا كانت في موضع النصب، وانظر: معاني القرآن للفراء ١٤/ ٢٢، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٨، البسيط ١٤/ ٢١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٥، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٩، البسيط ١٤/ ٢٣ .

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ غائرًا في الأرض، يقال: ماء غَوْر ومياه غُور ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾ أي: لا تقدر أن ترد الماء إلىٰ بستانك بحيلة، لا بالرشاء ولا بالدلاء، فصدَّق الله ظنَّه، وأعطاه مأمولَه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أهلك ما فيها من الشجر والثمر، وأحاط عذاب الله بها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: يصفق إحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ ندمًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: حيطانها قائمة، لا سقوف عليها.

وقيل: سقطت جدرانها وسقط بعد ذلك عرشها، وقيل: خاوية أشجارها من عروقها لأنَّ أرها تزلزلت؛ فتقلعت الأشجار؛ ساقطة أعاليها علىٰ أسافلها[(١)].

﴿وَيَقُولُ﴾ يعني في الآخرة ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في عمارة بستانه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣﴾ بنفسه.

ويقول يوم القيامة: «يا ليتني»، الآية، وفيها تقديم وتأخير.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: السلطان والحكم لله يوم القيامة، لا ينازعه أحد في مُلكه.

والوِلاية بالكسر: الإمارة، والوَلاية بالفتح: النُصرة[(٢)]، يعني: هناك يتبين نُصرة أولياء الله[(٣)].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: مثيبًا ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ أي: خير من أعقب، من العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: صِفْ للكفار وبيِّن لهم شبه الحياة الدنيا وبقاء الخلق فيها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو المطر الذي يكثر به النبات

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٧.
(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو، وقرأ الباقون بفتحها (النشر ٢/ ٢٧٧).
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٨.

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: اختلط الماء بالحبوب، فنبتت وحسنت واخضرت، وأخذت الأرض زخرفها، فبعث الله عليها آفة من السماء أو الهواء ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ أي: صار النبات مهشومًا يابسًا مكسورًا ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ في كل وجه، أي: لفته[1] في كل جانب، فكذلك حال بني آدم يولدون وينشؤون ويشيبون ويهرمون فيموتون، وكذلك حال الدنيا في فنائها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من إنشاء الخلق وفنائهم وبعثهم وإحيائهم ﴿مُّقۡتَدِرًا ۝٤٥﴾[2].

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: حُسنها وغرورها لا بقاء لها كما لا بقاء للنبات ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهو ثواب الصلوات الخمس، عن الكلبي.

وثواب: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، عن مقاتل.

وقيل: جميع الطاعات لله تعالىٰ[3].

﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ من هذه الدنيا الغرَّارة ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ۝٤٦﴾ أي: خير ما يؤمِّل العبد.

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ يعني: اذكر يوم نُزيل الجبال عن وجه الأرض؛ ونسيرها كما يسير السحابَ الريحُ ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ أي: ظاهرة من تحت الجبال، وقيل: خالية من الكنوز والأموال، وقيل: ينكسر كلُّ ما علىٰ وجه الأرض من النبات والشجر، حتىٰ لو وضعت جوزة بالمشرق لرآها الذي بالمغرب، عن ابن عباس[4].

---

(١) كذا في الأصل مجودا، وأظنه تصحيفا، والصواب: ألقته.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٨، معالم التنزيل ٥/ ١٧٤.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣١، النكت والعيون ٣/ ٣١٠، زاد المسير ٣/ ٨٧. .

(٤) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٨٩ قولين فقط: أحدهما: ظاهرة فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون. والثاني: بارزا أهلها من بطنها، قاله الفراء (معاني القرآن

قال ابن عطاء: دلَّ الحق علىٰ إظهار جبروته وتمام قدرته، ليتأهب العبد لذلك الموقف، ويصلح بسره وعلانيته لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

ثم قال ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جميعًا علىٰ تلك الأرض ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ غير محشور، أي: لم نترك، والغدر: ترك الوفاء(١).

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ قيامًا للمحاسبة، بارزين لله، لا يحجب أحد أحدًا ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: نقول لهم: جئتمونا عراة ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ في الدنيا في بطون أمهاتكم ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم﴾ في القيامة ﴿مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ تجتمعون فيه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني: الكتب توضع في الأيمان والشمائل ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يومئذ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي: في الكتاب عن السيئات ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينئذ وينوحون ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يا ندامتنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي فيه أعمالنا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ لا يدع صغيرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ من أعمالنا ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ علينا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك(٢).

٢/ ١٤٦). والذي دل عليه كلام أهل التأويل أنها خالية من الشجر والحجر والجبال وكل شيء يسترها (تفسير الطبري ١٨/ ٣٦) وصححه الواحدي وقال عن قول الفراء: لا يصح إلا عن بعد (البسيط ١٤/ ٣٩).

(١) البسيط ١٤/ ٤٠.

والذي دل عليه كلام أهل التأويل أنها خالية من الشجر والحجر والجبال وكل شيء يسترها (تفسير الطبري ١٨/ ٣٦) وصححه الواحدي وقال عن قول الفراء: لا يصح إلا عن بعد (البسيط ١٤/ ٣٩).

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ١٨/ ٣٨.

قال فضيل: ضجوا[١] من الصغار قبل الكبار.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ أي: سيجدون ما عملوا من الخير والشر مكتوبًا في ديوانهم.

قال أهل الإشارة: هذه أشد آية في القرآن؛ لأنهم إنْ نظروا إلىٰ المخالفات كان فيها المهالك، وإن نظروا إلىٰ الموافقات فهي مشوبة بالرياء والسُّمعة والشهوات.

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ أي: لا يعاقبهم بغير جُرم كان منهم.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ سجدة التحية ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ قيل: كان من الجن: من الجان، ولم يكن من الملائكة، ولكن كان رئيسهم، لأن إبليس كان كثيرًا ما يتعبد في الأرض حتىٰ اغترت بطاعته الملائكة الذين كانوا سكان الأرض، فسألوا الله أنْ يجعله منهم ففعل، فحملوه معهم إلىٰ السماء، فكان يتحول من سماء إلىٰ سماء، حتىٰ قتل الجنُّ نبيًا لهم، فبعث الله تعالىٰ إبليس مع الملائكة حتىٰ أجْلوا الجن بن الجان إلىٰ جزائر البحور، وأطراف الأرض، فبقي هو مع الملائكة، فتناوله خطاب الملائكة.

وقيل: كانت ملائكة هم خُزَّان الجنان، ورئيسهم إبليس، هبطوا إلىٰ الأرض فسموا كلهم الجن، واشتق اسمهم من الجنة[٢].

---

(١) في الأصل: صحوا، وقد نقله القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٤١٩ بلفظ: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه، ضجوا إلىٰ الله تعالىٰ من الصغائر قبل الكبائر.

(٢) وهو قول ابن عباس وبعض أصحابه، كسعيد وطاوس، تفسير الطبري ١٨/ ٤٠، الكشف والبيان ١٧/ ١٦٩ .

وعن قتادة: يقال له الجن، لأنه جنَّ عن طاعة الله[١].

وقيل: كان من الجن، والجن قبيلة من الملائكة كان إبليس منهم[٢].

قال عبد الحميد الحاكمي -تجاوز الله عن سيئاته-: قد شرطتُ في مقدمة هذا الكتاب أن لا أذكر كلمة من تلقاء نفسي، ولكن في هذه الكلمة تخايل لي حرف دعاني الطبع إلىٰ ذكره، وأستغفر الله عن جميع ما لا يرضىٰ به، وتلك المخايلة أنَّ الله تعالىٰ نسبه إلىٰ الجن، والجن اشتقاقه في اللغة من الاجتنان، والاجتنان هو الاستتار، فيحتمل أنْ يكون لإبليس في ذلك اليوم درجة كان يستتر من الملائكة بحيث يراهم ولا يرونه، كما أن الملائكة يروننا ولا نراهم، فحين ما ورد الخطاب بالسجود وأقبلت الملائكة للسجود فاستتر عنهم إبليس؛ ولم يسجد معهم؛ فسمي جنًّا لاجتنانه حين أبىٰ السجود، فهذا ما تخايل لي والعلم عند الله، ولا نداخل علىٰ أهل التفسير، وقد ذكرنا فيما تقدم أنَّ الروح طائفة من عباد الله، وهم في الإخفاء من الملائكة كاختفاء الملائكة منَّا، فكذلك إبليس لا يبعد أن يكون مثلهم.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعته ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ يا أولاد آدم ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ في معصيتي ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ يدعونكم إلىٰ الكفر بالله ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ أي: بئس البدل إبليس عن الله تعالىٰ للظالمين.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة، وقيل: إبليس وذريته ما أحضرتهم حين خلقتها مستعينًا بهم[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤١، الكشف والبيان ١٧/ ١٧٢ .

(٢) روي عن ابن عباس، كما في تفسير الطبري ١٨/ ٤٠، وهو قول مقاتل في تفسيره ٢/ ٢٩١ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥١ .

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ ولا عند خلق أنفسهم لأنهم لم يكونوا شيئًا فكوَّنهم.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ الاعتضاد: التقوي وطلب المعونة[١]، أي: لم أحتج إلىٰ عون الشياطين علىٰ حفظ المملكة، فكيف يتخذونهم أولياء من دوني.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ أي: يقول الله تعالىٰ للمشركين ادعوا شركائي ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم لي شركاء ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: سيدعونهم شاؤوا أو أبوا ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ في نفعٍ ولا ضرٍ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾ أي: بين الكفار ومعبوديهم مهلكًا[٢]، وادٍ في جهنم.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ ينصرفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيَّنا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ من أهل مكة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بيان ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ بالباطل، نزلت في أمية بن خلف[٣].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن علىٰ لسان محمد ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي: ما منعهم أن يستغفروا ربهم ويتوبوا من شركهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: إلا إتيان سُننا في الأولين الماضين بإهلاكهم، وإنزال العذاب عليهم، فهم ينظرون ذلك ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ معاينة بالسيف،

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥ .

(٢) في الأصل: ملكا، وهو تصحيف، وما أثبته هو الصواب، وهو قول ابن عباس في رواية علي، وروي عن غيره أنه وادٍ في جهنم، فجمع المصنف بين القولين (تفسير الطبري ١٨/ ٤٦).
يقال: وبِق الرجل يوبَق وبقًا، ويقال: يبيق، وبائق، إذا هلك (معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٥).

(٣) وهو قول الكلبي، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥١، البسيط ١٤/ ٥٧..

بالكسر يكون عيانًا[١]، وبالضم مقابلة[٢].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالنار ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بعبادة الأوثان، ولأنهم يقولون للرسل: ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليبطلوا بجدالهم القرآن والإسلام ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ أي: كتبي ورسلي ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ من العذاب ﴿هُزُوًا ۝٥٦﴾ سخرية[٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: من أظلم علىٰ نفسه وأجرأ علىٰ خالقه ممن وُعظ بالقرآن ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وكفر بها، يعني بالآيات ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ذنوبه التي أسلفت يداه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: ظلمات معاصيهم صارت حجبًا علىٰ قلوبهم[٤] ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كيلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسوء أعمالهم، كيلا يسمعوا الوعظ ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ متابعة الإسلام ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ وهم قوم من المشركين، آيس الله نبيه من إيمانهم، وعلم أنهم يموتون علىٰ الكفر.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: صاحب الرحمة بتأخير العذاب عنهم، والتحنُّن عليهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي يعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ في كفرهم ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أسرع عذابهم في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أجل لعذابهم وهو القيامة ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ ملجأً يلجؤون إليه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أقاموا علىٰ الشرك ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ أي: لعذابهم.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٧.

(٢) قرأ أبو جعفر والكوفيون بضم القاف، وقرأ الباقون بكسرها (النشر ٢/ ٣١١).

(٣) في الأصل: هزءا، وهي قراءة من سوىٰ حفص (النشر ١/ ٣٩٦).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٧.

وإن قرأتَ: بضم الميم وفتح اللام، يعني: لإهلاكنا إياهم[١].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون، يعني لتلميذه ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ عن السير، أي: لا أزال أسير في طلب الخَضِر وأداوم علىٰ المشي ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي: مجتمع ماء البحرين؛ بحر فارس والروم ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ أسير في طلبه سنة كاملةً، بلغة قيس، وقيل: دهرًا[٢].

وقال ابن عباس: سبعون سنة[٣].

وقيل: ثمانون سنة[٤].

قيل: إن موسىٰ لما أعطي التوراة تفكر يومًا في كبر ما أعطاه الله من العلم، وظنَّ أنه ليس أحد أعلم منه، قيل له: إن لله عبدًا يسكن جزائر البحور أعلم منك، هو الخَضِر، فقال موسىٰ: كيف لي بلقائه؟ فأُمر بأن يأخذ حوتًا مالحًا ويجعله في مكتل ليقوت به، وكان جبريل أخبره أنك تجد الخضر في موضع مجمع البحرين، حين يحيي فيه الميت، فلما بلغا مجمع البحرين نام موسىٰ صلوات الله وسلامه عليه، وتنحىٰ يوشع لحاجه البول، فوجد عينًا تسمىٰ عين الحياة، ولم يعرفها، فتوضأ يوشع من تلك العين، ووضع المكتل علىٰ الأرض،

---

(١) أي: مُهلكهم، وهي قراءة الجمهور إلا عاصما، فقد قرأ شعبة: لمَهلكم، وقرأ حفص: لمَهلِكهم (النشر ٢/ ٣١١).
انظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٧، وللسمين الحلبي فصل محرر في تأويل هذه القراءات في الدر المصون ٧/ ٥١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء٢/ ٤٥٤، تفسير الطبري ١٨/ ٥٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٤، البسيط ١٤/ ٦٩.

(٣) رواه ابن جرير عن مجاهد ١٨/ ٥٦. .

(٤) رواه ابن جرير ١٨/ ٥٦ عن عبد الله بن عمرو، واختاره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٩، وهو قول الكلبي كما في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٤.

وقد أكلا بعض الحوت، فانتضح من ماء وضوئه على الحوت فحيي بإذن الله، ثم وثب في الماء فجعل يضرب بذنبه الماء، فلا يضرب بذنبه شيئًا من الماء إلا يبس، فقام يوشع ليخبر موسىٰ فنسي أن يخبره، فمضيا يومهما حتىٰ صليا الظهر من الغد، ثم جاع موسىٰ فطلب من يوشع الغداء، فتذكر يوشع حال الحوت فأخبره، فذلك قوله ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أضاف النسيان منهما، والنسيان من يوشع، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أخذ مسلكًا ومذهبًا يسرب فيه، وقيل: جمَّ طريقه في البحر فكان كالسَّرَب ينظر إليه يوشع[(١)].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك المكان ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: آتنا بالطعام نتغدىٰ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ تعبًا ومشقة.

﴿قَالَ﴾ يوشع ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يعني: أرأيت أن تصغي إلىٰ كلامي، مخاطبة التلميذ لأستاذه ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ حين انتهينا إلىٰ شاطئ البحر عند الصخرة ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: نسيت أن أذكر قصة الحوت معك ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لك ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: عجبتُ عجبًا، وقيل: معناه اتخذ سبيله في البحر، تمَّ الكلام، فأجابه موسىٰ وقال: عجبًا، كأنه قال: أعجب عجبًا[(٢)].

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: ذلك الذي نطلبه من العلامة وهو إحياء الميت ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: علىٰ طريقهما الذي جاءا ﴿قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ يقصان الأثر

---

(١) حديث موسىٰ والخضر مخرج في الصحيحين، رواه البخاري ١٢٢، ومسلم ٢٣٨٠، وفي سياق المصنف زيادات ليست في الصحيحين.

(٢) البسيط ١٤/ ٧٧.

ليلاً يعدلان(١) عن الطريق، فإذا بلغا إلىٰ تلك الصخرة ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أعطيناه النبوة تفضُّلاً منَّا ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ يعمل به، وبما كشفنا له من علم الغيب.

واسم الخضر: اليسع بن عاميل، سُمِّي اليسع: لأنه وسع علمه ست سماوات وست أرضين(٢).

وسُمِّي خضرًا: لأنَّه إذا صلىٰ في مكان اخضرَّ ما حوله(٣).

فأتياه من خلفه، وسلَّما عليه، فأنكر الخَضِر السلام بأرضه، فانصرف فرأىٰ موسىٰ فعرفه، فقال: يا نبي بني إسرائيل، فقال موسىٰ: وما يدريك ذلك؟ فقال: أدراني الذي دلَّك عليَّ(٤).

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ ألا أصاحبك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ أي: ما علمك من خير صواب.

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ لأنَّك ترىٰ مني أشياء تنكرها ولا يسع للأنبياء أن يروا منكرًا إلا يغيروه(٥).

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ علم ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ أي: لا تقدر أن تصبر علىٰ شيء لم يحط علمك به، لأنك ترىٰ الأحكام وأنا أرىٰ صاحب الأحكام.

---

(١) في الأصل: يعدلا.

(٢) وهو قول مقاتل كما في تفسيره ٢/ ٢٩٦، وهو قول شاذ لا دليل عليه.

(٣) في صحيح البخاري ٣٤٠٢: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «إنما سمي الخضر أنه جلس علىٰ فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء».

(٤) رواه مقاتل كما في تفسيره ٢/ ٢٩٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ لا أسألك عن شيء حتىٰ تحدثني به ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ۝٦٩﴾ فيما أمرتني به ونهيتني عنه.

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ أصنعه ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ۝٧٠﴾ أي: أخبرك بخبره.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ أي: ثقبها الخضر فلم يصبر موسىٰ علىٰ ذلك ﴿قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ أي: أردت بكسر السفينة إغراق أهلها ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ۝٧١﴾ أي: بأمر منكر، وقيل: عجبًا.

قال قائل: وعد موسىٰ أن يصبر عليه ولا يسأله عن شيء فعله، ولا يعصي أمره، فكيف خالف؟

قلنا: وعد له شيئين، استثنىٰ أحدهما ولم يستثن الآخر، فوفىٰ ما استثناه، ولم يوف ما لم يصله بالاستثناء، لأنه قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا، وقد صبر حيث لم يأخذ علىٰ يد الخضر، ثم قال: ولا أعصي لك أمرا، وأمره: قوله: لا تسألني عن شيء، ولم يستثن عليه موسىٰ، فلم يوفق لذلك[1].

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ۝٧٢﴾ فرأىٰ موسىٰ أن ذلك الخرق لم يضر بالسفينة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: لا تعاقبني بما غفلت، وقيل: بما تركت من عهدك، وقيل: بما نسيته، وأنه لم ينس ذلك في الحقيقة، وهو من معاريض الكلام، أراد أن يوهمه أنه نسي ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ۝٧٣﴾ أي: لا تكلفني عسرًا من أمري، والإرهاق والتعب والشدة[2]، يقول: عاملني باليُسر لا بالعُسر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧.

(٢) يعني واحد، أو يكون في الأصل: الإرهاق: التعب..الخ.

والإرهاق: الإغشاء في التعجيل[١].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ أي: فتىً بالغًا يسمىٰ: خشنود[٢]، بين قريتين، وأبوه من عظماء أهلهما، فقتله الخضر بالحجر، عن مقاتل[٣].

فلم يصبر موسىٰ علىٰ ذلك المنكر ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾[٤] طاهرة من الذنب ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير إن استوْجب القصاص ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ﴾ له الخضر ثانيًا ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ﴾ موسىٰ ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ من المصاحبة.

---

(١) جمع بين المعنيين المذكورين للإرهاق: يقال أرهقني أي غشيني، ويقال أرهقني: أي عجلني، معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٥، تفسير الطبري ١٨/ ٧٤، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٢، البسيط ١٤/ ٨٩.

(٢) وقيل: جيسور، وقيل: حشرد، وقيل: خوش نوذ (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٦، الكشف والبيان ١٧/ ٢٠٩، فتح الباري ٨/ ٤٥). ولا يخفىٰ أن هذا من قبيل الإسرائيليات التي لا ينفع معرفتها ولا يضر جهلها.

(٣) وفي تفسير مقاتل ٢/ ٢٩٧ ان اسمه: حسين بن كازري، واسم امه: سهوي، وأن الخضر قتله بحجر أسود. وحكىٰ الثعلبي الخلاف في كيفية قتله (في الكشف والبيان ١٧/ ٢١٠).
والذي في حديث أبي بن كعب الطويل المخرج في الصحيحين: فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه. قال الحافظ في فتح الباري (٨/ ٤١٩): في رواية عن ابن جريج عند عبد بن حميد: غلاما وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، وفي رواية سفيان: فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله، وفي روايته في الباب الذي يليه: فقطعه، ويجمع بينهما بأنه ذبحه، ثم اقتلع رأسه، وفي رواية أخرىٰ عند الطبري: فأخذ صخرة فثلغ رأسه، وهي بمثلثة ثم معجمة، والأول أصح، ويمكن أن يكون ضرب رأسه بالصخرة ثم ذبحه وقطع رأسه.

(٤) في الأصل: زاكية، وهي قراءة المدنيين وابن كثير وأبي عمرو ورويس عن يعقوب، وقرأ الباقون وهم الموفيون وابن عامر وروح: زاكية بالألف (النشر ٢/ ٣١٣).

و«لا تَصحَبَنِّي»[١]: أي لا تستتبعني ولا تصحبني [إياك][٢].

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝٧٦﴾ أي: صرت عندي حينئذ معذورًا، وبالغت في إبداء العذر، لأنه[٣] أبدىٰ العذر[٤] ثلاث مرات.

ولدن: من الأصل ساكنة النون، فإذا أضفتها إلىٰ نفسك زدت نونًا أخرىٰ، وأدغمت إحداهما في الأخرىٰ، حتىٰ يسلم سكون النون الأصلية، كما تقول: عن زيد بسكون النون، فإذا أضفت إلىٰ نفسك: عنِّي مشددة ليسلم لك السكون في النون الأصلية[٥].

وقرئ: «من لَدُني» بالتخفيف[٦].

ولا يقال: عني بالتخفيف أبدًا، لأنَّ لدن ثلاثة أحرف وليس بناقص، وعن ناقصة لأنها حرفان[٧].

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وهي أنطاكية عن الكلبي، وأيلة عن قتادة[٨].

---

(١) وهي رواية روح عن يعقوب من طريق المعدل، تابع روحا: زيد فيما ذكر الثعلبي (الكشف والبيان ١٧/ ٢١٤، النشر ٢/ ٣١٣، إتحاف فضلاء البشر ٣٧٠).

(٢) في الأصل: ولا تصحبني علمك، وهذا لا معنىٰ له، والصحيح ما اثبته، فبه يتم المعنىٰ والتوجيه، انظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٣، الكشف والبيان ١٧/ ٢١٤، الكشاف ٢/ ٧٣٦.

(٣) في الأصل: لأن.

(٤) في الأصل: العد، وهو تصحيف وإسقاط لحرف.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٣، وقد أطال الواحدي البحث فيها في البسيط ١٤/ ٩٤.

(٦) قرأ أبو جعفر ونافع: بضم الدال وتخفيف النون، ومثله عن أبي بكر شعبة لكن بإشمام الضم أو اختلاسه في الدال (النشر ٢/ ٣١٤).

(٧) انظر: البسيط ١٤/ ٩٤.

(٨) وابن سيرين كما في تفسير الطبري ١٨/ ٧٨.

وباجروان عن الضحاك[١].

﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ طلبا طعامًا يأكلانه ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: يطعموهما، أو يؤووهما.

قيل: له يسألا منهم طعامًا، ولكن نزلا فيهم كما ينزل أبناء السبيل، لم يشتريا طعامًا، ولم يرهما القوم أكلا وشربا، ولم يكن معهما طعام، فلما أصبحا خرجا جائعين ﴿فَوَجَدَا [فِيهَا]﴾ في القرية ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ﴾ والإرادة من مجاز الكلام، معناه: قرب أن ينكسر فمسحه الخضر بيده فاستقام الجدار، فـ ﴿قَالَ﴾ له موسىٰ ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ أي: أخذت علىٰ إصلاح هذا الجدار طعامًا نأكله، فعملت مجانًا لقومٍ أبوا ضيافتنا.

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي: هذا وقت الفراق ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ أي: سكوتًا، والتأويل: ما يؤول إليه معناه في العاقبة.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: الفقراء موقوفة عليهم، يؤاجرون بها ويعملون بها ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ وينتفعون بغلتها ﴿[فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا] وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ يعني قدامهم ملك اسمه: الجلندا[٢].

﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصۡبٗا ٧٩﴾ فاردت أن أعيبها كيلا يأخذ، فلما جاوز الملك عنهم أن يركب ولم يرغب في السفينة المعيبة أصلحها الخضر.

---

(١) ومقاتل، وباجروان في أرمينية، انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٢٩٨، تفسير الطبري ١٨/ ٧٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٧، الكشف والبيان ١٧/ ٢١٥، البسيط ١٤/ ١٠٢، النكت والعيون ٣/ ٣٣٠.

(٢) الكشف والبيان ١٧/ ٢٣١ وحكىٰ في اسمه أقوالا أخرىٰ.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ صالحين ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ قيل: «خشينا» قول الخضر، والخشية من الله تعالىٰ الكراهة، ومن العباد الخوف، أن يرهقهما أي يحملهما علىٰ الباطل ويكلفهما[١] ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ أي: تكبرًا وكُفرًا، قيل: كان الغلام لصًا عاتيًا يقتل ويسرق ويجبي بسرقته إلىٰ أبويه، فإذا جاء الطلب كاد أبواه يحلفان أنه لم يفعل من ذلك شيئًا ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ الله ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي أتقىٰ وأورع وأبين صلاحًا، والزكاة هي الصلاح ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ وأوصل رحمًا منه، والرُّحم والرَّحم: القرابة[٢].

قال الكلبي: فولدت أم الغلام المقتول جارية، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت نبيًا، فهدىٰ الله علىٰ يديه أمة من الأمم[٣].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في هذه البلدة، اسم أحدهما: أصرم، والآخر: صريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ﴾ أي: تحت الجدار ﴿كَنزٌ لَّهُمَا﴾ وهو صحف علم ليس بفضة ولا ذهب، عن ابن عباس[٤].

الحسن: كان لوحًا من ذهب فيها حِكَم[٥].

قتادة وعكرمة: كنز مال[٦].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٨٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٥..

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٨.

(٤) رواه ابن جرير من طريق العوفي وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو قول سعيد بن جبير (تفسير الطبري ١٨/ ٨٨).

(٥) وفي تتمة الخبر أن من هذه الحكم: بسم الله الرحمن الرحيم: عجبت لمن يؤمن كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئنّ إليها، لا إله إلا الله، محمد رسول الله (تفسير الطبري ١٨/ ٨٩).

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠.

أنس بن مالك، عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «كان تحت الجدار لوحًا من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت من أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت من أيقن بزوال الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله أحمد رسول الله»[١].

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ممن كان يصحبني، ابن عباس: كان موحدًا ذا أمانة واسمه كاشح[٢] ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: مبلغ الرجال والجدار علىٰ حاله ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أمرت أن أفعل ما فعلت رحمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ أي: لم أفعل ذلك برأي مني ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أخبرتك ﴿تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ۝٨٢﴾ أي: لم تصبر عن المسألة فيه.

قال في قصة السفينة: أردتُ أن أعيبها، وفي قتل الغلام: فأردنا أن يبدلهما، وفي إقامة الجدار: فأراد ربك أن يبلغا، لأنَّ كسر السفينة عيب، أضاف العيب إلىٰ نفسه، وفي قتل الغلام أضاف إرادة القتل إلىٰ نفسه، وإرادة التبديل إلىٰ الله تعالىٰ، كقوله ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠﴾، وفي بلوغ الأشد أضاف إلىٰ الله تعالىٰ خاصة، لأنه إحسان كله.

قال عبد الحميد الحاكمي -غفر الله له-: بلغنا عن عبد الله بن سلام أنه قال: أوصىٰ الخضر موسىٰ عند مفارقته وقال: يا صاحب العلم إن المحدِّثَ أقلُّ ملالة من المستمع، فإذا حدثت فلا تملَّ جليسَك، واعلم بأنك لا تكون عالمًا

---

(١) رواه أبو الليث بإسناد لم يذكره، (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٨)، وروىٰ مقاتل في تفسيره ٢/ ٣٤٨ عن ابن عباس نحوه، روىٰ ابن جرير نحوه عن جعفر بن محمد (١٨/ ٨٨).

(٢) وهو من تفسير الكلبي، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٨، الكشف والبيان ١٧/ ٢٤١. والمروي عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه قال: كان أبوهما صالحا ولم يذكر عنهما صلاحا (تفسير الطبري ١٨/ ٩١).

حتىٰ تكون متواضعًا للناس، وتذِلَّ لربك، وتعلم أن العلم قد يكون عند من هو دونك، واعلم أن ما نفعك مما كرهت خير مما أحببت وضرك، فاحذر الجاهل فيما علمت فإنك لن تنال العلم بما جهلت(١).

والسر الإشارة في هذه القصة: أراد الله تعالىٰ أنْ ينبِّه موسىٰ علىٰ ذكر ثلاثة أشياء من غير تصريح ولا رسالة، ليكون التعريض في التنبيه علىٰ ذكرها أحسن، وهو أنه كانت لله لديه كرامة غفل عنها موسىٰ، وعن معرفتها، وكانت له زلة قد نسيها، وكانت له عند الله طاعة ويدًا لم يعمل علىٰ توفيقها إياه شكرًا كما ينبغي، فنبهه الله علىٰ ذكر هذه الخصال بطريق الإشارة بفعل الخضر:

أولها: أنَّ الله تعالىٰ حفظه في حال طفولته وضعفه في ذلك التابوت في الماء؛ الذي ألقته فيه أمه، ولم يغرق، فلما قصد الخضر خرق السفينة خاف موسىٰ هلاك نفسه، واعترض علىٰ الخضر، أشار الخضر إليه أنَّ الذي حفظك طفلاً صغيرًا في التابوت في البحر أليس بقادر علىٰ حفظك في هذه السفينة؛ وفيها الملّاحون والسبَّاحون.

ولمَّا قتل موسىٰ رجلاً من القبط ثم قتل الخضرُ الغلام فأنكر عليه موسىٰ، وقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ أشار إليه الخضر أنَّ قتل هذا الغلام ليس بأعظم من قتل القبطي بغير جُرم.

ولمَّا سوَّىٰ الخضر الجدار قال له موسىٰ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ أشار إليه الخضر، وقال: إنك لم تأخذ أجرًا من بنتي شعيب حين سقيتهما، وكنتَ جائعًا، فكيف آخذ أنا الأجر.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٦٩٠٨، وابن أبي حاتم في العلل: رقم: ١٨٣٤، من حديث عمر بن الخطاب عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فذكره، قال ابن أبي حاتم: قال أبي (أبو حاتم الرازي): حديث باطل كذب، وقال ابن الجنيد: هو موضوع.

وقال أيضًا: إنَّ السفينة إشارة إلىٰ القلب، وهو قلب العارف، لأنَّ الله تعالىٰ يجر قلوب العارفين إلىٰ نفسه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، وقال الخضر: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ يعني: سفينة صالحة، يعني يسلب الحق قلوب أوليائه ويحميها، ثم نقب السفينة ليعلم أن القلب إذا لم يكن خالصًا لله تعالىٰ طاهرًا عن العيوب، خاليًا عن الغل والغش، وحب الشهوات، لا يصلح لله تعالىٰ، كالسفينة المعيوبة لا تصلح للملك.

وقيل: إنه كنىٰ بالملك عن إبليس، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ يعني: إبليس يأخذ رصدًا للقلوب، فإذا وجد قلبًا فيه همُّ الدنيا والحرص والأمل غصبه واستولىٰ عليه، فوجب أن تكسر هذه السفينة بخلوها عن اللذات والشهوات؛ كيلا يستعمل في حب الدنيا ولا يطمع فيها إبليس، فتبقىٰ خالصة لله تعالىٰ، يقول الله عز وجل: «أنا عند المنكسرة قلوبهم»[1].

وأما الغلام الذي قُتِل فهو الهوىٰ، ينبغي أن يقتل الهوىٰ قبل أن يصير عاتيًا، ويجعل صاحبه عاصيًا، وكان أبواه مؤمنين: أشار إلىٰ الروح والعقل، يدعوان العبد إلىٰ الطاعة لا محالة، فحين ما أفرط العبد في المعصية صار الروح والعقل مغلوبين، كما أشار إليه الخضر: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾.

وأما الجدار الذي سوَّاه الخضر؛ إشارة إلىٰ النفس، فإذا مالت النفس إلىٰ الهوىٰ قربت للسقوط والهلاك، فوجب علىٰ العاقل أن يسويها، لأن تحت هذا الجدار كنز للغلامين اليتيمين، وذلك الكنز هو المعرفة، والغلامان يتيمان

---

(١) وذلك في خبر إسرائيلي: أن موسىٰ قال: أين أجدك يا رب، فذكره، رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٦٤ عن مالك بن دينار، وَ٤/ ٣١ وهب بن منبه، وَ عمران القصير ٦/ ١٧٧ وهذا الخبر جعله بعضهم حديثا، ولا أصل له عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

الروح والعقل، لأنهما نزلا في النفس نزول الغريبين اليتيمين المنقطعين عن الأبوين؛ لأنهما من الجواهر العلوية، وليست النفس من جنسهما، فإذا مالت النفس إلىٰ الشهوات سقطت وطمع الشيطان فيه حتىٰ يأخذ كنزه، فوجب أن يسوَّىٰ حتىٰ يحال بين الشيطان وبين كنزه[1].

وقوله ﴿رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ بغير ألف، ثم قال ﴿لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ بالفاء، ثم قال ﴿أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ بغير الفاء، وذكر «حتىٰ إذا» في الكلمات الثلاث:

قيل: لأنَّ خرق السفينة والاستطعام لم يكن للمجازاة فعل ماض ولا مستقبل، فلم يجب فيه التروي والانتظار، وأما قتل الغلام لمجازاة فعل منتظر، وهو قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا﴾ فوجب التروي في المجازاة، والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾ سألته قريش لمساورة ذي القرنين، واسمه: اسكندر بن قيصر[2]، وسمي بذلك: لأنه قد أتىٰ قرني الشمس في المشرق والمغرب.

وقيل: لأنه كان في رأسه مثل القرنين، وقيل: كان علىٰ رأسه ذؤابتان من الشعر، فكان ذلك قرناه[3].

﴿قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣﴾ ثم بيَّن وقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مكنَّاه مشارق الأرض ومغاربها ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبًا ٨٤﴾ أي: علمًا

---

(١) هذه المعاني التي ذكرها -وإن كانت صحيحة في نفسها- إلا أن الآيات البينات لم تردها، ومن هنا يدخل الخلل علىٰ التفسير الإشاري، ويكون المذكور علىٰ هيئة التفسير الباطني.

(٢) وقال مقاتل في تفسيره ٢/ ٢٩٩: الإسكندر قيصر.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٩٣، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٩.

يوصله إلىٰ حيث يريد في أقطار الأرض، وكل شيء يوصل العبد إلىٰ مراده وحاجته يقال له: سبب[١].

﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ أي: أخذ طريقًا يسلك فيه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ أي[٢]: في عين الماء، والحمئة: فَعِلَة من الحمأة، وهو الطين الأسود المنتن[٣].

وقرئ: «حامية»، أي: عين حارة[٤].

﴿وَوَجَدَ [عِندَهَا]﴾ عند عين[٥] الماء، التي تغرب فيها الشمس ﴿قَوۡمٗاۗ﴾ مؤمنين وكافرين ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ ألهمناه، عن الكلبي. وأوحينا إليه، عن مقاتل[٦]، واختلفوا في نبوته ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ أي: افعل أحد الأمرين، إن شئت قتلت الكفار، وإن شئت مننت عليهم ولا تقتلهم.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي كفر ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ عذابًا عاجلاً ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي يرجع إلىٰ ربه ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧﴾ شديدًا.

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ الجنة في الآخرة، مَنْ قرأ: «جزاءً» منوَّنًا[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٤، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٨، البسيط ١٤/ ١٣٠.

(٢) أسقط الياء في الأصل.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٨، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٨، الكشف والبيان ١٧/ ٢٥٢.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص: حمئة، وقرأ الباقون: حامية (النشر ٢/ ٣١٤).

(٥) في الأصل: العين الماء.

(٦) تفسير مقاتل ٢/ ٣٠٠.

(٧) قرأ يعقوب وحمزة والكوفيون إلا شعبة: جزاءً، وقرأ الباقون: جزاءُ (النشر ٢/ ٣١٥).

ومن قرأ: علىٰ الإضافة، معناه: ثواب الأحسن، وأضاف الجزاء إلىٰ الحُسنىٰ[(١)].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: أعده خيرًا عن الله تعالىٰ، وأبشره في معاده بالتحف منه.

قال الضحاك: سار ذو القرنين إلىٰ مغرب الشمس ووجد مدينة يقال لها: «جابَلْسَا»، لها ألف ألف باب، علىٰ كل باب ألف ألف حرس، فإذا انتهت الشمس إلىٰ جابلسا عن مغيبها، والعين التي تغيب فيها تصايحوا فرقًا منها، فتغيب في تلك العين، نادىٰ منادي من السماء: يا ذا القرنين إما أن تعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حُسنًا، فلم يرد الإجابة أربعين يومًا متفكرًا، ثم أجاب فقال: أما من ظلم فسوف نعذبه.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أخذ طريقًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ مدينة «جابَلْقا» لها ألف ألف باب، علىٰ كل باب ألف ألف حارس، ليس بينهم وبين الشمس ستر، وهو قوله ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: ليس[(٢)] بها شجر ولا جبل ولا بناء، لأنَّ أرضهم لم يثبت عليها بناء، فكانوا إذا طلعت الشمس يغورون في الماء وفي الأسراب، وإذا غربت تصرفوا، يقال لهم: تأْريس وتاويل ومَنْسِك[(٣)].

وروي في بعض الحديث: أنَّ رجلاً أتاهم فلما طلعت الشمس سمع صلصلةً فغشي عليه فَرَقًا منها، فأفاق وهم يمسحونه بدهن، فلما طلعت الشمس

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٩، البسيط ١٤/ ١٣٦ .

(٢) في الأصل: لم .

(٣) وهو تفسير الكلبي، كما في الكشف والبيان ١٧/ ٢٦٢ .

إذا هي على الماء كهيئة الزيت، وإذا طرف الماء كهيئة الفسطاط، وأنهم كانوا يصطادون السمك فيطرحونه على الصخر فينضج(١).

فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك القبيل الذين كانوا عند مغرب الشمس، وقيل: بلغ إلى مطلع الشمس كما بلغ إلى مغربها(٢).

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ أي: علمًا بما عنده من حاضر أمره وغائبه، وسره وجهره.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ أخذ طريقًا ثالثا(٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ يعني: الموضع الذي فيه السدان اليوم.

قيل: ما كان خلقة فهو «سُد» بالضم، مثل الجبال، وما كان من عمل الناس: «سَد» بالفتح(٤).

وقيل: هما لغتان(٥).

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: دون السدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ أي: لا يفهمون كلامًا غير كلامهم ولسانهم.

---

(١) يريد بالحديث أي مطلق الخبر، لا أنه مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا القصة رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٧/ ٢٦٣ عن عمرو بن مالك بن أمية، عن رجل وجده بسمرقند يحدث بهذا، وقد ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٠١. وهذه الرواية في ميزان النقد لا شيء.

(٢) البسيط ١٤/ ١٣٨.

(٣) في الأصل: بالبا، وهو تصحيف، والصواب ما أثبت، ومثله في البسيط ١٤/ ١٣٩.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالفتح في السين، وقرأ الباقون بضمها (النشر ٢/ ٣١٥).

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ١٠١، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٠، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦١.

﴿قَالُواْ﴾ علىٰ لسان الترجمان ﴿يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ يعنون أولادهما، ويأجوج ومأجوج أخوانِ من أولاد يافث بن نوح.

قال كعب الأحبار: هم من صلب آدم، لأنه صلىٰ الله عليه وسلم نام فاحتلم ثم استيقظ وقد اهتم، لأجل نطفته التي ضاعت، فخلق الله منها ولدين يأجوج ومأجوج[١].

﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخرجون أيام الربيع ولا يدعون شيئًا من الخضر إلا أكلوه، ولا وجدوا شيئًا يابسًا إلا حملوه وأدخلوه أرضهم، ويقتلون المسلمين[٢] ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ هل نعطيك مالاً ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أي: ملكني الله، وقد أعطاني من المال خيرًا مما تعطونني من الجعل.

وقيل: ما يمكنني الله من الثواب علىٰ ما عملت خير مما تعدونني؛ لأن الأجر علىٰ عمل الله خير باق، والجعل في الدنيا مال فان[٣].

---

(١) البسيط ١٤/ ١٤٣، وقد حكاه النووي، ونقله عنه ابن كثير في التفسير ٥/ ١٩٥، ثم قال: وهذا قول غريب جدًا، لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا علىٰ ما يحيكه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة.
وصدق ابن كثير فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري صحيح البخاري ٦٥٣٠، وصحيح مسلم ٢٢٢: إن الله تعالىٰ يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلىٰ النار، وواحد إلىٰ الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج.
(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٢.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٤٢، زاد المسير ٣/ ١٠٩.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: رجال ذوي عدد وآلة السد ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾ سدًا، والردم: أشد الحجاب[١].

ثم فسر الآلة فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: قِطَع الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: ناحيتي الجبل، أي: جانباه ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ عليه.

قيل: إنه وضع الحطب بين الجبلين ثم شبح عليه الحديد، ثم شبح الحطب على الحديد، ثم الحديد على الحطب، هكذا، حتى إذا ساوى بين الصدفين، ثم أمر بالنار فأرسلت عليه، ونفخ فيها ﴿[حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا]﴾ حتى صارت كلها نارًا ثم ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾ وهو النحاس المُذاب، فجعلت النار تأكل الحطب، ويجري القطر فيأخذ مكان الحطب، حتى لزق الحديد بالنحاس فصار سدًا[٢].

قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: ما قدروا أن يعلوا فوق السد من ارتفاعه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾ من أسفله، وهم أكثر من أهل الأرض أضعافًا مضاعفة، وهذا السد من قرى بحر الروم، وارتفاعه مقدار مائتي ذراع، وعرضه خمسون ذراعًا كلها من حديد ونحاس.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ لخروجهم عند اقتراب الساعة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: دكّه دكًا، نصب على المصدر[٣]، وقرئ: «دكاء»: مستوية[٤].

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ۝٩٨﴾ لخروجهم وغلبتهم أهل الأرض ولا خلف لوعده.

---

(١) وهو تفسير ابن عباس من رواية العوفي، انظر: تفسير الطبري ١٨/ ١١٣، البسيط ١٤/ ١٤٧.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٤، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١١، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٢.

(٣) الدر المصون ٧/ ٥٥١، ولم يذكر هذا الوجه.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالمد والهمز (النشر ٢/ ٢٧١).

﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ قيل: لا يموت الرجل حتىٰ يولد من صلبه ألف رجل ذكر، فإذا جاء وعد خروجهم عند اقتراب الساعة خرجوا، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يمرون ببحيرة طبرية فيشربها أولهم، ثم يمر عليها آخرهم فيقولون: قد كان هاهنا يومًا ماء، فيكثرون حتىٰ تميلن الأرض منهم، ويمرون بالبحور فيأكلون ما في جوفها[1]، وتيبس لهم البحور، ويأكلون ما في الأرض من كل شيء، وتهرب الناس منهم، ولا يقدرون علىٰ المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد طور سيناء، ولا يرون علىٰ الأرض غيرهم ظاهرًا، فيقولون: قتلنا أهل الأرض، وبقي أهل السماء، فيرمون بسهامهم نحو السماء فتصيب سهامهم الطير فترجع مخضبة بالدماء، ويقولون: قد قتلنا أهل السماء، ثم يبعث الله عليهم دودة تسمىٰ النغف تدخل آذانهم فتقتلهم، فتنتن الأرض من جيفهم، ثم يرسل الله عليهم السماء أربعين يومًا حتىٰ يحتمل السيل جيفهم فيردهم إلىٰ البحر، ويعود البحر كما كان[2].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾ لا نغادر منهم أحدًا.

﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾ أي: كشفنا الغطاء عنهم حتىٰ يروا جهنم قبل دخولهم فيها.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أي: عين قلوبهم في غطاء عن توحيدي ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ أي: استماع كلام محمد لبعضهم إياه.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ يعني: لا تحسبن الكافرين أن أوليائي يعبدون معي شيئًا؛ لأن الكفار كانوا يدعونهم إلىٰ الشرك.

---

(١) في الأصل: جوفه.

(٢) خبر يأجوج ومأجوج الطويل مخرج في صحيح مسلم ٢٩٣٧ من حديث النواس بن سمعان.

وقيل: أفيظن الكافرون أن ينفعهم اتخاذهم عبادي أولياء من دوني، وكيف يطمعون في نصرة من أهلكه[١].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ أي: منزلاً.

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ يعني: الخاسرين في عملهم.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بطلب أعمالهم فيها ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ في عبادتهم واجتهادهم، وظنهم كاذب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بمحمد ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ البعث بعد الموت ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يرجون ثوابها ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ أي: ميزانًا، لأنه لا وزن لعملهم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ أي: القرآن ﴿وَرُسُلِي﴾ محمدًا وغيره ﴿هُزُوًا ١٠٦﴾ يهزؤون بهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ والفردوس: البستان بالرومية[٢]، وقيل بالعربية[٣]، ونُزلاً: منزلاً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ أي: لا يطلبون عنها الانزيال[٤] والخروج.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ وذلك حين قالت اليهود عند نزول هذه الآية ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا

---

(١) زاد المسير ٣/ ١١١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٥، وهو اختياره، وأطال في تقريره.

(٣) وهو اختيار الفراء، وفي الأصل: والقيل بالعربية، وهو تصحيف.

(٤) كذا في الأصل، لكنها مهملة، والظن أنها مصحفة، فليس في المعاجم الانزيال من زال.

﴿٨٥﴾ وقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قالوا: يا محمد، إن كتابك ينقض بعضه بعضًا، فنزلت الآية تكذيبًا لهم.

لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي: أي عِلم ربي، لنفد البحر: أي نشف البحر قبل نفاد علم ربي[1] ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: مثل هذه البحور السبعة مددًا، نصب علىٰ التمييز[2].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: آدمي مثلكم ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من الله عز وجل ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له فوحدوه ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخاف معاقبة ربه عند الحساب في الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ خالصًا ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ أي: لا يرائي بعمله أحدًا.

قال ابن المبارك: من أراد النظر إلىٰ الله تعالىٰ فليعمل عملاً صالحًا ولا يخبر به أحدًا.

وفي الخبر عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «المرائي ينسب يوم القيامة إلىٰ أربعة أسماء: يا غادر، يا فاجر، يا كافر، يا منافق، بطل عملك وحبط أجرك»[3].

---

(١) عن ابن عباس: كلمات ربي مواعظ ربي، وهذا يقضي أن الكلمات غير العلم، فالكلمات كلام الله عز وجل، وكلامه لا غاية له ولا منتهىٰ، (انظر: معالم التنزيل ٥/ ٢١٢، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٦٩).

(٢) التبيان ٢/ ٨٦٤ .

(٣) رواه أحمد بن منيع في مسنده ، كما في إتحاف الخيرة المهرة ١/ ٢٦٠، وإسناده ضعيف لأنه من رواية فرج بن فضالة.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «من حفظ من سورة الكهف عشر آيات مِنْ أولها ومِنْ[1] آخرها لم تضره فتنة الدجال إن أدركه»[2].

«ومن قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجال في تلك الثمانية أيام عصمه الله تعالىٰ من فتنته»[3].

❁ ❁ ❁

(١) كذا، ولعل الصواب: أو.

(٢) رواه مسلم في الصحيح ٨٠٩ من حديث أبي الدرداء بلفظ: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال.

(٣) موضوع، رواه المستغفري في فضائل القرآن ١١٨٤.

سورة مريم

مكية[١]، وهي ثمان وتسعون آية[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ قيل: خمسة أسماء من أسماء الله جليلة عظيمة، الكاف: كافي لخلقه، والهاء: هادي لهم، الياء: يحيي ويميت، العين: عالِم ببريَّته، الصاد: صادق بما وعدهم[٣].

وقال أبو سهل الأنماري رحمه الله: معناه بسم الله الرحمن الرحيم الكافي الهادي الأمين العليم الصادق، كلها في موضع الخفض نسقًا علىٰ الاسم السابق.

وقيل: إنه قسم وجوابه: ما كان الله أن يتخذ من ولد، كأنه أقسم بكفايته وهدايته ويمنِّه وعلوه وصدقه[٤].

ومعنىٰ قوله: «يا» أي يد الله معك، ويحتمل أن يكون من اسم الله، وهو الحي القيوم.

---

(١) بالإجماع، الكشف والبيان ١٧/ ٣٢١، البيان في عد آي القرآن ١٨١، زاد المسير ٣/ ١١٦، وشذ مقاتل فزعم أن سجدتها مدنية، وأنكر عليه هذا.

(٢) البيان في عد آي القرآن ١٨١، وهي تسع وتسعون في المدني الأخير والمكي، وثمان في الباقين.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٧، ومعنىٰ هذا القول: أن الحروف تدل علىٰ الكلمات، وهو مروي عن ابن عباس وأصحابه.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٧، زاد المسير ٣/ ١١٦.

وعن محمد بن الحنفية سأله عبد الرحمن بن مسعود العبدي عن تفسير: كهيعص، فقال: لو أخبرتك بتفسيره لمشيت على الماء ولم يوار قدميك[١].

وقيل: إنها اسم الله الأعظم.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ﴾ أي: هذا الذي نتلوا عليك ذكر رحمة ربك عبده ﴿زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ بالرحمة.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ أي: دعاء أسمع أذنه ولم يسمع غيره، مخافة قول الناس: انظروا إلىٰ هذا الشيخ يطلب ولدًا وقد كبر[٢].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: يا سيدي كبرتُ وضعفت عظامي بعد قوتها ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: غلب البياض السواد، وشيبًا: نصب علىٰ التمييز[٣]، ولم يذكر شعر اللحية لأنه من الرأس.

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ أي: كنتُ مستجاب الدعوة إذا دعوتك، فأجب دعائي هذا.

ومعنىٰ شقيًا: أي خائبًا، وقيل: لم أكن بترك دعائك شقيًا؛ لأنَّ من ترك قرع بابه خاب وشقي[٤].

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ والخوف بمعنىٰ العلم، معناه: علمت من ورثتي وبني أعمامي أن لا يصلحوا لمكاني، ووراثة علمي[٥].

---

(١) في الأصل: جوار قدمتك، وهو تصحيف، وعلىٰ الصواب ذكره في البحر المحيط ١/ ٥٩.

(٢) ولأنه علم أن دعاء السر أسمع (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٨، تفسير السمعاني ٣/ ٢٧٧).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٩، إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٨٦٦.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٣.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٨.

والموالي: العصبة، لأنَّ الأنبياء لا يورثون، وقيل: حمله علىٰ ذلك طبع البشرية كيلا يرثه غير ولده(١).

وقرئ: «إني خَفَّتِ الموالي من ورائي»: أي ذهبت وقلَّت(٢).

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي: صارت عاقرًا لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ أي: ولدًا، لأن مثلي لا يكون له ولد إلا أن تهبه برحمتك.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قرئ: بالجزم(٣) علىٰ معنىٰ جواب الأمر، وبالرفع: لأنه صفة للمولىٰ، معناه: وليًّا الذي يرثني(٤).

قال مجاهد: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وإنما سأل ولدًا صالحًا لأنه سمَّاه وليًا، وغير الصالح لا يكون وليًا للأنبياء.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ تأكيد لسؤال الصلاحية، يعني: اجعله مطيعًا.

فجاءه جبريل وهو قائم في المحراب وقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ أي: بولادة غلام ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لأنه: يحيي به رحم أمه ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ أي: لم يسم أحد من الناس ولده بهذا الاسم قبله(٥).

﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تحمل، ولم يقل: عاقرة؛ لأنه أراد شخصًا عاقرًا، ولأنَّ العقر يستوي فيه الذكر والأنثىٰ، يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر(٦).

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٩، الكشاف ٣/ ٤.

(٢) القراءة شاذة منسوبة لزين العابدين وغيره، وهي وتوجيهها في المحتسب ٢/ ٣٧، والكشف والبيان ١٧/ ٣٣٠، الكشاف ٣/ ٤، الدر المصون ٧/ ٥٦٦.

(٣) أي: يرثْني ويرثْ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي (النشر ٢/ ٣١٧).

(٤) الكشف والبيان ١٧/ ٣٣٢.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٨.

(٦) البسيط ١٤/ ١٩٩.

﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨﴾ أي: يبسًا، وأصله: العتو، وهو المبالغة والحد في الكبر والكفر والفساد، والعتي والعتو مصدران(١).

وكان هذا القول منه على وجه تعظيم قدرة الله.

وقال الحسن: على وجه الاستخبار، أي: في هذه الحالة يكون أم تصيرني شابًا، من هذه المرأة أو من امرأة أخرى؟(٢).

﴿قَالَ﴾ له جبريل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما قلت ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ يكون لك ذلك في حال الكبر ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ سهلٌ ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ موجودًا.

﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ أي: بيِّن لي علامة أعرف بها إذ اشتملت على حمل ﴿قَالَ﴾ له جبريل [﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾] علامة ذلك أنك تقرب امرأتك في طُهر وحبلت فإنك تصبح ولا تطيق الكلام ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠﴾ نصب على الحال(٣)، يعني: أنت سوي صحيح ما بك خرس.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ يومًا متغير اللون، فقالوا: مالك يا زكريا؟ ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: أشار بعينه أو بيده ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١﴾ أي: صلُّوا لله صلاة الغداة والظهر والعصر، وعرف آية الولد(٤).

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ معناه: وهبنا له يحيى ثم قلنا له بعد البلوغ: خذ التوراة بجد وقوة النفس وقوة القلب، وواظب عليها، واعمل بما فيها، ثم

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٠، البسيط ١٤/ ٢٠٠.

(٢) المسألة مذكورة في: تفسير الطبري ١٨/ ١٤٩، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٩، تفسير السمعاني ٣/ ٢٨٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢١، التبيان ٢/ ٨٦٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١٥٤.

أثنىٰ عليه فقال ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ أعطيناه النبوة والكتاب صغيرًا، عن الكلبي[١].

وقيل: العلم والفهم وهو ابن ثلاث سنين، ومن حكمته أنَّ الصبيان دعوه إلىٰ اللعب فقال: ما للَّعب خُلِقْنَا[٢].

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: رحمة وعطفًا رحمنا به أبويه ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: صدقة تصدَّق الله عليهما ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ مطيعًا مسلمًا.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: بارًّا بهما مطيعًا لهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ متكبرًا علىٰ عباد الله عاصيًا في الله.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ ثناء من الله تعالىٰ علىٰ يحيىٰ ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من بطن أمه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ أي: تنحَّت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وانفردت، أي: جلست نبذة، أي: ناحية[٣] ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ مما يلي المشرق من دارهم.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: سترًا لتغتسل فيه عن الحيض ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل، فدخل عليها، وقيل: قوله روحنا أي: روح عيسىٰ[٤] ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ لم ينتقص.

قيل: تمثل جبريل لمريم علىٰ صورة شاب أمرد جعد[٥]، فلما رأته حسبته

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٠، البسيط ١٤/ ٢٠٦.

(٢) رواه الطبري في التفسير ١٨/ ١٥٥ عن معمر من قوله ولم يذكره عن أحد.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٦١، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٢.

(٤) وهذا قول شاذ، والمفسرون علىٰ أن المراد هو جبريل، ولم يذكر الطبري قولا غيره (تفسير الطبري ١٨/ ١٦٣، البسيط ١٤/ ٢١٤).

(٥) ذكره السمعاني في التفسير ٣/ ٢٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٢٤، وهو من تفسير الكلبي، والمشهور عند المفسرين: تام الخلقة.

آدميًّا ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ أي من شرك ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ مطيعًا مخلصًا لله تعالىٰ، لأن خلوة النساء الأجنبيات مع الأتقياء حرام، والتقي يُخَوَّف بالله لا بغيره.

وقيل: التقي اسم رجل في زمانها ظنَّت أنه هو(١).

﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ أي: أكون سببًا فيما يريد الله من هبة غلام لك، أي: ليهب الله لك ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ طاهرًا من العيب.

﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: كيف يكون لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: لم يقربني آدمي ولم يكن لي زوج يباشرني ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ زانية.

﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أنك تلدين غلامًا من غير فحل، وقال ربك: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ عبرة لبني إسرائيل ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ﴾ لمن آمن به ﴿وَكَانَ﴾ كون عيسىٰ من غير أب ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ مكتوبًا في اللوح، وسابقًا في علم الله.

وقيل: معلومًا لمن قرأ الكتب(٢). فلانت لجبريل، فنفخ فيها فحملت بعيسىٰ. قال مقاتل: حملته مريم في ساعة، وصُوِّر في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من ذلك اليوم، وكانت بنت ثلاث عشرة سنة، وقد حاضت حيضتين(٣).

---

(١) وهذا القول من بدع التفاسير، ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٢٤، وهو منسوب لابن عباس من رواية الكلبي.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧١، معالم التنزيل ٥/ ٢٢٤.

(٣) تفسير مقاتل ٢/ ٣١٠، وعنه الثعلبي في الكشف والبيان ١٧/ ٣٥٦.

وقال الضحاك: حملته كما تحمل النساء في المشيمة والرحم(١)، ووضعته كما تضع النساء، وكان مولده بغوطة(٢).

وقال الكلبي: دنا منها جبريل فمد جيبها بأصبعه، ونفخ في الجيب ووصلت تلك النفخة إلىٰ بطنها فحملت، فلما استبان حملها تنحَّت لولادتها إلىٰ مكان قَصي، حيث لا يعلم بها زكريا حياء منه، وخوفًا من الناس.

وقيل: حملته بفيها، ووضعته بفيها(٣)، وقيل: وضعته بثمانية أشهر ولا يعيش المولود بثمانية أشهر(٤).

قيل: كان يوسف بن يعقوب ابن ماثان ابن عمها، وكانت مريم سميت له، فأتاها واحتملها وهرب من الملك وقد أراد قتلها، فلما أخرجها إلىٰ الصحراء أراد أن يقتلها حميَّة، فتمثَّل له جبريل وقال: يا يوسف لا تقتلها، فإن هذا الولد من رُوح القُدُس(٥)، فذلك قوله ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) في الأصل: والروح، وهو تصحيف.

(٢) لم يثبت في مدة حملها حديث عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وعامة المروي من ذلك من الاجتهادات أو الإسرائيليات، والله أعلم أي ذلك كان، وقد روىٰ الطبري في تفسيره ١٨/ ١٧٠ عن ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت، وهو من رواية المغيرة بن عثمان عنه، وهو مجهول.

وقد ذكر الخلاف في ذلك الثعلبي في الكشف والبيان ١٧/ ٣٥٦، والبغوي في معالم التنزيل ٥/ ٢٢٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٢٥، حيث ذكر سبعة أقوال في ذلك.

(٣) وهذا القول غريب، بل هو من بدع التفاسير.

(٤) قالوا: وتلك آية أنه لا يعيش أحد لثمانية أشهر (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧١).

(٥) وهذا من تتمة كلام الكلبي، وهو خبر إسرائيلي، وظاهر النظم القرآني يبطله لمن تدبر (الكشف والبيان ١٧/ ٣٥٥)، وعن وهب نحوه، رواه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٦٩، وهو منكر إسنادا ومتنا.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي: جاء[١] بها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ ابن عباس: كانت نخلة ليس عليها سعف[٢]، وكان تحتها النزال[٣]، فلما اشتدت عليها الولادة ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ اليوم حياء من الناس، ومعناه: لو خُيِّرَتْ بين الموت وبين هذا الحال لاختارت الموت ﴿وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ والنسي في كلام العرب: كل شيء مطروح لقلة قيمته وحقارته، فيُنسىٰ أي: يُترك[٤].

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي: مِن أسفل الجبل، فيكون المنادي جبريل إذا قرئ بكسر «مِن».

وإن قرئ: بفتح الميم «مَنْ تحتَها» فيكون المنادي عيسىٰ[٥].

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يوجد ذكر ليوسف ابن عم مريم في أثر صحيح عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ولا إشارة له في القرآن، بل الوارد فيه كله من قبيل الإسرائيليات، وهي من الإسرائيليات التي لا تصدق، ويزعم أهل الكتاب أن يوسف هو مربي المسيح، وأنه كان معه ومع أمه، وهذا فيه طعن بالصديقة الطاهرة، زوجة نبينا في الآخرة، إذ كيف تكون معه وهي لا تحل له، وقد أخبرنا القرآن أن الله آوىٰ مريم وابنها إلىٰ ربوة، فقال: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٥٠] ولو كان معهم أحد يقوم علىٰ شأنه لقال: وآويناهم، والله تعالىٰ أعلم.

(١) كذا في الأصل، قال أهل اللغة: جاءها وأجاءها واحد (تفسير السمعاني ٣/ ٢٨٥).وأكثر المفسرين علىٰ أن المعنىٰ: فألجأها (البسيط ١٤/ ٢١٩).

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٢، الكشف والبيان ١٧/ ٣٥٨، البسيط ١٤/ ٢٢٠، والمفسرون مطبقون علىٰ ذلك.

(٣) كذا، ولم أتبين هذه الكلمة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٤.

(٥) قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وخلف وحفص: مِن تحتِها، كما أثبت، وقرأ الباقون: مَنْ تَحتَها (النشر ٢/ ٣١٨).

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ وذلك حين تمنَّت الموت ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ يعني ولدًا سريًّا وهو عيسىٰ، عن الحسن[١].

وقيل: السري النهر الصغير[٢].

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: حرِّكي أصل النخلة ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ كأنه مجني باليد.

وقال مقاتل: يعني بالجني ما ترطب من البسر، وكانت شجرة يابسة فاخضرت وهي تنظر، ثم حملت الرطب ونضحت وهي تنظر[٣].

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي [وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ]﴾ طيبي نفسًا بولدكِ الطاهر ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ كُسِرَت الياء علامة للمؤنث، ولو كان للمذكر لكان: ترينَّ، بنصب الياء كما أنك لو قلت: لتضربَنَّ للمذكر، قلت للمؤنث: تضرِبِنَّ، وكان في الأصل: فإما ترْأَينَّ فطرحت الهمزة، وحولت حركتها إلىٰ الراء، وكُسِرَت الياء لاجتماع الساكنين، وهما الياء والنون[٤].

﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي: أشيري إلىٰ ذلك، وصومًا يعني: صمتًا[٥] ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ آدميًّا.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ يعني: تحمل عيسىٰ إلىٰ قومها بني إسرائيل في حجرها، ملفوف في الخرق، بعد ما تعالَّت من نفاسها، فاستقبلها رهطها باكين ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ أي: منكرًا عظيمًا.

---

(١) رواه الطبري في التفسير ١٨/ ١٧٧، لكنه لما روجع تراجع عنه.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٧٥، وهو قول الجمهور، ورجحه ابن جرير.

(٣) تفسير مقاتل ٢/ ٣١٠.

(٤) معني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٦، البسيط ١٤/ ٢٣٣.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ١٨٢، وهو قول عامة السلف.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ يا شبه هارون في الخير، وهارون كان رجلاً صالحًا في بني إسرائيل، وكان معروفًا بالزهد حتىٰ يسمي الناس أبناءهم باسمه، فإذا مات صلىٰ عليه أربعون ألف رجل يسمَّىٰ هارون، فنسبوها إليه لورعها(١).

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ أي: زانٍ ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ فاجرة، فبمن اقتديت؟

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ إلىٰ عيسىٰ في حِجرها، أي: كلِّموه حتىٰ يخبركم بحاله ﴿قَالُواْ﴾ لها ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ أي: هو صبي رضيع في الحِجر، وكلمة: كان لغو(٢) في الكلام، كقوله ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾، وقال ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٣.
والصحيح أنه أخوها ابن أمها وأبيها، لما ثبت في صحيح مسلم (٢١٣٥): عن المغيرة بن شعبة، قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون يا أخت هارون، وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا، فلما قدمت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».
ومعنىٰ الحديث كما قال أبو الليث السمرقندي: إن أخا مريم سمي باسم هارون النبي (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٣).

(٢) سبق التنبيه علىٰ مثل هذه الكلمة، وأنه لا يجوز أن يقال ذلك في القرآن، وهذا إنما يقوله النحاة والمعربون، علىٰ معنىٰ أن كان زائدة إذ المعنىٰ يتم بدونها، أو أنها زائدة بمعنىٰ لا تعمل في الاسم، وهي عبارة أبي عبيدة ويتابعه عليها الزجاج، ومن هنا دخلت علىٰ المفسر الكبير (انظر: مجاز القرآن ٢/ ٧، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٨).
علىٰ أن الزجاج ذكر معنيين يفيدهما ذكر كان، فقال: وقال قوم: إنَّ كان في معنىٰ وقع وحَدَثَ، المعنىٰ علىٰ قول هؤلاء: كيف نكلم صَبيًّا قد خلق في المهْدِ، وأجود الأقوال أن يكون مَن في معنىٰ الشرط والجزاء فيكون المعنىٰ: من يكن في المهد صَبيًّا - ويكون صَبيًّا حالاً - فكيف نكلمه؛ كما تقول من كان لا يسمع ولا يعقل فكيف أخاطبه.

قيل: نهض عيسىٰ علىٰ مرفقه الأيسر، ورفع بسبابته اليمنىٰ يشير بها إلىٰ السماء، و﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فأول كلمة قالها رد علىٰ النصارىٰ ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في بطن أمي: الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ بعد خروجي من بطن أمي.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ معلِّمًا للخير ومؤدبًا وذا بركة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ من أرض الله وبلاده، وقيل: وصف نفسه بالبركة لأنَّ ولد الزنا شؤم، فقال: نسبت بولد الزنا لأني مبارك ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ في الدنيا، والزكاة أراد به طهارة نفسه بالصلاح لأنه لم يجب عليه الزكاة.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: جعلني بارًا لطيفًا بها لا عاقًّا ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: سفَّاكًا للدم ولا خائبًا من الخير.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ أي: السلامة من الله لي يوم وُلِدْتُ ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ للحساب والجزاء السلام، والسلامة: التخلص من الآفات، أي: سلَّمني الله من الآفات ومن كل سوء حيًّا وميتًا[١].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: ذلك الذي قال: إني عبد الله؛ عيسىٰ بن مريم ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: خبر[٢] عيسىٰ الذي قال إني عبد الله خبر صدق، وإضافة القول إلىٰ الحق بمنزلة قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يشكون في أمره، يعني: النصارىٰ يقولون إنَّ المسيح ابن الله أو شريكه.

وسبقه إلىٰ بيان ذلك الطبري، فإنه قال في تفسيره ١٨/ ١٨٨: كان معناها التمام لا التي تقتضي الخبر، بمعنىٰ: وقد صار أو وجد (انظر: التبيان ٢/ ٨٧٣، تفسير القرطبي ١١/ ١٠١، الدر المصون ٧/ ٥٩٤).

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٩.

(٢) في الأصل: خير، في الموضعين.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي: ما جاز له أن يتخذ ولدًا، وكلمة «من» لتأكيد النفي[(١)] ﴿سُبْحَانَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أراد إمضاء أمر يكون في علمه كونُهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ كما أراد كون عيسىٰ بلا أبٍ فكان.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ معناه: لأنَّ[(٢)] الله ربي وربكم خالِقي وخالقكم.

وقرئ: بالكسر: «وإنَّ الله ربي وربكم» معطوف علىٰ قول عيسىٰ: «إني عبد الله، وإن الله ربي وربكم»[(٣)].

ثم سكت عيسىٰ الذي تكلم ولم يتكلم حتىٰ بلغ المبلغ الذي يتكلم فيه الصبيان، قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٣٦﴾ أي هذا الإسلام طريق واضح ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ اختلف النصارىٰ في الدين فيما بينهم، سُمُّوا أحزابًا لأنهم تحزبوا في عيسىٰ: أي تفرقوا.

قال ابن عباس: لما رُفِعَ عيسىٰ إلىٰ السماء اختارت بنو إسرائيل أربعة من فقهائهم، فقالوا: ما تقولون في عيسىٰ؟

فقال الأول منهم: هو الله نزل من السماء، وخلق ما خلق، وأحيا ما أحيا، ثم صعد إلىٰ السماء، فاتبعه قوم من الماريعقوبية.

وقال الثاني: هو ابن الله صعد إلىٰ السماء، واتبعه علىٰ ذلك قوم من النسطورية.

وقال الثالث: أنا أقول الله إلـٰه، وعيسىٰ إلـٰه، وأمه إلـٰه، واتبعه علىٰ ذلك قوم من الملكانية.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٩.

(٢) وهذا علىٰ قراءة الفتح: وأنَّ، وهكذا ثبتت في الأصل، وهي قراءة المدنيين وابن كثير والبصريين، وبالكسر قرأ الباقون (النشر ٢/ ٣١٨).

(٣) البسيط ١٤/ ٢٤٧.

وقالوا للرابع: قل، فقال: هو عبد الله ورسوله، واتبعه علىٰ ذلك المؤمنون، ثم قال هذا العالِم للثلاثة: أنشدكم بالله، هل كان عيسىٰ يطعم؟ فقالوا: نعم، فقال: إن الله لا يطعم، ثم قال: هل كان ينام؟ فقالوا: نعم، فقال: إن الله لا ينام، فظهرت حجة أهل الحق علىٰ أهل الباطل، ثم قاتلهم أهل الباطل، فقتلوا المؤمنين، وظهرت اليعقوبية في ذلك الوقت(١).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في عيسىٰ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ حين ما تبرأ منهم عيسىٰ.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة أنَّ عيسىٰ لم يكن علىٰ ما وصفوه ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: القيامة ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: خطأ بيِّن في الدنيا وهم اليهود والنصارىٰ(٢).

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أي: خوِّفهم بيوم الندامة حين تزفر جهنم زفرة، وعلقت القلوب بالحناجر، ويُذْبَح الموت بين الجنة والنار ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالبعث ولا بالله وبأنبيائه.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نقهر الخلائق بالموت، وتبقىٰ الأرض ميراثًا، لأن ما بقي عن الميت فهو ميراث ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بعد الموت.

---

(١) وقد روي عن قتادة وابن جريج نحوه، انظر: تفسير الطبري ١٨/ ١٩٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٤، تفسير السمعاني ٣/ ٢٩٢.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٥. والمفسرون يحملون الآية علىٰ العموم في كل كافر (تفسير الطبري ١٨/ ١٩٩).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١﴾ الصدِّيق: هو المبالِغ في الصدق، أي: موحدًا لله مخبرًا عن دلائل وحدانيته، وقيل: صدِّيقًا قبل الوحي، نبيًّا بعد الوحي[١].

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ دعاءك ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ عبادتك ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾ لا يدفع ما نزل بك من البلاء.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ يعني: الوحي من الله عز وجل ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ أجبني إلىٰ ما أدعوك ﴿أَهۡدِكَ﴾ أي: أعرِّفك وأُرْشِدْكَ ﴿صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣﴾ مستويًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أي: لا تطعه في معصية الرحمن ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾ حين أبىٰ عن السجود لآدم.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بعبادتك الأصنام ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥﴾ شريكًا في العذاب.

﴿قَالَ﴾ أبوه ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ أتارك أنت عبادة آلهتي ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ أي: إنْ لم تمتنع عن مقالتك لأسُبنَّك وأرْمينَّكَ بالعيب، عن الضحاك[٢].

وبالحجارة عن الحسن[٣].

---

(١) وقيل: صديقا لأنه كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره، فهو فعِّيل من الصدق، أراد به الوصف لا الدرجة التي هي الصديقية (تفسير الطبري ١٨/ ٢٠٢، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣١، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٥).

(٢) رواه الطبري في التفسير ١٨/ ٢٠٥، وهو قول الجمهور.

(٣) لم يرو الطبري هذا القول، ولا ذكره في تفسيره، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧٤ للحسن، وهو قول ضعيف.

﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝٤٦﴾ مدة مديدة[١].

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ وَدَعْتُك، وقيل: هداك الله للإسلام وسلَّمك ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ أي: أشفع لك إلىٰ ربي بالدعاء حتىٰ يتوب عليك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝٤٧﴾ بارًا لطيفًا عودني الإجابة إذا دعوته[٢].

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ أي: أهجركم ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أي: أوحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾ خائبًا.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ﴾ جانبهم ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: جانب أصنامهم ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ من إسحق ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩﴾ أكرمناهم بالنبوة.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ أي نعمتنا: المال والولد ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٥٠﴾ أكرمناهم بالثناء الحسن، رفيعًا ذكرهم إلىٰ يوم القيامة[٣].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١﴾ أخلص لله بالعمل[٤].

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ من يمين موسىٰ، أي: أسمعناه النداء بذلك المكان ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ أي: كلَّمناه من قريب، وقيل: قرَّبناه تقريبًا[٥].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾ حتىٰ كان شريكًا في نبوَّته، وزيرًا له،

---

(١) أي دهرا طويلا (النكت والعيون ٣/ ٣٧٤).

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٠٧.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٠٨.

(٤) وهذا المعنىٰ علىٰ قراءة: مخلِصا، بكسر اللام، وهكذا ضبطها في الأصل، وهي قراءة من سوىٰ الكوفيين (النشر ٢/ ٣٩٥).

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢١٠.

لأنه سأل الله تعالىٰ حيث قال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ فأجابه الله تعالىٰ إلىٰ ذلك، فسمَّاه هبة.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ موفيًا بالعهد، منجزا للوعد إذا وعد، وذلك أنه جلس علىٰ رأس طريق سنة منتظرًا لرجل وعده أن يمكث له[1].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ مخبرًا عن الله عز وجل.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: قومه ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي بإتمام الصلاة وإيتاء[2] ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ أي: صالحًا زكيًّا، قيل: هو إسماعيل بن إبراهيم، وقيل: هو إسماعيل بن هَلْقَاثا[3].

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأمتك خبر ﴿إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ في المقال والفِعال ﴿نَّبِيًّا ۝٥٦﴾ ينبئ عن الله عز وجل.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ في السماء الرابعة، عن مجاهد[4].

---

(١) وهذا قول الكلبي، وربما نسب لابن عباس، وقول مقاتل: انتظره ثلاثة أيام، وروىٰ الطبري عن سهل بن عقيل: أنه انتظره ليلة (تفسير الطبري ١٨/ ٢١١، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٧، زاد المسير ٣/ ١٣٥).

(٢) فصل بين الواو والزكاة، بإيتاء.

(٣) وهذا قول غريب لا يعول عليه، بل هو من بدع التفاسير، قال الماوردي (في النكت والعيون ٣/ ٣٧٧): وهو علىٰ قوله الجمهور: إسماعيل بن إبراهيم، وزعم بعض المفسرين: أنه ليس بإسماعيل بن إبراهيم؛ لأن إسماعيل مات قبل إبراهيم، وإنَّ هذا هو إسماعيل بن حزقيل، بعثه الله إلىٰ قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره الله تعالىٰ فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضي بثوابه، وفوض أمرهم إليه في عفوه أو عقوبته (وذكره القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١١٤).

ولشذوذه أهمله ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٣٥، مع أنه يكثر من الاعتماد علىٰ الماوردي.

(٤) رواه الطبري في تفسيره ١٨/ ٢١٣.

والجنة، عن زيد بن أسلم. وفيه قصة طويلة لا يحتمل الكتاب ذكرها.

وقيل: هو في السماء السابعة يعرض عليه أرواح الصدِّيقين.

وقيل: قوله «رفعناه مكانًا عليًّا» في القدر والمنزلة وهو ميت تصلي عليه الملائكة، عن الضحاك(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني إبراهيم وموسىٰ وإسماعيل وإدريس وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالرسالة والنبوة، الذين خلقهم من ذرية آدم، وهو إدريس ونوح ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ أي: من ذريته، لأنَّ جميع العالم من أولاده الثلاثة ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يعني: ولده إسحق، وولد لإسحق يعقوب، وولد ليعقوب الأسباط، فذلك قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾ أي: عرَّفناهم ديننا وعبادتنا ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ اخترناهم للنبوة ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ كلام الله ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ أي: ساجدين باكين، نصب علىٰ الحال(٢).

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي بقي بعد الأنبياء بقيات رذال، يقال في الرداءة: خَلْفٌ وفي الصلاح: خَلَف صدق(٣)، يعني: به أولاد سوء ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخمس وأخَّروها عن وقتها، وقيل: تركوها ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ يعني الخمر والزنا، وقيل: استحلوا نكاح الأخوات من الأب، وقيل: بالبناء المشيد، وركوب الذلول، واللباس المشهور، والنوم علىٰ الميثور(٤)، وهم فسقة هذه

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٥، إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥.

(٣) الكشف والبيان ١٧/ ٤٠٤، الكشاف ٣/ ٢٦.

(٤) في الأصل: اليوم علىٰ الميثور، وهو تصحيف، والميثور يريد به المياثر، جلود السباع، والله أعلم.

الأمة[١].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ وادي في جهنم وقيل مجازاة الغي[٢].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بعد التوبة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾ أي: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئًا ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ نصب علىٰ البدل من قوله: يدخلون[٣] ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ علىٰ ألسنة الرسل ﴿عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ عنهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١﴾ أي: آتيًا جائيًا، مفعول بمعنىٰ الفاعل[٤].

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: خلفًا وباطلاً ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ ما يسلم بعضهم علىٰ بعض، وهو[٥]: اسم جامع لكل خير.

وقيل: يقول بعضهم لبعض: اسلم من الآفات، وقيل: هو استثناء علىٰ تكرير الفعل الأول، معناه: لا يسمعون فيها لغوًا ولا يسمعون إلا سلامًا تسلِّم الملائكة عليهم أو بعضهم بعضًا[٦].

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾ أي: علىٰ مقدار البكرة والعشي، لأنه ليس هناك بكرة وعشي، ولكن خوطبوا بما عقلوا.

وفي الكشف والبيان ١٧/ ٤٠٨، والكشاف ٣/ ٢٦، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢٥: وقال علي بن أبي طالب: هذا إذا بني المشيد، وركب المنظور، ولبس المشهور .

(١) زاد المسير ٣/ ١٣٧.

(٢) البسيط ١٤/ ٢٧٣ .

(٣) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٨٧٧. .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٦.

(٥) في الأصل: وهل، وهو تصحيف. وانظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ حيث صدر عنه.

(٦) البسيط ١٤/ ٢٧٥.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نُنزل فيها من عبيدنا ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾ من الشرك والكبائر والفواحش، وقيل: من كان موحدًا[١].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ رُوي أنَّ جبريل احتُبس من النبي صلىٰ الله عليه وسلم أربعين يومًا، حين ترك الاستثناء، حتىٰ قالت اليهود: إنَّ محمدًا قد أطفأ الله نوره، فلما هبط جبريل قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «ما حبسك عني يا جبريل؟ فقال جبريل: وما نتنزل إلا بأمر ربك» أي: ما ننزل بالوحي إليك إلا بأمر ربك[٢].

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين النفختين[٣] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ أي: ما نسيك ربك كما زعمت قريش، ولكن تأخر الوحي.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خالقهما وخالق ما فيهما من الخلق وخالق ما بينهما ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ احبس نفسك علىٰ طاعته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ أي: ليس أحد يسمىٰ الله سواه، وقيل: معناه لا مثل له[٤].

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ المكذِّب بالبعث: أُبي بن خلف، عن ابن عباس[٥] ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ﴾ أي: إذا مت، وما زائدة ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ من القبر.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨١.

(٢) رویٰ البخاري في الصحيح ٣٢١٨ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، قال: فنزلت الآية. وهذا السياق يخالف السياق الذي ذكره المصنف.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢٦.

(٥) وهذا من تفسير الكلبي، ولذا فقد خلا منه تفسير الطبري، انظر: تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٢.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: لا يتفكر الكافر ابتداء خلقه ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ ثم أقسم بنفسه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ على رغمهم ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: نحشر الشياطين الذين أغووهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ جميعًا، عن الكلبي.

وقيل: جُثاةً على رُكبهم[١].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: لنخرجن بالنداء من كل جماعة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ كُفرًا وتكبُّرًا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أعتا أهل مكة: أبو جهل، وهو أول من يساق من أهل مكة إلى النار»[٢].

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أي: دخولاً، وهم القادة في الكُفر.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: ما منكم أحدًا إلا داخلها: المؤمن والكافر.

والشبهة في هذه الآية أنَّ الله تعالى قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وذكر الورود هاهنا عامًا.

قيل: أراد به الكفار، لأن الكاف والميم للخطاب، والخطاب للكافر.

وقيل: إن العالم كلهم يردونها، ولكن أهل الطاعات لا يشعرون بورودها[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢٨، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٢.

(٢) غريب بهذا اللفظ، ولعله من مرويات الكلبي.

(٣) لأنهم يمرون عليها وهي خامدة، أو جامدة، كما قاله خالد بن معدان (تفسير الطبري ١٨/ ١٣٠).

وقيل: أراد به الممر على الصراط، والممر تعبير عن الورود، والورود عن الممر كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: مرَّ عليه، والأنبياء وأولياء الله لا يدخلون النار، لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو قول الحسن وقتادة[١].

قال الأزهري: الورود الإشراف على الشيء من غير دخول، قال زهير:

فلمَّا وَرَدنَا الماءَ زرقًا جِمَامُه وضعنَ عِصيَّ الحاضر المتخيِّمِ[٢]

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ أي: واجبًا قضاه في اللوح المحفوظ.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الذين وحَّدوا الله ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ جميعًا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بالأمر والنهي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ النضر بن الحارث وغيره ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ من الصحابة ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن أم أنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أي: منزلاً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ أي: مجلسًا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أهل زمان ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ متاعًا ﴿وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ منظرًا، والري: الارتواء من النعمة أيضًا، بلا همزة[٣].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ في الجهالة والحيرة ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ في ضلالته، لام الأمر دخل في الكلام للتأكيد، كأنه يأمر نفسه[٤]،

---

(١) وروي هذا المعنى عن ابن عباس، رواه الطبري في التفسير ١٨/ ٢٣٠.

(٢) تهذيب اللغة ١٤/ ١١٧، تاج العروس ٩/ ٢٨٩ .

وانظر في هذه المسألة تفسير السمعاني ٣/ ٣٠٧، البسيط ١٤/ ٢٩٤، معالم التنزيل ٥/ ٢٤٦، زاد المسير ٣/ ١٤٣، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٣٦، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٥٢.

(٣) ملخص من معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٢، ونحوه في البسيط ١٤/ ٣٠٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٣، البسيط ١٤/ ٣٠٦.

ومعناه: مدَّ له الرحمن مدًا، وينبغي أن يكون ذلك، ونظيره قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ القتل ببدر ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ يعني: شر منزلة ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ هم أم المؤمنون؟

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ يعني: أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم زادهم بصيرة، وقيل: يزيد الله الذين اهتدوا بالمنسوخ هدىٰ بالناسخ[1].

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ يعني: الصلاة والصيام والحج والجهاد وغيرها ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ من مساكن أهل مكة وأموالهم التي يفتخروا بها[2] ﴿ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ أي: عاقبة وقد فسرناه في سورة الكهف.

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ نزلت في العاص بن وائل، وكان خباب بن الأرت قينًا[3] في الجاهلية، وكان يعمل للعاص ويؤخر أجرته إلىٰ الموسم، فلما أسلم تقاضاه فقال له العاص: ما عندي ما أقضي دينك، وقال خباب: لا أفارقك حتىٰ تعطيني ديني، فقال العاص: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا؟ فقال: نعم، قال: فأخرني حتىٰ أقضيك هناك، والله لو كان كما تقولون فأنا أفضل منك حظًّا فيها، فأنزل الله تعالىٰ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: القرآن وما فيه من الثواب والعقاب[4].

﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ في الجنة.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٤، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٥.

(٢) البسيط ١٤/ ٣٠٩.

(٣) في الأصل: قيفا، وهو تصحيف.

(٤) رواه البخاري في الصحيح (٢٠٩١)، ومسلم في الصحيح (٢٧٩٥) من حديث خباب.

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: نظر في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ بما قال ﴿عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨﴾ وقيل: أم اعتقد بالتوحيد عند الله عهدًا يجب وفاؤه[١].

﴿كَلَّاۚ﴾ ردع وتنبيه، أي: لا اتخاذ عهد ولا اطلاع غيب ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من الكذب، أي[٢]: يكتبه الملائكة الحفظة بعلمي ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾ أي: نزيد له من العذاب زيادة.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال أبو سهل: نحوي ماله فنخرجه منه عند الممات ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾ ليس معه من ماله قليل ولا كثير.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾ أنصارًا وشفعاء وأعوانًا.

﴿كَلَّاۚ﴾ أي: لا يشفعون ولا ينصرون ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ الأصنام يتبرؤون منهم، والملائكة وعزير وعيسىٰ كذلك ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ أي: عونًا علىٰ هلاكهم[٣].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: خليناهم وإياهم، والإرسال: التسليط أيضًا ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ أي: تزعجهم إلىٰ المعاصي إزعاجًا، وتغريهم إغراءً علىٰ المعاصي[٤].

﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ بالعقوبة يا محمد ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ أي: نعد عليهم الليالي والأيام، وقيل: نعد أنفاسهم إلىٰ مماتهم[٥].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٦.

(٢) في الأصل: أن، وهو تصحيف .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٥ .

(٤) وهو معنىٰ الأز، كما في تفسير الطبري ١٨/ ٢٥١.

(٥) وهو مروي عن ابن عباس وغيره (تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٣).

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والكبائر ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ۝٨٥﴾ أيك ركبانًا مكرمين، يُؤتون بنوق عليها رحال من ذهب، وأزمَّتُها الزبرجد منظوم بالدر والياقوت، فيحملون عليها، فتطير بهم إلى الجنة[١].

وفدًا: نصب على الحال[٢].

﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦﴾ أي: عطاشًا ولا يروون أبدًا[٣].

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ وهذا جواب قوله ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١﴾ يشفع لهم، يعني: الملائكة والنبيون لا يملكون أن يشفعوا لأحد.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾ يقول لا إله إلا الله، وقيل: إلا من قدَّم عملاً صالحًا.

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني: اليهود والنصارى قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨﴾ عزيرًا وعيسى.

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩﴾ أي: قل لهم أتيتم بشيء عظيم منكر[٤].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾[٥] أي: من عِظم ما قلتم ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: تتشقق ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ أي: تسقط الجبال كسرًا ﴿أَن دَعَوۡاْ

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٤، تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٣/ ٣١٤.
(٢) التبيان ٢/ ٨٨٢.
(٣) وهو قول كافة المفسرين (تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٥)، وقيل: مشاةً (الكشف والبيان ١٧/ ٤٦٠، تفسير السمعاني ٣/ ٣١٤).
(٤) وهو مروي عن ابن عباس (تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٧).
(٥) ضبطها في الأصل: ينفطرن، وهي قراءة أبي عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة وشعبة وخلف، وقرأ الباقون: يتفطرن (النشر ٢/ ٣١٩).

﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ أي: لقُبح هذا القول وفساده.

قال عبد الحميد الحاكمي: بلغنا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: من قرأ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلىٰ آخر الآية، استغفرت له السماوات والأرض والجبال كما كادت تنفطر من قبح قولهم: «اتخذ الله ولدًا»[1].

وروي: أنَّه لم يكن في الأرض نبت إلا ولابن آدم فيه نفع، حتىٰ قالوا: لله ولد، اقشعرت الأرض وشاك الشجر[2].

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ لأنَّ اتخاذ الولد للتكثُّر والانتصار، والله تعالىٰ مُستغنٍ عن ذلك، واتخاذ الخليل لا يدل علىٰ اتخاذ الولد، لأنَّ أحدنا لو قال: «إني أحب فرسي» لا نستنكر عليه، ولو قال: اتخذتُ فرسي ولدًا، يستدعي[3] الجنسية.

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ أي: يقرون له بالعبودية، ولله بالوحدانية يومئذ.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي: عَلِمَهُم، وقيل: سماهم في اللوح المحفوظ ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ أي: عرف عددهم[4].

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ أي: كل أهل السماوات والأرض يأتونه يوم القيامة فردًا، ليس معهم شيء من دنياهم.

---

(١) ذكر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٤٥ عن عبد الحميد بن واصل مرسلا نحوه، وذلك في آخر سورة الإسراء.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٥٧ روايات قريبة من هذا.

(٣) في الأصل: يستدي، وهو تصحيف.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٦١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ أي: يجعل محبتهم في قلوب المؤمنين ليحبوهم، وقيل: يحبهم ويحببهم إلىٰ عباده[١].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني: هونًّا القرآن علىٰ لسانك حتىٰ قرأته وحفظته ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والفواحش ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: تخوف بالقرآن ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ أي: أشداء[٢] الخصومة بالباطل[٣].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾ بالعذاب ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ أي: هل ترىٰ وتعلم منهم أحدًا، والإحساس: الرؤية والعلم ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾ أي: صوتًا، والركز: الصوت الخفي، عن الزجاج[٤].

قال عبد الحميد الحاكمي عفا الله عنه: بلغنا عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة مريم أعطي من الأجر بعدد من صدق بزكريا ويحيىٰ ومريم وعيسىٰ وموسىٰ وهارون وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وإدريس، وبعدد من كذب بهم، وبعدد من دعا لله ولدًا، وبعدد من وحَّد الله عز وجل»[٥].

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٤٨.

(٢) في الأصل: أرشدنا، وهو تصحيف.

(٣) البسيط ١٤/ ٣٤٢

(٤) معاني القرآن ٣/ ٣٤٧.

(٥) موضوع، رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٧/ ٣٢٢، ورواه المستغفري في فضائل القرآن ١١٨٦.

سورة طه

مكية كلها[1]، وهي مائة وخمس وثلاثون آية في الكوفي، وأربع في المدني، وآيتان في البصري[2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿طه ۝١﴾ اختلفوا في تفسيره:

في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجهد نفسه في طاعة الله؛ حتى كان يعلِّق رجليه في الصلاة[3]، فكان يقوم على صدور قدميه، ويروى أنه كان يقوم بإحدى رجليه، فأنزل الله تعالى: طه، أي يا رجل، في لغة نبطية عُرِّبَتْ[4].

ومن قرأ: طأْهَا[5] فهو من الوطء، أي: طء الأرض على قدميك[6].

---

(١) الكشف والبيان ١٧/ ٤٨١، البيان في عد آي القرآن ١٨٣ .

(٢) وأربعون في الشامي (البيان في عد آي القرآن ١٨٣).

(٣) روي عن مجاهد من قوله (كما في تفسير الطبري ١٨/ ٢٦٩) ، وروي عن ابن عباس من تفسير الكلبي (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٨٩، الكشف والبيان ١٧/ ٤٩٦).

(٤) روي عن ابن عباس من طرق، وعن سعيد بن جبير وعكرمة وغيرهم (تفسير الطبري ١٨/ ٢٦٦)، وقيل: سريانية (البسيط ١٤/ ٣٤٧، النكت والعيون ٣/ ٣٩٢) .

(٥) قرأ ابن كثير وحفص بالفتح في الحرفين، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بالإمالة في الحرفين، وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء وإمالة الهاء، وعن نافع التقليل (السبعة ٤١٦، إتحاف فضلاء البشر ٣٨١) . قال الثعلبي: وكلها لغات صحيحة (الكشف والبيان ١٧/ ٤٨٧، وانظر: الحجة للفارسي ٥/ ٢١٨).

(٦) أي: طا فعل أمر، وأصله بالهمز، ولكن أبدل من الهمزة ألفا، وها ضمير للأرض (التبيان ٢/ ٨٨٤). والمصنف لخص ما في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٩، وزاد عليه.

وقيل: طَهْ من الوطء، لأنَّ الأمر منه حرف واحد، كما يؤمر من وفىٰ يفي: فِ، فيوصل الهاء به للوقف، فيصير: طه، كما يقال من الوفاء: فه.

وقيل: إنَّ طه بنصب الحرفين معناه يا رجل، وقال الشاعر:

إنَّ السفاهةَ طهَ مِن خَلائقكم لا قدَّسَ الله أرواحَ الملاعين[1]

وقيل: قسمٌ أقسم باسمين: الطاهر والهادي، قيل: اسمان لله تعالىٰ، وقيل: للنبي صلىٰ الله عليه وسلم[2]، والله أعلم بسر كلامه.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ أي: لتتعب ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ يعني: نزلناه تذكيرًا ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ الله فيوحدوه.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أنزلناه تنزيلاً ممن خلق الأرض ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ فالعليا والعُلىٰ مثل الكُبرىٰ والكُبَر، وقيل الكُبَر: جمع كبرىٰ، والعُلىٰ جمع عليا.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قال: كان العرب يقولون لا نعرف الرحمن، فقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ يعني: اسمه علىٰ العرش فكيف لا تعرفونه.

---

(١) البيت ليزيد بن مهلهل، انظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٦٩، الكشف والبيان ١٧/ ٤٩١، البسيط ١٤/ ٣٤٨، النكت والعيون ٣/ ٣٩٢، الدر المصون ٨/ ٦.
ورجح ابن جرير هذ القول، لروايته عن من روي عنه، ولشهرته في بعض قبائل العرب (تفسير الطبري ١٨/ ٢٦٨). ورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠، ورده عليه أبو حيان والسمين (الدر المصون ٨/ ٦).

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٦٨ ، الكشف والبيان ١٧/ ٤٨٨، وهو اختيار الجرجاني صاحب النظم (البسيط ١٤/ ٣٤٨).

ثم قال: استوىٰ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: استوت عظمته علىٰ بريَّته[١].

وقيل: استوىٰ علىٰ العرش أي عَلَا وقَهَر واستولىٰ، وهو فوق العرش بالعلية بائنًا عن مخلوقاته بلا كيف[٢].

وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإقرار به واجب، والسؤال عنه بدعة[٣].

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي: تحت الأرضين السفلىٰ.

---

(١) هذا القول غريب جدا، ليس له وجه من الاعتبار، فقد قطع أوصال الآية علىٰ غير دليل، فإن المسلمين مجمعون أن فاعل الاستواء هو الله عز وجل، ثم اختلفوا بعد ذلك، فالسلف والأئمة الأربعة يثبتون الاستواء بمعنىٰ العلو علىٰ العرش، وأهل الكلام سلكوا مسلك التأويل، واختلفوا في هذا المسلك.

وأما علىٰ هذا القول: فاسم الرحمن علىٰ العرش، وتم الكلام هنا، ثم استأنف: استوىٰ له ما في السماوات، وهذا من بدع التفاسير.

(٢) والصحيح أنه استوىٰ بمعنىٰ علا وارتفع، كما قال الطبري في تفسيره ١٨/ ٢٧٠، وهو مذهب السلف، وأما ذكر القهر فهذا لا خصوصية للعرش به، فهو قاهر لعباده كلهم، فلا وجه لتخصيص العرش بالقهر، وأما الاستيلاء فقد قدمنا أنه تأويل المعتزلة الذين يشنع عليهم المصنف، وتابعهم عليه بعض الأشاعرة والماتريدية، وأنكره أهل اللغة وأهل التفسير علىٰ حد سواء، وقد سبقت المسألة (انظر: تفسير السمعاني ٣/ ٣٢٠).

(٣) قد سبق له تأويل الاستواء، وهذا -كما نبهنا- أنَّ المفسرين يتبعون مواردهم ومصادرهم، دون أن يكون لهم تحقيق تام في كل ما يوردونه، فربما أوَّل في موضع بحسب مصدره فيه، وربما ذكر مذهب السلف في موضع آخر، وذلك بحسب ما اعتمد عليه من مصادر، والمعروف أنَّ المفسر الكبير -الذي اعتمد عليه المصنف كثيرا- لم يكن مؤولا، فالله أعلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بُسطت الأرض على الماء، والماء على الحوت، والحوت على الصخرة، والصخرة بين قرني الثور، والثور على الثرى، ولا يعلم تحته إلا الله عز وجل[١].

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي تعلن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي: ما أسره الإنسان إلى غيره، وما أخفاه من ضميره، وقيل: يعلم ما تعمل وما أنت عامل[٢].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ أي: هو الذي يتألَّه إليه العباد، له الأسماء الحسان، وإنما: قال الحسنى لأنه تأنيث الأحسن[٣].

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ أي: قد بلغك قصة موسى ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ من بعيد وهو نور ظنَّه نارا ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أقيموا هاهنا ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتها ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شعلة من النار في رأس الحطب ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ أي: هاديًا[٤]، ناب الهُدى عن الهادي؛ كما ناب الكذب عن المكذوب في قوله: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: قرب من النار ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ قال الكلبي: رأى نارًا بيضاء تتوقد من شجرة خضراء، من أسفلها إلى أعلاها،

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٩٠، الكشف والبيان ١٧/ ٤٩٩، وتفسير السمعاني ٣/ ٣٢١، معالم التنزيل ٥/ ٢٦٣. وهذا من رواية الكلبي، فلا يلتفت إليه، وإنما يعرف هذا عمن يأخذ الإسرائيليات ويرويها، كالسدي، فتلقفه الكلبي ونسبه لابن عباس، وهو منه براء.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٢.

(٣) البسيط ١٤/ ٣٦١، وزاد: ووحدت الحسنى والأسماء جمع؛ لأنها مؤنثه والجماعة توصف بصفة المؤنث الواحد كقوله: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [سورة النمل:٦٠] ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [سورة طه:١٨] كأنها اسم واحد للجميع.

(٤) وهو قول جلِّ أهل التفسير قاطبة (تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٧).

وسمع تسبيح الملائكة، جعل يتعجب منها، فنودي من العرش: يا موسىٰ إني أنا ربك خالقك ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وطءِ الأرض بقدميك تواضعًا لربك[١].

قيل: أمر بخلع النعلين لتصل بركة الوادي المقدس إلىٰ قدميه، عن الحسن وابن جريج[٢]. وقيل: كان نعلاه من جلد حمار ميت، عن الكلبي[٣].

﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ أي: المطهر، واسمه طوىٰ، وقيل: طوىٰ اسم الوادي.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ اصطفيتُك للنبوة من بين خلقي ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ إليك، أي: اعمل بما تُؤمر وتُنهىٰ.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ توكيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وحِّدني وأطِعْني ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ قيل: معناه بذكري وتسبيحي وتمجيدي، وقيل: أَقِم الصلاة لأذكرك[٤]، وقيل: إذا نسيت الصلاة ثم تذكرتها[٥] فأقِمها[٦].

---

(١) وهو في تفسير أبي الليث منسوبا لابن عباس، أي من رواية الكلبي كما صرح هنا (تفسير أبي الليث ٢/ ٣٩٠).

(٢) رواه الطبري عنهم في تفسيره ١٨/ ٢٧٩، ورجحه.

(٣) ونسبه أبو الليث لعامة المفسرين (٢/ ٣٩١)، وقد رواه الطبري في التفسير ١٨/ ٢٧٨، عن جماعة، فلا ينبغي الاقتصار علىٰ ذكر الكلبي. ولم يستصوبه الطبري لبعده عن الظاهر، وضعف إسناد الرواية الواردة في ذلك.

(٤) وهذا القول غريب، وإن كان معناه صحيحا، فإن من ذكر الله ذكره الله، إلا أن أهل التفسير لا يذكرونه في معنىٰ هذه الآية، وقد ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٥٤ عدة أقوال ليس هذا منها.

والقول المذكور بدل هذا القول في كتب التفسير: أقم الصلاة لتذكرني، والله أعلم.

(٥) في الأصل: تذكرها.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٨٤، وشاهده الحديث المتفق عليه (رواه البخاري ٥٩٧، ومسلم ٦٨٤) عن أنس: عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، لا

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أكتمها.

قال ابن الأنباري[١]: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها، وهو قول أُبي بن كعب وسعيد بن جبير ومجاهد[٢].

وهو لفظ[٣] قراءة أُبي بن كعب ذكره القتيبي[٤] في مشكله، تأويله: أريد أخفيها مِن قِبَلي، كقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ أي: غيبي وقِبَلي، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ في غَيبك وقِبَلك[٥].

وقرئ: «أكاد أَخفيها» بفتح الألف، أي أظهرها لكثرة ما ذكرت من صفتها[٦].

فيقول قائل: الساعة مخفية، فما معنىٰ قوله ﴿أُخْفِيهَا﴾؟

فيقال: معناه أخفيتها علىٰ من مضىٰ فأخفيها علىٰ من بقي[٧]، وقيل: أكاد

كفارة لها إلا ذلك ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ قال موسىٰ -أحد رواة الحديث- : قال همام: سمعته يقول: بعد: «وأقم الصلاة للذكرىٰ»، لفظ البخاري.

(١) النقل عن ابن الأنباري في هذا الموضع في البسيط ١٤/ ٣٧٣، المحرر الوجيز ١٠/ ١٥، زاد المسير ٣/ ١٥٤، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٨٣.

(٢) رواه عنهم ابن جرير الطبري في التفسير ١٨/ ٢٨٥، وهي رواية علي بن أبي طلحة والعوفي وسعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) في الأصل: اللفظ، وهو تصحيف.

(٤) تأويل مشكل القرآن ٢٤.

في الأصل: العيني، وهو تصحيف.

(٥) راجع تفسير سورة المائدة، آية١١٦.

(٦) رواه ابن جرير في التفسير ١٨/ ٢٨٦، عن سعيد بن جبير ، ورده، وبين أن المحفوظ عن سعيد مثل العامة .

(٧) وهذا علىٰ أن كاد علىٰ معناها الأصلي، وهو المقاربة، وهو الصحيح عند المفسرين، ولابن جرير كلام محرر في بيان صحة هذا الأسلوب العربي العالي في البلاغة فراجعه في تفسيره ١٨/ ٢٨٨.

مطروحٌ، والمعنىٰ: أخفيها أصلاً ولا أظهرها أبدًا، كقوله ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ معناه لم يرها(١).

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ يعمل في الدنيا.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾ أي: لا يصرفك عن الإيمان بالساعة ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ أي: بقيامها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: تهلك إنْ فعلت ذلك في النار.

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ قيل: هذا سؤال إيناس وإذهاب وحشة؛ لأن الله عز وجل عالِم بها(٢).

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ أي: أعتمد عليها إذا أعييت ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أضرب بها أغصان الشجر لتتناثر ورقها فترعاها غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: حوائج أخرىٰ، وذلك أنه كان يأخذ الغنم بالمحجن الذي كان علىٰ رأسها، وإذا قصر رشاؤه تعلق رشاؤه في ذلك المحجن، وكان في أسفلها عكازة يضرب بها السباع، وتارة يلقىٰ عليها كساءه فيستظل بها(٣).

﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ تمشي وترفع رأسها، وتأخذ الحجارة والشجر فتقذفه في جوفها، ففزع موسىٰ منها، فقال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ومعناه: سنحوِّلها عصىٰ كما كانت، والسيرة: الهيئة(٤).

---

(١) هذا أحد مسالكهم في تأويل هذه الآية، وهو طرح كاد، ومسلك آخر لهم في حمل كاد علىٰ معنىٰ أريد (البسيط ١٤/ ٣٧٤) وكلا القولين ينتهكان قانون التفسير بالمأثور، فإن أهل التأويل لم يخرجوا عن أن كاد هنا للمقاربة، فهو إجماع.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٩٢.

(٣) البسيط ١٤/ ٣٨١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٥.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾ اليمنىٰ ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ الأيسر، والجناح: الإبط ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برَص، لها شعاع كشعاع الشمس يضيء بها الوادي ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ أي: العظمىٰ، وآياته كلها كبيرة.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ يعني: اذهب إليه برسالتي، إنَّه كفر وتكبر وعلا بادعاء الربوبية.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ وسع لي قلبي كيلا أخاف فرعون، وكان في قلبه منه هيبة من حال صغره، وقيل: كي اجترئ علىٰ عدوك[(١)].

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ أي: سهل عليَّ هذا الأمر الذي بعثتني إليك.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ وكان في لسانه رُتَّة[(٢)]، لمَّا وضع النار علىٰ لسانه في صغره، حين أخذ لحية فرعون، وهو مشهور[(٣)].

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ أي: يفهموا ما أقول لهم ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ أي: قوِّ به ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أي: في النبوة، وقرئ: «أَشدد» بنصب الألف[(٤)]، خبرًا من نفسه[(٥)].

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: نصلي لك آناء الليل والنهار ونذكرك باللسان ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: كنتَ في الأزل عالِمًا بضعفنا وقوة عدوك.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩.

(٢) الرُّتة عجلة في الكلام وقلة أناة، وقيل: من عيوب اللسان (تاج العروس ٤/ ٥٢٤).

(٣) الخبر في تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٩٣، تفسير السمعاني ٣/ ٣٢٨.

(٤) أي بهمزة قطع، وهي قراءة ابن عامر (النشر ٢/ ٣٢٠).

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٦.

فأجاب الله تعالىٰ دعوته وأعطاه ما طلب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ أي: ما سألت لنفسك ولأخيك ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧﴾ أي: أكرمناك بكرامة لم تسألها منًّا.

ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨﴾ أي: ألهمناها إلهامًا، وقوله: يوحىٰ لترتيب رأس الآية ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ في نيل مصر ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أخرج الكلام مخرج الأمر، ومعناه الجزاء، كقوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ ومعناه: ليُلقِه اليم علىٰ شاطئ البحر[1].

فذهبت أمه إلىٰ الرجل المؤمن من آل فرعون، وهو خربيل[2] النجار فنجر لها تابوتًا، وألقته في التابوت في الماء.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أي: لموسىٰ وهو فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ في قلوب عبادي، فلم يرك أحد في صباك إلا أحبَّك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ٣٩﴾ أي: لتربَّىٰ بمنظر مني، فانطلق الماء به إلىٰ فرضة[3] آل فرعون، وكانت الجواري يستقين، فأُخبرت آسية بإتيان تابوت في الماء، فأتت وأمرت بأخذها، فرأت الصبي وحُسنه وأوقع الله في قلبها حبه، فقالت لفرعون: لا تقتله حتىٰ نربيه، فيكون لنا ولدًا، فلا يدري أحد إلا أنَّا ولدناه، فتركه فرعون.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٩، إعراب القران للنحاس ٣/ ٢٧.

(٢) وهو قول مقاتل، كما في تفسيره (٢/ ٣٢٩)، ونصه: المؤمن الذي صنع التابوت اسمه خربيل بن صابوث، وليس فيه أنه مؤمن آل فرعون، وعن مقاتل: نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٩٥ وتصحف عنده.

(٣) في الأصل: فرصة، وهو تصحيف، والفرضة في النهر الثلمة تكون فيه، يستقىٰ منها، والثلمة من البحر محط السفن (الكشف والبيان ١١/ ٥، تاج العروس ١٨/ ٤٨٤).

طلبوا له ظئرا فلم يقبل ثدي أحد حتىٰ دخلت عليهم، فذلك قوله: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ أي: امرأة ترضعه وقد قتل ولدها، وإنها تحب أن ترضع ولدًا، قالوا: نعم، فانطلقت وأتت بأم موسىٰ، فأعطته الثدي فقبلها، وهو قوله: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بطيب نفسها برجوعك إليها ﴿وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ لفراقك ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ من القبط وغمك قتله مخافة القصاص ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ أي: خلَّصناك من كل بليَّة إخلاصًا، وقيل: ابتليناك بلاء بعد بلاء[1].

﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ وهو عشر سنين عند أحبابك ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ أي: وافق مجيئك في هذه الليلة تكليمي إياك في علمي، وقيل: جئت علىٰ موعد وقضاء قضيته في الأزل.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ اخترتُكَ لرسالتي واتخذْتُكَ وليًّا من بين عبادي ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ باليد والعصا ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢﴾ أي: لا تضعفا ولا تفترا عن ذكري[2].

---

(١) ومن المشهور عند المحدثين حديث الفتون، وهو حديث طويل يرويه القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، رواه النسائي في كتاب التفسير من السنن الكبرىٰ (١١٢٦٣)، وفيه فوائد، لكن القاسم قد تفرد به عن سعيد، وهو موقوف علىٰ ابن عباس، قال ابن كثير -بعد أن ساقه في صفحات-: هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرىٰ، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضي الله عنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضا (تفسير ابن كثير ٥/ ٢٩٣).

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣١٣.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: عصىٰ الله تعالىٰ وعلا وتكبَّر ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ أي: مراه بوحدانية الله تعالىٰ، وهو قوله: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وقال أبو سهل: كنياه وقولا أيها الملك أبو الوليد[1].

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ لعلَّ حرف ترجِّي وطمع، اذهبا علىٰ رجائكما وطمعكما، وعلم الله من وراء ذلك[2].

وقال أبو معاذ النحوي: لعلَّ هاهنا علىٰ الوجوب، ووالله ما خرج من الدنيا حتىٰ تذكر وخشي حين لم تنفعه التذكرة والخشية[3].

قال يحيىٰ بن معاذ: هذا لطفك بمن يقول أنا إلـٰه فكيف لطفك بمن يقول أنت إلـٰه[4].

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ أي: يعجل علينا بالعذاب أو القتل قبل أداء الرسالة[5] ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ يتكبر ولا يستمع كلامنا.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ﴾ واحدًا من الأمرين ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بالعون ودفع بأس العدو ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أسمع ما يقول لكما، وأرىٰ ما يصنع بكما.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ فإن أجبتَ إلىٰ ما ندعوك إليه وإلاَّ ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لنذهب بهم إلىٰ أرض المقدسة ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ أي: لا

---

(١) وهو مروي عن بعض السلف، انظر: تفسير الطبري ١٨/ ٣١٣، البسيط ١٤/ ٤٠٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٠٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٧، البسيط ١٤/ ٤١٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٠١ دون نسبة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٠١ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٠١ .

تستعملهم استعمال العبيد ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فصدقنا، والآية العصا واليد، فإن لم تصدقنا فيما نقول لك ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أي: السلامة لمن أطاع الله ورغب في الإسلام، يعني: من أطاع الله فقد سلم من العذاب[١].

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي: كذب الرسل وأعرض عن الإيمان بالله ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ خاطب الواحد بلفظ الاثنين، لأنَّ العرب تستغني بالواحد عن ذكر الاثنين، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يعني: الحر والبرد، ولأنَّ الواحد يخاطب خطاب الاثنين كقوله لمالك: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾[٢].

﴿قَالَ﴾ له موسىٰ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ يعني: أعطىٰ كل شيء شكله لأنه جعل زوج كل واحد من جنسه ﴿ثُمَّ [هَدَىٰ] ﴿٥٠﴾﴾ هداه إلىٰ إتيانه ليتم النفع، وينتشر النسل.

وقيل: أعطىٰ كل شيء صورته ثم هداه إلىٰ معيشته[٣].

فأجابه فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ الذين ماتوا قبلنا وسلكوا طريقنا، فرد موسىٰ علم ذلك إلىٰ الله تعالىٰ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ وإنه مع ذلك مكتوب في الكتاب كقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ [وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ]﴾[٤].

(١) ولا يراد به التحية، لأن الكافر لا يبتدأ بالتحية (معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٨).
(٢) البسيط ١٤/ ٤١٣.
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠١.
(٤) أخطأ في كتابة الآية.

ثم قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ يعني: يعلمه الله، وهو مكتوب أيضًا.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ قيل: لا يخفى على ربي موضع الكتاب.

وقال السدي: لا يغفل ربي عن شيء ولا ينساه[1].

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ أي: فراشًا ومنامًا ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ أي: بيَّن لكم فيها طرقًا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هاهنا وقف[2]، ثم استأنف الكلام بالإخبار عن نفسه: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ أي: أصنافًا من النبات الأصفر والأبيض والأحمر والأخضر ﴿كُلُواْ﴾ من نبات الأرض من لبابها وحبوبها ﴿وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ﴾ من كلإ الأرض وقشورها، لفظ أمر معناه الخبر، أي: تأكلون وتزرعون[3] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ وعبرات ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ ذوي العقول من أهل التوحيد[4].

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ لأنَّ آدم خلق من أديم الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ بعد الموت ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ﴾ أي: فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني الآيات التسع في مدة مديدة ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾ أن يصدق بها.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا﴾ أرض مصر ﴿بِسِحۡرِكَ﴾ وخداعك ﴿يَٰمُوسَىٰ ٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ أي: مثل ما جئتنا به ﴿فَٱجۡعَلۡ

---

(١) نقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٠٢، بلفظ: لا يغفل لا يترك، وهو قول عامة المفسرين، تفسير الطبري ١٨/ ٣١٩.

(٢) لأن هاهنا تم الإخبار والحكاية عن موسى (البسيط ١٤/ ٤٢٠).

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩.

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ بيِّن لنا وقتًا ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ مكان عدل وإنصاف، لا نجاوزه[١] مكانًا سوى المكان الموعود[٢].

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قيل: هو يوم عيد لهم في كل سنة مرة.

الضحاك: يوم السبت[٣]. ابن عباس: يوم عاشوراء[٤].

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ للموعد.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ عن الحق، وقيل: رجع إلىٰ أهله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ للموعد، وكيده: سحرته، فلما حضروا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ﴾ نصب علىٰ الدعاء، أي: ألزمكم الله الويل ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدأهم بالموعظة ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يهلككم[٥] ﴿بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ أي: خسر وهلك من اختلَق علىٰ الله.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاوروا السحرة فيما بينهم ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ وقالوا فيما بينهم: إن غلبنا موسىٰ آمنَّا به، عن ابن عباس[٦].

وقال الضحاك: نجواهم فيما كانوا فيه من السحر.

وقيل: لما تشاوروا فيما بينهم فطن لذلك فرعون فصاح بهم: ماذا تقولون ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يعني موسىٰ وهارون.

---

(١) في الأصل: لا نجاوز.

(٢) مثله في تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣.

(٣) انظر أقوالهم في تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣، الكشف والبيان ١٧/ ٥٥٢.

(٤) وهو جزء من حديث الفتون، الذي مر ذكره.

(٥) من سحت وأسحت، أي أهلك يقال: سحت الدهر وأسحت مال فلان (تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٥).

(٦) من رواية الكلبي، وهو قول قتادة، انظرك تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣، البسيط ١٤/ ٤٣٧

و«هذان»[١]: حقها من الإعراب النصب بكلمة «إنَّ»، لكن هذا علىٰ لغة بني الحارث بن كعب والخثعم[٢]، وقال الشاعر:

أي قلوص راكب تراها طاروا علاهنَّ فطر علاها[٣]

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها[٤]

ويقال: أنَّ «إنَّ» بمعنىٰ نعم، وقال الشاعر:

ويقلن شيبٌ قد علا ك وقد كبرت فقلت إنَّه[٥]

أي: نعم، ودخل الهاء للسكوت والتنفس.

فمعنىٰ الكلام: نعم، هذان ساحران، وهو قول الزجاج[٦].

ويروىٰ أن أعرابيًا سأل عبد الله بن الزبير فلم يعطه، فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إنَّ وصاحبها، أي: نعم[٧].

---

(١) كتب الآية في الأصل: إنَّ هذان، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير وحفص: إنْ - بالتخفيف- هذان، وقرأ أبو عمرو: إنَّ هذين (النشر ٢/ ٣٢١) ولا إشكال علىٰ قراءة أبي عمرو من حيث المشهور من الإعراب.

(٢) وزادوا كذلك: كنانة واليمن، معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٤، تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٨، ٣٣١، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦٤، الثعلبي في الكشف والبيان ١٨/ ١٧، البسيط ١٤/ ٤٣٨.

(٣) تصحف البيت في الأصل، وأقمته من المصادر. والبيت لأبي النجم العجلي، انظر: الكشف والبيان ١٨/ ١٩، البسيط ١٤/ ٤٤٠، ومحل الشاهد فيه: أنه أراد عليهن، وعليها.

(٤) الكشف والبيان ١٨/ ١٩،

(٥) البيت لعبد الله بن قيس الرقيات، وهو في ديوانه ص٦٦، وانظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦٣، الكشف والبيان ١٨/ ٢٠، البسيط ١٤/ ٤٤١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦٣.

(٧) الكشف والبيان ١٨/ ٢٠.

وقرئ: «إنَّ هذين لساحران»[١].

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ وخداعهما ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ العدل، والطريقة: يراد بها الدين، وقد يراد بها الرجال أيضًا، يقال: هؤلاء طريقة قومهم، ونظيرة قومهم، ونظورة قومهم، أي: أشرافهم[٢].

وقال بعضهم: إنَّما اختاروا «هذان» بالألف لأنَّ كلمة هذا اسم ضعيف، لأنه قائم علىٰ حرفين: الذال والألف الذي هو حرف العلة، وأما الهاء فحرف نداء وليس من الاسم في شيء، فلا يمكن في حال التثنية إسقاط الألف الأصلية، فأسقطوا ألف التثنية وجعلوا النون عوضًا عنه، إذ لا يمكن الجمع بين الألفين الهوائيين، فكأن[٣] النون هاهنا علمًا للتثنية في هذا الاسم خاصة، ولا يقاس عليه غيره، ولهذا لا تسقط في حال الإضافة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أثبت النون مع الإضافة، ولو لم تكن النون علمًا للتثنية لحذفها، كقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ ولو حذفوها لوقع الاشتباه بين التثنية والواحد، ولا يثنَّىٰ بالياء في النصب والجر، لأنَّ الياء تعاقب الألف في التثنية ولا تعاقب النون، وهذا الألف ليس يعلم للرفع حتىٰ يسقط، فإذا لم يكن الألف علمًا للرفع لم تكن الياء علمًا للنصب والجر، فتركوا التثنية في جميع الوجوه بالألف كما تركوا علىٰ حالها كلمة «الذين» بالياء في جميع الوجوه، والله أعلم[٤].

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو كما سبق ذكره.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٤.

(٣) في الأصل: فكان، ولذا ضبطتها: فكأن، وقد يكون الصواب: فكانت، ولكنه أسقط التاء.

(٤) أشار إليه الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٨٤، وقد بسط العاصمي القول علىٰ هذه الآية في مقدمة كتاب المباني لنظم المعاني، وهو مطبوع بتحقيقي، والحمد لله.

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ يقول: اعزموا علىٰ كيدكم مجمعين ولا تختلفوا ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ أي: الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم صافِّين ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ أي: غلب صاحبه.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يعني السحرة قالوا لموسىٰ ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾ أنت تلقي أم نحن أولاً؟

﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ أنتم حتىٰ أنظر إلىٰ ماذا يصير سحركم، فألقوها ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ أي: يُخيَّل إلىٰ موسىٰ ﴿أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ حين رأىٰ الجبال والعصي تسعىٰ، ولم تسع في الحقيقة.

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ أي: وجد خوفًا في نفسه حين رأىٰ الحبال والعِصي تسعىٰ ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ أي: أنت الغالب لهم، قال: إنما خاف موسىٰ لأن الحبال والعصي يُخيَّل إليه أنها تسعىٰ ولها نفخ كنفخ الأفاعي ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ أي: تلتقم ما صنعوا وتبتلع كل العصي والحبال لقمة، فألقاها والتقمت جميع ذلك بلقمة في طرفة عين، ورفعت رأسها فوق رؤوس الناس مائلة رأسها، فازدحم الناس فرقًا منها، فقتل يومئذ خمس وعشرون ألف رجل، وقيل: ماتوا فرقًا[(١)].

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾ أي: عمل ساحر[(٢)] ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ أي: لا ينجو ولا يظفر ولا يسعد.

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ إذ رأوا كرامة الله لموسىٰ وبطلان سحرهم سجدوا لله،

---

(١) سبق في تفسير سورة الأعراف.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٣٧.

وكانوا خمسة عشر ألفًا، ومن سرعة سجودهم سمى[١] فعلهم: إلقاءً، كأنهم دفعوا في أقفيتهم.

وقيل: كانوا سبعين ألفًا، فأخذ موسىٰ عصاه فصارت إلىٰ حالها عصا.

و﴿قَالُوٓاْ﴾ السحرة ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ بالإيمان ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ أي: رئيسكم ومعلِّمكم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ كما يُفعل بقطّاع الطريق ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أي: علىٰ جذوعها ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ علىٰ وجه التهديد ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۝٧١﴾ أي: أدوم عذابًا أنا أم رب موسىٰ.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لم نختر طاعتك علىٰ طاعة الله بعدما رأينا الحجة ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ أقسموا بربهم عز وجل ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ اصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢﴾ انتصب الحياة بسقوط حرف الصفة، وهي: في[٢].

يعنون: الدنيا فانية منقضية، أي: لا سلطان لك علينا بعد القتل والموت، وعذاب الآخرة باقية ونعيمها دائمة.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ إنه واحد لا شريك له ﴿لِيَغۡفِرَ لَنَا﴾ ربنا ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: شركنا ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ أي: يغفر ما أكرهتنا عليه ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ﴾ لنا منك ﴿وَأَبۡقَىٰٓ ۝٧٣﴾ عذابًا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ أي: مشركًا ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤﴾ أي: لا يموت فيستريح ولا يحيىٰ حياة يستلذ بها ﴿وَمَن

---

(١) في الأصل: سميت.

(٢) المعربون علىٰ أن الحياة الدنيا مفعول به علىٰ الاتساع (التبيان ٢/ ٨٩٧، الدر المصون ٨/ ٧٩).

يأته مؤمنا قد عمل الصالحات﴾ مع إيمانهم ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى ﴿٧٥﴾﴾ المراتب في الجنان الرفيعة ﴿جنات عدن﴾ دار مقامة ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ من غير أخدود ﴿خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴿٧٦﴾﴾ أي: هذا ثواب من آمن وصدَّق بالرسل، كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ اذهب بهم ليلاً وأدلج من أرض مصر ﴿فاضرب لهم﴾ أي: بيِّن لهم ﴿طريقا في البحر يبسا﴾ أي: ذا يبس نعته بالمصدر[١] ﴿لا تخاف دركا ولا تخشى ﴿٧٧﴾﴾ الغرق.

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده﴾ أي: أتباعه ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴿٧٨﴾﴾ أصابهم من اليم ما أصابهم، وقيل: علاهم ما علاهم ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿٧٩﴾﴾ أي: دعاهم إلى الضلال وقد وعدهم الإرشاد، حيث قال: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴿٢٩﴾﴾ وما هداهم، وقيل: عرضهم على الغرق وما هداهم سبيل النجاة[٢].

﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم﴾ فرعون وقومه ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ يعني به السبعين الذين اختارهم موسى للطور لإعطاء التوراة، والأيمن: يمين موسى عن مقاتل، ويمين الجبل عن الكلبي[٣].

﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴿٨٠﴾﴾ في التيه وتقدم تفسيرهما.

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: قلنا لكم كلوا ﴿ولا تطغوا فيه﴾ أي: لا تعصوا بأن ترفعوا للغد ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ أي: ينزل عليكم سخطي ﴿ومن يحلل عليه غضبي﴾ أي: من وجب عليه عذابي ﴿فقد هوى ﴿٨١﴾﴾ أي: هلك.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦٩، التبيان ٢/ ٨٩٨.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٧، البسيط ١٤/ ٤٨٠.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من الصلوات والصيام ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ أي: عرف أن لها ثوابًا، وقيل: اهتدىٰ استقام علىٰ السُنَّة[1].

فلما سار موسىٰ بالسبعين إلىٰ الجبل عجَّل شوقًا إلىٰ ربه، وخلف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه، خاطبه ربه فقال: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾ أي: ما حملك علىٰ قدومك قبلهم ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يأتون بعدي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ أي: سبقت إليك لشدة اشتياقي إلىٰ تُحفك وكراماتك لترضىٰ ما نويته وقصدت إليه، وقيل: سبقت إليك لتزداد عني رِضَىٰ[2].

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ فيه قولان:

الأول: أهلكنا قومك بعبادة العجل وألزمناهم الآثام.

والثاني: أهلكناهم مجازاة لقولهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والمعنىٰ: ابتليناهم بعد انطلاقك إلىٰ الجبل[3].

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥﴾ أغواهم لأنه كان سببًا لضلالتهم.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: حزينًا جزعًا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: صدقًا وهو: أربعون يومًا لإعطاء التوراة ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أفجاوز الأجل فصنعتم ما صنعتم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ

(١) أي لزم الطريق، وقيل: لم يشك، تفسير الطبري ١٨/ ٣٤٧، وهاهنا نقل القرطبي عن الكلبي تفسيره السردي، وقل ما فعل ذلك فقال: عن الكلبي: وإني لغفار لمن تاب: من الذنب، وآمن: من الشرك، وعمل صالحًا: أدىٰ ما افترضت عليه، ثم اهتدىٰ: عرف مثيبه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٨، زاد المسير ٣/ ١٧١.

(٣) زاد المسير ٣/ ١٧١.

﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: يجب عليكم عذاب ربكم فصنعتم ذلك ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ۝﴾ الذي قلتُ لكم: لا تحدثوا بعدي حدثًا حتىٰ أرجع إليكم.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ وعدك إنْ قرئ بالضم[1]؛ والملك: بالكسر ما حوته اليد[2] ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: أحمالاً من حلي القوم يعني آل فرعون ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ طرحناها في النار، وكان ذلك الحلي أخذوا من آل فرعون حين طرحهم الماء إلىٰ الساحل، وقيل: سماها أوزارًا لأن الغنيمة حرام عليهم وهو جمع وزر[3] ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ۝﴾ القبضة التي أخذها من أثر الرسول كما ألقينا، فإذا خلص الذهب صورة السامري وألقىٰ عليه القبضة في أنف العجل -وقيل في فِيه ودبره- حيي وخار، فذلك قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝﴾[4].

وقال مجاهد: كان العجل مشبكًا وكان الخوار حفيف الريح[5].

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ من النار ﴿عِجْلًا﴾ صغيرًا ﴿جَسَدًا﴾ أي: مجسدًا ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾

---

(١) قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم: بفتح الميم من: بملكنا، كما أثبت، وقرأ حمزة والكسائي بضمها: بمُلكنا، وقرأ الباقون بكسرها: بمِلكنا (النشر ٢/ ٣٢٢).

(٢) بالكسر: أي ما تعمدنا ذلك، والضم: أي ما فعلناه بسلطان ولا قدرة، وبالكسر: ما حوته اليد (تفسير الطبري ١٨/ ٣٥١، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧١، تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٨، البسيط ١٤/ ٤٩١، الكشاف ٣/ ٨٢).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٢.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥٥، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٢.

(٥) لم أجد أول قول مجاهد، في وصفه العل أنه مشبك، إنما نقلوا عنه وصف الخوار (معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٢، البسيط ١٤/ ٤٩٩)، وقوله مشبك: أي فيه خروق، كما في الرواية التي نقلها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٣٥.

وقيل: إن العجل لما ألقىٰ عليه من أثر فرس جبريل صار عجلا من لحم ودم، والله أعلم.

وليس فيه روح ﴿فَقَالُواْ﴾ السامري[١] ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ فعبدوه.

وكان من غاية جهلهم عبدوه؛ لأنه ليس في خوار العجل المجعول من ذهب ما يوجب العبادة، لأن العجاجيل التي تخور أكثر من أن تُحْصَىٰ.

قوله ﴿فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ قيل: هذا قول السامري[٢]، أي: هو إلٰه موسىٰ فنسي أي: أخطأ الطريق، فوقع موسىٰ في طريق[٣] وإلٰهه في طريق آخر[٤].

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما: معنىٰ قوله فنسي أي فكفر السامري، وهذا قول الله، وقال: نسيان السامري كُفر، ونسيان آدم ترك، ونسيان يوشع أمر الحوت نسيان[٥].

وقيل: نسي ما كان عليه من الإيمان فنافق[٦].

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ قرئ: يرجعُ بالضم ومعناه[٧]: أنه لا يرجع[٨]، وقرئ بالنصب بكلمة[٩] أنْ، ومعناه: لا يرد عليهم كلامًا[١٠].

---

(١) في الأصل: فقال السامري، كتبها بالحمرة علىٰ أنها قرآن.

(٢) وهو قول الجمهور، تفسير مقاتل ٢/ ٣٣٨، تفسير الطبري ١٨/ ٣٥٦، تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٩، وقيل: إن هذا من خبر الله عن السامري، رواه ابن جرير في تفسيره ١٨/ ٣٥٦، عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٣) في الأصل: الطريق.

(٤) الكشف والبيان ١٨/ ٤٦.

(٥) لم أجده بهذه الصياغة.

(٦) أي السامري.

(٧) كررها في الأصل مرتين.

(٨) وتكون أن في قوله: «أن لا» المخففة من الثقيلة (الكشاف ٣/ ٨٣).

(٩) في الأصل: لكلمة.

(١٠) القراءة بالرفع، وأما قراءة النصب فشاذة، ذكرها في الكشاف ٣/ ٨٣، التبيان ٢/ ٩٠١، الدر المصون ٨/ ٩١، نسبها السمين لأبان وأبي حيوة والشافعي.

[﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾].

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ قدوم موسىٰ ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: ابتُليتم بخوار العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ الذي رحمكم ونجاكم من سحرة فرعون ومن الغرق ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ اسلكوا طريقي ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ واتركوا عبادة العجل ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ﴾ أي: لا نزال نعبده مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ فإن تركنا عليه عبدناه، وإن نهانا انتهينا، فلما رجع موسىٰ ورآهم علىٰ عبادة العجل غضب وألقىٰ الألواح، وانكسرت، وصعدت عامة الكلام التي فيها إلىٰ السماء، ثم أعيدت في لوحين من زبرجدة، وقيل: من ياقوتة حمراء عشرة أذرع علىٰ طول قامة موسىٰ.

و﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾﴾ بعبادة العجل ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: ما دعاك إلىٰ أن لا تتبعني ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ تركت وصيتي، لأنه أوصاه: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ الآية، فأخذ موسىٰ ضلالة الدين وتحير في محبة الله وبغض عبادة غيره، حتىٰ صار كالسكران(١)، وأخذ بلحية هارون ورأسه يجره إليه ليلقيه علىٰ الأرض فيخبطه(٢).

فـ ﴿قَالَ﴾ له هارون ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ إنما رفقه بهذه الكلمة ليتخلص عن بطشه، عن ابن عباس.

---

(١) ما كان يجوز له أن يشبه حال كليم الله بما شبهه به، وإن كان المقصود منها المبالغة، فمقام أنبياء الله أعظم من أن يشبه بمقام سوء، وأي بيان يريد عن حاله بعد بيان الله له، حين وصفه: غضبان أسفا!.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٠.

وقوله: «يا ابن أم» بالكسر على الإضافة، وبالنصب[١] على أنهما اسمان صيرا اسمًا واحدًا[٢].

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ أن تركت مناجزتهم ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن يتفرقوا أحزابًا فيقتل بعضهم بعضًا فـ ﴿[أَن] تَقُولَ﴾ أنت ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعد اجتماعهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ لم تحفظ وصيتي.

وقيل: لم تقبل وصيتي[٣].

فترك موسىٰ هارون وأقبل على السامري و﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي: شيء حملك على ما صنعت ﴿قَالَ﴾ السامري ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ يعني: أثر جبريل من البصر، وقيل: علمت بما لم تعلموا به من البصارة، يقال: بصر الرجل إذا علم[٤] ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ أي: كفًا من التراب ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: أثر حافر فرس جبريل. القبضة: ملء الكف والقبصة -بالصاد-[٥]: ما يؤخذ من أطراف الأصابع ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ أي: زيَّنت وألقى في فكري حين سمعت قومك إذ عبروا البحر وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: اجعل لنا إلـٰهًا كما لهم آلهة، فلا تلمني ولُمهم.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما عشت ﴿أَن تَقُولَ لَا

---

(١) فقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر شعبة بكسر الميم، وقرأ الباقون بفتحهما فيهما (النشر ٢/ ٢٧٢).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٣.

(٣) زاد المسير ٣/ ١٧٣.

(٤) ملخص من معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٤.

(٥) معني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٤، الكشاف ٣/ ٨٤. وبالصاد قراءة شاذة نسبت لبعض السلف، تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٠. وفي الأصل كتبها بالضاد، وهو تصحيف.

مِسَاسَۖ﴾ وحرم مخالطة السامري عقوبة له، لأنه في الخبر: أنه كان يدور ويهيم في البرية مع الوحش ويصيح ويقول: لا مساس.

وقيل: إن موسىٰ قصد قتله فزجره جبريل عن ذلك، لأنه كان رجلاً سخيًا مضيافًا مُنْفِقًا علىٰ الناس(١)، وخاف موسىٰ أن لو تركه يضل بني إسرائيل مرة أخرىٰ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إني أبتليه بوساوس لا يخالط الناس ولا يخالطونه، فابتلي بالوسواس، وأصل الوسواس قيل من ذلك الوقت(٢).

وقيل: بقيت منهم بقية يشبهون اليهود ويسبتون السبت ويقرؤون التوراة، يبغضهم اليهود وهم يبغضون اليهود، ويقولون: لا مساس، وراثة عن السامري، وموطنهم الأردن وفلسطين.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ وهو النار في الآخرة، لا يخلف الله وعده ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ معبودك ﴿ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ وأصله: ظللت، ولكن حذف اللام لثقل التضعيف والكسر، لأن الكسر أصل الحركات، وبقيت الظاء علىٰ فتحها(٣)، ومعناه: أقمت علىٰ عبادته ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار مرة بعد مرة.

وقرئ: «لَنَحرُقنه»(٤) بنصب النون ورفع الراء: لنبردنَّه بالمِبرد(٥).

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾ لنذرينه في البحر ذروًا، جاء في الخبر أن موسىٰ حرق العجل ونسفه في البحر، وأمرهم أن يشربوا من ماء البحر، فمن عبد العجل اسودَّتْ شفتُه ومن لم يعبد لم يضره.

---

(١) وهذا من الإسرائيليات، انظر: الكشف والبيان ١٨/ ٥٢، البسيط ١٤/ ٥٠٩.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٥.

(٤) وهي قراءة أبي جعفر وابن محيصن والعقيلي (الكشف والبيان ١٨/ ٥٤، النشر ٢/ ٣٢٢).

(٥) الكشف والبيان ١٨/ ٥٤، البسيط ١٤/ ٥١٤..

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ أي: يعلم كل شيء وأحاط علمه به، وهذه لفظة عجيبة في الفصاحة، وقد انتهت قصة بني إسرائيل.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ من الأمم السالفة كما قصصنا هذا عليك يا محمد ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ أي: علمًا، وقيل: شرفًا[1].

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ﴾ أي: كفر بالقرآن ولم يشكره ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ أي: يستوجب إثمًا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ أي: في الوزر وعذابه ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾ على أعناقهم.

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ نفخ القيام والبعث ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢﴾ مزرقة العيون، سود الوجوه، وقيل: زرقًا أي: عطاشًا، لأنَّ سواد أعينهم يتغير من شدة العطش، وقيل: عميًا[2].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يتسارون بينهم كلامًا خفيًا في الموقف ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ والكل كذبوا.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ وإنما سأله وفد ثقيف: كيف تكون الجبال يوم القيامة[3]؟.

﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ أي: يصير الجبال كالهباء المنثور، يذريها

---

(١) وهو القرآن الكريم كما في تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٨.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٩.

(٣) وهو قول مقاتل، كما في تفسيره ٢/ ٣٤١، ونقله أبو الليث في التفسير ٢/ ٤١٢، وهو ضعيف، فالسورة مكية.

الرب تذرية، وقيل: يقلعها قلعًا من أماكنها ﴿فَيَذَرُهَا﴾ يعني الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ مستويًا ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ لا خفضًا ولا رفعًا، والنسف: القلع، يقال: نسف البعير النبت إذا قلعه بأصله[١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ أي: يجيبون إسرافيل حين ينفخ في الصور من صخرة بيت المقدس ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يقدرون أن يتعوجوا عن سمت الداعي، ولا يميلون يمينًا ولا شمالاً ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ذلت وسكنت لهيبته الأصوات ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ يعني: كلامًا خفيًا، وقيل: نفس الأفواه ووطء الأقدام[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ أي: أمر ﴿لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالشفاعة لمن شاء من الآدميين والأنبياء والملائكة والصالحين ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: لا يشفعون إلا لمن رضي الله قوله، وهو قول: لا إله إلا الله مخلصًا.

ثم ذكر ضعف الملائكة حين قال الكفار: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قبل خلقهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما يكون وما كان بعد خلقهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: الملائكة لا يحيطون بشيء من علم الله فيما مضىٰ، وما بقي، ومتىٰ قيام الساعة.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت واستسلمت خضوع الأسير في يد المالك القاهر، ويقال للأسير: عانٍ، وقيل: هو وضع الجبهة والأنف علىٰ الأرض في السجود[٣].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٢، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧، الكشف والبيان ١٨/ ٥٩،
(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٢.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٧٦، معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧، تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ أي: خسر من حملا شركًا، وقيل: خسر من حمل ذنب غيره بما ظلمه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني الصالحات، و«مِنْ» زيادة وصِلَة[1] ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالتوحيد ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا [وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾]﴾ في الآخرة، والظلم: هو الزيادة في السيئات علىٰ ما عمله، والهضم: النقصان من الحسنات[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ﴾ أي بيَّنا ﴿مِنَ﴾ الأخبار و ﴿ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ الوعيد ﴿ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ يذكرون العذاب فينزجرون عن المعاصي.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تعظم الله عن الشريك والولد من أن يظلم أحدًا ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: لا تسأل إنزاله من قبل أن يأتيك وحيه، وقيل: كان جبريل إذا فرغ من الآية كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يأخذ رأس الآية قبل أن ينتهي جبريل [إلىٰ] آخرها مخافة النسيان، فنهاه الله عز وجل عن ذلك[3].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ أي: فهمًا وحفظًا للقرآن.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ وفي الجنة بأن لا يأكل الشجرة ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ترك عهدنا، فلا تكن أنت يا محمد مثله ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ والعزم:

---

(١) «من» هذه من رحمة الله علىٰ عباده، فإن من فائدة ذكرها أن الصالحات أنواع كثيرة، وأجناس متعددة، وقد لا يستطيع المرء أن يأتي بها كلها، فأفادت من أن من اقتصر علىٰ بعضها يدخل الجنة، وهذه هي الحكمة من تعدد شعب الإيمان، فمن لم يستطع علىٰ شعبة الصدقة أخذ بشعبة الجهاد، ومن لم يستطع علىٰ هذه أخذ بغيرها، وهكذا حتىٰ يدخل الجنة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣، وهو قول الكلبي، كما في البسيط ١٤/ ٥٤٠.

الإرادة المتقدمة لتوطين النفس علىٰ الفعل[١]، أي: لم نجد له علىٰ ذلك صريمة وجزمًا، ولكن لم يكن له بد من الأكل لأنه مخلوق للأرض.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ عن السجود ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: لا يحملنكما علىٰ عمل تستوجبان الإخراج من الجنة ﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أي: تتعب بعمل كَفَّيْك، ولا تأكل إلا كداً بعد نِعَم الجنة[٢].

قال ابن عباس: لما أخرج آدم من الجنة أوحىٰ الله إلىٰ الأرض: حرام عليكِ أن تطعمي آدم من نباتك إلا برشح الجبين[٣].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ أي: في الجنة، ولا تعرىٰ من اللباس.

قيل: كيف وقد عري من لباس الجنة بعد أكل الشجرة، والله تعالىٰ نفىٰ عنه العُري في الجنة؟.

والجواب: إنَّ حقيقة العُري بدو العورة في عين الناظر، وقد بدت عورتهما في عينهما لا في عين غيرهما، قال الله تعالىٰ: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ولم ير عورتهما غيرهما.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟﴾ أي: لا تعطش ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي: لا يصيبك حر الشمس وضررها لأنك في ظل الجنة.

---

(١) البسيط ١٤/ ٥٤٣.

(٢) مثله في تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥، وفي الأصل كرر إلا مرتين.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨٥، تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في أكل الشجرة ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ إذا أكلت منها بقيت في الجنة مخلدًا ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: لا يبدو ولا ينقطع.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ آدم وحواء ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ رأىٰ كل واحد منهما عورة صاحبه ﴿وَطَفِقَا﴾ أي: عمدا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي: يلزقان عليهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ أي: ترك أمر الله ولم يصب ما أراد، وخاب عما طلب وهو الخلود.

قال الواسطي: أظهر خلافًا ثم أدركه الاجتبائية، ليعلم أن العصيان لا يؤثر في الاجتبائية، فزال عنه مذلة العصيان بالاجتبائية.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره لرسالته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ من ذنبه ﴿[وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾]﴾ وهداه للتوبة.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ انزلا من الجنة: آدم وحوىٰ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: مهما يأتينكم مني كتاب أو رسول يا ذرية آدم ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ أي: آمن بكتابي ورسلي ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: من أعرض عن كتابي ورسولي فلم يؤمن؛ جعلت له معيشته [ضنكا]، والضنك: هو الضيق(١).

قال ابن عباس: يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي إليها(٢).

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٨.

(٢) لم أجده، وفي المعيشة الضنك أقوال، ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣١).

وقيل: هو عذاب القبر(١).

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ عن الحجة، لا حجة له عند الله تعالىٰ(٢).

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ ضالاً بلا حجة ﴿وَقَدْ كُنتُ﴾ [في] الدنيا ﴿بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ في محاورتي واحتجاجي.

وقيل: يخرج الكافر من القبر بصيرًا فإذا سيق إلىٰ المحشر عمي، قال: رب لما حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيرًا عند خروجي من القبر.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ كتبنا ورسلنا فلم تأتمر(٣) بها ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: تُتْرَك في النار(٤).

وقيل: الآية نزلت فيمن تعلَّم القرآن ثم تركه حتىٰ نسي ولم يعمل به.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ أي نعاقب ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي أشرك بالله ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ وأدوم من عذاب الدنيا.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أفلم نبين لقومك ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ﴾ يمرون في منازلهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في هلاكهم ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ ليحذروا من مثل عقوباتهم.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره ١٨/ ٣٩٢، عن أبي سعيد الخدري وطائفة (تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٦، البسيط ١٤/ ٥٥١). وهو الذي رجحه ابن جرير.

(٢) زاد المسير ٣/ ٤٣١.

(٣) في الأصل: تامر.

(٤) البسيط ١٤/ ٥٥٣.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عن أمتك إلىٰ أجل مسمىٰ وهو القيامة ﴿لَكَانَ لِزَامٗا﴾ أي: العذاب كان لازمًا لهم [﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾] علىٰ التقديم والتأخير لموافقة أواخر الآيات(١).

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك من التكذيب والتسخير ويرمونك بالجنون ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ بأمر ربك وتوفيقه ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ صلاة الفجر ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاته ﴿فَسَبِّحۡ﴾ له وهو المغرب والعشاء ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ قال أبو سهل: أراد صلاة التطوع ركعتين، أو أربعًا، أو ستًا، وتمامها: اثنتا عشرة ركعة، ومن صلَّاها بنىٰ له بيت في الجنة أوسع من الدنيا(٢).

قال المفسر الكبير: لم يقرن الله تعالىٰ التطوع بالفريضة في موضع من القرآن إلا هاهنا.

﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ أي: لتصير في الآخرة راضيًا بما تُعطَىٰ من الشفاعة والكرامة في الجنة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أي: لا تنظر بعينيك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: أعطينا من المال رجالاً منهم، يعني أهل مكة ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنها من زهرة الدنيا وغرورها، والزهرة: الزينة ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ أي: منحناهم(٣) لنختبرهم به ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾ في الآخرة ﴿خَيۡرٞ﴾ وأفضل ﴿وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ وأدوم مما أعطينا كفار مكة.

---

(١) والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمىٰ لكان لزاما، قال الواحدي: هذا قول الجميع (البسيط ١٤/ ٥٥٥).

(٢) يشير إلىٰ حديث أم حبيبة في صحيح مسلم (٧٢٨): «من صلىٰ اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة، بني له بهن بيت في الجنة».

(٣) في الأصل: منعناهم، وهو تصحيف أحال المعنىٰ.

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أمتك بالصلوات الخمس ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ على أدائها بتمامها ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ أي: لا نأمرك أن تكتسب وتنفق على عيالك ونفسك ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ وعيالك ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ أي: الجنة للمتقين، أقام الفعل مقام الفاعل.

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني الكفار ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ علامة لنبوته ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾ أي: بيان ما في التوراة والإنجيل من بعثه وصفته.

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ﴾ في الدنيا ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: نزول القرآن وإرسال محمد ﴿لَقَالُواْ﴾ عند نزول العذاب ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ قال الضحاك: من قبل أن نُقتل ببدر ونعذب يوم القيامة، والآن قد أتاهم الرسول والكتاب وذهبت حجتهم.

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ﴾ أي: كلا الفريقين منتظر لهلاك أصحابه ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ أنتم بهلاكنا ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ إذا نزل العذاب بكم ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: الدين المرضي نحن أم أنتم، وهذا مختصر من ضل عن الطريق ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ أي: خرج من الضلالة.

قال عبد الحميد الحاكمي رحمه الله: بلغنا عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأ سورة طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»(١).

❁ ❁ ❁

(١) موضوع، رواه المستغفري في فضائل القرآن ١١٨٧.

الفهرس

سورة الأعراف ٥
سورة الأنفال.. ٦٩
سورة التوبة ٩٩
السورة التي ذكر فيها يونس ١٤٧
سورة هود ١٧٩
سورة يوسف ٢١٥
سورة الرعد ٢٥٥
سورة إبراهيم عليه السلام ٢٧٥
سورة الحجر ٢٩١
سورة النحل ٣٠٩
سورة بني إسرائيل ٣٤٧
سورة الكهف ٣٩٥
سورة مريم ٤٤١
سورة طه ٤٦٧